الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



ليزا سي

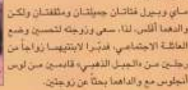
LISA SEE

فتاتان من شنغهاي

رواية

بعد روايتيها «زهرة الثلج» و«موعد مع القدر»، تتحفنا ليزا سي برواية «فتاتان من شنغهاي»، والتي تدور أحداثها في العام 1930 حول فتاتين غادرتا مدينتهما شنغهاي بحثاً عن حياة جديدة في لوس أنجلوس.





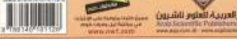
ماي وبيرل فتاتان جميلتان ومثقفتان ولكن والدهما ألقس. لذا، سعى وزوجته لتحسين وضع العائلة الاجتماعي، فدبّرا لابنتيهما زواجاً من رجلين من «الجبل الذهبي» قادمين من لوس أنجلوس مع والداهما بحثاً عن زوجتين.

ولكن، وبعد مغادرة الأختين للصين ووصولهما إلى جزيرة أنجلز، احتُجزتا وتمّ استجوابهما وإهانتهما لأشهر عدة، حيث شعرتا بوطأة ومرارة ترك ديارهما. وتفاقم يأسهما عندما اكتشفت بيرل أن ماي حامل. عندها، عقدت الأختان اتفاقاً سرياً بينهما لا يمكن لأحد معرفته.





إنها رواية شيقة حول أختين وثقافتين، والنضال لتأسيس حياة جديدة في أميركا في ظل التقاليد الصينية الأصيلة الموروثة.




الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

www.nwf.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Shanghai Girls

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Random House, an imprint of the Random House Publishing Group,
a division of Random House, Inc., New York

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0112-8

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

القسم الأول

القدر



الفتيات الجميلات

يتجاهل والدي، وهو جالسٌ إلى مائدة الطعام، طبق الحساء الموضوع أمامه، ويتذمّر قائلاً: "إن ابنتنا تبدو كفلاحة من فلاحات جنوبي الصين بهذين الخدين المتورّدين. ألا يسعك أن تجدي لهما حلاً؟".

تحدّق أمي إلى والدي وتلتزم الصمت. فماذا يسعها أن تقول له؟ إذ ربما يكون وجهي متمتعاً بقدر كافٍ من الجمال، وقد يقول البعض إنه جميل، ولكنه ليس مشرقاً وصافياً كما يوحي معنى اسمي، وهو بِرل (أي لؤلؤة). إذ إن وجنتيّ تميلان إلى الاحمرار لأتفه الأسباب. وفوق ذلك، فهما معرضتان للاحمرار بسبب أشعة الشمس. منذ بلغت الخامسة من عمري، بدأت أمي تفرك وجهي وذراعيّ بمستحضر تجميل مكوّن من اللآلئ المطحونة، وتمزج مسحوق اللآلئ بعصيدتي الصباحية على أمل أن يتسرب جوهرها الأبيض إلى بشرتي، لكن ذلك كله لم يجد نفعاً. أنا جالسة الآن ووجنتاي تتوهجان كالجمر، وهذا بالضبط ما يكرهه والدي. فأغوص داخل مقعدي من فرط خجلي. وغالباً ما تنحني كتفاي عندما أجلس قربه، ولكنني أفعل ذلك أكثر في المناسبات التي يبعد فيها والدي نظره عن أختي لينظر إليّ. إني أطول قامة من والدي، وهذا ما يغيظه أشد الغيظ. إذ إننا نعيش في شنغهاي حيث توحي العربة الطويلة والجدار العالي والبناء الشاهق أن مالكها شخص ذو أهمية كبرى، ولكني لستُ شخصية مهمة.

يرتدي والدي بذلة رمادية غربية الطراز ذات تفصيل متقن، وتلوح بعض خصلات الشعر الأبيض على رأسه. لقد بدا القلق واضحاً عليه في الآونة الأخيرة، ولكنه الليلة يبدو أكثر قلقاً من المعتاد. فربما لم يفز حصانه المفضل في السباق، أو رفض الحظ أن يكون حليفه في لعبة النرد. يتابع والدي كلامه قائلاً: "إنها تظنُّ نفسها ذكية، ولكنَّ الميزة الوحيدة التي تفتقر إليها هي الذكاء".

إنه انتقاد نموذجي مقتبس من حكم كونفوشيوس الذي كتب: "إنَّ المرأة المثقفة امرأة عديمة القيمة". يقول الناس إني مولعة بالقراءة، ولكنَّ ذلك لا يعتبر صفة إيجابية مع أنثى في العام 1937. وبالرغم من رجاحة عقلي وفطنتي، إلاّ أنني لا أزال أعجز عن حماية نفسي من انتقاد والدي.

تتناولُ معظم العائلات الصينية الأخرى طعامها على طاولة طعام دائرية لتبقى العائلة كاملة ومتواصلة. أما نحن فطاولة طعامنا خشبية ومربعة الشكل تحتلُّ حيزها في الموقع نفسها دائماً. فيجلس والدي إلى جانب ماي على أحد جانبي الطاولة، بينما تجلس أمي قبالتها تماماً لتشارك والدي صحبة أختي بالتساوي. وهكذا، تذكّرني كل وجبة يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام أنني لستُ المفضلة لديهما ولن أصبح كذلك أبداً.

بينما يواصل والدي انتقاد عيوبي، أتململ وأتظاهر بالاهتمام بغرفة الطعام. فعلى الجدار المحاذي للمطبخ، توجدُ أربع لوحات معلقة تمثل الفصول الأربعة، ولكنها غير موجودة هذه الليلة مما يترك ظلالاً قاتمة على الجدار. إنها ليست الأشياء الوحيدة المفقودة. فقد اعتدنا أن تكون لدينا مروحة سقف، ولكنَّ والدي قرر أن يضفي جواً أشد ترفاً، فأمر الخدم أن يقوموا بتهويتنا بالمراوح ونحن نتناول طعامنا، ولكنهم

غير موجودين الليلة، وهذا ما يجعل الحر في الغرفة شديداً. وعادةً، تضاء الغرفة بثريا فنية مزخرفة ومصابيح جدارية مصنوعة من الزجاج الأصفر والحديد المنقوش، ولكن هذه أيضاً مفقودة. لم أعر انتباهاً إلى أيٍّ من هذه التفاصيل ظناً مني أن اللوحات قد أزيلت لمنع حوافها الحريرية من الالتفاف بتأثير الرطوبة، وأن والدي قد أعطى الخدم إجازة لهذه الليلة للاحتفال بزفاف أو بمناسبة مع عائلاتهم، وأن الثريا قد أزيلت بشكل مؤقت بهدف تنظيفها.

أحضر طاهينا، الذي ليست لديه زوجة ولا أولاد، أوعية الحساء من الطاولة، وأحضر لنا أطباق القريدس مع كستناء الماء واللحم المطهي بصلصة الصويا مع الخضار المخللة وبراعم الخيزران وسمك الأنكليس المطهي بالبخار وطبق خضار وأرز، ولكنَّ شدة الحرّ أفقدتني شهيتي. أفضّلُ لو أعطى بضع رشفات من عصير الخوخ الحامض البارد أو أتناول حساء الفاصولياء الخضراء الحلوة المنكّه بالنعناع البارد أو عصيدة اللوز.

تقول أمي: "لقد طلب مصلّح السلال مبلغاً كبيراً اليوم"، وعندئذ أسترخي وأتنفس الصعداء. فإن كان من المتوقع أن يسمعني والدي عبارات الانتقاد، فمن المتوقع بشكل مماثل أن تبدأ أمي بالتذمر والشكوى من متاعبها. تبدو أمي اليوم أنيقة كعادتها بشعرها المصفف على هيئة كعكة مثبتة بدبابيس الزمرد في الجزء الخلفي من عنقها، وثوبها الكحلي الحريري ذي الكمين متوسطي الطول والذي تم تفصيله على يد الخياط خصيصاً ليناسب عمرها ومكانتها. تتزيّن أمي بسوار ذهبي مزين بقطعة يشب (جاد) واحدة جيدة، فيبدو صوت رنينه عندما يلمس الطاولة مريحاً ومألوفاً. والدتي امرأة ذات قدمين مربوطتين، مما يجعل بعض أساليب عيشها تقليدية إلى حدٍّ كبير. فهي

تسألنا عن أحلامنا وتوازن معنى وجوه الماء أو الأحذية أو الأسنان فيها على أنها مبشرة بالخير أو منذرة بالشر. كما أنها تعتقد بتأثير حركة النجوم في حياة الناس، مما يدفعها إلى أن تمدحني وماي أو تلومنا لتمتعنا بصفة من الصفات لأننا ولدنا في عامي التنين والخروف على التوالي.

تعيش أمي حياة موفورة الحظ. إذ يبدو زواجها المدبّر هادئاً إلى حدٍّ ما، فهي تمضي وقتها بقراءة المواعظ الدينية في الصباح، وتستقل عربة لتزور صديقاتها لتناول الغداء، وتلعب لعبة الماه جونغ الصينية التقليدية حتى وقت متأخر من اليوم، وتثرثر مع زوجات أخريات ذوات مكانة مماثلة لمكانتها الاجتماعية عن سوء الطقس وكسل الخدم أو عدم فعالية علاجاتهن المنزلية للحازوقة أو النقرس أو البواسير. ليس لدى أمي ما تقلق بشأنه، ولكن حزنها وقلقها المتواصلين يشوبان كل قصة ترويها لنا. إذ إنها تقول غالباً: "ليست هناك نهايات سعيدة". ومع ذلك، فهي امرأة جميلة ومشيتها الناعمة رقيقة كأغصان الخيزران الصغيرة المتمايلة مع نسيم الربيع.

تقول أمي: "إن ذلك الخادم الكسول في البيت المجاور يزعج الحي بأكمله برائحة قمامة عائلة تسو. أما الطاهي!"، تسمح لنفسها بهمسة استهجان خفيضة ثم تضيف: "فقد قدّم لنا القريدس بارداً جداً بحيث إن رائحته جعلتني أفقد شهيتي".

فلا نعارضها في ما تقول، ولكن الرائحة التي تخنقنا لا تأتي من قمامة الجوار ولا من القريدس القديم ولكن منها هي. فرائحة الدماء والقيح اللذين يتسربان من خلال الأربطة التي تحافظ على حجم قدميها الصغيرتين تعلق في أنفي وخاصة حين لا يكون الخدم موجودين الليلة ليحركوا الهواء في الغرفة.

بينما تواصل والدتي شكواها وبث أحزانها، يقاطعها والدي قائلاً: "لا تسمحي لابنتيك بالخروج هذه الليلة. فأنا أود التحدث إليكن".

يوجّه والدي حديثه إلى ماي، فتنظر إليه وترتسم على وجهها تلك الابتسامة الجميلة المعهودة. قد لا نكون فتاتين سيئتي الخُلُق، ولكننا أعددنا خططاً لهذه الليلة. وليست المحاضرة التي يلقيها والدي على أسماعنا عن كمية الماء التي نهدرها في الحمام أو عدم تناولنا كل حبة أرز في أطباقنا جزءاً من هذه الخطط. عادة، يستجيب والدي لجاذبية ماي بأن يبتسم لها وينسى همومه، ولكنه هذه المرة رمش بعينيه عدة مرات، وحوّل نظره إليّ، فغصت في مقعدي مجدداً. إنني أعتقد أحياناً أنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع فيها أن أظهر طاعتي لوالدي، أي بجعل نفسي صغيرة أمامه. وقد أعتبرُ نفسي فتاة عصرية من شنغهاي، ولا أعتقد بكل ما كانت الفتيات في الماضي يتعلمنه عن الطاعة والاحترام، ولكنّ الحقيقة هي أنني وماي، مهما كانا يعشقاننا، مجرد فتاتين عاجزتين عن الحفاظ على سلالة عائلتنا أو تبجيل والدينا عندما ينضمان إلى الأسلاف. إذ إننا نشكّل نهاية سلالة عائلة تشن، وعندما كنا صغيرتين جداً، دفعت قلة قيمتنا والدينا إلى عدم الاهتمام بتوجيه سلوكنا والتحكم بتصرفاتنا. إذ إننا لا نستحق العناء أو المجهود. ومؤخراً، حدث شيء غريب، فقد وقع والدي في حب ابنتهما الصغرى حباً جماً خالصاً، فسمح لنا هذا بالحصول على مقدار معين من الحرية. ونتيجة لذلك، أصبحت تصرفات أمي المدللة - بالإضافة إلى تحدينا السافر للاحترام والواجب - غالباً ما تُلاقى بالتجاهل التام. فما كان الآخرون يعتبرونه عقوقاً وعدم احترام، أصبحنا نحن ندعوه عصرياً ومتحرراً.

يقول لي والدي بنبرة حادة: "إنك لا تساوين قطعة نحاسية واحدة. ولا أعرف على الإطلاق كيف...".

"أوه يا أبي، توقف عن انتقاد بول. إنك محظوظ لأن لديك ابنة مثلها. وأنا أوفر حظاً لأني أحظى بها كأخت لي".

فنلتفت جميعاً إلى ماي. إذ عندما تتحدث ماي لا يستطيع المرء منع نفسه من الإصغاء إليها. وعندما تدخل إلى الغرفة، لا يسع المرء إلا أن ينظر إليها. فالجميع يحبونها، كوالديّ والصبية الذين يجرون العربات والمبشرين الذين يدرسوننا في المدرسة وأصدقائنا من الفنانين والسالوريين والأجانب الذين تعرفنا إليهم في الأونة الأخيرة.

تسأل ماي قائلة بنبرة لطيفة وناعمة كأجنحة الطيور الخفاقة: "ألن تسألاني عما فعلته اليوم؟".

هكذا لجعلي ماي أختفي عن نظر والديّ. وقد أكون أنا الأخت الكبرى، ولكن ماي هي التي تحتى بسي من نواح كثيرة.

تواصل ماي كلامها قائلة: "لقد ذهبت لمشاهدة فيلم في سينما ميتروبول، ثم ذهبت إلى شارع أفنيو جوفري لأشتري حذاء جديداً، ومن هناك توجهت إلى متجر مدام غارنيه في فندق كاثيه لأحضر ثوبي الجديد". ثم يكتسب صوتها نبرة لوم وهي تقول: "لقد قالت إنها لن تدعني أحصل عليه إلى أن تمر أروبها".

تقول أمي بلطف: "لا تحتاج الفتاة إلى ثوب جديد كل أسبوع، وهكذا، فمن الأفضل أن تتعلمي من أختك لأنها عملية جداً من هذه الناحية. إن الشيون لا يحتاج إلى الكشاكش والأشرطة".

فترد ماي قائلة: "ولكن أبي يستطيع تحمل النفقات".

يطبق والدي فكيه بإحكام، ويبدو الغيظ واضحاً عليه. أترى هل حدث ذلك بسبب شيء قالته ماي أم أنه يتأهب لانتقادي مجدداً؟ يفتح والدي فمه ليتكلم، ولكنّ أمي تقاطعه مجدداً.

"إننا لا نزال في الشهر السابع، وأصبحت الحرارة لا تطاق. متى سترسلنا إلى كوليغ، يا والدي؟ إنك وأمي لا تريدان أن نمرض، أليس كذلك؟ إن الصيف يحمل الكثير من الإزعاج على المدينة، ولهذا، فنحن نشعر بسعادة أكبر عندما نقضي هذا الوقت من السنة في الجبال".

تبعدني ماي ببراعة عن أسئلتها. إذ إنني أفضل أن يأتي ذكري في النهاية، ولكنّ كل ثرثرتها هذه ليست إلا وسيلة لتشتيت انتباه والديّ. فتنظر أمي إلى عينيّ، وتومئ إيماءة بسيطة، ثم تهبُّ واقفة وهي تقول: "هيا، يا بول، دعينا نستعد".

فأدفع كرسيّي إلى الوراء، وأنا أشعر بالامتنان لأنني أُنقذت من استهجان والدي.

يضرب والدي بقبضته على الطاولة، ويقول: "كلا". فتصطدم الأطباق ببعضها، وترتعش أمي من شدة المفاجأة، بينما أتجمد في مكاني. إن الناس القاطنين في شارعنا يعجبون بوالدي لفطنته التجارية وحنكته. فقد حقق حلم كل مواطن من مواطني شنغهاي وكل الذين أتوا إلى شنغهاي من أنحاء العالم ليجنوا ثرواتهم. إذ إنه بدأ من الصفر، وحوّل نفسه إلى شخص مهم. فقبل ولادتي، كان والدي يدير مشروعاً لعربات الأجرة في مدينة كانتون. لم يكن مالك المشروع، وإنما كان مقاولاً فرعياً يستأجر العربات بسبعين سنتاً في اليوم ثم يؤجّرها للمقاولين الأقل شأناً منه بتسعين سنتاً قبل أن يؤجّروها بدورهم للرجال الذين يجرون العربات بدولار في اليوم. وبعد أن جنى ثروة كافية، انتقل بنا إلى شنغهاي، وافتتح شركة العربات الخاصة به. لقد اعتاد والدي أن يقول إن شنغهاي تتيح فرصاً أفضل للعمل، وهذا ما يقوله ملايين الناس على الأرجح عن المدينة، ولكنه لم يخبرنا قط من أين جنى هذه الثروة أو كيف استحوذ على هذه الفرص. وليست لديّ الشجاعة الكافية لأسأله عن

ذلك. إذ يتفق الجميع، حتى أفراد العائلات، على أنه من الأفضل للمرء ألا يسأل أحداً عن ماضيه لأن كل شخص أتى إلى شنغهاي أتى إليها هرباً من شيء ما أو لأن لديه سراً ما يخفيه.

لا تبالي ماي بأي من هذه الأمور. أنظر إليها فتبدو وكأن لسان حالها يقول: *إنني لا أود أن أسمعك وأنت تقول إن شعري لا يعجبك. ولا أود أن أسمعك وأنت تقول إنك لا تريدني أن أظهر ذراعيّ أو قسماً كبيراً من ساقيّ. كلا، إننا لا نريد أن نحظى بوظيفتين نظاميتين بدوام كامل مثلك والسيدة، ولكن بالرغم من كل ما تقوله، فأنت رجل ضعيف ولا أريد أن أصغي إليك.* وبدلاً من ذلك، تقوم بمجرد إمالة رأسها وتنظر إلى والدي بطريقة تجعله عاجزاً أمامها. لقد تعلمت هذه الخدعة وهي طفلة حديثة المشي وأتقنتها وهي تنضج وتترعرع، إذ ببساطتها وسهولة تعاملها مع الأمور تليّن القلوب. ترسم ماي ابتسامة صغيرة على شفتيها وتربّت على كتفه. فينتقل نظره إلى أظفارها التي طلتها كأظفاري باللون الأحمر بطبقات من عصير براعم البلسم. إن اللمس، حتى في العائلات، ليس محرماً تماماً، ولكنه بالتأكيد ليس تصرفاً مقبولاً. فأفراد العائلة المحترمة الصالحة لا يتبادلون القبلات ولا العناق ولا التربيت العاطفي، ولهذا تدرك ماي بالضبط ما تفعله عندما تلمس والدنا، فهي تستغل ذهوله وانحرافه، ثم تستدير مبتعدة. فأسرع أنا خلفها. وبعد أن نخطو بضع خطوات، ينادينا والدي:

"من فضلكما، لا تذهبا".

لكن ماي تضحك ضحكتها المعهودة، وتقول: "لدينا عمل هذه الليلة، فلا تسهرا لانتظارنا".

أتبعها صاعدة السلم وصوت والدينا يرافقنا كأغنية متنافرة النغمات. إذ تواصل أمي شكواها كالعادة قائلة: "إنني أشفق على

زوجيكما. *أريد حذاءً جديداً. أريد فستاناً جديداً. هل ستشتريان لنا تذاكر لحضور الأوبرا؟*" وينادي والدي بصوت مرتفع أشد عمقاً قائلاً: "عودا إلى هنا. عودا، من فضلكما. يجب أن أخبركما شيئاً". فتتجاهلهما ماي تماماً، فيما أحاول أنا فعل ذلك وأنا معجبة بالطريقة التي تصمّ بها أذنيها عن كلماتهما وإصرارهما. وهكذا، فأنا وأختي متناقضتان من هذه الناحية ومن نواحٍ أخرى عديدة.

عندما تتواجد شقيقتان في بيت واحد، أو إخوة من أي عدد، ومن الجنسين، فلا بد من حدوث بعض المقارنات بينهم. لقد وُلدت وماي في قرية يو بو التي تبعد أقل من مسيرة نصف يوم عن كانتون. ولا يتعدى فرق العمر بيننا ثلاث سنوات، ولكننا نختلف عن بعضنا اختلاف الليل عن النهار. إذ إن ماي ذات شخصية مرحة، أما أنا، فالجميع ينتقدونني لشدة كآبتي. ويبدو جسم ماي صغيراً وممتلئاً بشكل محبب، أما أنا فطويلة القامة ونحيلة. ولا تهتم ماي التي تخرجت لتوها من المدرسة الثانوية بقراءة أي شيء يتعدى صفحة أخبار الثرثرة في المجلات، أما أنا، فقد تخرجت من الجامعة قبل خمسة أسابيع.

إن أول لغة تعلمتها هي لغة الجي يوب، وهي لهجة محلية في المقاطعات الأربع من إقليم كوانغتونغ الذي يعتبر مسقط رأس أسلافنا. فحظيت بمدرسين أميركيين وبريطانيين منذ بلغت الخامسة من عمري، ولهذا أصبحت إنكليزيتي قريبة من الكمال. وأستطيع أن أفتخر أنني أتحدث بطلاقة أربع لغات: الإنكليزية الأميركية، والإنكليزية البريطانية، ولغة الجي يوب، ولغة الووو وهي لهجة قريبة من نوعها من لهجات لغة الماندرين يتحدث بها سكان شنغهاي وحدهم. إنني أعيش في مدينة عالمية، وأستخدم كلمات إنكليزية للتعبير عن المدن الصينية والأماكن مثل كانتون وتشنغكينغ ويونان. أما أختي ماي فلا تتمتع بأي طلاقة

باللغات. إذ كنّا قد انتقلنا إلى شنغهاي عندما كانت ماي طفلة رضيعة، فلم تتعلم من لغة الجي يوب إلا بعض الكلمات للتعبير عن أسماء أطباق معينة ومكوناتها. وهكذا، تجيد ماي اللغة الإنكليزية فقط ولغة الوو بعيداً عن تعقيدات اللهجات الأخرى. تتمتع لغتا الماندرين والكانتونية بأرضية مشتركة كالإنكليزية والألمانية. فهما متشابهتان، ولكنهما غير مفهومتين بالنسبة إلى غير المتحدثين بهما. ونتيجة لذلك، أصبحت أستغل ووالداي الفرصة للتحدث عن ماي بلغة الجي يوب لنخدعها ونسخر منها.

تصرُّ أمي على أن ماي لا تستطيع أن تتغير حتى لو حاولت ذلك. إذ يفترض أن ماي لطيفة وفرحة كالخروف لأنها ولدت في عام الخروف. تقول أمي إن برج الخروف هو أكثر العلامات أنثوية ويتسم بالعصبية والذوق الفني والتعاطف. ويحتاج الخروف دائماً إلى من يعتني به، ولهذا ستكون ماي واثقة دائماً من حصولها على الطعام والمأوى والكساء. وفي الوقت نفسه، يشاعُ عن الخروف أنه يغدق عاطفته على الآخرين. بالإضافة إلى ذلك، فالحظ السعيد يبتسم له دائماً بسبب طبيعته الفاتنة وقلبه الطيب. ولكن الخروف - وهذا سبب مهم بالنسبة إلى أمي - يفكر في نفسه وفي راحته فقط في كثير من الأحيان.

أما أنا فأتمتع برغبة التنين التواقة التي من المستحيل إشباعها أبداً. وعادة تقول لي أمي: "ليس هناك مكان لا تستطيعين الذهاب إليه بقدميك الكبيرتين". ومع ذلك، فالتنين، وهو الأقوى بين الأبراج الصينية، يعاني من عوائقه الخاصة. فتقول لي أمي: "إن التنين مخلص ومتطلب ومتحمل للمسؤولية ومغيّرٌ لأقداره. ولكنك، يا عزيزتي بيرل، ستكونين دائماً مكبوحة بسبب البخار الذي يتصاعد من فمك".

هل يعني ذلك أنني غيورة من أختي؟ كيف يمكنني أن أغار منها وأنا متيّمة بها؟ فنحن نشترك باسم لونغ، أي: التنين، وهو اسم جميل. فأنا بيرل دراغون، وماي هي بيوتيفول دراغون. وقد تبنت ماي التهجئة الغربية لاسمها، ولكن اسم ماي بلغة الماندرين يعني جميلة، وهي كذلك فعلاً. إذ واجبي بصفتي أخت ماي الكبرى هو أن أحميها وأحرص على أن تسلك الطريق الصحيح وأدللها نظراً إلى مكانتها الثمينة والمحبوبة من قبل كل العائلة. نعم، إنني أحياناً أغضب منها ولا سيما عندما تنتعلُ حذائي الزهري الحريري الإيطالي المفضل من دون إذن مني وتفسده في المطر، ولكنني واثقة من شيء واحد وهو أن أختي تحبني. فأنا أختها الكبرى، وسأبقى وفق تراتبية العائلة الصينية أحتل مكاناً أعلى منها حتى لو لم تكن عائلتي تحبني بقدر ما تحبها.

عندما وصلت إلى غرفتنا، وجدت ماي قد خلعت فستانها، وتركته مكوّماً على الأرض. فأغلقت الباب خلفي، وعزلت نفسي وإياها في عالم الفتيات الجميلات الخاص بنا. لدينا سريران متشابهان عليهما أربعة ملصقات وظلة من الكتان الأبيض ذات حاشية زرقاء مطرزة بتصميم نبات متعرش. تحوي معظم غرف النوم في شنغهاي ملصقاً لفتاة جميلة أو تقويماً، أما نحن فلدينا الكثير منها لأننا نعرض نفسينا لفناني الفتيات الجميلات. وهكذا، فنحن نتلقى صورنا المفضلة لنعلقها على جدراننا. فهناك صورة تجلس فيها ماي على أريكة مرتدية سترة خضراء حريرية وممسكة بسيجارة من ماركة هاتامين في حامل سيجارة عاجي، وصورة أخرى لي أظهر فيها ملفوفة بالفراء وذقني مسنود إلى ركبتي وأنا أحدق إلى المشاهد أمام صف من الأشجار تحاط بإطار أمام بحيرة أسطورية وأروّج لحبوب الطبيب ويليامز الزهرية للأشخاص الذين يعانون من شحوب البشرة (ومَنْ يروّج لهذه الحبوب

أفضل من شخص يتمتع ببشرة زهرية طبيعية؟). وهناك صورة لكلتينا ونحن جالستان معاً في غرفة نوم حديثة، وكلٌّ واحدة منا تحمل طفلاً حياً – هو رمز الثروة والرخاء – وتروّج لحليب الأطفال المجفف لنظهر أننا أمّان عصريتان تبتاعان أفضل الاختراعات العصرية للأطفال العصريين.

انضممت إلى ماي في الغرفة التي كانت عبارة عن خزانة للملابس. ففي هذا الوقت يبدأ فيه يومنا فعلاً. إذ إننا سنعرض الليلة لدى جي لي، وهو أفضل الفنانين المختصين بالتقاويم والملصقات وإعلانات الفتيات الجميلات. وقد تشعر معظم العائلات بالخزي إن عرضت بناتهن أنفسهن للفنانين وسهرن طوال الليل خارج المنزل. فهكذا كان موقف والديّ في بادئ الأمر. ولكن، حالما بدأنا نجني الأرباح، لم يعد لديهما مانع من ذلك. فأخذ والدي أرباحنا ليستثمرها قائلاً إننا عندما نقابل زوجينا ونقع في الحب ونقرر أن نتزوج، فسنذهب إلى بيتينا وبحوزتنا مبالغ مالية خاصة بنا.

اخترنا ثوبين صينيين تقليديين لنعبّر عن التناسق والذوق بينما نوحي بالانتعاش والسلام اللذين يبشّران بإضفاء السعادة على أولئك الذين سيستخدمون الشيء الذي سنروّج له أياً يكن. فانتقيت أنا ثوباً حريرياً بلون الخوخ مزيناً بخيوط حمراء. وقد تمت خياطة الثوب ضيقاً جداً بحيث إن الخيّاطة قد جعلت الشق الجانبي عالياً جداً ليسمح لي بالمشي. كما أن الأزرار والعُرى قد صُنعت من القماش الأحمر نفسه لتثبت الفستان عند عنقي وصدري ولمت إبطيّ وعلى طول جانبي الأيمن. أما ماي فارتدت ثوباً من اللون الأصفر الشاحب منقوشاً ببراعم بيضاء دقيقة، ذا أزرار وعُرى حمراء اللون. وتبدو ياقة فستانها عالية حتى تصل إلى أذنيها، ويُظهر الكمان القصيران طول ذراعيها. وبينما

ترسم ماي حاجبيها على شكل ورقتي خيزران طويلتين ورفيعتين ومصقولتين، أضع مسحوق الأرز على وجهي لأخفي خديّ الموردين. بعد ذلك، ننتعل حذاءينا الأحمرين ذوي الكعب العالي، ونطلي شفاهنا باللون الأحمر لتتناسب معهما.

لقد قصصنا شعرنا الطويل مؤخراً وصففناه على هيئة خصلات متموّجة. ففرقت ماي شعري عند الوسط ثم دسّت الخصلات المتموجة خلف أذنيّ، فبدت الخصلات منتفخة كزهور الفاوانيا. أما أنا، فمشّطتُ شعرها تاركة الخصلات تحيط بوجهها. ثم أضفنا أقراط الكريستال الوردية وخواتم اليشب وأساور الذهب ليكتمل مظهرنا. وعندئذ، التقت عيوننا في المرآة. فانضمّت إلينا من الملصقات التي على الجدران صورٌ كثيرة في انعكاس المرآة. ثمّ وقفنا للحظة ونحن نتأمل مدى جمالنا. إننا فتاتان جميلتان في الحادية والعشرين والثامنة عشرة نعيش في ما يعرف بباريس آسيا.

نزلنا الدرج ونحن نثرثر بصخب، وودّعنا والدينا على عجل، ثم خرجنا إلى ليل شنغهاي. يقع منزلنا في مقاطعة هونغكيو مقابل خليج سوتشاو، ولكننا لسنا جزءاً رسمياً من المستوطنة الدولية، غير أننا قريبون منها بما يكفي كي نعتقد أننا محميون من أي غزاة أجانب. قد لا نكون فاحشي الثراء، ولكن أليست تلك مسألة خاضعة للمقارنة؟ إذ إننا، بالنسبة إلى المقاييس البريطانية والأميركية واليابانية، نعيش عيش الكفاف، ولكن لدينا ثروة ضخمة بالنسبة إلى المقاييس الصينية بالرغم من أن بعض أبناء بلادنا في المدينة أثرى من الكثير من الأجانب. إننا من الصينيين الذين يتبعون مذهب تشونغ يانغ، أي الإعجاب بكل ما هو أجنبي بدءاً من أسمائنا الغربية إلى حبنا للأفلام واللحم المقدّد والجبن. وبما أننا من الطبقة البورجوازية، فعائلتنا ميسورة حتماً

بحيث إن أعضاء أسرتنا السبعة يتبادلون الأدوار بتناول وجباتهم على الدرجات الأمامية لسدِّ جوعهم. يتوقف سائقو العربات والمتسولون الذين يمرون أمام بيتنا يعلمون أن جدّ عائلة لشن يأكلون الطعام بالنظام، ولديهم سقف آمن فوق رؤوسهم.

مشينا إلى ناصية الشارع لنستقل العربة. فساومنا بضعة صبية حفاة قبل أن نستقر على سعر جيد. ثم صعدنا إلى العربة وجلسنا جنباً إلى جنب.

أمرت مساي الصبي قائلة: "خذنا إلى منطقة الاستثمارات الفرنسية".

تقلّصت عضلات الصبي وهو يبذل جهده لجر العربة، وسرعان ما هرول في سرعة مريحة بعد أن خفّفت قوة العربة الدافعة من الجهد على كتفيه وظهره. وها هو الآن يسحبنا بقوة كالثور، ولكن كل ما أشعر به هو الحرية. خلال النهار، أستخدم مظلة عندما أذهب للتسوق أو للقيام بزيارة أو لتدريس اللغة الإنكليزية. أما في الليل، فيجب عليّ ألاّ أقلق بشأن بشرتي، لذا أجلس مستقيمة، وآخذ نفساً عميقاً، وألقي نظرة خاطفة على ماي. فأراها تبدو خالية من الهموم تماماً، وتجلس غير مبالية، وفستانها يرفرف مع النسيم وينفتح حتى فخذيها. إنها فتاة مغناج. ولكن، ليست هناك مدينة أفضل من شنغهاي لتمارس فيها مواهبها وتعرض ضحكتها العذبة وبشرتها الجميلة وحديثها الرائع.

ها نحن نعبر جسراً فوق وادي تشوتشو كريك، ثم ننعطف يميناً بعيداً عن نهر وانغو وروائحه الرطبة النتنة الزيوت والفحم وأعشاب البحر والمجاري. إنني أعشق شنغهاي لأنها لا تشبه أي مكان آخر في الصين. فبدلاً من السقوف المتشققة والحرف المصقول، لدينا أبنية ضخمة رائعة تكاد تبلغ عنان السماء، وبدلاً من بوابات القمر والستائر

الرقيقة والنوافذ المكسوة بالتعريشة المخرمة والركائز المطلية بالطلاء الأحمر اللامع، لدينا صروح على الطراز الكلاسيكي الحديث مزينة بالغرانيت والحديد الفني الزخرفي والتصميمات الهندسية والزجاج المضلّع. وبدلاً من بساتين الخيزران والجداول والصفصاف الذي يلقي بأوراقه في البرك، لدينا قصور أوروبية لها واجهات نظيفة وشرفات أنيقة ومروج مشذبة بعناية ومحاطة بحقول الورود المنسقة بشكل مثالي. لا تزال بقايا المدن القديمة تحوي المعابد والحدائق، ولكن بقية شنغهاي تركع لأسياد التجارة والثروة والصناعة والخطايا. وتحوي المدينة مستودعات لتخزين البضائع، وطرقات لكلاب الصيد، وأحصنة للسباقات، وعدداً لا حصر له من دور السينما ونوادي الرقص والشرب والمتعة. هذه هي شنغهاي، موطن أصحاب الملايين والمتسولين وأفراد العصابات والمقامرين والمناضلين والثوار والفنانين وقادة الحروب وعائلة لشن.

تمرّ بنا العربة في أزقة ضيقة تتسع فقط للمشاة والعربات التي تُجرّ باليد - وهي عربات مزودة بمقاعد لنقل الركاب لقاء أجرة معينة - ثم تنعطف بنا داخل طريق بابلينغ ويل. فيهرول الصبي على طول جادة أنيقة من دون وجل من السيارات الفارهة التي تسرع إلى جانبه. وعندما يتوقف السير، يندفع الأولاد المتسولون إلى السيارات، فيحيطون بعسرتنا ويشدون ثوبنا. إن كل مجتمع سكني نمر به يعبق بروائح الموت والشراب والزنابيل والبط المشوي والعطر الفرنسي والبخور. وتوحي أصوات سكان شنغهاي الأصليين وشخشخة ألعاب الأطفال وقعقعة العربات عبر الشوارع بأننا في موطننا.

عندما نصل إلى الحدود بين الشرطة الدولية ومنطقة الاستثمارات الفرنسية، تتوقف العربة، فندفع للصبي أجرته، ونعبر

الشارع. ثم تنعطف حول جثة طفل على الرصيف، وتعثر على صبي آخر يحمل رخصة لدخول منطقة الاستثمارات الفرنسية. فنعطيه عنوان زي جي لي خارج جادة لافاييت.

يبدو هذا الصبي أشد قذارة ونتانة من السابق. ويكاد قميصه الممزق لا يستر عظامه الناتئة من جسمه الهزيل. فنلكأ الصبي قليلاً قبل أن يتجرأ على دخول جادة جوفري. إنه اسم فرنسي، ولكنَّ هذا الشارع يعتبر مركز الحياة بالنسبة إلى الروس البيض. فترى لافتات مكتوبة بالأبجدية السيريلية معلقة فوق رؤوسنا، ونشم رائحة الخبز الطازج والكعك من المخابز الروسية، ونسمع أصوات الموسيقى والرقص تتدفق من النادي. وعندما نقترب من شقة زي جي لي، يبدو المكان مختلفاً. إذ تمر من حي سيكنغ هايتس الذي يحوي أكثر من 150 بيتاً من بيوت المتعة، ويشكّل موطناً لأشهر بائعات الهوى في شنغهاي واللواتي تُعرض صورهن على أغلفة المجلات كل عام.

نترجل من العربة وندفع للصبي أجرته. وبينما أمشي على الدرج المؤدي إلى شقة زي جي لي في الطابق الثالث، أرتب خصلات شعري حول أذنيّ بأصابعي، وأمرر شفتيّ على بعضهما لأملس أحمر شفاهي، وأعدّل فستاني كي تصبح قصته مستقيمة تماماً على جسمي. وعندما يفتح الباب، تصيبني الدهشة مرة أخرى لشدة وسامة زي جي لي، إذ إنه يتمتع بشعر كثيف أسود مبعثر، وجسم هزيل، ويضع نظارة كبيرة ذات إطار سلكي. كما أن حدّة نظراته وسلوكه يوحيان بسهره الليالي وإحساسه الفني وحماسته السياسية. وقد أكون طويلة القامة، ولكنه أطول مني، وهذه إحدى الصفات الكثيرة التي أحبها فيه.

حثّنا زي جي لي قائلاً: "إنَّ ما ترتديانه مثالي. ادخلا! ادخلا!".

إننا لا نعرف بالضبط ما يخطط زي جي لي لإعداده في جلستنا. لقد أصبحت صور النساء اللواتي يستعددن للغوص في بركة أو يلعبن الغولف أو يسحبن أقواساً ليطلقنها عبر السماء شائعة جداً في الآونة الأخيرة، ولكنَّ ما يجعلنا مثاليتين لذلك هو أننا لافتتان جسدياً وموفورتا الصحة والعافية. فمَن الأفضل ليرسم أبناء الصين؟ الجواب: إنها المرأة التي تجيد لعب التنس وتقود سيارة وتدخن السجائر، ومع ذلك تبدو سهلة المنال ومثقفة ومرغوبة قدر المستطاع. ترى هل سيطلب زي جي لي منا أن نتظاهر أننا خارجتان لتمضية فترة العصر في شرب الشاي والرقص؟ أم إنه سيؤلف شيئاً خيالياً تماماً ويطلب منا أن نرتدي ملابس متأخرة؟ وهل سيرسمني على هيئة العذراء الخيالية مو ليسانغ من أوبرا حديقة الفاوانيا لأطري على محاسن صابون الجمال لوكس؟

ثم قادنا إلى مشهد أعده لنا، وهو عبارة عن ركن دافئ فيه كرسي منجد وستارة صينية منحوتة بدقة وقدر فخارية مزركشة فيها بعض غصينات الخوخ لتوحي بانتعاش الحدائق.

يعلن زي جي لي قائلاً: "ستروّج اليوم لسجائر ماي دير. أريدك أن تجلسي على الكرسي، يا ماي". وحالما تجلس ماي، يتراجع زي جي لي إلى الوراء ويحدق إليها بإمعان. إني أعشق فيه اللطف والحنان اللذين يظهرهما لأختي. إذ إنها لا تزال شابة صغيرة، ولكنها تقوم بعمل لا تفعله الفتيات ذوات التربية الحسنة. يوجهها قائلاً: "تصرفي باسترخاء وكأنك أمضيت الليل بطوله خارج المنزل وتريدين أن توحي بسر لإحدى صديقاتك".

بعد أن يضبط وضعية ماي، يستدعيني ثم يضع يديه حول خصري ويقتل جسمي إلى أن أجلس على مسند كرسي ماي.

يقول وهو يقرّب ذراعي أمامي لأمسده إلى يدي: "تمحيني خطوط جسمك وأطرافك الطويلة". يمد أصابعي بين أصابعه ويفصل الخنصر عن بقية الأصابع. ويبقى واضعاً يده لدقيقة، ثم يتراجع إلى الخلف لينظر إلى تصميمه. وعندما يشعر بالرضا عن إنجازه، يعطينا سيجارتين، ويقول: "الآن، انحني إلى الأمام يا بول، نحو ماي وكأنك أشعلت سيجارتك للتو من طرف سيجارتها".

أفعل ما يقوله لي. فيتقدم إلى الأمام للمرة الأخيرة ليبعد خصلة من شعر ماي عن وجنتها، ويُميل ذقنها كي يتراقص الضوء على عظمتي وجنتيها. ربما أكون أنا من يحب زي جي لي أن يلمسها ويرتبها، وكم يستعرني ذلك بالرهبة! ولكن وجه ماي الجميل يروّج لكل شيء بدءاً من أعواد الثقاب إلى مكربنات السيارات.

يتراجع زي جي لي خلف حامل اللوحة ليرسم. إنه لا يحب عادة أن نتحدث أو نتحرك بينما يعمل، ولكنه يسلينا بتشغيل أسطوانة موسيقية على آلة الفونوغراف ويتجاذب أطراف الحديث معنا عن موضوعات شتى.

يقول زي جي لي: "هل نحن هنا لنحيي المثال أم لنستمتع، يا بيرل؟". فلا ينتظر إجابتي لأنه لا يريد أن يسمع جواباً، بل يقول: "أنفعل هذا بالتوّت معنا أم لنصقلها؟ إن جوابي هو أننا لا نفعل هذا ولا ذاك بل نقوم بشيء مختلف كل الاختلاف. إن شنغهاي هي مركز الجمال والحداثة. إذ يستطيع المواطن الصيني الثري أن يشتري أي شيء يسرّه في أحد تقاويمنا. أما أولئك الذين يملكون مالاً أقل، فيمكنهم أن يتوقوا إلى الحصول على هذه الأشياء. وماذا عن الفقراء؟ يمكنهم أن يحلموا فقط".

تقول ماي: "ولكنّ الكاتب لو هشون لديه رأي مختلف تماماً".

السهد بنفاد صبر. إذ إن الجميع يعرفون لو هشون، الكاتب الكبير الذي توفي العام الماضي، ولكنّ هذا لا يعني أنه ينبغي لماي أن تتحدث عنه في أثناء جلستنا. فألتزم الصمت وأحافظ على وضعيتي.

تتابع ماي قائلة: "إنه يريد للصين أن تصبح بلاداً حديثة، وأن تتخلص من الأميركيين وتأثيرهم. كما أنه وجه انتقادات لاذعة إلى الفتيات الجميلات".

يجيب زي جي لي بفتور: "أعلم ذلك". ولكنني أشعر بالدهشة لسعة اطلاع أختي، فهي ليست محبة للمطالعة، ولم تكن كذلك أبداً. ولا بد من أنها تحاول أن تثير إعجاب زي جي لي، فتنجح في ذلك. يتابع زي جي لي قائلاً: "لقد كنت حاضراً في الليلة التي ألقى فيها ذلك الخطاب. وقد كنت ستضحكين لدى سماعه يا ماي، وأنت أيضاً، يا بيرل. إذ إنه أمسك أحد التقاويم. فصدف أنه من التقاويم التي تحمل صورتكما".

فأتخلى عن صمتي وأسأله قائلة: "أي واحد هو؟".

"لست من رسمه، ولكنه يظهركما أنتما الاثنتين ترقصان رقصة التانغو معاً. وقد كنت، يا بيرل، ترتدين ظهر ماي إلى الخلف. وكان ذلك...".

"أتذكر ذلك التقويم! لقد شعرت أمي بانزعاج شديد عندما رأته. أتتذكرين، يا بيرل؟".

إنني أتذكره جيداً. فقد أعطونا إياه في أحد المتاجر التي تتباع منها الأغراض. فصاحت في وجهينا ووبختنا لتسببنا بالإحراج لعائلة تشن بمظهرنا الشبيه بمظهر الراقصات الروسيات ذوات البشرة البيضاء، ولكننا حاولنا أن نشرح لها أن تقاويم الفتيات الجميلات تعبّر في الواقع عن طاعة الوالدين والقيم التقليدية، وتُقدّم في ذكرى السنة الجديدة

الصينية والغربية كحوافز خاصة أو هدايا للزبائن المفضلين، ومن هناك تصل إلى أيدي الباعة المتجولين الذين يبيعونها للفقراء بمبالغ زهيدة. وأخبرنا أمي أن التقويم هو أهم شيء في الحياة بالنسبة إلى الصينيين حتى لو لم يعتقدوا بصحته. فسواء أكان الناس فقراء أم أغنياء، فهم يخططون حساباتهم وفقاً لحركة الشمس والقمر والنجوم ووفقاً للقدر والحظ وحزره. ويرفضون أن يدخلوا صفقة تجارية أو يحددوا موعد زفاف أو يزرعوا محصولاً من دون اللجوء إلى علم طاقة الفينغ شوي ودلالته المبشرة بالخير. ويمكن العثور على هذا كله في حواشي معظم تقاويم الفتيات الجميلات، ولهذا السبب، فهي تقوم بمهمة التقاويم في توقع كل ما يحتمل أن يكون مبشراً بالخير أو منذراً بالخطر في السنة القادمة، كما أنها في الوقت نفسه تشكل زينة رخيصة الثمن حتى لأفقر البيوت شأناً.

شرحت ماي لأمي في ذلك الوقت قائلة: "إننا نضفي مسحة من الجمال على حياة الناس، ولهذا السبب نسمى بالفتيات الجميلات". ولكن أمي هدأت فقط بعد أن أخبرتها ماي أن الإعلان يروّج لزيت كبد الحوت. وقالت ماي: "إننا نحافظ على صحة الأطفال. ويجب أن تفخري بنا".

وفي نهاية المطاف، علقت أمي التقويم في المطبخ إلى جانب الهاتف كي تكتب عليه أرقام الهواتف الهامة، كرقم بائع حليب الصويا والكهربائي ومدام غارنيه وتواريخ ميلاد جميع حشمنا. ومع ذلك، فقد أصبحنا أشد حذراً حيال التقاويم التي نحضرها إلى البيت، ونقلق بشأن التقاويم التي يحتمل أن يعطيها التجار لأمي.

تقول ماي بصوت منخفض وهي بالكاد تحرك شفتيها كي تحافظ على ابتسامتها: "يقول أبو هشون إن ملصقات التقويم مقززة ومفسدة

للأخلاق وإن النساء اللواتي يظهرن فيها مريضات. كما يقول إن هذا النوع من الفساد لا ينبع من المجتمع...".

فيكمل زي جي لي كلامها قائلاً: "وإنما ينبع من الرسامين. إنه يعتبر ما نقوم به منحطاً، ويقول إنه لا يساعد الثورة. ولكن، قولي لي يا صغيرتي ماي، كيف ستقوم الثورة من دوننا؟ لا تجيبي، بل اخلعي وحسب والزمي الهدوء وإلا، فسنبقى هنا طوال الليل".

لو كنا لا نزال نعيش في الأيام التي سبقت الجمهورية، لكانت عائلتي الآن قد سبق وأرسلتني إلى بيت زوجي على كرسي أحمر مظلي، وبحلول هذا الوقت، يجب أن أكون قد أنجبت عدة أطفال، كلهم من الذكور، إن حالفني الحظ. ولكني ولدت في العام 1916، وهو العام الرابع على قيام الجمهورية. فأصبح ربط القدمين في الوقت الحالي محظوراً، مما أحدث تغيراً جذرياً في حياة النساء. وأصبح أهالي شنغهاي يعتبرون أن الزيجات المدبرة عادةً تدلّ على التخلف ويريدون الزواج عن حب. وفي غضون ذلك، أصبحنا نقبل بالتعايش من دون زواج. ولا أقول إنني قد منحته إلى أحد من دون مقابل، فأنا لم أمنحه إلى أحد بعد، ولكني مستعدة لفعل ذلك إن طلب مني زي جي لي ذلك.

لقد أعد لي وضعية يشكل فيها وجهي زاوية مقابل وجه ماي، ولكنه أرادني أن أنظر إليه. فأقف بثبات محدقة إليه وأنا أحلم بمستقبلنا معاً. قد يكون الحب بلا زواج أمراً مقبولاً تماماً، ولكني أريد أن أتزوج. وفي كل ليلة يرسمني فيها، أتخيل المهرجانات الكبرى التي دعيت إليها، وأتصور ما سيكون عليه الزفاف الذي سيقيمه والدي لي ولزي جي لي.

عندما أوشكت الساعة أن تبلغ العاشرة، سمعنا صوت بائع الحساء وهو ينادي: "حساء ساخن ينعش الجسم".

وهناك، يوقف زي حي لي فرشاته متظاهراً أنه يفكر أين يضع الطلاء تالياً بينما يراقب ليعرف أي واحدة منا ستتخلى عن وضعيتها أولاً.

عندما يصيح بائع الحساء تحت نافذتنا مباشرة، تقفز ماي من مكانها وتصيح: "لم أعد أقوى على الانتظار". فتندفع إلى النافذة، وتنادي البائع لتقدم إليه طلبنا المعتاد، ثم تنزل زبدية معلقة بحبل صنعناه عبر ربط بضعة أزواج من جواربنا الحريرية معاً. فيرسل إلينا بائع الحساء زبدية تلو الأخرى من الحساء نأكلها بشهية كبيرة، ثم نعود إلى أماكننا، ونستأنف العمل.

بعد منتصف الليل بوقت قصير، يضع زي حي لي فرشاته ويقول: "لقد أنهينا العمل لهذه الليلة. وسأعمل على رسم الخلفية ريثما يحين الموعد القادم الذي ستعرضان فيه من أجلي. والآن، هيا بنا نفرح".

بينما يبدّل زي حي لي ملابسه ليرتدي بذلة مخططة، ويضع ربطة عنق، ويعتمر قبعة، أمطُّ وماي جسمينا لنتخلص من التشنج، ثم نعدل وضع الزينة على وجهينا، ونسرح شعرنا. عندئذ نخرج إلى الشارع معاً، متأبطين أذرع بعضنا ونحن نضحك بينما ينادينا الباعة المتجولون ليبيعوا أطباقهم الشهية الخاصة.

مكسرات حارة شهية لكل حياتها كبيرة!

حسنات الحوخ الطهية المقطاة بمسحوق عرق السوس. يا لها من حلوى! العلبة بعشر قطع نحاسية فقط.

مررنا بباعة الطبيخ عند ناصية كل شارع، وكلٌّ واحد منهم ينادي بنداءه الخاص، ويعد بأفضل وأحلى وأبرد وألذ بطيخة في المدينة. وبالرغم من شدة إغراء باعة البطيخ، فإننا نتجاهلهم. إذ إن العديدين منهم يحاولون أن يجعلوا بطيخهم أثقل وزناً عبر حقنه بمياه أحد الأنهار

أو الخلجان الصغيرة. وقد تؤدي قضمة واحدة منه إلى الإصابة بمرض الزحار أو التيفوئيد أو الكوليرا.

وصلنا إلى نادي كازانوفا الذي سنلتقي فيه أصدقاءنا في ما بعد. ويميزنا الناس هناك على أننا فتاتان جميلتان ويقدمون لنا طاولة جيدة قرب باحة الرقص. فنطلب المشروبات ويدعوني زي حي لي إلى الرقص. كم أعشق الطريقة التي يمسكني بها ونحن ندور وننتقل عبر الساحة! وبعد بضع أغنيات، أنظر إلى طاولتنا وأرى ماي جالسة وحدها.

فأقول له: "ربما تود أن ترقص مع أختي".

يجيبني قائلاً: "إن كان هذا ما تريدينه".

فنتوجه عائدين إلى طاولتنا، ويمسك زي حي لي بيد ماي. وتبدأ الأوركسترا بعزف مقطوعة بطيئة. فتضع ماي رأسها على صدره وكأنها تصغي إلى دقات قلبه. ويحرك زي حي لي ماي برشاقة بين الراقصين الآخرين. وفي إحدى المرات، ينظر إليّ ويبتسم. فتراودني أفكار طفولية كثيرة عن زفافنا وحياتنا الزوجية معاً والأطفال الذين سننجبهم.

"ها أنت هنا!". وأشعر بقرصة خفيفة على خدي. فأرفع نظري لأرى صديقتي من المدرسة بيتسي هاويل. تقول لي: "هل تنتظرين منذ وقت طويل؟".

"لقد وصلنا لتونا. تفضلي بالجلوس. أين النادل؟ يجب أن نطلب المزيد من الشراب. هل تناولت طعامك؟".

جلستْ وبيتسي جنباً إلى جنب، ولامست كأسي بكأسها ثم ارتشفنا شرابنا معاً. إن بيتسي فتاة أميركية يعمل والدها في وزارة الخارجية، وأنا معجبة بوالديها لأنهما يحبانني ولا يحاولان أن يمنعا بيتسي من الاختلاط بالصينيين كما يفعل الكثير من الآباء الأجانب. تعرفت

إلى بيتسي في دار البعثة التبشيرية التي تعمل فيها على هداية الوثنيين، بينما أرتادها أنا لأتعلم الثقافة الغربية. هل نحن صديقتان حميمتان؟ ليس بالفعل. إن ماي هي صديقتي الحميمة، أما بيتسي، فتأتي بعدها بمراحل طويلة.

قلت لها: "تبدين جميلة الليلة. يعجبني فستانك".

"ينبغي لك ذلك! فأنت من ساعدتني على شرائه. إذ كنت سأبدو كبقرة عجوز لولاك".

إن بيتسي فتاة ممتلئة القوام بعض الشيء، ويظلّ عليها عبء أمٍّ من أولئك الأمهات الأميركيات العمليات اللواتي لا يعرفن شيئاً تقريباً عن طراز الملابس الحديثة، ولهذا، أخذت بيتسي إلى الخياطة لتخيط لها بعض الثياب اللائقة. وهذه الليلة، تبدو بيتسي جميلة. فهي ترتدي ثوباً ضيقاً من الساتان قرمزي اللون، وتضع حلية مصنوعة من الماس والياقوت على صدرها، فيما تتراقص خصلات شعرها الأشقر على كتفيها المرصعتين بالنمش.

قالت بيتسي وهي تومئ برأسها إلى زي جي لي وماي: "انظري كم يبدوان لطيفين".

نتأمل رقصتهما ونحن نثرثر عن أصدقاء المدرسة. وعندما تنتهي الأغنية، يعود زي جي لي وماي إلى الطاولة. إنه محظوظ لأنه يحظى بصحبة ثلاث نساء لهذه الليلة، ولكنه يفعل ما يمليه الذوق عليه بأن يراقصنا واحدة تلو الأخرى. وعندما أوشكت الساعة أن تشير إلى الواحدة من بعد منتصف الليل، وصل تومي هو. فشعّ الدفء على وجنتي ماي عندما رأته. لقد لعبت أمي لعبة الماه جونغ الصينية التقليدية مع أمه لسنوات. وكانتا تأملان أن يجمع زواجهما العائلتين. وهكذا، فستبتهج أمي بهجة عارمة عندما تسمع عن لقائنا.

عندما بلغت الساعة الثانية، خرجنا إلى الشارع مرة أخرى. إننا في شهر تموز، والطقس حار ورطب، ولا يزال الجميع مستيقظين؛ حتى الأطفال وكبار السن. حان الآن وقت تناول وجبة خفيفة.

فأسأل بيتسي: "هل ستأتين معنا؟".

"لست أدري، إلى أين أنتم ذاهبون؟".

نتجه أنظارنا جميعاً إلى زي جي لي. فيسمي لنا مقهى في منطقة الاستعمارات الفرنسية يُعرف عنه أنه ملتقى للمفكرين والفنانين والشيوعيين.

فتقول بيتسي بلا تردد: "إذاً، هيا بنا. لنركب سيارة والدي".

إن مشهياتي التي أحبها مكانٌ سلسٌ يختلط فيه أكثر الناس إثارة للاهتمام. ففي بعض الأحيان، تصطحبني بيتسي لاحتساء القهوة الأميركية وتناول الخبز المحمص والزبدة. وفي أحيان أخرى، أصطحبها أنا إلى الأزقة لتناول بعض الوجبات الصينية التقليدية كرلايات الأرز الدبق الملفوفة بأوراق القصب، أو الكعك المُعدّ من القرفة الصينية والسكر. وغالباً ما تنسى بيتسي حب المغامرات عندما أخرج بصحبتي. فقد اصطحبتني في إحدى المرات إلى تشابنا تاون القديمة لنشتري هدايا رخيصة للعطلة، ولكنني أشعر أحياناً بالتوتر عندما أدخل إلى متنزهات المستوطنة الدولية التي ظلت محرمة على الصينيين باستثناء مربيات الأطفال الأجانب أو البستانيين الذين يعتنون بالأراضي إلى أن بلغت العاشرة من عمري. ومع ذلك، فلا أشعر بالخوف أو التوتر أبداً عندما أذهب بصحبة بيتسي التي تدخل تلك المتنزهات دائماً.

بدا جو المقهى مظلماً ومفعماً بالدخان، ولكننا لا نشعر أننا غرباء أبداً بالرغم من أناقة هندامنا. فانضممنا إلى مجموعة من أصدقاء زي جي لي بينما أبعد تومي وماي كرسيهما عن الطاولة كي يتبادلا حديثاً هادئاً، متجنبين مناقشة حامية الوطيس عن الجهة التي تملك مدينتنا.

تُـرى أهُـم البريطانيون أم الأمريكيون أم الفرنسيون أم اليابانيون؟ إننا نتفوق الأجانب عدداً حتى في المستوطنة الدولية. ولكن، ليست لنا أي حقوق. فلا يساورني وماي أي قلق حيال إمكانية أن نشهد في المحكمة ضد أجنبي أو إذا كانوا يسمحون لنا بدخول نواديهم، ولكن يانسي يبدو قادمة من عالم آخر.

فتقول ونظرة عينيها حزينة ومشوبة بالعاطفة: "بحلول نهاية هذا العام، ستكون هناك أكثر من عشرين ألف جثة مرمية في شوارع المستوطنة الدولية. إننا نخطو فوقها كل يوم، ولكنني لا أرى أياً منكم يحرك ساكناً حيالها".

تعتقد يانسي بضرورة التغيير، ولكن السؤال الذي يدور بخلدي هو: لماذا تتحملني وماي في الوقت الذي تتجاهل فيه عن عمد كل ما يجري حولنا؟

فيسألها زي جي لي قائلاً: "هل تسألين إن كنا نحب بلادنا؟ هناك نوعان من الحب. ألا تعتقدين ذلك؟ إن كلمة آي كو تعبر عن الحب الذي نشعر به حيال بلدنا وشعبنا. بينما تعبر كلمة آي جون عن شعوري تجاه حبيبتي. وهكذا، فأحدهما حب وطني، فيما الآخر رومانسي". ويلقي نظرة خاطفة نحوي، فأحمر خجلاً. ثم يقول: "ألا يسعنا أن نعتني بالاثنين معاً؟".

غادرنا المقهى عند الساعة الخامسة صباحاً تقريباً. فلوّحت لنا يانسي مودّعة واستقلت سيارة والدها وانطلقت مبتعدة. وتمنينا لزي جي لي وتومي ليلة طيبة، أو بالأحرى صباحاً طيباً، واستدعينا عربة. ثم استبدلنا العربة مجدداً عند الحدود بين منطقة الامتيازات الفرنسية والمستوطنة الدولية، وشققنا طريقنا متخبطتين على الحصى ما تبقى من رحلتنا إلى البيت.

لا تزال المدينة صاخبة وكأنها بحر كبير هادر. فينحسر الليل ببطء وتبدأ أشعة الصباح بغزو السماء. ويبدأ الرجال بجر عربات جمع السماد المنزلي على طول الأزقة وهم يصيحون: "أفرغوا أوعيتكم الليلية!". وقد تكون شنغهاي من أول المدن التي حصلت على الكهرباء والغاز والهواتف والمياه الجارية، ولكننا لا نزال متخلفين في ما يتعلق بنظام المجاري. وبالرغم من ذلك، فالمزارعون في أنحاء البلاد يدفعون ثمناً كبيراً لقاء الحصول على سمادنا الليلي لأنه يشتهر بجودته بسبب غذائنا المترف، ثم يأتي بعد ذلك باعة الطعام الصباحيون الذين يبيعون العصيدة المُحضّرة من الحبوب ونوى المشمش وبذور اللوتس وكعكات الأرز المطهي المُعدّة من السكر الأبيض والبيض المطهي مع أوراق الشاي والبهارات.

وصلنا إلى البيت، ودفعنا للفتى الذي يجر العربة أجرته، ورفعنا الرتاج الذي يغلق البوابة، واتجهنا في طريقنا إلى الباب الأمامي. وكانت رطوبة الفجر تزيد من عبق الزهور والشجيرات والأشجار، وأنعشنا نتشي بعطر الياسمين والمغنوليا والصنوبر الذي يفوح من حديقتنا. صعدنا الدرجات الحجرية ومررنا بستارة خشبية وُضعت لمنع الأرواح الشريرة من دخول البيت احتراماً لمعتقدات أمي الخرافية. وأصدرت كعاب حذائينا أصوات ضجة وهي تضرب أرضية الممر الخشبية. وجدنا الضوء متوهجاً في صالة البيت ووالدي مستيقظاً بانتظارنا.

قال لنا مشيراً إلى الأريكة مقابله تماماً: "اجلسا ولا تنبسا بحرف واحد".

ففعلت ما طلبه مني وطويت يدي في حضني وشبكتُ كاحليّ. فإن كنا في ورطة، فالتظاهر بالحياء سيساعدني. لاحظت أن النظرة القلقة التي كانت مرتسمة في عينيه قبل بضعة أسابيع قد تحولت إلى

تعبير قلبي وصارم، ولكنّ الكلمات التي يقولها تالياً تغير مجرى حياتي إلى الأبد.

فسيقول أبـــــي: "لقد دبّرتُ زواجاً لكلٍّ منكما. وستتمُّ مراسم الزفاف بعد غد".

رجال جبل الذهب

تضحك ماي بلا مبالاة قائلة: "هذا ليس طريفاً!".

فيقول أبـــي: "إنني لا أمزح. لقد رتبت أمر زواجكما".

أشعر أنني عاجزة عن استيعاب كلامه. فأسأله قائلة: "ما الخطب؟ هل أمي مريضة؟".

"لقـــد ســـبق وقلت لك يا بول. يجب أن تصغي إليّ وتنفذي ما أقوله. فأنا الأب هنا وأنتما ابنتاي. وعلى هذا النحو تجري الأمور".

ليتني أستطيع أن أعبر عن مدى سخافة كلماته.

تصيح ماي بسخط قائلة: "لن أفعل هذا!".

أمـــا أنـــا، فأحاول أن أحاوره بالمنطق قائلة: "لقد انتهت الفترة الإقطاعية. ولم تعد الحالة كما كانت عليه عندما تزوجتَ أمي".

فيقول لي بازدراء: "لقد تزوجتُ أمك في العام الثاني على تأسيس الجمهورية". ولكن ذلك بالكاد هو بيت القصيد.

أجيبه قائلـــة: "نعم ولكن زواجكما كان مدبراً بالرغم من ذلك. هل كنت تجيبُ عن استفسارات الخاطبة بخصوص مهاراتنا في الحياكة والخياطة والتطريز؟". وتبدأ السخرية بالتسرب إلى لهجتي، فأقـــول: "هـــل اشـــتريتَ لي كرسي حمام رُسمت عليه رموزُ التنين والعنقاء لترمزَ إلى زواجي المثالي؟ هل ستهدي ماي كرسيَّ حمام ملئياً بالبيض الأحمر لتقدمه لأهل زوجها كرسالة على أنها ستنجبُ الكثير من الأبناء؟".

فهزَّ والدي كتفيه بلا مبالاة قائلاً: "قولي ما تشائين. فستتزوجين بالرغم من كل ذلك".

تكررُ ماي كلامها قائلة: "لن أفعل ذلك!". ولطالما كانت بارعة باستغلال دموعها. فتركها الآن تنساب بغزارة قائلة: "لا يمكنك أن تجبرني على القيام بذلك".

عندما يحاصرها والدي، أدركُ مدى جدية الموقف. وينظر إليَّ وكأنه يراني للمرة الأولى.

ويستحدث بنبرة غريبة تضج بالقسوة والظفر: "لا تقولي لي إنك ظننت نفسك ستتزوجين عن حب، فلا أحدَ يتزوجُ عن حبٍّ، وأنا واحد منهم".

سمعتُ صوت شهيق عميق. فالتفت لأرى والدتي التي كانت لا تزال ترتدي بيجامتها واقفة عند مدخل الباب. فراقبتها وهي تمشي متمايلة عبر الغرفة على قدميها المربوطتين وتنهار على الأريكة ثم تضم يديها إلى بعضهما وتنظر أرضاً. وبعد لحظة، تنساب الدموع على يديها. فلا يتفوه أحد بكلمة واحدة.

جلستُ باستقامة قدر المستطاع كي أتمكن من النظر بحدة إلى أبي وأنا مدركة مدى كرهه هذا التصرف، ثم أمسكتُ بيد ماي وشعرتُ أننا قويتان معاً. إذ إننا نخطو باستثماراتنا التالية المستقلة.

"إنني أتحدث بالنيابة عني وعن أختي وأطالب بكل احترام بالمال المخصص لنا".

فترتسمُ ابتسامة عريضة على وجه والدي.

وأتابعُ قائلة: "إننا كبيرتان بما يكفي كي ننتقل بحياتنا، وهكذا، سنستأجر شقة، ونكسب عيشنا بنفسينا، ونخطط لتقرير مستقبلنا".

وبينما كنت أتحدث كانت ماي تومئ برأسها وتبتسم لأبي ولكن ذلك ليس من طبيعتها. إذ يبدو وجهها ملطخاً ومتورماً من البكاء.

استجمعت أمي الشجاعة الكافية لتقول لنا هامسة: "لا أريد لكما أيتها الفتاتان أن تعيشا بمفردكما هكذا".

فيقول أبي: "لن يحدث هذا على كل حال. إذ لم يبقَ أي مال لي أو لهما".

مرة أخرى، يخيم الصمت المطبق علينا. فتترك أمي وأختي المهمة لي لأسأل عما حدث. فأقول: "ما الذي فعلته؟".

يبدأ والدي بتوجيه اللوم إلينا قائلاً: "إن أمك تذهب للزيارات وتلعب مع صديقاتها. وأنتما الاثنتان تنفقان الأموال بلا رادع. ولا ترى أي واحدة منكن ما يجري هنا أمام عينيها".

إنه على حق. ففي الليلة الفائتة فقط، بدأتُ أتساءل عن سبب الشحُ الذي أصاب بيتنا. فتساءلتُ عن عدم وجود الشمعدان والصور الجدارية والمروحة...

"أين خدمنا؟ أين باتسي وألفونغ و....؟".

"لقد صرفتهم. لقد رحلوا جميعاً باستثناء البستاني والطباخ".

إن هذا تصرفٌ منطقي. إذ إن نباتات الحديقة سرعان ما ستموت، وهذا ما سيجعل الجيران يدركون أننا نعاني ضائقة مالية. كما أننا بحاجة إلى الطباخ لأن أمي لا تجيد سوى الإشراف على الطهي. أما أنا وماي فلا نعرف كيف نعدُّ شيئاً واحداً لأننا لم نولِ اهتماماً بهذه الأمور قط، ولم نتوقع أن هذه المهارات ستصبحُ ضرورية لنا يوماً ما. ولكن، ماذا عن الصانع وخادم والدي الخاص والخادمين ومساعد الطاهي؟ كيف استطاع والدي أن يؤدي كل هؤلاء؟

تقول متلعثمة: "هل خسرت المال في القمار؟ ارتعه مجدداً إكراماً لله. إنك دائماً تفعل هذا".

قد يتمتع والدي ببسمة طيبة على أنه رجل مهم، ولكنني لطالما اعتبرته ضعيف التأثير وعديم الأذى. وتجعلني الطريقة التي بدأ فيها بالنظر إليّ الآن أراه مجرداً من كل شيء.

"ما مدى سوء الوضع؟"، وأشعر بمراجل الغضب تغلي في داخلي، فكيف يسعني ألا أغضب؟ ولكنني أشعرُ بالشفقة على والدي ووالدتي، فماذا سيحلّ بهما؟ ماذا سيحلّ بنا جميعاً؟

يطرقُ والدي برأسه ويقول: "لقد خسرنا البيت، وشركة العربات، واستثماراتكما، والمدخرات القليلة التي أملكها. خسرنا كل شيء". وبعد وقت طويل يرفعُ نظره لينظر إليّ وعيناه مفعمتان باليأس والبؤس والحسرة.

تقولُ أمي: "ليست هناك نهايات سعيدة". ويوحي لنا ما يجري بأن كل ظنونها القاسية بدأت تتحقق. فتقول: "ليس بأيدينا أن نحارب القدر".

يتجاهل والدي أمي ويستعطف إحساسي بطاعة الوالدين والواجب الذي يحتّمه عليه موقعي كابنتهما الكبرى قائلاً: "هل ترتضين لأمك أن تصبحَ متسولة في الشارع؟ وماذا عنكما؟ ترى هل سيحافظُ رجلٌ واحد على كلٍّ منكما أم أنكما ستسقطان لتصبحا بائعتي هوى تجوبان الشوارع بحثاً عن البحارة الأجانب؟ أيّ مستقبل تريدان لنفسيكما؟".

قد أكون فتاة متعلمة، ولكن ما المهارات التي أمتلكها؟ إنني أدرس اللغة الإنكليزية لقبطان طائرة ياباني ثلاثة أيام في الأسبوع، وأعرض وماي نفسينا للفنانين مقابل أجور لا تغطي نفقة ثيابنا وقبعاتنا وقفازاتنا

وأحذيتنا. إنني لا أريد لأي واحد منا أن يصبح متسولاً، ولا أريد بالتأكيد لي ولماي أن نصبح فتاتين رخيصتين. فمهما انحطّت بنا الظروف، يجب عليّ أن أحمي أختي.

فأسأل والدي قائلة: "من العريسان؟ أيمكنُ أن نقابلهما أولاً؟".

تحدّق ماي بعينين مفتوحتين على وسعهما.

ويقول والدي: "هذا مخالفٌ للتقاليد".

ولكنني أصر على موقفي قائلة: "لن أتزوجَ شخصاً إذا لم أقابله أولاً".

فتقول ماي: "لا تتصوّري أنني سأفعل هذا". ولكن نبرة صوتها توحي بأنها استسلمت للأمر الواقع. وقد تكون تصرفاتنا ومظهرنا عصرية من نواحٍ عدة، ولكننا لا نستطيع أن نهرب من حقيقتنا، ألا وهي أننا ابنتان صينيتان مطيعتان.

يقول أبي: "إنهما رجلان من جبل الذهب، أي أميركيان. لقد حضرا إلى الصين ليجدا عروسين. إنه حظ جيد فعلاً. إذ إن عائلة والدهما تنحدرُ من المقاطعة نفسها التي تنحدر منها عائلتنا. وهكذا، فنحن أقرباء إلى حدٍّ ما. يجبُ عليكما ألاّ تذهبا إلى لوس أنجلوس مع زوجيكما. إذ إن الصينيين الأميركيين يسعدون بترك زوجاتهم هنا في الصين ليعتنين بآبائهم وأسلافهم كي يعودوا إلى عشيقاتهم الشقراوات في أميركا. اعتبروا الأمر مجرد صفقة تجارية لإنقاذ عائلتنا. ولكن، إذا قررتما أن تذهبا مع زوجيكما، فستحظيان بمنزل جميل وخدم ليقوموا بالتنظيف والغسيل، ومربيات ليعتنين بالأطفال. ستعيشان في هوليوو، أي: هوليوود. أعلم أنكما تحبان الأفلام. وستمنحك الحياة هناك يا ماي، حقاً. فكرا في الأمر وحسب".

فتصيح ماي قائلة: "ولكننا لا نعرفهما".

يجيب والدي بهدوء: "ولكنكما تعرفان أباهما. فقد قابلتما لوي العجوز".

للتوي شبّت ماي (احمرار). فقد قابلنا الوالد فعلاً. ولم أكن قد أحببتُ أبداً استخدام أمي قديم الطراز للألقاب. ولكن، لطالما كانت فكرة الرجل الغبي الأجنبي مبهم الملامح متمثلة في ذهنينا بصورة لوي العجوز. وقد ذكر لنا والدي مسبقاً أنه يعيش في لوس أنجلوس ويأتي إلى شنغهاي كل سنة أو نحو ذلك ليشرفَ على المشروعات التي يديرها هنا. إذ إنه يملكُ مصنعاً للأثاث الرخيص ومصنعاً آخر للخزف الرخيص للتصدير، ولكنني لا آبهُ لمدى ثرائه. إذ إنني لم أستلطف أبداً الطريقة التي ينظرُ بها لوي العجوز إليّ وإلى ماي. وقد لا أمانعُ بالنسبة إليّ، فأنا أستطيع تحمله، ولكنّ ماي لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها عندما أتى آخرَ مرة إلى المدينة. فما كان عليه أن ينظر إليها بتلك الطريقة غير اللائقة، وهو في منتصف العقد السادس من عمره على الأقل، ولكنّ والدي لم يتفوه وقتها بكلمة واحدة، بل طلب من ماي أن تصب له المزيد من الشاي.

ثم خطرت لي الفكرة، فقلت: "هل خسرتَ كل شيء لصالح لوي العجوز؟".

"ليس بالضبط...".

"إذاً، لصالح من؟".

نقر والدي بأصابعه على الطاولة، وأشاح ببصره قائلاً: "من الصعب تحديد هذه الأمور. فقد خسرتُ القليل هنا وهناك".

"إني واثقة من أنك خسرتَ مالي ومال ماي أيضاً. فلا بد من أن ذلك قد استغرق شهوراً... وربما سنوات...".

حاولت أمي أن تمنعني من قول المزيد ولكنَّ الغضب المتفجر كان يغلي في داخلي. فأواصلُ كلامي قائلة: "لا بد من أن الخسارة فادحة جداً. إنها شيء يهدّدُ كل هذا". وأشير إلى الغرفة والأثاث والمنزل وكل شيء بناه والدي لنا. ثم أضيف: "ما مقدار دينك بالضبط وكيف ستسدده؟".

توقفت ماي عن البكاء، والتزمت أمي الصمت.

فيعترفُ والدي بمرارة قائلاً: "لقد خسرتُه لصالح لوي العجوز، ولكنه سيسمحُ لنا بالبقاء في البيت إذا تزوجت ماي بابنه الأصغر وتزوجت أنتِ بالابن الأكبر. وهكذا، سنحظى بسقف لنام تحته وبطعام نتناوله إلى أن أعثر على عمل. إنكما، يا ابنتيّ، رأسمالنا الوحيد".

غطّت ماي فمها بيدها، وهرعت خارجة من الغرفة.

قال والدي بإذعان: "قولي لأختك إنني سأحددُ موعد اللقاء عصر هذا اليوم. وكونا شاكرتين لأنني دبّرتُ لكما زواجاً من شقيقين. فهكذا، ستبقيان معاً دائماً. اصعدي إلى الطابق العلوي. إذ لديّ وأمك الكثير لنناقشه".

عندما أنظر عبر النافذة أجدُ أن باعة أطعمة الفطور قد رحلوا وحلَّ محلهم حشد من الباعة المتجولين. فبدأ أصواتهم تقربنا وتدعونا إلى الشراء.

هيا تعالوا واشتروا جذورَ القصب فهي تقشير العينين. أطعموا الطفل وسيراً من كل أنواع الطلح الصيفي!

تعالوا ودعوني أحلق لحاكم وأشذب شعركم وأقص أظفاركم!

تعالوا وبيعوا خردتكم! القواريرُ الأجنبية والزجاج المكسور نستبدلُها بعيدان الثقاب!

بعد بضع ساعات، ذهبت ماشية إلى حي طوكيو في هونغكيو حسب الموعد المحدد للدرس مع تلميذي. لماذا لم ألغ الموعد؟ إذ عندما يبدأ العالم بالانهيار حول المرء، فهو يلغي مواعيده، أليس هذا صحيحاً؟ ولكنني وماي بحاجة إلى بعض المال.

استقللتُ المصعد إلى شقة الكابتن ياماسكي ورأسي يدور. لقد اشترك الكابتن مع الفريق الياباني الأولمبي في العام 1932، ولهذا فهو يحبُّ أن يعيد تذكر أمجاده في لوس أنجلوس. إنه ليس رجلاً سيئاً، ولكنه مهووس بماي. فقد ارتكبت خطأ، وخرجت معه بضع مرات، ولهذا، فكل درس تقريباً يبدأ بسؤال عنها.

فسألني باللغة الإنكليزية بعد أن تراجع واجه التسرل: "كيف حال أختك اليوم؟".

فأكذبُ عليه قائلة: "إنها مريضة ونائمة".

"يؤسفني أن أسمع هذا الخبر المحزن. إنني أسألك كلَّ يوم من ستخرج ماي معي مجدداً. فتقولين لي إنك لا تعرفين".

"تصحيح. إننا نتقابل ثلاثة أيام في الأسبوع".

"من فضلك ساعديني على الزّواج بماي. وسأقيم لها زفافاً...".

ثم سلمني قصاصة ورق كتب عليها لائحة بمصطلحات الزواج. فلاحظت أنه استعان بمعجمه الياباني الإنكليزي لكتابتها، ولكني شعرتُ أنني لا أقوى على احتماله ولا سيما في هذا اليوم العصيب. فألقيتُ نظرة خاطفة إلى الساعة، ورأيتُ أن مدة الدرس لا تزال في بدايتها، ثم طويت الورقة ووضعتها في حقيبتي.

"سأجري التصحيحات عليها، وأعيدها إليك في الدرس القادم".

"أعطني ماي!".

"بل قل: أعطيها لماي. حسناً، سأعطيها إياها، ولكن اعلم أنها لا تزال صغيرة جداً على الزواج. ولن يسمح والدي بهذا". يا للسهولة التي أخرجُ بها الأكاذيب من فمي!

"ينبغي له أن يوافق، بل يجب عليه ذلك. هذا أوانُ الصداقة والتعاون والرفاهية المشتركة. ويجب على الأعراق الآسيوية أن تشكّل جبهة واحدة ضد الغرب. إن الصينيين واليابانيين إخوة".

لا أظـنُّ ذلك صحيحاً، إذ إننا ندعو اليابانيين عصابات أقزام وأشباه قردة، ولكنَّ الكابتن يتطرق إلى هذه الفكرة في أغلب الأحيان ويبذل جهداً كبيراً في إتقان الشعارات في اللّغتين الإنكليزية والصينية.

يحدقُ إليّ ويتجهم ويقول: "لن تعطيها إياها، أليس كذلك؟". وعندما لا أجيب بسرعة كافية، يعبسُ قائلاً: "إنني لا أثق بالفتيات الصينيات. فهن يكذبن على الدوام".

لقد وجّه إليّ هذه التهمة من قبل. فلم يعجبني كلامه في هذا اليوم أكثر من أي يوم آخر في الماضي.

فقلت له: "إنني لا أكذب عليك". بالرغم من أنني قد فعلت ذلك عدة مرات منذ بداية الدرس.

"إن الفتياتِ الصينيات لا يحفظن وعدهن. إنهن يكذبن في الصميم".

فأصححُ كلامه قائلة: "بل قُل لا يحفظن وعودهن ويكذبن في صميمهن". وشعرت أنه يجب عليّ أن أغير مجرى الحديث إلى موضوع آخر، لذلك قلت له: "هل تحبُّ لوس أنجلوس؟".

"إنها جيدة جداً. سأعود إلى أميركا قريباً".

"من أجل خوض منافسة أخرى في الساحة؟".

"كلا".

"إذاً، للدراسة؟".

"بـل كـ...". ثم يحوّلُ كلامه إلى اللغة الصينية مستخدماً كلمة يعرفها حقّ المعرفة في لغتنا، فيقول: "كفانج!".

"حقاً؟ وكيف ذلك؟".

فيعود إلى اللغة الإنكليزية مجدداً قائلاً: "سيقتحم جيشنا والشطن، وستقوم الفتيات الأميركيات بغسل ملابسنا".

فنضحك معاً، ونستمر في الضحك.

حالما تنتهي الساعة، أتلقّى أمريَ الشحيح وأعود إلى البيت. فأجـدُ مـاي نائمـة، فأتقدم إلى جانبها واضعة يدي حول خصرها، وأغمـض عيني. إنني أتوقُ إلى النوم، ولكنّ الكثير من الصور والمشاعر تغـزو تفكيري. لطالما ظننت نفسي فتاة عصرية أملك حرية الاختيار، وأنـني لا أمتُّ لأمي بأي وجه شبه. ولكنّ مقامرة أبـي قضت على كـل ذلـك. وهكذا، سيتم بيعي ومقايضتي ككل الفتيات من قبلي لأسـاعد عـائلتي. فأشعر أنني سجينة وعاجزة حتى يكادُ ذلك يجمد أنفاسي.

حاولـتُ أن أقنع نفسي أن الموقف ليس سيئاً بقدر ما يبدو عليه. فقـد قال والدي إنه لن يتوجّب علينا أن نسافر مع هذين الغريبين إلى مدينـة في الطـرف الآخر من العالم، وإنه في وسعنا أن نوقع الأوراق وحسـب، وبعد ذلك يغادر زوجانا وتعود الحياة إلى سابق عهدها مع اختلاف كبير واحد، وهو أنه سيتوجب علينا أن نخرج من بيت والدنا ونكسـب عيشنا بنفسينا. وهكذا، سأنتظرُ إلى أن يغادر زوجي البلاد، وأطلب الطلاق ثم أتزوج بزي حي لي. (ولكن زفافنا سيكون أقل شأناً ممـا تخيلـته، وسيقتصر على حفلة صغيرة في أحد المقاهي مع أصدقائنا الفنانين وبعض العارضات الجميلات). وسأحصلُ على وظيفة حقيقية

خلال اليوم. وستعيش ماي معنا إلى أن تتزوج. وهكذا، ستعتني ببعضنا ونشق طريقنا في الحياة.

جلسـتُ علـى سريري، وفركتُ صدغي، وأنا أشعر أنني غبية بسبب استرسالي في هذه الأوهام. فلا بد من أن عيشي في شنغهاي لمدة طويلة قد أثر في شخصيتي.

هززتُ كتف أختي برفق وقلت لها: "استيقظي، ماي".

فـفتحت ماي عينيها. ورأيتُ فيهما للحظة كل الرقة والعذوبة اللتين لطالما تمتعت بهما منذ أن كانت طفلة رضيعة، ولكنّ الظلام يعودُ ليطفئ بريقهما عندما تتذكر الواقع المر.

قلت لها: "يجب أن نرتدي ثيابنا. فقد أوشك أن يحين وقت مقابلة زوجينا المستقبليين".

ماذا ينبغي أن نرتدي؟ إن أبي عائلة لوي صينيان، لذا، ربما يجب علينا أن نرتدي الثياب الصينية التقليدية، ولكنهما أميركيان أيضاً، لذا، ربما يجب علينا أن نرتدي شيئاً يظهر أننا عصريتان أيضاً. إننا لا نهدف بـذلك إلى إرضائهما طبعاً، ولكننا لا نستطيع أن نفسد الصفقة أيضاً. فـنرتدي ثوبين من الحرير مزركشين بأشكال الزهور. وقبل أن نخرج، أتـبادل ومـاي النظـرات ونهز كتفينا استهزاء بكل ما نفعله ونغادر المنـزل.

لوّحـنا إلى الشاب الذي يجر عربة الأجرة، وطلبنا منه أن يأخذنا إلى المكـان الذي رتب لنا فيه والدي اللقاء؛ وهو بوابة حديقة يو يوان في وسـط تشاينا تاون القديمة. فدفعنا الرجل ذو الرأس الأصلع المليء بالندوب وسط الحشد، وعبر بنا نهر تشوتشاو فوق جسر غاردن وعلى طـول الـبند. فتمـرُّ العربة بالدبلوماسيين، وطالبات المدارس وبعض المدرسـي الوحيد المنشي، وبائعات الهوى، والسادة وسيداتهم، وأفراد

عصابة غربين ذوي المعاطف السوداء والسمعة السيئة. لقد بدا كل هذا التمازج السارحة مثيراً للاهتمام، ولكنه يبدو اليوم وضيعاً وشديد الوطأة.

يجري نهر وانغبو إلى جانبنا متعرجاً كالأفعى الكسولة وجلدها المتسخ يعلو ويهبط ويلتوي. لا يمكن لمن يعيشُ في شنغهاي أن يتجنب رؤية النهر، فهو يقعُ عند نهاية كل شارع متجه نحو الشرق في المدينة. في هذا النهر العظيم، تمخرُ عبابَ المياه سفنٌ حربية من بريطانيا وفرنسا واليابان وإيطاليا والولايات المتحدة. وتتجمعُ الزوارق حول بعضها كما تتجمع الحشرات فوق الجثث. وتتصادم قوارب السماد الليلي حول بواخر المحيط ورفوف الخيزران. ويملأ العمال المتعرّقون فلكات الغزل وهم يحمّلون الأفيون والتبغ من السفن التجارية، والأرز والحبوب من السفن الشراعية القادمة من النهر، وصلصة الصويا وسلالاً من الدجاج ولفافات كبيرة من الحرير من القوارب النهرية.

إلى يميننا، تعلو صروح ضخمة مؤلفة من خمسة أو ستة طوابق، وهي قصورٌ أجنبية للثروة، والطمع، والجشع. فمررنا إلى جانب فندق كاثي بسقفه الشبيه بالهرم، وإدارة الجمارك ببرج ساعتها العالي، ومصرفي هونغ كونغ وشنغهاي ذوي الأسود البرونزية الشهيرة التي تغري المارّة بحك أقدامهم عليها لتجلب الحظ للرجال والأبناء للنساء. وعندما وصلنا إلى حدود منطقة الاستثمارات الفرنسية، دفعنا إلى الرجل أجرته ثم تابعنا طريقنا سيراً على الأقدام على طول رصيف فرنسا. وبعد بضعة مجمعات سكنية، انعطفنا بعيداً عن النهر ودخلنا ثنايا تاون القديمة.

إن القدومَ إلى هنا يشبهُ وخز مبشر بالخير وأشبه بالعودة إلى الماضي، وهذا بالضبط ما يريد والدنا أن نفعله من خلال هذا الزواج.

ومع ذلك، فقد أتيتُ وماي طائعتين كالكلاب وغبيتين كجواميس الماء. كنت أغطي أنفي بمنديل معطر بالخزامى لأحجبَ روائح الموتى، والمجاري، وزيت الطهي الفاسد، واللحم النيء المعروض للبيع في الهواء الطلق حيث تفسده شدّةُ الحر.

من عادتي أن أتجاهلَ مناظرَ مدينتي البشعة، ولكن أنظاري تنجذبُ اليوم إليها. فأرى المتسولين ذوي العيون المثقوبة والأطراف المحروقة عن عمد على يد أهاليهم ليجعلوهم مثيرين للشفقة. شققنا طريقنا عبر أزقة مليئة بأربطة الأقدام، والحفاضات، والسراويل الممزقة المعلقة على حبال الغسيل. وفي ثنايا تاون القديمة، بدت النساء اللواتي يغسلن الثياب كسولات جداً إلى درجة امتناعهن عن عصر الثياب جيداً. إذ كان الماء يتقاطر منها علينا كالمطر ونحن نمشي، وكلُّ خطوة تذكرنا بما قد يحلّ بنا إذا لم نمضِ في هذين الزواجين.

نجد ابنَي لوي عند بوابة حديقة يو يوان. فنحاولُ أن نتحدث معهما باللغة الإنكليزية، ولكنهما لا يبدوان مهتمين بالرد علينا بتلك اللغة. إنّ والدهما ينحدرُ من مقاطعات كانتون الأربع، ولهذا، فمن الطبيعي أن يتحدثا بلغة الجي يوب التي لا تجيدها ماي، لذا، كنت أترجم الكلام لها. لقد بدا هذان الشابان، كعادة الكنتونيين مثار اهتمام غريبين. فيشير الأول إلى نفسه ويقول: "اسمي سام"، بينما يشير إلى أخيه الأصغر ويعلنُ بلغة الجي يوب قائلاً: "اسمه فيرنون، ولكنّ والدينا يدعوانه فون".

إنني أحبُّ زي جي لي، ولهذا، لا يهمني كم يبدو سام لوي مثالياً، لأنني لن أعجبَ به أبداً. أما بالنسبة إلى عريس ماي، المدعو فيرنون، فهو في الرابعة عشرة من عمره فقط. ولم تبدأ علامات الرجولة بالظهور عليه بعد، ولكنّ والدي لم يكلف نفسه عناء إخبارنا بذلك.

جلسنا جميعاً ونحن نجول ببصرنا من وجه إلى آخر. ولا يبدو على أحد منا أنه معجبٌ بما يراه، فكنّا نتأمّل الأرض أو السماء أو أي مكان آخر. وخامرني شكٌ أنهما لا يريدان الزواج بنا أيضاً. فإن كان الوضع كذلك، يمكننا جميعاً أن نعتبر هذه مجرد صفقة تجارية. وهكذا، سنوقع الأوراق ونستأنف حياتنا المعتادة من دون أن نفطر قلب أحدٍ أو نجرح شعوره. ولكن، هذا لا يعني أن الموقفَ ليس محرجاً.

فاقترحتُ عليهم قائلة: "ربما ينبغي لنا أن نتمشى قليلاً".

فلم يُجبني أحد، ولكن عندما بدأت بالمشي تبعني الآخرون. فمشينا جميعاً جارّين أقدامنا على الممرات المعتقة، ومررنا بالبرك والكهوف الصخرية. وكانت أشجار الصفصاف تتمايل في الهواء الحار موحية بالبرودة، وقد حرّكت الحدائق المحاطة بأسوار الخشب المنحوت والطلاء الذهبي في نفوسنا ذكريات الماضي، فكلُّ شيء مصمم ليمنح إحساساً بالتوازن والوحدة، ولكنَّ الحديقة تحترق تحت شمس شهر تموز طوال الصباح فيصبحُ هواء العصر دبقاً ومثقلاً بالرطوبة.

جرى الصبي فورن إلى أحد الكهوف وتسلّق الجدار ذا الصخور الناتئة. فنظرت ماي إليّ وسألتني بصمت عما يجب أن نفعله. ولكنني لم أجد جواباً عن سؤالها، ولم يتطوّع سام بتقديم جواب أيضاً. فابتعدت ماي، وخطت نازلة المنحدر إلى سفح الكهف الصخري، وبدأت تنادي الصبي بنعومة لتغريه بالنزول. أعتقدُ أنه لم يفهم ما تقوله له لأنه ظل في القمة وبدا أشبه بقرصان في البحر. فتابعت وسام المشي إلى أن وصلنا إلى صخرة اليشب الرائعة.

فتمتم سام بلغة الحي يوب بتردد: "لقد أتيت إلى هنا من قبل. أتعرفون قصة هذه الصخرة؟".

لم أخبره أنني أُلقَّبُ عادةً تشاينا تاون القديمة. وبدلاً من ذلك، قلت محاولة أن أتحلى بالتهذيب: "أدهشني ويمكنك عندئذ أن تخبرني القصة".

عثرنا على مقعد للجلوس وحدّقنا إلى الصخرة التي بدت في نظري كأي صخرة أخرى.

"خلال حكم سلالة سنغ الشمالية، كان للإمبراطور هوي تسونغ شغفٌ كبير بالتحف. فأرسل مبعوثين إلى أرجاء المقاطعات الجنوبية كافة ليعثروا على أفضل تحف في البلاد. فعثروا على هذه الصخرة ونقلوها على متن إحدى السفن، ولكن الصخرة لم تصل إلى القصر؛ فقد أغرقت عاصفةٌ هوجاء، وربما إعصارٌ، السفينة في نهر وانغبو".

إن صوتَ سام ممتعٌ بالفعل، فهو ليس مرتفعاً أو متحكماً أو متعالياً. وبينما كان يتحدث، وكنت أحدق إلى قدميه، رأيته يمد ساقيه أمامه ويقلبهما مرتكزاً على كعبي حذائه الجلدي الجديد. ثمّ تشجّعت لأنقل نظري من قدميه إلى وجهه، فلاحظت أنه يتمتع بقدر كافٍ من الجاذبية. ويمكنني القول إنه وسيم، إلا إنه نحيل ووجهه يشبه حبة الأرز، مما يبالغ في إبراز حدة عظمتي وجنتيه. أما لونُ بشرته فهو داكن أكثر مما أحب، ولكن هذا منطقي لأنه قادم من هوليوود. فقد قرأت أن ممثلي السينما يحبون أن يأخذوا حمامات شمس إلى أن تكتسب بشرتهم لوناً برونزياً. وعندما نظرت إلى شعره رأيت سواده ليس فاحماً، إلا إن فيه خصلات حمراء تعكس أشعة الشمس. يقال إن التغير في لون الشعر يحدث لدى أولئك الفقراء الذين لا ينالون غذاء مناسباً. وقد يكون الطعام في أمريكا وفيراً ودسماً بحيث إنه يؤدي أيضاً إلى مثل هذا التغير. يبدو هندام

سام أنيقاً جداً. ولاحظت أن بذلته مفصلة حديثاً. وبالإضافة إلى ذلك، فهو شريك في مشروع والده. فلو لم أكن مغرمة بزي جي لي، لاعتبرتُ سام شخصاً مناسباً جداً.

يتابعُ سام قصته قائلاً: "أخرجت عائلة بات الصخرة من النهر وأحضرتها إلى هنا. ويمكنك أن تلاحظي أنها ترضي كل متطلبات الصخرة الجيدة. إذ إنها مليئة بالثقوب مثل الإسفنج وشكلها الجميل يجعلك تفكرين في تاريخها الذي يعود إلى آلاف السنين".

ثمّ يلتزم سام الصمت مجدداً. ومن بعيد، أرى ماي تدور حول الكهف الصخري ويداها على خصرها والانزعاج يبدو واضحاً عليها. فتنادي فوت مرة أخرى، وتنظر حولها لتبحث عني. وعندما رأتنا رفعت يديها مستسلمة، وبدأت بالمشي نحونا.

يقول سام وهو جالس إلى جانبي: "إني معجبٌ بك. فهل أنت معجبةٌ بي؟".

فبدا لي الإيماءُ برأسي أفضلَ جواب ممكن.

"هذا حسنٌ. إذاً، سأخبر والدي أننا سنكون سعيدين معاً".

حالما ودعنا سام وفوت، استدعيت عربة. فصعدت ماي إليها، ولكنني لم أتبعها.

بل قلت لها: "اذهبي إلى البيت. هناك شيء يجبُ أن أفعله. وسألحق بك لاحقاً".

قالت ماي: "ولكنني بحاجة إلى التحدث معك". وقبضت بيديها بشدة على مسند الكرسي بحيث إن براجمها تحوّلت إلى اللون الأبيض. ثم قالت: "لم يقل لي ذلك الصبي كلمة واحدة".

"إنك لا تتكلمين لغة الهي يوب".

"ليس هذا هو السبب، فهو أشبه بصبي صغير. إنه بالفعل صبي صغير".

"هذا لا يهم، يا ماي".

"وماذا يهمك أنت؟ فقد حصلت على الشاب الوسيم".

فأحاولُ أن أشرح لها أن هذه مجرد صفقة تجارية، ولكنها لا تصغي إليّ، بل تضربُ الأرض بقدميها. ويحاولُ الرجل أن يحافظ على ثبات العربة.

"لا أريد أن أتزوجه! وإن كان علينا أن نفعل ذلك، دعيني أتزوج سام".

أتنهدُ بنفاد صبر. إذ إن الغيرة والعناد من شيم ماي طوال حياتها مع أنها عديمة الضرر كالأمطار في عصر يوم صيفي، ولكنني أعرف ووالدي أن الطريقة المثلى للتعامل مع نوبات غضبها هي أن نتركها إلى أن تنقضي العاصفة.

"سنتحدث بهذا الشأن لاحقاً. أراك في البيت". أومئ إلى الرجل، فيندفع العربة بقوة مهرولاً على قدميه على الطريق المرصوف بالحصى. وأنتظر إلى أن ينعطفا عند الزاوية، ثم أمشي إلى البوابة الغربية القديمة وأعثر على عربة أخرى. فأعطي الرجل عنوان زي جي لي في منطقة الاستعمارات الفرنسية.

عندما أصلُ إلى مبنى زي جي لي، أصعدُ الدرج، وأقرع الباب. فيفتح الباب مرتدياً قميصاً داخلياً بلا كمين وسروالاً حاكياً فضفاضاً ويضع ربطة عنق مربوطة حول خصره وهناك سيجارة متدلية من شفتيه. فأرمي نفسي بين ذراعيه. وتتدفقُ كل مشاعر الإحباط والدموع التي صادفتها. بعد ذلك، أصارحُه بكل شيء وأن عائلتي قد أفلست وأنني وماي سنتزوج صبيين آخرين وأنني أحبه.

طوال الطريق، فكرتُ في كل ردود الأفعال المحتملة. فكرتُ أنه قد يقول شيئاً مثل: *إنني لا أعتقد بالزواج، ولكنني أحبك وأريدك أن تعيشي معي*. وفكرتُ أنه قد يتحلى بالشجاعة ليقول: سنتزوج وستنتهي كل الأمور على خير. كما فكرت في أنه قد يسأل عن ماضيّ ويدعوها إلى العيش معاً. وقد يقول: *إنني أحبُّها كأخت لي*. وخطر ببالي أيضاً أنه قد يغضب ويهرع ليعثر على أبي ويعاقبه. وفي نهاية المطاف، يقولُ زي حي لي الشيء الوحيد الذي لم أتوقعه:

"*ينبغي لك أن تتزوجي بذلك الرجل، فهو يبدو زوجاً مناسباً. كما أنك ملزمة بواجبك تجاه والدك. فعندما تكونين ابنة أطيعي والدك، وعندما تصبحين زوجة أطيعي زوجك، وعندما تصبحين أرملة أطيعي ابنك. إننا جميعاً ندرك أن هذا صحيح*".

"إنني لا أعتقد هذا ولا أعتقدُ أنك تعتقد به أيضاً. إن هذا النوع من التفكير لأبي وليس لك!". أشعر أنني ذليلة ومهانة، ولكن غضبي يفوق كل مشاعري الأخرى. فأسأله قائلة: "كيف يسعك أن تقول لي ذلك؟ إننا نحبُّ بعضنا، ويجبُ ألاّ تقول كلاماً كهذا للمرأة التي تحبها".

فلا ينبسُ بكلمة واحدة، ولكن التعبير على وجهه يوحي إليّ بالسأم والانزعاج من تعامله مع شخص يتصرف بهذه الطفولية.

تستدعي مشاعري المجروحة وغضبي العارم وصغري في السّن وجهلي لأن ألوذ بالفرار. فأجعلُ من نفسي أضحوكة وأنا أهبط الدرج بقفزتي وأجهش بالبكاء وأبدو بمظهر الحمقاء أمام صاحبة منزل زي حي لي، وأقلد تصرفات أمي للتسلية. إن هذا غير منطقي، ولكنَّ الكثير من الرجال والنساء أيضاً يتصرفون بتهور كما فعلتُ تماماً. فآمله يطاردني على الدرج ويشدني إلى ذراعيه كما يفعلون في الأفلام، ثم يخطفني من بيت والدي في الليل لنهرب معاً. وإن اتفقت

أسوأ توقعاتي، فسأتزوجُ سام، ثم أعيش علاقة حب طوال حياتي مع الرجل الذي أعشقُه كما تفعل الكثيرات في شنغهاي في هذه الأيام. إن هذه ليست نهاية تعيسة، أليس كذلك؟

عندما أخبرت أختي بما حدث لي مع زي حي لي، شحب وجهها تعاطفاً معي.

وحدثتني بصوت ناعم ورقيق أكاد لا أسمعه قائلة: "لم أكن أعرف أنك تكنين له هذه المشاعر".

حضنتني أختي فأجهشت بالبكاء، وشعرتُ بها ترتعش من أعماقها تعاطفاً معي. فلا يمكن أن تكون علاقتنا أقرب من ذلك. ومهما يحدث لنا، فسننجو معاً.

لطالما حلمت بزفافي وزي حي لي، ولكن ما حصلت عليه مع سام يختلف كل الاختلاف عما تخيلته. فلم أرتدِ المحرمات الشهيرة، ولم أضع خماراً بطول ثماني ياردات، ولم أتزيّن بشلالات من الزهور العطرة في الاحتفال الغربي. أما بالنسبة إلى المأدبة الصينية، فلم نغيّر وماي ملابسنا لنرتدي ملابس حمراء مطرزة وأغطية رأس تهتز عندما نمشي. ولم تجتمع العائلتان معاً، ولم يتمّ تبادل الأنخاب والثرثرة، ولم يجرِ الأطفال ويضحكوا ويصيحوا. فعند الساعة الثانية من بعد الظهر، ذهبنا إلى دار القضاء وقابلنا سام وفيرن ووالدهما. ويبدو لوي العجوز كما أتذكره تماماً نحيلاً وصارم الملامح. فشبك يديه خلف ظهره وراقبنا ونحن نوقع الأوراق التي كُتب عليها: تزوّج العروسان في الرابع والعشرين من تموز عام 1937. وعند الساعة الرابعة، ذهبنا إلى القنصلية الأميركية لملء الاستمارات للحصول على تأشيرات الهجرة، ولنوقّع تعهداً بأننا لم ندخل السجن أو المأوى أو مستشفى الأمراض العقلية،

وأننا لم نكن مدمنين على الكحول أو فوضويين أو بالغين هوى أو محبوسين أو مصابين بالسل أو الصرع أو أميّين أو نعاني من مركب النقص النفسي (أيّاً يكن معنى ذلك). وحالما وقّعنا الاستمارات، طواها لسوي العجوز ودسّها في جيب سترته. في تمام الساعة السادسة، قابلنا والدينا في فندق عادي جداً يقدّمُ الطعام للصينيين والأجانب. فتناولنا عشاءنا في غرفة الطعام الرئيسة: نحن العرسان الأربعة ووالدانا ولوي العجوز. وحاول والدي أن يجعلنا نتجاذب أطراف الحديث. ولكن، ما الذي يستطيع أيٌّ منا أن يقوله؟ كانت الأوركسترا تعزف، ولكن لا يرقص أحد. والأطباق تأتي وتذهب، ولكنني كنت أشعر بكل لقمة تعلق في حلقي وتخنقني. فطلب أبـي إلينا أن نصبَّ الشاي لأن هذا هو التقليد الذي تؤديه العرائس في الزفاف، ولكنّ لوي العجوز رفض هذا العرض.

أخيراً، حان الوقتُ لنأوي إلى غرفتي الزفاف. فهمس والدي في أذني قائلاً: "تعرفين ما يجبُ عليك فعله. وحالما ينتهي الأمر، سينتهي معه كلُّ شيء".

دخلت وسام إلى غرفتنا، فبدا أشدَّ توتراً مني. إذ إنه جلس على حافة السرير وظهره محنيٌّ وهو يحدق إلى يديه. لقد أمضيت ساعات وأنا أتخيل زفافي وزوجي حبي لي، وتخيلتُ ليلة زفافي معه وكم ستكونُ بغاية الرومانسية. والآن، تخطرُ أمي ببالي. فأدركُ أموراً سبب تحدثها بازدراء عن علاقتها بزوجها. إذ إنها غالباً ما كانت تقول: "إنك تفعلين ذلك الأمر وحسب ثم تنسين أمره".

لم أنتظر سام أن يأتي إليّ محتضناً ومداعباً بنعومة، بل وقفت في وسط الغرفة، وبدأت بفك أزراري. فنظر سام إليّ ورفعني وأنا أحلُّ فستاني عن كتفي. وقفت وأنا أشعر بالبرد حتى خلال هذه الليلة

الحارة. لقد وصلت بي شجاعتي إلى هذا الحدّ، ولكنني لست واثقة مما يجب أن أفعله تالياً. وعندما نهض سام، عضضتُ على شفتي.

إن كلّ ما يجري بيننا محرجٌ جداً. ويبدو سام متوتراً، ولكننا نفعلُ ما هو متوقع منا. فبقي سام متمدداً على جانبه وهو يحدق إليّ، ولكنني لم أنظر إلى عينيه. وبدلاً من ذلك، حدّقت إلى الحزام المصقول الذي يحبسُ الستارة المرفوعة. لقد دفعني إصراري لأداء الواجب المفروض عليّ بحيث إنني لم أغلق الستائر. أيجعلني هذا وقحة أم يائسة؟

تمددت في سريري من دون حراك. فأنا لا أريد أن أتحدث إلى سام. ولا أستطيع أن أستغرق في النوم أيضاً. ففكرتُ أن هذه الليلة – وهذه المرة الوحيدة – ربما لن تغير حياة كاملة سأمضيها مع زوجي الحقيقي. ولكن ماذا عن ماي؟

نهضت عن السرير بينما لا يزال الظلام يسودُ المكان، فأخذت حماماً، وارتديت ملابسي، ثم جلست على كرسي إلى جانب النافذة، وراقبت سام وهو نائم. استيقظ مرغوباً قبل الفجر بقليل وهو ينظر حوله وقد بدا غيرَ واثق من المكان الذي هو فيه. نظر إليّ ورمش بعينيه فبدت ملامحه بسيطة وفجة نوعاً ما. ولم يسعني أن أخمّنَ ما كان يشعر به: أهو الشعور بالإحراج الشديد لوجوده في هذه الغرفة، أم الرعب من نومه على هذا السرير، أم جلوسي على مقربة منه في الوقت الذي يجب عليه فيه أن ينهض من السرير ويرتدي ثيابه. أشحتُ بنظري كما فعلت في الليلة الماضية لأدعه ينهض من السرير. فتسلّل بسرعة إلى الحمام. وبعد ذلك، سمعتُ صوت إغلاق الباب وتدفق مياه الصنبور.

عندما خرجنا إلى غرفة الطعام، وجدنا فيرن وماي جالسين قبلنا مع لوي العجوز. فلاحظت أن بشرة ماي قد اكتسبت لوناً شاحباً كالرمس، فهي بيضاء مع مسحة من اللون الأخضر. وكان الصبي

يمسح ملاءة الطاولة بمنشفته ولم يرفع نظره عندما جلستُ وسام. فأدركتُ أنني لم أسمع صوت فيرن بعد.

قال لوي العجوز: "لقد سبق وطلبت الطعام". ثم حوّل انتباهه إلى النادل وقال: "احرص على أن يصل كل شيء في الوقت نفسه".

ارتشفنا الشاي. فلم يعلّق أحد على المنظر أو على أثاث الفندق أو على المناظر التي قد يحبُّ هؤلاء الصينيون القادمون من أميركا التفرج عليها.

طقطق لوي العجوز بأصابعه. فعاد النادل إلى طاولتنا. ثم أشار حموي – وهذا اللقب بحدّ ذاته غريب بالنسبة إليّ – إلى النادل كي ينحني، وهمس شيئاً في أذنه. فعدّل النادل في وقفته، وزمّ شفتيه، ثم غادر الغرفة، وعاد بعد بضع دقائق برفقة خادمتين وكلّ واحدة منهما تحمل قطعة قماش مطوية.

أشار لوي العجوز إلى إحدى الفتاتين لتقترب، ثم أخذ قطعة قماش منها. وبينما كان يمرّر يده على القماش، أدركت برعب كبير أن هاتين القماشتين هما ملاءتا سريرينا أنا وماي. فنظر الناس الجالسون حولنا إلى ما يحدث بدرجات متفاوتة من الاهتمام. ولم يبدُ على معظم الأجانب أنهم يفهمون ما يجري، وبالرغم من أن زوجاً وزوجة يفهمانه، فقد استولى عليهما الرعب، إلاّ أن الصينيين في الغرفة، ومن بينهم الرجال وطاقم الفندق، بدوا مسرورين وفضوليين.

توقفت يد لوي العجوز عندما عثر على ما يبحث عنه.

ثم سأل الخادمة: "من أي غرفة أتت هذه الملاءة؟".

أجابته الفتاة قائلة: "من الغرفة رقم 307".

نقل لوي العجوز نظره من أحد ولديه إلى الآخر وقال: "غرفة من هذه؟".

فأجابه سام قائلاً: "إنها غرفتي".

أسقط الرجل العجوز الملاءة من بين يديه ثم أشار إلى ملاءة ماي، وبدأ بحثه البغيض مجدداً. فانفرجت شفتا ماي وهي تأخذ نفساً عميقاً من فمها. وبقيت الملاءة تتحرك بين يديه والناس حولنا يحدقون. وتحت الطاولة، أشعرُ بيد تضغط على ركبتي. إنها يدُ سام. وعندما وصل لوي العجوز إلى نهاية الملاءة من دون أن يعثر على شيء، انحنت ماي إلى الأمام وتقيّأت على الطاولة.

وهكذا انتهت وجبة الفطور. فطلبنا سيارة أجرة. وفي غضون دقيقتين، صعدنا أنا وماي ولوي العجوز إلى بيت والدي. وحالما وصلنا، لم يتجاذب أحد أطراف الحديث ولم يُقدّم الشاي ولم يتمّ تبادل كلمات التهنئة بل فقط الاتهامات. فأحطتُ خصر ماي بذراعي عندما بدأ لوي العجوز بالتحدث إلى والدي.

قال بنبرة قاسية لا تفسحُ مجالاً للنقاش: "لقد رتبنا الأمور بيننا، ولكن إحدى ابنتيك خدعتك". ورفع يده ليمنع والدي من تقديم أي عذر، ثم قال: "سأغفر لها هذا. فالفتاة صغيرة السن ووالدي...".

تنفّست الصعداء لأن لوي العجوز ظنّ أن أختي وفيرن لم يفعلا شيئاً بدلاً من أن يفترض أنها لم تكن طاهرة. إذ إن نتيجة الاحتمال الثاني قاسية جداً، ألا وهي: اختبارٌ من قبل الطبيب. وإن اكتشف الطبيبُ أن الأمور سليمة، فلن يصيبنا ما هو أسوأ من هذا بكل الأحوال. وإن لم تكن كذلك، فستجبرُ أختي على الاعتراف بذنبها، وسيتمُّ حلّ زواجهما على أساس أنها قد اقترفت فعلة غير شريفة. وستنقلبُ مشاكل والدي المادية ضدنا وربما تتفاقم أكثر من ذي قبل، وسيصبحُ مستقبلنا مهدداً، ناهيك عن أن سمعة ماي ستتلطخ إلى الأبد،

حتى في هذه الأيام العصرية. وستصبحُ فرصُ زواجها بشاب من عائلة محترمة، مثل عائلة تومي هو، مدمرة كلياً.

قال لوي العجوز لوالدي وكأنه يقرأ أفكاري: "لا عليك من كل هذا. فما يهمُّ في الأمر الآن هو أنهم تزوجوا. إنك تعلم أن لديَّ ولدى ابنيَّ عملاً لنحرزه في هونغ كونغ. وسنغادرُ غداً، ولكن القلق يتملكني الآن. فمَنْ الذي سيضمنُ لي أن ابنتك ستقابلانا؟ إن سفينتنا ستبحرُ إلى سان فرانسيسكو في العاشر من شهر آب، أي بعد سبعة عشر يوماً فقط من الآن".

شعرتُ بضربة تمزقُ أحشائي. فقد كذبَ والدي علينا عمداً! حرّرت ماي نفسها مني، وصعدت هرباً إلى الطابق العلوي، ولكني لم أتبعها، بل حدّقتُ إلى والدي وأنا آمل أن يقول شيئاً، ولكنه لم يتفوه بحرف واحد بل عصر يديه وتضرّع وكأنه خادم خانع وذليل.

أعلن لوي العجوز قائلاً: "سآخذ ثيابهما".

لم ينتظر أن يسمع جدالاً من والدي أو اعتراضاً مني. وعندما بدأ بالصعود إلى الطابق العلوي، تبعناه. فرأينا لوي العجوز يفتح كلَّ الأبواب إلى أن عثر على الغرفة التي تجلسُ فيها ماي باكية على سريرها. وعندما رأتنا ندخلُ الغرفة، ركضت إلى الحمام، وأغلقت الباب خلفها بشدة. وسمعناها تقفلُ عمداً. فتح الرجل العجوز الخزانة، وانتزع كومة من الفساتين، وألقاها على السرير".

قلت له: "لا يمكنك أن تأخذ هذه الثياب. فنحن بحاجة إليها من أجل العرض".

صحح الرجل العجوز كلامي قائلاً: "بل تحتاجان إليها في بيتكما الجديد. فالأزواج يحبون أن يروا زوجاتهم جميلات".

إن ذلك الرجل العجوز بارد وفوضوي وعديم الرحمة وجاهل في آن معاً. إذ إنه يتجاهل ملابسنا الغربية أو يلقيها على الأرض، ربما على الأرجح لأنه يجهل طراز الثياب المواكب للعصر في شنغهاي هذا العام. ولم يأخذ الفرو الأبيض لأنه لون الموت، ولكنه أخذ فرو ثعلب الشريته وماي مستعملاً قبل بضع سنوات.

سلّمني كومة من القبعات التي سحبها عن رف الخزانة وأمرني قائلاً: "جربي هذه". ففعلت ما قاله لي، ثم قال: "هذه كافية. يمكنك أن تحتفظي بالقبعة الخضراء والقبعة المحلاة بالريش. أما القبعات الأخرى فسآخذها معي". ثم حدج والدي بنظرة خاطفة وقال: "سأرسل أناساً ليحزموا هذه الأغراض. وأقترح ألا تلمس أنت وابنتك هذه الأشياء. هل تفهمني؟".

أومأ والدي برأسه. ثمّ التفت الرجل العجوز إليَّ وتأملني بإمعان من رأسي حتى أخمص قدميّ ثم بالعكس.

وقال قبل أن يغادر: "إن أختك مريضة، لذا، كوني فتاة طيبة وساعديها".

طرقت على باب الحمام، وناديت ماي بلطف. ففتحت لي الباب، ثم تمددت على الأرض، ووضعت خدها على السيراميك، وجلست أنا إلى جانبها.

"هل أنت على ما يرام؟".

"أعتقد أن السبب هو السلطعون الذي تناولته ليلة البارحة. إن هذا ليس موسمه. وما كان ينبغي لي أن آكله".

استندت إلى الجدار، وفركت عيني. أيعقل أن تسقط عائلتان جميلتان مثلنا إلى هذا المستوى الوضيع وبهذه السرعة؟ التزمت الصمت وأنا أحدق إلى نمط السيراميك الأصفر والفيروزي والأسود المتكرر على الجدار.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، أتى الحمّالون ليحزموا ثيابنا وينقلوها في صناديق خشبية. فحمّلوها على الجزء الخلفي من الشاحنة بينما راقب جيراننا ما يجري. وفي غمرة كل هذا، وصل سام إلى منزلنا. وبدلاً من مخاطبة والدي، توجّه إليّ مباشرة.

قال: "ستستقلان القارب انطلاقاً في هونغ كونغ في السابع من شهر آب. لقد حجز والدي في رحلة لنبحر معاً إلى سان فرانسيسكو بعدها بثلاثة أيام. ها هي معاملات الهجرة. إنه يقول إن كل شيء مرتب، وإننا لن نعاني مشكلة عندما ترسو بنا الباخرة، ولكنه يريدك أيضاً أن تطلعي على ما يحويه هذا الكتاب التعليمي، تحسباً لحدوث أي طارئ". ولم يكن ما أعطاني إياه كتاباً وإنما مجموعة من الأوراق المطوية المثبتة معاً بخياطة يدوية. ثم قال: "هذه هي الأجوبة التي سيتوجب عليك أن تعطيها للمفتشين إن واجهتنا أي مشاكل لدى النزول من الباخرة". وتوقّف قليلاً ثم قطّب حاجبيه. ولا بد من أن الفكرة نفسها التي تخطر ببالي تخطر بباله أيضاً: لماذا يجب عليّ أن أقرأ الأوراق التعليمية إن كان كل شيء مرتباً؟ تابع سام كلامه بثقة وكأنني أحتاج إلى طمأنة روحي وأنني سأشعر بالراحة لسماع نبرة صوته: "يجب ألاّ تقلقي حيال أي شيء. إذ حالما ننتهي من إجراءات الهجرة، سنستقل قارباً آخر إلى لوس أنجلوس".

حدّقت إلى الأوراق بصمت.

ثم أضاف قائلاً: "إنني آسف بشأن هذا وبشأن كل شيء آخر".

وكدت أصدقه.

وبينما كان يلتفت ليغادر، سأله والدي، إذ يتذكر فجأة مبادئ حسن الضيافة، فيقول: "هل أستدعي عربة لتقلّك؟".

التفت سام إليّ وأجاب قائلاً: "كلا، أعتقد أنني سأمشي".

راقبته إلى أن ابتعد عن ناظري، ثم دخلت البيت، ودسستُ الأوراق التي أعطاني إياها في سلة المهملات. وقلت في نفسي إن العجوز لوي وابنه ووالدي سيرتكبون خطأ رهيباً إن ظنوا أن هذا الوضع سيستمر أكثر من ذلك. إذ سرعان ما ستستقل عائلة لوي الباخرة التي ستقلهم إلى مكان يبعد آلاف الأميال عن هنا. وهكذا، سيصبحون عاجزين عن إجبارنا على القيام بأي شيء لا نريده. لقد دفعنا جميعاً ثمن مقامرة والدي. فخسر هو أمواله، وخسرت أنا فضيلتي، وخسرت وماي ثيابنا، وربما معيشتنا من جراء ذلك. وربما تكون قد تأذينا كثيراً، ولكننا لسنا فقراء ولا بائسين بمعايير مدينة شنغهاي.

جدجد على شجرة

الآن، وبعد مرور هذه الأحداث المزعجة والمنهكة، انسحبتُ وماي إلى غرفتنا التي تواجه الشرق، وهذا ما يجعلها أبرد قليلاً في الصيف، ولكنها الآن حارة جداً ودبقة بحيث ارتدينا فقط قميصين رقيقين من الحرير. فلم نبك ولم نرتب الملابس التي رمتها العجوز لوي على الأرض أو الفوضى التي خلفتها في خزانتنا. ولم نتناول الطعام الذي تركه الطباخ خارج باب غرفتنا، لم نفعل أي شيء، خلافاً لذلك. إذ إن الصدمة جعلتنا عاجزتين عن التفوه بأي شيء، ولكن إذ نطقنا بالكلمات، أفلا يعني هذا أننا سنواجه التغيير الذي طرأ على حياتنا، ونحاول أن نكتشف ما يجب علينا أن نفعله في الوقت الذي أصبح فيه عقلي في حالة من الهياج والاضطراب واليأس والغضب بحيث إنني أشعر وكأن الضباب الرمادي قد غزا رأسي؟ تمددنا على سريرينا، وحاولنا أن... لا أجد كلمة تعبّر عن هذا، أن نتشفى ربما؟

إنني أشارك وماي كأختين نوعاً خاصاً من الحميمية. إذ إن ماي هي الشخص الوحيد الذي سيقف إلى جانبي مهما حدث. ولا أتساءل أبداً إن كنا صديقتين حميمتين أم لا لأننا كذلك وحسب. وخلال وقت الشدة، تتلاشى خلافاتنا السخيفة وتنافسنا على محبة والدينا لأننا نتكل على بعضنا.

حالما أسأل ماي عما حدث مع فيرن تقول: "لم أستطع أن أفعل هذا". ثم تنفجر باكية. وبعد ذلك، لا أسألها عن ليلة زفافها ولا تسألني

هي عن ليلتي أبداً. فأقنع نفسي أن كل ما حدث لا يهم وأننا فعلناه في سبيل إنقاذ عائلتنا وحسب. ولكن، مهما قلت لنفسي، فلم أستطع أن أنسى أنني فقدت شيئاً مميزاً في حياتي. في الحقيقة، أشعر أن قلبي مفطور بسبب ما حدث مع زي جي لي أكثر من فقدان عائلتي لمكانتها أو زواجي من ذلك الغريب. إنني أريد أن أستعيد براءتي وطفولتي وسعادتي وضحكاتي.

سألت ماي على أمل أن تعيدها الذكرى إلى الوقت الذي كنا فيه صغيرتين بما يكفي كي نعتقد أننا لا نقهر: "أتذكرين عندما شاهدنا أوبرا أنشودة الوفاة؟".

فأجابتني من سريرها قائلة: "لقد ظننا أننا نستطيع أن نغني أوبرا أفضل منها".

"منذ أن كنا صغيرتين اعتقدت أنت أن تلعبي دور الفتاة الجميلة والأميرة. وكان دائماً يتوجب عليّ أن ألعب دور العالم أو الأمير أو الإمبراطور أو رجل العصابة".

"لكن، انظري إلى الأمر من زاوية أخرى. فقد كنت تلعبين أربعة أدوار، أما أنا، فألعب دوراً واحداً".

ابتسمتُ لها، وتذكّرت المرات التي احتدم فيها الخلاف بيننا حول المسرحيات التي كنا نمثلها لأمي وأبي في القاعة الرئيسة. لقد اعتاد والدانا أن يصفقا لنا ويضحكا وهما يأكلان بذور البطيخ ويشربان الشاي. وكانا يثنيان على أدائنا، ولكنهما لم يعرضا قط أن يرسلانا إلى مدرسة الأوبرا أو أكاديمية الألعاب البهلوانية لأننا كنا مربعتين جداً بسبب صوتينا الحادين وحركاتنا الثقيلة وشكلينا وملابسنا المرتجلة. ولكن ما يهم في الأمر هو أنني وماي لعبنا ساعات وأمن لعطط ونتدرب في غرفتنا، أو نجري إلى أمي لنستعير منها وشاحاً نستخدمه

كخمار، أو نتوسل إلى الطاهي ليصنع لنا سيفاً من الورق والنشاء لأقاتل به أي أشرار يواجهوننا ويعترضون طريقنا.

تذكرت ليالي الشتاء الباردة التي كانت فيها ماي تتسلل إلى سريري، فننام ملتصقتين ببعضنا لنبقى دافئتين. وتذكرت كيف كانت تبدو عندما تنام. فقد اعتادت أن تضع إبهامها على فكها وطرفي السبابة والوسطى على طرف حاجبيها فوق أنفها بالضبط، وتضع الخنصر بخفة على خدها وخنصرها يطفو بنعومة في الهواء. أتذكر أنني كنت أجدها في الصباح ملتصقة بظهري وذراعها ملفوفة حولي لتبقى قربها. وأتذكر بالضبط كيف بدت يدها صغيرة جداً وشاحبة وناعمة، وأصابعها رقيقة كأوراق الكراث الرفيعة.

تذكرت أول صيف ذهبت فيه للتخييم في كوليانغ عندما توجب على أبي وأمي أن يصطحبا ماي لرؤيتي لأنها شعرت بوحدة شديدة. لقد كنت ربما في العاشرة وماي في السابعة فقط. وعندما وصلوا، ركضت ماي باتجاهي ووقفت أمامي تماماً لتحدق إليّ. فراحت الفتيات الأخريات يمازحنني لأنه توجب عليّ أن أزعج نفسي بهذه الطفلة الصغيرة، ولكنّ معرفتي لموقفهن منعتني من إخبارهن الحقيقة، وهي أنني أتوق إلى أختي وأشعر أن جزءاً مني مفقود عندما نفترق. وبعد ذلك، أصبح والدي يرسلنا دائماً للتخييم معاً.

لطالما أضحكتنا هذه القصص وجعلتنا نشعر بالتحسن. إذ إنها تذكرنا بالقوة التي نستمدها من بعضنا، والعون الذي نقدمه إلى بعضنا، والأوقات التي نتحدى فيها كل المصاعب، والمرح الذي نشعر به معاً. فإن استطعنا أن نضحك الآن، أفلن يكون كل شيء على ما يرام؟

سألتني ماي قائلة: "أتذكرين عندما جربنا حذاء أمي ونحن صغيرتان؟".

لن أنسى ذلك اليوم أبداً. كانت أمي قد ذهبت في زيارة، فتسللنا إلى غرفتها وأخذنا عدة أزواج من أحذية الأقدام المربوطة، ولكن قدميّ كانتا كبيرتين جداً بالنسبة إلى الأحذية. فرحت أرميها حذاء تلو الآخر وأنا أحاول أن أحشر قدمي فيها. واستطاعت ماي أن تدخل قدميها في الخف، فراحت تمشي على رؤوس أصابعها جيئة وذهاباً مقلدة مشية أمي الناعمة. وبينما كنا نضحك ونمرح، وصلت أمي واستشاطت غضباً لرؤيتنا. وبالرغم من أني وماي أدركنا سوء تصرفنا، فقد عجزنا عن كبت صوت ضحكنا بينما راحت أمي تجري خلفنا محاولة أن تمسكنا لتشد آذاننا. ولكن أقدامنا الطبيعية الكبيرة ساعدتنا على الهرب، فجرينا إلى الصالة ثم إلى الحديقة، وهناك سقطنا على الأرض ضاحكتين. وهكذا، لم نُضرب ولم نُرسل إلى قصر.

لطالما استطعنا أن نخدع أمي ونسقها، ولكن الطاهي والخدم الآخرين لم يتحملوا أذانا أو يترددوا في معاقبتنا.

جلست ماي متشابكة الساقين على سريرها مقابلي وذقنها مسنود إلى قبضتي يديها، ومرفقاها متوازنان على ركبتيها، وقالت: "أتتذكرين، يا بول، عندما علمنا الطاهي أن نعد وجبة؟ لقد كان يعتقد أنه يجب علينا أن نجيد إعداد الطعام، وقال: 'كيف ستتزوجان، أيتها الفتاتان، إن كنتما تجهلان طريقة إعداد الحلوى لزوجيكما؟' ولكنه لم يدرك كم كان أمرنا ميؤوساً منه".

"أعطانا مئزرين لنرتديهما، ولكنهما لم يجديا نفعاً".

قالت ماي: "بل أجديا نفعاً عندما بدأت برمي الطحين عليّ".

لقد تحول ما بدأ كدرس في الطهو إلى لعبة ثم إلى معركة طحين حقيقية عندما ثارت ثائرتنا. كان الطاهي الذي عاش معنا منذ انتقلنا

إلى شنغهاي يجد الفريق بين أختين تعملان معاً وأختين تلعبان وأختين تتشاجران، فلم يعجبه ما رآه.

تابعت ماي قائلة: "لقد غضب الطاهي كثيراً بحيث إنه لم يسمح لنا بدخول المطبخ مجدداً لأشهر".

"لقد قلت له إنني كنت أحاول وحسب أن أزين وجهك بالمسحوق".

ضحكت ماي لدى تذكرها هذه القصة وقالت: "لقد حرمنا من الوجبات اللذيذة والأطباق الخاصة. إن طاهينا رجل صارم جداً. فقد قال إن الأخوات اللواتي يتشاجرن يتسببن بالخزي لكل من يعرفهن".

قرع والدنا باب الغرفة، وطلبا منا أن نخرج، ولكننا رفضنا ذلك وقلنا إننا نفضل أن نبقى في غرفتنا فترة أطول. وربما يكون هذا تصرفاً وقحاً أو طفولياً، ولكن لطالما تعاملت وماي مع النزاعات التي تحدث في عائلتنا بهذه الطريقة، أي بالاختباء منها وبناء حاجز يفصلنا عن كل ما يؤذينا أو لا يعجبنا. إننا قويتان ومتحدتان وأشبه بقوة لا يمكن لأحد أن يهادنها أو يدفعها بالمنطق إلى أن يستسلم الآخرون إلى رغباتنا، ولكن هذه الكارثة ليست شبيهة بزيارة إحدانا لأختها في الخيم أو إصابة بعضنا من غضب والدينا أو معلمنا أو معلمينا.

نهضت ماي عن السرير وأحضرت بعض المجلات كي نتمكن من رؤية الأزياء وقراءة بعض الأخبار. ثم مشطنا شعر بعضنا، وقلّبنا في خزائننا وأدراجنا محاولتين أن نخمن عدد الأطقم التي نستطيع أن نكونها مما تبقى من ملابسنا. فاكتشفنا أن لوبي العجوز قد أخذ تقريباً كل الملابس الصينية تاركاً تشكيلة من الملابس ذات الطراز الغربي والبلوزات والتنانير والسراويل. إن المظاهر تحتل أهمية كبيرة في شنغهاي، وفقنا، فمن المهم أن نبدو أنيقتين وعصريتين وألا نرتدي ملابس من طراز

العام الماضي. فإن بدت ثيابنا قديمة، لن يرغب الفنانون في رسمنا مجدداً، وقد لا تتوقف العربات لتقلنا، وربما لا يسمح لنا بوابو الفنادق والنوادي بالدخول، أو ربما يضاعف موظفو المسارح ثمن تذاكرنا. إن هذا لا يؤثر في النساء فقط، وإنما في الرجال أيضاً. إذ إنهم مستعدون للنوم في الفنادق الموبوءة بالحشرات ليتمكنوا من دفع ثمن سروال أجمل يضعونه تحت وسائدهم كل ليلة ليشكلوا طية حادة لليوم التالي.

أيعني هذا أننا حبسنا أنفسنا لأسابيع؟ كلا، بل ليومين فقط. فنحن شابتان وسرعان ما تشفى جراحنا. بالإضافة إلى ذلك، نحن فضوليتان أيضاً. وقد سمعنا أصواتاً خارج بابنا، فتجاهلناها لساعات، وحاولنا ألا نبدي اهتماماً بالطرق والخبط الذي هزّ أركان البيت. وسمعنا أصوات أشخاص غرباء فتظاهرنا أنها ناتجة عن خدمنا. وعندما فتحنا الباب أخيراً، اكتشفنا أن بيتنا قد تغير وأن والدي قد باع معظم الأثاث لراهن علي. ووجدنا أن البستاني قد رحل، ولكن الطاهي بقي لأنه لا يملك مكاناً آخر ليذهب إليه ولأنه بحاجة إلى بيت يأويه وطعام يتناوله. ولاحظنا أن بيتنا قد انقسم إلى أقسام، وأن جدراناً قد أضيفت إليه لتشكل غرفاً للمستأجرين، وهم شرطيٌ وزوجته وابنته انتقلوا إلى الجزء الخلفي من المنزل، وطالبٌ أصبح يعيش في شرفة الطابق الثاني، وإسكافيٌ سكن في مكان تحت الدرج. وانتقلت راقصتان إلى العلية. وهكذا، فقد ساعدتنا الأجرة على الإنفاق على أنفسنا، ولكنها لن تكفي لتعيلنا جميعاً.

ظننا أن حياتنا ستعود إلى سابق عهدها. ولقد عادت كذلك من نواح عدة. إذ لا تزال أمي تلقي الأوامر على الناس حولها، ومن بينهم المستأجرون، ولهذا، فلم يثقل علينا فجأة عبء إفراغ كرسي الحمام أو

ترتيب الأسرة أو الكنس. ومع ذلك، فنحن مدركون تماماً للمستوى المتدني الذي آل إليه حالنا. فبدلاً من تناول حليب الصويا وكعك السمسم وعيدان الكعك كفطور، أصبح الطاهي يعد لنا الأرز الذي يعوم في مياه الغلي ومعه بعض الخضار من أجل النكهة. ويظهر تقشف الطاهي حتى في أطباق الغداء والعشاء أيضاً. إذ لطالما كنا من العائلات التي لا تأكل وجبة خالية من اللحم. والآن أصبحنا نأكل طعام العمال الذي يتألف من براعم الفول والسمك المملح والملفوف والخضار المخلوطة مع الكثير من الأرز.

كان والدي يغادر البيت كل صباح ليبحث عن عمل، ولكننا لم نشجعه أو نطرح عليه أسئلة عندما يعود ليلاً. إذ إن خذلانه لنا جعله عديم القيمة في نظرنا. وإن تجاهلناه وتصرفنا حياله بقلة احترام، فلن يؤذي سقوطه ودماره أحداً. إن هذه هي طريقتنا في معالجة غضبنا ومشاعرنا المجروحة.

حاولت وماي أن نعثر على عمل أيضاً، ولكن من الصعب أن يوظفنا أحد من دون أن تكون لدينا علاقات. إذ يجب أن نعرف الأشخاص المناسبين، كأحد أقاربنا أو شخص عاشرناه لسنوات، لنحصل على التوصية. والأهم من ذلك، يجب أن نمنح الشخص الذي سيقدمنا هدية كبيرة، كفخذ ذبيحة أو طقم غرفة نوم أو ما يعادل راتب شهرين، وأن نقدّم هدية أخرى إلى الشخص الذي سيوظفنا، حتى لو كانت مجرد وظيفة في صناعة علب الكبريت أو شبّاكات الشعر في أحد المصانع، ولكننا لا نملك مالاً لنفعل هذا والناس يعرفون ذلك. هكذا، تسير الحياة في شنغهاي كنهر هادئ لا غاية له بالنسبة إلى الأثرياء والمحظوظين. أما أصحاب الحظ السيئ، فرائحة اليأس في حياتهم قوية كرائحة جثة متعفنة.

اصطحبنا أصدقاؤنا الأدباء إلى المطاعم الروسية وقدموا لنا زبادي من حساء الخضار الروسي والمشروبات الرخيصة. أما الفتيان المدللون، وهم أبناء بلادنا الذين ينحدرون من عائلات ثرية ويدرسون في أميركا ويذهبون إلى باريس خلال إجازاتهم، فاصطحبونا إلى نادي بارامونت، وهـو أكبر النوادي الليلية في المدينة، لنمرح ونحتسي الشراب ونستمع إلى موسيقى الجاز. في أوقات أخرى، كنا نتسكع في المقاهي المظلمة مع يتسي وأصدقائها الأميركيين. فتختفي ماي عن ناظريّ لساعات من دون أن أعـرف إلى أيـن تذهب ومع من، ولكن الوضع يبقى هكذا أفضل.

لا يمكننا أن نتغاضى عن حقيقة سقوطنا وانحدارنا وتدهورنا.

لم تتوقف ماي عن العرض لزي جي لي، ولكنني لم أشعر بالراحة للعودة إلى مرسمه مجدداً بعد المشكلة التي تسببت بها. فكانا يعملان معاً على إنجاز إعلان السجائر وكانت ماي تقوم بدور مزدوج وذلك بأن تعرض في موقعها الأصلي ثم تحتل موقعي في الجزء الخلفي من الكرسي، فـتطلعني علـى ما تقوم به، وتشجعني على المشاركة في تقويم آخر لم تكتشف زي جـي لي برسمه. في غضون ذلك، كنت أعرض لرسامين آخـرين، ولكـن معظمهم يريدون وحسب أن يلتقطوا صورة سريعة ليعملوا لاحقاً على نقل اللوحة منها. فكنت أجني بعض المال، ولكن لـيس كثيراً. وبدلاً من الحصول على تلاميذ آخرين، خسرت تلميذي الوحـيد. فعـندما أخبرت الكابتن ياماسكي أن ماي لن تقبل عرضه بالزواج، قام بالاستغناء عن خدماتي، ولكن هذا مجرد عذر. فاليابانيون يتصرفون في طول البلاد وعرضها بطريقة غريبة جداً. إذ بدأ سكان حسي طوكـيو يحزمون أمتعتهم ويغادرون شققهم. وبدأت الزوجات والأطفال والمدنيون الآخرون يعودون إلى اليابان. وعندما يهجر العديد

من جيراننا هونغكيو ويعبرون نهر تشوتشاو ويقطنون في مساكن مؤقتة في الجـزء الرئيس من المستوطنة الدولية، أعزو هذا إلى الطبيعة الخرافية الـتي يتمتع بها أهل بلادي، وخاصة الفقراء، الذين يخافون من المعلوم والمجهول ومن الدنيوي والغيبـي ومن الأحياء والموتى.

شعرتُ بكل شيء حولي يتغير. فالمدينة التي لطالما أحببتها، لم تعد تتلقـى بالاً للموت واليأس والكوارث والفقر. لقد استحال كل شيء كـنت أراه في الماضـي - كالملافات الفضية المتألقة - رمادياً كئيباً: كالصخور الرمادية والحجارة الرمادية والنهر الرمادي. ويبدو الآن نهر والغـو، الذي كان يبدو سابقاً مبعث بهجة بالسفن القادمة من البلاد العديدة والمزينة بالرايات الملونة، مختنقاً بعشرات السفن اليابانية الحربية المهيبة. وتغيّر مظهر الشوارع العريضة التي يغمرها ضوء القمر. فوجدتها مليـئة بأكـوام مـن القمامة، ورأيت القوارض تعدو بجرأة باحثة عن طعامهـا. إن شـنغهاي، بالـرغم من فخامتها، مبنية على أسس غير مستقرة. ولا يبقى أي شيء في مكانه الصحيح. إذ إن التوابيت المدفونة مـن دون أوزان من الرصاص تطفو إلى السطح. وتستخدم المصارف رجـالاً ليـتفقدوا أساساتها يومياً ليتأكدوا من أن حمولتها من الفضة والذهب لا تتسبب في ميلان البناء. لقد هبطت وأختي ماي من مدينة شنغهاي الآمنة العالية إلى مكان مزعزع شبيه بالرمال المتحركة.

لقـد أصبح دخلي ودخل ماي الآن ملكاً لنا، ولكن من الصعب أن ندخـر أي شـيء. إذ بعد أن نعطي الطاهي المال ليشتري الطعام، نبقـى شـبه مفلسين. ويقضّ القلق الذي يراودني كل يوم مضجعي ويؤرق جفوني. وإن استمرت الأوضاع على هذا النحو، فسرعان ما سنعيش على حساء العظام. هكذا، أدركت أنه يجب عليّ أن أعود إلى زي جي لي إذ أردت أن أدخر أي مبالغ تستحق العناء.

قلت لـماي: "لقد نسيت أمره. ولا أعرف حتى ما الذي كان يعجبني فيه، فهو نحيل جداً ونظارته بشعة. لا أظن أنني سأتزوج زواجاً حقيقياً أبداً. إن هذا التصرف بورجوازي جداً، والجميع يقولون هذا".

إنني بالطبع لم أكن أعني أي كلمة قلتها، ولكن ماي التي أعتقد أنها تعرفني حق المعرفة، أجابت قائلة: "يسرني أنك تشعرين بتحسن. يسرني هذا فعلاً. سيجد الحب الحقيقي طريقه إلى قلبك. وأنا واثقة من ذلك".

ولكن الحب الحقيقي عثر على طريقه إليّ. فبقيت أعاني من أفكار تساورني عن زي جي لي، ولكنني دفنت مشاعري داخلي. ارتديت وماي ملابسنا ثم دفعنا أجرة عربة للركوب إلى شقة زي جي لي. وفي الطريق، بينما كان ركاب آخرون يصعدون ثم يترجلون، كنت أتألم لأن رؤية زي جي لي في غرفته حيث راودتني أفكار طفولية جداً ستتركني محطمة من شدة الإحراج. ولكن حين وصلنا تصرّف زي جي لي وكأن شيئاً لم يحدث.

"لقد أنهيت إعداد طائرة ورقية جديدة، يا بيرل. إنها عبارة عن سرب من الطيور. تعالي وألقي نظرة عليها".

توجهت إليه وأنا أشعر بالإحراج للوقوف قربه هكذا. فبدأ يثرثر عن الطائرة التي تبدو متقنة جداً. إذ إن عيني كل طائر مصممتان لتدورا مع الرياح. وفي كل قسم من هيكل الطائرة، ثبّت زي جي لي جناحين واضحين من الريش يرفرفان بفعل النسيم.

قلت له: "إنها جميلة".

فسألني زي جي لي قائلاً: "إذاً، سنطيّرها نحن الثلاثة معاً حالما أنتهي من صنعها".

ليست دعوة، ولكنها مجرد عبارة تصريحية. فخطر لي أن عدم انزعاجه من تصرفي عندما جعلت من نفسي عرضة للسخرية يجب

أن يدفعني بدوري إلى عدم الشعور بأي انزعاج، إذ يجب عليّ أن أقسو على نفسي لأمحي مشاعري العميقة التي تحدد بعمري.

قلت له: "يسرني أن أفعل هذا. يسرنا أنا وماي أن نفعل هذا".

ابتسما لبعضهما والراحة تبدو واضحة عليه. ثم قال وهو يفرك يديه معاً: "هذا عظيم. لنعد إلى العمل الآن".

تراجعت ماي خلف ستارة وغيّرت ملابسها. فارتدت سروالاً قصيراً أحمر اللون وبلوزة صفراء مربوطة خلف عنقها، ووضع زي جي لي وشاحاً على شعرها وربطه تحت ذقنها. وارتديت أنا بذلة سباحة حمراء مزينة بالفراشات ذات تنورة قصيرة وحزام محكم على الخصر. فوضع زي جي لي قوساً أبيض وأحمر على شعري. ثم ركبت ماي دراجة ووضعت إحدى قدميها على الدواسة وأبقت الأخرى على الأرض للموازنة، فيما وضعت يدي على يدها التي على المسكة، وثبّتُّ الدراجة باليد الأخرى على مسند كرسي ماي. فألقت عليّ نظرة خاطفة من فوق كتفها فيما كنت أحدق إليها. وعندها قال زي جي لي: "هذا رائع. ابقيا ثابتتين". لم يكن أيّ شيء يغريني بالنظر إليه، بل بقيت مركزة على ماي وأنا أبتسم متظاهرة أن شيئاً لا يسعدني أكثر من دفع دراجة ماي على طول تلة عشبية تطلّ على المحيط لتروّج لبخاخ الذباب والبعوض.

لاحظ زي جي لي أن المحافظة على هذا الوضع صعبة، لذلك سمح لنا بأخذ استراحة بينما كان يعمل هو على رسم الخلفية لبعض الوقت. فرسم مركباً شراعياً على الأمواج ثم سأل: "هل ترغبين يا ماي في أن ترى بيرل ما كنا نعمل عليه؟".

ذهبت ماي إلى خلف الستارة لتغير ملابسها بينما أبعد زي جي لي الدراجة ثم رفع الستارة الخلفية وجرّ عربة منخفضة صغيرة إلى وسط

الغرفة. عادت ماي مرتدية ثوباً خفيفاً خلعته عندما وصلت إلى الغرفة، فشعرت بالصدمة لأنها تبدو مرتاحة في هذا الموقف. ثم تمددت على جنبها ومرفقها مثني ورأسها مستند إلى يدها. ثم غطاها زي جي لي بقطعة من الحرير الرقيق، ثم اختفى للحظة، وعاد ومعه بعض أزهار الفاوانيا الزهرية. ثم انتزع سيقانها، ونثر البراعم حول ماي بعناية. ثم كشف عن الصورة التي كانت مخفية تحت قطعة قماش على مسند الرسم.

إن اللوحة شبه منتهية ومتقنة جداً. ويبدو لون براعم زهرة الفاوانيا منعكساً على بشرة ماي. لقد استخدم زي جي لي تقنية الحك والرسم مستخدماً مسحوق الكربون على صورة ماي، ثم واضعاً الألوان المائية ليضفي مسحة وردية على وجنتيها وذراعيها. فتبدو وكأنها خرجت لتوها من حوض استحمام حار. ويمنحها طعامنا الجديد المكون من الكثير من الأرز والقليل من اللحم وشحوبها من أحداث الأيام الماضية مظهراً موحياً بالكسل والتراخي. كان زي جي لي قد سبق له أن رسم العينين بالطلاء الذاكي اللامع كي تبدوا وكأنهما تلحقان بالمتفرج، وتشيران إليه، وتغريانه، وتتحاوران معه. ترى ما الذي تروح له ماي؟ أهو سائل استحمام للنحر اللامع، أم مرهم للشعر، أم إحدى ماركات السجائر؟ لا أعرف بالضبط، ولكني عندما نقلت عيني من أمي إلى الصورة، رأيت أن زي جي لي قد أظهر في الصورة الشاعر، الأمر الذي لم يحققه إلا عظماء الرسامين القدماء في أعمالهم.

بالرغم مما تقدم، شعرت بالصدمة الشديدة. إذ إن تصرفها هذا يظهر لي أيضاً المدى الذي وصل إليه انحطاطنا، ولكني أفترض أن هذا مجرد جزء لا مفر منه من تدهورنا المؤدي إلى الهاوية. فعندما بدأنا أول

الأمر بعرض للفنانين، شجعونا على الجلوس متشابكي الساقين ونحن نضع أغصاناً من الزهور على حضننا، وهذه وضعية تذكر بالحظيات من أيام الفترة الإقطاعية. ثم طلبوا منا لاحقاً أن تضع كل منا يديها خلف رأسها وتكشف عن إبطها، وهي وضعية استخدمت منذ بداية التصوير الفوتوغرافي لتوحي بجمال زهور شنغهاي المشهورة، ورسمنا أحد الفنانين ونحن نطارد الفراشات في ظل أشجار الصفصاف بالرغم من أن الجميع يعلمون أن الفراشات ترمز إلى العشاق. ولكن هذا اللصق الجديد يأخذنا إلى مرحلة متقدمة تتجاوز ذلك الذي نرقص فيه رقصة التانغو معاً. إن هذه لوحة جميلة. ولا بد من أن ماي قد تمددت هكذا لساعات تحت أنظار زي جي لي.

لكنني لست مصدومة أيضاً بل خائبة الأمل لأن ماي سمحت لزي جي لي أن يقنعها بعمل هذا، وغاضبة منه لأنه استغل ضعفها، وحزينة لأنه يتوجب عليّ وعلى ماي أن نتحمل كل هذا الذل. هكذا يؤول الحال بالنساء عندما ينحدرن إلى الشوارع ويبعن أنفسهن، ولكن هذا هو حال النساء في كل مكان أيضاً. فقد تمر إحداهن بحالة من الانحطاط، وسرعان ما تجد نفسها في الحضيض، وتصبح واحدة من أسوأ أنواع بائعات الهوى اللواتي يطاردن الصينيين الفقراء الذين لا يمانعون أن يلتقطوا مرضاً لعيناً مقابل بضع لحظات من المتعة الرخيصة.

بالرغم من شدة انحداري وضعف همتي، إلا أنني كنت أعود إلى زي جي لي في اليوم التالي والذي يليه لأننا بحاجة إلى المال. وسرعان ما تنازلت عن الكثير. يقول الناس إنه يجب على المرء أن يتحلى بالذكاء والقوة وحسن الحظ لينجو من الأيام العصيبة والحرب والكوارث الطبيعية والعذاب الجسدي، ولكني أقول إن العذاب العاطفي والقلق والخوف والشعور بالذنب والانحطاط أسوأ من ذلك بكثير. إنها المرة

صاح قائلاً: "إنكما لا تدركان فداحة ما فعلتماه. ستقع في ورطة كبيرة".

فقالت له ماي بنعومة: "إنك تقلق كثيراً. لقد غادر لوي العجوز وأبناء شنغهاي. وفي غضون بضعة أيام، سيغادرون الصين إلى الأبد ولن يستطيعوا أن يلحقوا بنا أي أذى".

فانقبضت ملامح وجه والدي من فرط الغضب. وللحظة، ظننت أنــه سيضرب ماي، ولكنه عندئذ عصر قبضتي يديه ومشى إلى الصالة وضــرب الباب. فنظرت ماي إليّ وهزّت كتفيها. عندئذ، أخذتنا أمنا إلى المطبخ وأمرت الطاهي أن يعد لنا الشاي ويعطينا بعض كعك الزبد الإنكليزي الفاخر الذي كان يخفيه في علبة معدنية.

بعد أحد عشر يوماً، هطل المطر في الصباح، مما خفف من درجة الحــرارة والرطوبة قليلاً. فاستدعى زي جي لي سيارة أجرة لتقلنا إلى منطقة لونغوا بالهوا على أطراف المدينة لنطير طائراته الورقية. إنه ليس أجمــل مكــان يمكننا الذهاب إليه. إذ إن فيه مهبطاً للطائرات، ومكاناً لتنفيــذ أحكام الإعدام، ومخيماً للقوات الصينية. مشينا بثقل عبر الحقل إلى أن عثر زي جي لي على موقع ليهيئ فيه الطائرة. وجاء بعض الجنود الــذين يستطلعون أحذية رياضية مهترئة، ويرتدون ملابس موحدة غير متناســـقة، ويــضعون شــارات على أكتافهم، متخلين عن جرو كانوا يلاعبونه، ليساعدونا.

بـــدا كـــل طائـــر معلقاً بالخيط الرئيس بخطاف وخيط مستقل. فأمسكت ماي الطائر الرئيس ورفعته في الهواء. وبمساعدة الجنود، أضيف طائر آخر إلى الخيط الرئيس، وهكذا طار طائر تلو الآخر إلى أن أصبح هناك سرب كامل من اثني عشر طيراً تنقض وتحلق وتغوص في السماء. فتبدو حرة جداً هناك في الأعلى. تطاير شعر ماي في النسيم وحجبت

الأولى التي أعاني فيها وأحن من وضع مستـــرف للطاقة كهذا. وبينما يجافـــيني النوم، تنسحب ماي إلى أعماق ذاتها. فتغفو في سريرها حتى الظهر، وتأخذ فترات قيلولة في النهار. وفي بعض الأحيان، يغلبها النوم في شــقة زي جـــي لي وهو يرسمها، فيسمح لها بالتخلي عن وضعيتها لتــتمكن من التمدد على الأريكة. وبينما كان يرسمني، كنت أنظر إلى مــاي وأصابعها موضوعة على وجهها من دون أن تغطيه كلياً، ويدلني هذا على عمق كآبتها حتى وهي نائمة.

إننا أشبه بالقريدس الذي يغلي ببطء حتى الموت في قدر من الماء. فنعــرض نفســـينا لزي جي لي، ونحضر الحفلات، ونحتسي الشراب، ونــرتاد النوادي مع بيتسي، وندع الآخرين يسددون حسابنا، ونذهب إلى الســـينما، ونتفرج على متاجر الأزياء. إننا بكل بساطة لا نفهم ما يجري لنا.

أوشك الموعد الذي يفترض بنا أن نغادر في أثنائه إلى هونغ كونغ لنلاقي زوجينا أن يحلّ. ولكننا بالطبع لا ننوي أن نصعد على متن تلك الباخــرة. ولم يعـــد في وسعنا أن نفعل ذلك حتى لو أردنا فعله لأنني تخلــصت من التذكرتين من دون علم والدي. كنت أتظاهر وماي أننا نحـــزم أمتعتنا لئلا نثير شكوكهما ونستمع إلى نصائحهما بشأن السفر. وفي الليلة التي تسبق موعد مغادرتنا المحدد، اصطحبانا لتناول العشاء وهمـــا يتحدثان عن مدى الشوق الذي سيشعران به لغيابنا. في الصباح الباكـــر، استيقظت وماي وارتدينا ملابسنا، وغادرنا البيت قبل أن يستيقظ أحد آخر. وعندما عدنا إلى البيت في مساء ذلك اليوم، وذلك بعـــد إبحار الباخرة بوقت طويل، بكت أمي من فرط السعادة لرؤيتنا بينما صرخ أبـــي في وجهينا بسبب عدم أمانتنا واعتدائنا.

يشعّ النور من عينيها وهي تحدق إلى السماء. وحمل الضوء لطائرة زي حي لي تلمع وهو يبتسم ابتسامة عريضة. أشار إليّ لأذهب إليه، ثم سلمني قيادة الطائرة. إن الطيور مصنوعة من الورق والخشب الخفيف، ولكن هبوب الرياح قوي جداً. لذا، جاء زي حي لي من خلفي ووضع يديه فوق يدي ليثبت التحكم بالطائرة. فاستمتعت بقربه مني. ولا بدّ من أنه يدرك شعوري نحوه، ولكن حين أمسك بي ظننت أني سأرتفع وأحلق مع الطيور إلى ما وراء الغيوم.

لقد اعتادت أمي أن تقص علينا قصة عن جدجد واقف على قمة الشجرة. يزقزق الجدجد ويشرب الندى وهو غافل عن وجود سرعوفة مفترسة خلفه. وتمد السرعوفة قوائمها الأمامية الطويلة لتمسك الجدجد، ولكنها لا تعلم أن هناك طيراً جاثماً خلفها. ويمد الطير عنقه لينقض على السرعوفة ليتناول وجبة منتصف النهار، ولكنه غير مدرك لوجود صبي أتى من الحديقة ومعه شبكة. إنها ثلاثة مخلوقات، الجدجد والسرعوفة والطير، وكلها مكاسب مشتهاة لا تدرك الخطر الأكبر الذي يحدق بها ولا مفر لها منه.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، بدأ أول تبادل لإطلاق النار بين الجيشين الصيني والياباني.

الفصل الرابع

براعم الخوخ البيضاء

في صباح اليوم التالي، في الرابع عشر من شهر آب، استيقظنا متأخرين على صوت حركة الناس والحيوانات خلف جدراننا. رفعنا الستائر فرأينا حشوداً من الناس تتدفق مروراً ببيتنا. فهل أثار ذلك المشهد فضولنا؟ بالطبع لا، لأننا مشغولتان بكيفية تمكننا من تحقيق أقصى استفادة من الدولار الواحد الذي يجب أن ننفقه خلال جولة التسوق التي نعتزم القيام بها. ليس هذا اهتماماً سطحياً لأنه يجب علينا كفنانين جميلين أن نملك ملابس عصرية. إذ كنت أقوم وماي بعمل ما يمكن عمله من خلال مزج الملابس الغربية التي تركها لنا لوي العجوز وترتيبها. ولكن، يجب علينا أن نبقى مواكبتين للتيار. إننا لا نفكر في أزياء الخريف الجديدة لأن الفنانين الذين نعمل معهم بدأوا منذ الآن يعدون التقاويم والإعلانات من أجل موسم الربيع القادم. ترى كيف سيصمم المصممون الغربيون الملابس في السنة القادمة؟ هل سيضاف زر إلى الياقة؟ أم ستصبح الحاشية أقصر؟ أم إن الياقة ستصبح أوسع أو سيصبح الخصر أضيق؟ قررنا أن نذهب إلى شارع نانكينغ لنشاهد واجهات المتاجر، ونحاول أن نتخيل ما سيكون عليه التغيير. ثم توقفنا في قسم لبيع الأدوات الصغيرة في متجر وينغ الكبير لنشتري الأشرطة، والقماش المخرم، ونحوها، ولنرتب ملابسنا ونضفي عليها مظهراً أنيقاً.

ارتدت ماي فستاناً مزركشاً ببراعم الخوخ البيضاء على خلفية زرقاء، بينما ارتديت أنا سروالاً أبيض فضفاضاً وبلوزة كحلية اللون

ذات كعبين قصيرين. ثم أمضينا فترة الصباح، ونحن نبحث في ما نلقى في خزانتنا. إذ من طبيعة ماي أن تمضي ساعات أمام مرآة الزينة وهي تختار الوشاح المناسب لتربطه على عنقها أو الحقيبة الملائمة لحذائها ثم تخبرني بما ينبغي أن نبحث عنه لأدوّنه.

في فترة العصر المتأخر، اعتمرنا قبعتينا، وأخذنا مظلتينا لتحميانا من شمس الصيف المحرقة. فنحن في شهر آب والطقس حار جداً ورطب في شنغهاي، وتبدو السماء بيضاء وقاسية بفعل الحرارة والغيوم، ولكنّ هذا اليوم حار وصاف. وقد أجرؤ على القول إنه لطيف لولا وجود آلاف الناس المحتشدين في الشوارع. فتراهم يحملون السلال، والدجاج، والملابس، والطعام، وألواح الأسلاك. هناك جدات وأمهات ذوات أقدام مربوطة يمشين ويدفعهن أبناؤهن وأزواجهن. وهناك إخوة يجرون إخوتهم وأخواتهم الصغار في سلال وضعت على عربات صغيرة، فيما تنقل عربات أخرى المرضى والمسنين والمشوهين. هناك من يملكون المال ليدفعوه إلى العمال لقاء حمل حقائبهم وصناديقهم وأمتعتهم، ولكنّ معظم الناس فقراء وقادمون من الريف. شعرت وماي بالسعادة للركوب في العربة والابتعاد عنهم.

سألت ماي قائلة: "من هؤلاء؟".

كان يجب عليّ أن أفكر ملياً لأعثر على الجواب الصحيح. هذا هو مدى العزلة التي أحطت بها نفسي عما يجري حولي. ثم اخترت كلمة لم أتفوه بها بصوت مرتفع من قبل قط.

"إنهم لاجئون".

فعبست ماي وهي تحاول أن تستوعب ما قلته.

لو جعلت الأمر يبدو وكأن هذه الفوضى المفاجئة قد هبطت علينا من المجهول، فلأنها كانت كذلك بالنسبة إلينا. إذ إن ماي لا تبدي

الكثير من الاهتمام بالعالم الخارجي، ولكني على اطلاع على بعض الأمور. ففي العام 1931، وعندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، غزت عصابات اليابانيين، الذين ندعوهم الأقزام، منشوريا في أقصى الشمال، وعينت حكومة موالية لها. وبعد أربعة أشهر، وفي مطلع العام الجديد، عبروا إلى مقاطعة تشابي عبر نهر تشونغشاو إلى جانب مدينة هونغكيو حيث نعيش. في البداية، ظننا أنها ألعاب نارية. فأخذني والدي إلى آخر شارع جيشون، وهناك رأينا الحقيقة بأم عيوننا. وكان من المريع أن نرى منظر القنابل التي تنفجر، وأهالي شنغهاي مرتدين ملابس نومهم وهم يحتسون الشراب من الأباريق، ويتناولون الفطائر، ويدخنون السجائر وهم يضحكون لدى رؤيتهم هذا المشهد. لقد حارب جيش الطريق التاسع عشر الصيني اليابانيين من دون مساعدة الأجانب الذين جعلتهم مدينتنا أثرياء. ولم يوافق اليابانيون على وقف إطلاق النار طوال أحد عشر أسبوعاً. لم تتم إعادة بناء تشابي، وهكذا، تركنا تلك الحادثة تُمحى من أذهاننا.

خلال الشهر الماضي، أطلقت المدافع على جسر ماركو بولو في العاصمة، وهكذا أعلنت الحرب بشكل رسمي، ولكنّ أحداً لم يعتقد أن عصابات الأقزام ستتوغل في الجنوب بهذه السرعة. وراح الجميع يفكرون في أنهم قد يستولون على هوبيي أو شاتونغ أو شانسي أو القليل من هونان، ولكنهم سيستغرقون وقتاً ليحكموا قبضتهم على كل الإقليم. وبعد أن يثبتوا سيطرتهم ويضعوا حداً للثورات، سيفكرون في التوجه إلى الجنوب إلى دلتا نهر يانغتسي. وسيصبح اسم الشعب البائس الذي سيعيش تحت الحكم الأجنبي عبيد البلاد الضائعة. إننا لا نستوعب الآن أن سيل اللاجئين الذين يعبرون جسر غاردن يمتد عشرة أميال إلى الريف. فهناك الكثير مما نجهله.

إننا ننظر إلى العالم بالطريقة نفسها التي ينظر بها إليه الفلاحون في الريف منذ ألف سنة. فطالما كانوا يقولون إن الجبال عالية والإمبراطور بعيـد، وهذا يعني أن مكائد القصر والتهديدات الإمبراطورية ليس لها تأثير في حياتهم. فكانوا يتصرفون وكأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يحلو لهـم من دون خوف من العقاب أو التبعات. أما في شنغهاي، فنفترض جميعاً أن ما يحدث في مكان آخر في الصين لن يمسنا بسوء أبداً. على كـل حـال، فبقية البلاد كبيرة ومتخلفة ونحن نعيش في مدينة مرفهة يحكمهـا الأجانب بناء على معاهدة. لذا، فنحن عملياً لسنا جزءاً من الصـين. بالإضافة إلى ذلك، نحن نعتقد أنه حتى إن وصل اليابانيون إلى شنغهاي، فسيتغلب جيشنا عليهم ويجبرهم على التراجع كما فعل قبل خمس سنوات. ولكن القائد العام شيانغ كاي شيك لديه فكرة مختلفة، فهـو يريد أن يستدرج اليابانيين ليأتوا إلى الداخل حيث سيحث على الفخـر القومـي والمقاومـة، وفي الوقت نفسه سيقوي المشاعر ضد الشيوعيين الذين يحرضون على قيام الحرب الأهلية.

بالطبع لم تكن لدينا أي فكرة عن ذلك، ونحن نعبر جسر غاردن، وندخل المستوطنة الدولية. كان اللاجئون يضعون حوائجهم ويتمددون علـى الأرصفة، ويجلسون على درجات المصارف الكبيرة، ويحتشدون علـى أرصـفة التحميل، فيما يتجمع المتفرجون في مجموعات ليراقبوا طائـراتنا وهـي تحـاول أن تسقط القنابل على البوارج، والمدمرات، وكاسحات الألغام اليابانية، والسفن الحربية المحيطة بها.

يخطو رجال الأعمال والمتسوقون الأجانب بعزلة على ما هو تحت أقـدامهم، ويتجاهلون ما يحدث في الجو. وكأن أموراً من هذا النوع تحدث كل يوم. يبدو المزاج العام السائد يائساً واحتفالياً وغير مبال في الوقت نفسـه. ويعتبر القصف على كل حال وسيلة للتسلية لأن

المستوطنة الدولية، بصفتها مرفأ بريطانياً، غير معرضة لأي تهديد من اليابانيين.

يتوقف الرجل الذي يجر العربة عند ناصية طريق نانكينغ. فندفع إليـه المبلغ المتفق عليه، وننضم إلى الحشد. تجلب كل طائرة تحلق فوقنا هتافات التشجيع والتصفيق، ولكن كل قنبلة تخطئ هدفها وتسقط بلا أذى في النهـر لتحوّل الهتافات إلى صيحات استهجان. إن كل ذلك، علـى مـا يبدو، ليس أكثر من لعبة مسلية تتحول لتصبح مملة في نهاية المطاف.

تمشيت وماي الهوينـا في طريق نانكينغ لنبتعد عن اللاجئين، ونراقب أهالي شنغهاي ونرى ما يرتدونه. وخارج فندق كاثاي، صادفنا تومي هو الذي يرتدي بذلة قطنية بيضاء ويعتمر قبعة من القش مردودة إلى الـوراء. فيبـدو مبتهجاً لرؤية ماي بينما تكتسـب هي طابع الغنج والدلال. ولا يسعني إلا أن أتساءل إن كانا قد خططا لهذه المقابلة.

عـبرت الشارع لأترك ماي وتومي جالسين وهما يلمسان أيدي بعـضهما برقة. وعندما وصلت أمام فندق بالاس، سمعت ضجة عالية ملفتـة. فلم أعرف ما الذي يجري، ولكنني اندفعت إلى الأمام بشكل فطـري، ورأيـت الناس حولي ينبطحون أرضاً أو يهربون إلى مداخل الأبـواب. نظرت إلى الخلف فرأيت طائرة فضية تطير طيراناً منخفضاً، إنها من طائراتنا، ثم انطلقت النيران المضادة للطائرات من إحدى السفن اليابانيـة. في البـداية، بدا وكأن عصابات الأقزام قد أخطأت هدفها، فهلّل بعض الناس فرحاً. ثم رأينا الدخان يتصاعد من الطائرة.

انحـرفت الطائرة نحو طريق نانكينغ بعد أن نالتها النيران المضادة للطائـرات. ولا بد من أن الطيار أدرك أن طائرته ستتحطم لأنه ترك فجـأة القنبلـتين المثبتتين بالجنـاح تسقطان. وقد بدا عليهما أنهما

مستغرقان وقتاً طويلاً لتصلا إلى الأرض. لم أسمع صوت صفير، وشعرت بتسيلات بسبب الغثيان مترافق مع صوت الانفجار عندما سقطت القنبلة الأولى أمام فندق كاثيه. اهتزت الدنيا حولي و لم أستطع أن أسمع شيئاً، وتوقفت رئتاي عن التنفس و كأن الانفجار قد عطل قدرة جسدي على العمل. بعد لحظة واحدة، سقطت قنبلة أخرى من خلال سقف فندق بالاس وانفجرت. فتطاير الركام والزجاج وقطع اللحم والأشلاء البشرية فوقي.

يقال إن أسوأ جزء من تجربة الانفجار هو لحظات الشلل التام والصمت اللذين يليان الانفجار مباشرة. فالأمر أشبه - وأعتقد أن هذا التعبير مستخدم في كل ثقافة - بتوقف الزمن ساكناً. هكذا يبدو الوضع بالنسبة إليّ. وقفت مسمرة في مكاني، وقد انتشر الدخان وغبار الجص في الهواء. وفي نهاية المطاف، سمعت صوت تحطم الزجاج من نوافذ الفندق وصوت أحدهم يئن وآخر يصرخ. خلّف الرعب التام الشارع عندما حلّقت قاذفة قنابل أخرى فوقنا في الجو. وبعد دقيقة أو دقيقتين، سمعنا صوت انفجار قنبلتين أخريين وشعرنا بتأثيرهما. إذ سقطت القنبلتان، كما أكتشف لاحقاً، على تقاطع شارعي إدوارد السابع وشارع ثيت قرب مضمار السباق حيث يتجمهر عدد كبير من اللاجئين للحصول على الأرز والشاي المجانيين. فتسبّبت القنابل الأربع جميعاً بجرح العديد من الناس وتشويههم وقتلهم.

إن الفكرة الأولى التي خطرت ببالي هي ماي. إذ يجب أن أعثر عليها. مشيت متعثرة فوق بضع جثث مدماة وذات ملابس ممزقة. و لم أستطع أن أكتشف إن كانوا من اللاجئين أو من أهالي شنغهاي أنفسهم. وكانت الأشلاء البشرية متناثرة في أنحاء الشارع. ثم خرجت مجموعة من نزلاء الفندق وطاقمه وهم يتدافعون من خلال أبواب

الفندق، ويندفعون إلى الشارع ومعظمهم يصرخون والكثير منهم ينزفون. وجرى الناس فوق الجرحى والموتى، فانضممت إلى التدافع الهائج لأنني أريد العودة إلى المكان الذي تركت فيه ماي وتومي، ولكنني لم أستطع أن أرى شيئاً. فركت عيني محاولة بلا جدوى أن أتخلص من الغبار والرعب. فعثرت على جثة تومي. ومئزره من بذلته البيضاء، ولكن ماي ليست معه، الحمد لله، ولكن أين هي؟

التفت مرة أخرى إلى فندق بالاس ظناً مني أنني لم أنتبه إليها بسبب العجلة. فهذا شارع نانكينغ مفروشاً بالأموات والمحتضرين. ومشى بضعة رجال ذوي إصابات شديدة مترنحين في وسط الشارع. فلما اشتعلت النيران في بضع سيارات وبدت نوافذ سيارات أخرى محطمة وفي داخلها المزيد من الجرحى والقتلى. بدت السيارات، والقطارات، والعربات التي تجر باليد محطمة، وكذلك بدا الناس داخلها مشوهين بسبب الشظايا. وبدت الأبنية، والواجهات، والأسيجة مرشوشة بالأشلاء البشرية. عندما مشيت على الرصيف وجدته زلقاً من الدماء المتخلطة. أمّا الزجاج المحطم فكان يلمع على الشوارع كالألماس، فيما تُحرق الرائحة النتنة بسبب حرارة آب عينيّ وأنفي وحنجرتي.

ناديت وأنا أخطو بضع خطوات: "ماي!"، وظللت أردد اسمها محاولة أن أسمع إجابتها في غمرة الفزع والدوامات التي تدور حولي. كنت أتوقف لأتفحص كل جريح أو جثة بحثاً عن ماي. فتبدو فرص نجاتها معدومة بوجود كل هؤلاء الموتى، إذ إنها رقيقة جداً ويسهل تعرضها للأذى.

وعندئذ، وفي غمرة كل الدماء والجثث، رأيت من خلال الحشد رقعة من القماش الأزرق وشكل براعم الخوخ البيضاء. أسرعت إلى

الأمام، فرأيت أختي مدفونة جزئياً تحت الجص والركام. لا بد من أنها فاقدة الوعي أو ميتة.

"ماي! ماي!".

لكنها لم تحرك ساكناً، فاعتصر الخوف قلبي. وعندما ركعت قربها، لم أرَ أي جروح، ولكن ثوبها تشرّب الدماء من امرأة جريحة ممددة إلى جانبها. أبعدت الركام عن ثوب ماي، وانحنيت قريباً من وجهها، فرأيته بيضاء كالشبح. ناديتها بنعومة قائلة: "ماي. استيقظي، هيا يا ماي، استيقظي".

تحركت قليلاً، فناديتها مجدداً. وعندئذ فتحت عينيها، وأنّت ثم أغلقتهما مرة أخرى.

رشقتها بسيل من الأسئلة قائلة: "هل أنت جريحة؟ هل تشعرين بالألم؟ هل تستطيعين التحرك؟".

وعندما أجابت عن أسئلتي بسؤال آخر استرخى جسدي كله.

"ماذا حدث؟".

"لقد انفجرت قنبلة، ولم أستطع العثور عليك. قولي لي إنك على ما يرام".

فسلت إحدى كتفيها ثم الأخرى، فأجفلت، ولكن ليس من الألم.

وقالت: "ساعديني".

وضعت يدي خلف عنقها وجذبتها لتجلس، وعندما تركتها شعرت يدي دبقة من الدم.

في كل مكان حولنا، أنّ الناس بسبب جراحهم الأليمة، وصاح بعضهم طالبين المساعدة. أما بعضهم الآخر فلفظوا الأنفاس الأخيرة بعد أن عاشوا حياة معذبة، وصرخ غيرهم رعباً لدى رؤيتهم جثث

أحبائهم، ولكنني شعرت أن هناك صمتاً ضمنياً يجمد دمي ويشعرني أن الموتى يتحصون أصوات الحياة إلى جوانبهم للظلم.

وضعت ذراعي حول ماي لأساعدها على النهوض على قدميها، ولكنها بدت منهارة، فتملكني القلق من أن تفقد وعيها مجدداً. ثم مشينا بضع خطوات وذراعي حول خصرها. إلى أين نذهب؟ فلم تصل سيارات الإسعاف بعد ولا نستطيع حتى أن نسمع صوتها من بعيد. ولكن، من الشوارع المجاورة، جاء أناس غير مصابين بأذى يرتدون ملابس نظيفة بشكل مثير للدهشة، وهرعوا ليتفقدوا المصابين والقتلى.

سألتني ماي قائلة: "ماذا حل بتومي؟"، وعندما هززت رأسي، قالت: "خذيني إليه".

لم أكن أعتقد أنها فكرة حسنة، ولكنها كانت تصر على ذلك. وعندما وصلنا إلى جثته، ارتعشت ركبتا ماي، فأجلستها على الإفريز لتستعيد نفسها. وبدا شعر ماي أبيض من غبار الجص وكأنها شبح، وبدوت أنا على الأرجح مثلها.

قلت لها: "يجب أن أتأكد من أنك غير مصابة بأذى". وذلك كي أصرف انتباهها عن جثة تومي، ثم قلت: "دعيني ألقي نظرة".

أدارت ماي ظهرها إليّ بعيداً عن جثة تومي. فبدا شعرها ملطخاً بالدم المتخثر، وهذا ما أعتبره دلالة حسنة. فرّقت خصلات شعرها بحرص إلى أن عثرت على جرح في الجزء الخلفي من رأسها. إنني لست طبيبة، ولكن لا يبدو لي أنه بحاجة إلى تقطيب. ومع ذلك، فهي مصابة وأريد أن يخبرني أحد أنه من الآمن أن آخذها إلى البيت. انتظرنا طويلاً. ولكن، حتى بعد أن جاءت سيارات الإسعاف لم يحضر أحد لمساعدتنا، فهناك كثيرون غيرنا بحاجة إلى الاهتمام الفوري. وعندما هدأت الأمور، قررت أنه ينبغي لنا أن نعود إلى البيت، ولكنّ ماي رفضت أن تترك تومي.

"لقد عرفناه طوال حياتنا. ماذا ستقول أمي إن تركناه هنا، وماذا عسى أمه؟..."، ارتجفت ماي، من دون أن تبكي، إذ إن صدمتها أشد وطأة من ذلك.

عندما وصلت سيارات الإسعاف لتأخذ الجثث، شعرنا بارتياح نسبي من سقوط قنابل وسمعنا صوت المدافع الآلية من بعيد. فلم يخامر الشك أي شخص منا في الشارع حيال ما يجب فعله، وهو أن عصابات الأقزام ستداهم المكان. إنهم لن يقصفوا المنطقة الدولية أو الامتيازات الأجنبية، ولكن لا بد من أن نشابي وهونغكيو وتشابيا ناون القديمة والمناطق الصينية المحيدة أصبحت تحت نيران المدافع. صاح الناس وصرخوا، ولكني وماي قاومنا خوفنا وبقينا قرب جثة تومي إلى أن تمّ وضعها على نقالة، ثم وضعها في إحدى سيارات الإسعاف.

قالت ماي عندما ابتعدت السيارة: "أريد أن أذهب إلى البيت الآن. سيكون والدي ووالدتي قلقين. ولا أريد أن أكون في الخارج عندما يأمر القائد العام المزيد من طائراتنا بالتحليق في الجو".

إنها على حق. فقد سبق وأثبتت قوة طيراننا أنها عديمة الكفاءة. فلسن نكون آمنين في الشوارع الليلة إن حلقت الطائرات في السماء مجدداً، ولهذا مشينا إلى البيت. بَدَونا ملطخين بالدماء وغبار الجص. فابتعد المارة عنا، وكأننا نجلب الموت مع كل خطوة نخطوها. إنني مدركة أن أمي ستفقد أعصابها عندما ترانا، ولكني كنت أتوق إلى رؤية دموعها وملامحها القلقة ثم التعرّض إلى غضبها الذي لا مفر منه.

دخلنا عبر الباب متوجهتين إلى الصالة. فرأينا الستائر الخضراء الداكنة ذات الطراز الأجنبي والكرات المخملية الصغيرة معلقة. فبعد أن أصاب التفجير خط الكهرباء بالضرر، وجدنا الغرفة مضاءة بضوء الشموع الناعم والدافئ والمريح. وفي غمرة جنون هذا اليوم، غاب

مستأجرونا عن ذهني، ولكني اكتشفت حينئذ أنهم لم ينسوا أمرنا. إذ رأيت الإسكافي جالساً القرفصاء إلى جانب والدي، بينما حام الطالب حول كرسي أمي محاولاً أن يطمئنها. وقفت الراقصتان مستودتين إلى الجدار وهما تحرّكان أصابعهما بعصبية. فيما جلست زوجة الشرطي وابناه على الكراسي.

عندما رأتنا أمي، دفنت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء. واندفع والدي عبر الغرفة واضعاً ذراعيه حول ماي وكاد أن يحملها إلى كرسيه. وتجمع الناس حولنا ولمسوها ليتأكدوا من أنها غير مصابة بأذى وربّتوا على وجهها وذراعيها وساقيها. وثرثر الجميع في وقت واحد.

"هل أنت مصابة؟".

"ماذا حدث؟".

"لقد سمعنا أنها طائرة معادية. إن أولئك القردة أسوأ من الوحوش".

توجهت زوجة الشرطي وابناه إليّ بعد أن انصب اهتمام الآخرين على ماي. فحدثت الفتاة الكبرى كنزي وقالت بصوت شجاع ومفعم بالأمل: "لم يأتِ والدي إلى البيت بعد. قولي لنا إنك رأيته".

ولكنني هززت رأسي نافية. فأمسكت الفتاة يد أختها الصغيرة وتوجهتا نحو إلى الكرسي، بينما أغمضت أمهما عينيها من الخوف والقلق.

الآن، بعد أن أصبحت وماي بمأمن، بدأت أحداث اليوم تتضح أمام عينيّ. إن أمي على ما يرام بعد أن نجحنا في الوصول إلى البيت. فتلاشى الخوف والإثارة اللذان حافظا عليّ قوية ومتماسكة. وشعرت الآن أنني خاوية وضعيفة وخائرة القوى. ولا بد من أن الجميع لاحظوا

ذلك لأنني شعرت فجأة بأيديهم تقودني إلى الكرسي. فتركت نفسي أغوص على الوسائد، فيما قرّب أحدهم كوباً من الشاي إلى شفتيّ.

بدأت ماي وهي واقفة بقربي تعداد ما تعتبره لائحة إنجازاتي. قالت: "لم تبك بول أبداً ولم تستسلم، وإنما بحثت حتى عثرت عليّ، واعتنت بي، وأحضرتني إلى البيت. إنها...".

فجأة سمعنا صوت طرقات على الباب الأمامي. فجمع والدي قبضتي يديه وكأنه يتوقع ما سيحدث. لم يعد لدينا خادم في البيت ليفتح الباب، ولكن أحداً لا يحرك ساكناً. إذ إن الخوف شل حركتنا جميعاً. ترى أهم اللاجئون يتوسلون طلباً للمساعدة؟ هل وصلت عصابات الأقزام إلى المدينة؟ هل بدأ السلب والنهب؟ أم إن هؤلاء بعض المحتالين الذين اكتشفوا أنهم يستطيعون أن يجمعوا ثروة من خلال المطالبة بنقود الحماية؟ رقبنا جميعاً بصمت بينما توجهت ماي إلى الباب وفتحته، ثم تراجعت بضع خطوات إلى الوراء ويداها مرفوعتان باستسلام.

دخل ثلاثة رجال بملابس مدنية، ولكن مظهرهم الذي لا يعني أنهم ليسوا خطرين. إذ إنهم ينتعلون أحذية جلدية مدببة، وهي الأفضل لإلحاق الأذى بالآخرين من خلال الركل، ويرتدون قمصاناً قطنية سوداء، وهي الأفضل لإخفاء بقع الدم، ويعتمرون قبعات سوداء منخفضة تخفي ملامح وجوههم. وجّه أحدهم مسدساً إلينا، بينما أمسك الآخر هراوة، ويكمن تهديد الثالث في جسمه الضخم القوي. لقد عشت في شنغهاي طوال حياتي تقريباً ويمكنني أن أميز أعضاء عصابة غرين في الشارع أو النادي وأتجنبهم، ولكنني لم أتوقع قط أن أرى واحداً منهم، ناهيك عن كونهم ثلاثة، في بيتنا. لم أرَ في حياتي غرفة تفرغ من قاطنيها بهذه السرعة. إذ اختفى كل مستأجري البيت،

بدءاً من ابني الشرطي وزوجته، إلى الطالب، إلى الفتاتين الراقصتين كأوراق الشجر التي تختفي في مهب الرياح.

تجاهل الثلاثة ماي ومشوا بلامبالاة داخلين الصالة. فارتعشت أوصالي بالرغم من دفء الطقس.

قال الرجل القصير وهو يقف بثبات أمام والدي: "هل أنت السيد تشن؟".

بدأ والدي - ولن أنسى هذا أبداً - بابتلاع ريقه حتى غصّ به، ثم حاول استرجاعه مجدداً وكأنه سمكة تلتقط أنفاسها على لوح من الإسمنت الحار.

"هل تعاني من ورم في حنجرتك أم ماذا؟".

حطت نظرة المتطفل الساخرة أبعد عينيّ عن والدي. فرأيت الرجل، وهو قائد هذه المجموعة الصغيرة على ما يبدو، يبصق على الأرض اشمئزازاً.

"لقد أخفقت في سداد ديونك لبوكمارك هونانغ، ولكن لا يمكنك أن تقترض النقود منه لسنوات عديدة وتوفر هذه الحياة المترفة لك ولعائلتك من دون أن تسدد الدين. ولا يمكنك أن تقامر في دور القمار الخاصة به من دون أن تدفع ثمن خسارتك".

لا يمكن أن تكون هناك أخبار أسوأ من هذه. إذ إن نفوذ بوكمارك هونانغ واسع جداً إلى درجة أن أي ساعة يد تسرق في أي مكان في المدينة يعيدها رجاله إلى صاحبها الأصلي في غضون أربع وعشرين ساعة، وذلك مقابل ثمن محدّد بالطبع. ومن المعروف عنه أنه يرسل توابيت إلى الناس الذين لا يسره التعامل معهم، وأنه يقتل الناس الذين يغشونه بلا شفقة أو رحمة. ولكن، من حسن حظنا كنا تلقينا هذه الزيارة من رجاله بدلاً من ذلك.

تابع رجل العصابة قائلاً: "لقد أعد بوكمارك هونانغ ترتيباً جيداً لك لتعيد إليه ماله. إن الخطة معقدة، ولكنها قابلة للتعديل. إنك مدين له بالمال، لذا، فهو يحاول أن يقرر ما يفعله بك". أمسك الرجل الشرير عن الكلام وحدّق إلى والدي، ثم قال: "هل ستشرح هذا لهم؟". وأشار إلينا بلا مبالاة، ولكنه أشعرني بطريقة ما أنه يهددنا. ثم قال: "أم أشرح لهم بنفسي؟".

انتظرنا من والدي أن يتكلم، ولكنه لم ينبس بحرف. فحوّل الرجل الشرير انتباهه إلينا.

وشرح قائلاً: "كان هناك دين مستحق يجب أن يتم سداده. وفي الوقت نفسه، أتى إلينا تاجر من أميركا يريد أن يشتري عربات لعمله وزوجتين لابنيه، وهكذا أعد بوكمارك هونانغ صفقة ثلاثية تعود بالنفع على الجميع".

لا أعرف رأي لي وماي، ولكنني أملت أن يفعل والدي شيئاً أو يقول شيئاً ليجبر هذا الرجل الرهيب وأتباعه على مغادرة البيت. ألا ينبغي لوالدي أن يفعل هذا؟ أليس هذا واجبه كزوج وأب؟

انحنى القائد نحو أبي مهدداً: "إن زعيمنا يأمرك أن تنفذ أوامر السيد لوي وتسلمه عرباتك وابنتيك. وبالمقابل لن يطلب منك أن تدفع أي مال، وسيسمح لك ولزوجتك بالبقاء في بيتك، وسيسدد السيد لوي دينك لنا بالدولار. وهكذا، سيحصل كل شخص على ما يريده ويعيش الجميع بسلام".

استشطت غضباً من والدي لأنه لم يطلعنا على الحقيقة، ولكن هذا تافه بالنسبة إلى الخوف الذي اعتراني حينها لأن والدي ليس وحده من أخفق في فعل ما هو مطلوب منه، ولكنني وماي أيضاً أغضبنا بوكمارك هونانغ. ولم يُضِع رجل العصابة وقتاً في التطرق إلى هذا الأمر.

"بالرغم من أن زعيمنا قد حقق ربحاً جيداً، تبقى هناك مشكلة عالقة، وهي أن ابنتيك لم تستقلا الباخرة. أي رسالة يقدمها هذا التصرف إلى الآخرين المدينين لبوكمارك هونانغ إن سمح لك بالنجاة بفعلتك؟". أبعد رجل العصابة نظره عن والدي وتفحص الغرفة. ثم أشار إليّ وإلى ماي: "هاتان هما ابنتاك، أليس كذلك؟". فلم ينتظر إجابة بل قال: "لقد كان من المفترض بهما أن تقابلا زوجيهما في هونغ كونغ. فلماذا لم يحدث هذا، يا سيد تشن؟".

"أنا...".

من المؤسف أن أعرف أن والدي ضعيف، ولكن من المريع أكثر أن أدرك أنه مثير للشفقة.

فتكلّمت بلعثم ومن دون تفكير قائلة: "إنها ليست غلطته".

نظر الرجل إليّ بعينيه القاسيتين، ثم توجّه إلى حيث أجلس وجلس القرفصاء أمامي، ثم وضع يديه على ركبتيّ، وضغط عليهما بقوة قائلاً: "وكيف حصل هذا، يا صغيرتي؟".

حبست أنفاسي وأنا مسمرة في مكاني من الخوف.

عبرت ماي الغرفة بسرعة، وأتت إلى جانبي، ثم بدأت بالكلام وهي تلفظ كل جملة بنبرة استفهامية قائلة: "لم نكن نعلم أن والدنا يدين بالنقود لعصابة غرين. لقد كنا نعتقد أنه مدين فقط لأحد الصينيين المغتربين. لقد ظننا أن لوي العجوز ليس مهماً ومجرد زائر".

أعلن القائد قائلاً: "لا فائدة من وجود بنات صالحات لرجل عديم القيمة". ثم وقف وتقدم بخطوات واسعة إلى وسط الغرفة، وأتى مساعداه إلى جانبه. وقال لوالدي: "سمحنا لك بالبقاء في هذا البيت لأنك وعدت بأن ترسل ابنتيك إلى بيتهما الجديد. وبما أنك لم تنفذ

هنا، فهنا لم يعد بيتك، ويجب أن تغادر بعد أن تسدد دينك. هل أخذ ابنتيك معي الآن؟ سنستفيد منهما جيداً".

كنت أصغي مما سيقوله والدي، لكنا تدخلت قائلة: "لم يفت الأوان على ذهابنا إلى أميركا. فهناك سفن أخرى".

"إن سوكمارك هونانغ لا يحب الكاذبين. وقد أثبتما من قبل أنكما لستما أمينين. ولا بد من أنك تكذبين عليّ الآن".

فتمتمت ماي قائلة: "نعدك أننا سنفعل ما تقوله لنا".

مدّ القائد يده بسرعة كما تفعل أفعى الكوبرا، وأمسك ماي من شعرها وجرها إليه. ثم قرّب وجهها من وجهه وابتسم قائلاً: "إن عائلتك مفلسة، وكان ينبغي لك أن تمشي في الشارع. سأسألك مجدداً، أليس من الأفضل أن تأتي معنا الآن؟ إننا نحب الفتيات الجميلات".

سمعت أحدهم يقول بصوت منخفض: "إن تذكرتهما معي. وسأحرص على أن تغادرا وأن تتم الصفقة التي رتبتموها مع زوجي من أجل سداد ديونه".

في البداية، لم أشعر أنني والقة من مصدر الصوت، ولم يبدُ على أحد أنه يعرفه. فنظرنا جميعاً حولنا ورأينا أمي التي لم تتفوه بكلمة واحدة منذ دخل الرجال إلى البيت. في تلك اللحظة، رأيت فيها القوة التي لم أرها من قبل. ربما كنا جميعنا نشعر هكذا حيال أمهاتنا، إذ إنهن يظهرن لنا عاديات جداً إلى أن يأتي يوم يصبحن فيه استثنائيات.

كرّرت أمي كلامها قائلة: "إن تذكرتهما معي". ولا بد من أنها تكذب، فقد رميتهما بالإضافة إلى معاملات الهجرة والأوراق التعليمية التي أعطاني إياها سام.

"ما نفع هاتين التذكرتين الآن؟ لقد فوتت ابنتاك الباخرة".

"ستستخدمان بتذكرتين أخريين. وهكذا، تستطيع الفتاتان أن تذهبا إلى زوجيهما". وقفت أمي هناك وهي تفتل منديلاً بين يديها ثم قالت: "سأحرص على هذا، وعندئذ سأترك أنا وزوجي البيت. قل هذا لسوكمارك هونانغ. وإن لم يعجبه ذلك فليأتِ إلى هنا ويناقش الأمر معي، نعم، ليناقشه معي أنا المرأة...".

قطع صوت إطلاق الرصاص حديث أمي بأزيزه المثير للانزعاج، ورفع القائد يده منبهاً مساعديه كي يستعدا، ثم ساد الصمت كملاءة تغطي الغرفة. وفي الخارج، زعق صوت سيارات الإسعاف وانطلق صوت المدافع.

قال الرجل بسخرية: "يا مدام لشن، لا بد من أنك تدركين كيف ستكون العاقبة إن اكتشفنا أنك تكذبين علينا".

عندما لم يقل أي من والديّ شيئاً، استجمعت ماي شجاعتها لتسأل قائلة: "كم ستمهلوننا من الوقت؟".

صاح بغضب قائلاً: "إلى الغد". ثم ضحك بخشونة عندما أدرك استحالة تنفيذ طلبه، وقال: "ومع ذلك، فلن تكون مغادرة المدينة أمراً يسيراً. فإن كان هناك جانب إيجابي واحد لكارثة اليوم، فهو أن الكثير من الأجانب سيغادرون البلاد، وستكون لهم الأولوية في حجز الأماكن على السفن".

بدأ الرجلان الآخران بالتقدم نحوي ونحو ماي. هذه هي النهاية، فستصبح ملكاً لعصابة غرين الآن. تشبّثت ماي بيدي، ثم حدث ما هو غير متوقع. إذ تقدم القائد بعرض جديد فقال: "سأمنحكما ثلاثة أيام. وطوال ذلك الوقت، يجب أن تكونا في طريقكما إلى أميركا حتى لو توجب عليكما أن تسبحا إلى هناك. سنعود غداً وكل يوم لنحرص على ألا تنسيا ما يجب عليكما فعله".

بعد أن تفوه الرجال بتهديداتهم وحددوا لنا المهلة القصوى، غادروا البيت، ولكن ليس قبل أن يسقطوا بعض المصابيح ويستخدموا الهراوة لتهشيم بعض المزهريات والأشياء الصغيرة التي لم ترهن بعد أو تباع.

وحالما غادروا، انهارت ماي على الأرض، ولم يهبّ أبي منا لمساعدتها.

قلت لأبي: "لقد كذبت علينا. لقد كذبت علينا بشأن لوي العجوز وبشأن سبب زواجنا".

اعترف بضعف قائلاً: "لم أكن أريد أن تقلقا بشأن عصابة غرين".

أثار جوابه أعصابي، فقلت له: "لم تكن تريدنا أن نقلق؟".

أحقل والدي، ولكنه أجاب بسؤال آخر قائلاً: "أي فرق يشكل هذا الآن؟".

ساد الصمت لوقت طويل ونحن نفكر في هذا. ولا أعرف ما الذي يدور برأسي أمي وماي، ولكنني أفكر في الأشياء العديدة التي كان من الممكن أن نفعلها بشكل مختلف لو أننا عرفنا الحقيقة كاملة. ومع ذلك، فإني أعتقد أنني وماي ما كنّا لنركب الباخرة لتأخذنا إلى زوجينا على كل حال. ولكن، كنا سنفعل شيئاً ما. فربما كنا سنهرب أو نختبئ في البعثة التبشيرية أو نتوسل زي جي لي إلى أن يوافق على تقديم المساعدة لنا...".

قال أبي: "سيتوجب عليّ أن أتحمل هذا العبء لوقت طويل".
ثم التفت إلى أمي وسألها بنبرة مثيرة للشفقة: "ماذا سنفعل الآن؟".

نظرت أمي إليه بمرارة ولوم، ثم قالت وهي تمرر مسبحتها من خلال سوارها: "سنفعل ما يجب فعله من أجل إنقاذ حياتنا".

قالت ماي بصوت مرتجف: "هل سترسليننا إلى لوس أنجلوس؟".
قلت لها: "إننا لا نستطيع ذلك. فقد رميت التذكرتين".
ولكن أمي اعترفت قائلة: "لقد أخرجتهما من القمامة".

انهرت على الأرض إلى جانب ماي وأنا عاجزة عن تصديق رغبة أمي في إرسالي إلى أميركا مع أختي لتعالج مشاكلها ومشاكل والدي. ولكن أليس ذلك ما كان الآباء الصينيون يفعلونه بالبنات عديمات الفائدة لآلاف السنين؟ ألا يتخلون عنهن ويبيعونهن ويستغلونهن؟

عندما رأت أمي نظرات الخيانة والخوف على وجهينا، قالت بسرعة: "سنستبدل تذكرتيكما إلى أميركا برحلة إلى هونغ كونغ لنا جميعاً. أمامنا ثلاثة أيام لنبحر على سفينة. إن هونغ كونغ مستعمرة بريطانية، ولهذا فلن نقلق هناك من هجوم اليابانيين. وإذ وجدنا أنّ العودة إلى الصين آمنة، فسنستقل مركباً أو قطاراً إلى كانتون ثم نذهب إلى يين بو، مسقط رأس والدكما". ووضعت أمي يدها على الطاولة بتصميم. وسمعنا صوت رنين سوارها الطمئن وهي تقول: "لن تعثر علينا عصابة غرين هناك".

شقيقتان على القمر

في صباح اليوم التالي، توجهت برفقة ماي إلى مكتب شركة دولار ستيمشيب للسفن على أمل أن نستبدل تذكرتينا: من شنغهاي إلى هونغ كونغ ومن هونغ كونغ إلى سان فرانسيسكو ومن سان فرانسيسكو إلى لوس أنجلوس، بأربع تذاكر إلى هونغ كونغ. ولكن عندما وصلنا إلى هناك، اكتشفنا أن طريق تانكينغ والمنطقة المحيطة بمضمار السباق لا يزالان مغلقين كي يتمكن العمال من إزالة الجثث والأشلاء. ولكن كانت هذه أقل المخاوف التي تؤرق المدينة. إذ استمر آلاف وآلاف اللاجئين في التدفق إليها محاولين أن يسبقوا تقدم اليابانيين. وترك الكثير من الآباء اليائسين أطفالهم الرضع ليموتوا في الشوارع بحيث إن المؤسسة الخيرية الصينية قد شكّلت فرقة خاصة تأخذ جثث الأطفال المهجورة وتكومها في الشاحنات وتنقلها إلى الريف ليتم إحراقها.

ولكن، مقابل كل الناس الذين كانوا يتدفقون إلى المدينة، حاول الآلاف مغادرتها. إذ استقل العديد من أهالي الريف القطارات ليعودوا إلى قراهم الأصلية داخل البلاد. واتخذ الأصدقاء الذين عرفناهم في المقاهي، كالكتاب والفنانين والمفكرين، قرارات أشد مصيرهم فقرّروا أن يذهبوا إلى تشونغكينغ حيث أسس شيانغ كاي شيك عاصمته الحربية، أو إلى يونان لينضموا إلى الشيوعيين. وغادرت العائلات الأكثر ثراء من الأجانب والصينيين، في البواخر الدولية التي تمر بالسفن الحربية اليابانية الراسية خارج بالنا.

انتظرنا لساعات في طابور طويل. وبحلول الساعة الخامسة، كنا قد تقدمنا ربما عشر أقدام فقط. فعدنا إلى البيت من دون أن يتم حل أي شيء. كنت أشعر أنني مستنزفة القوى، فيما بدت ماي مذهولة ومنهكة. أمّا والدي فقد أمضى يومه وهو يزور الأصدقاء على أمل أن يقترض بعض المال ليساعد على هروبنا، ولكن من يستطيع أن يتحلى بالكرم مع رجل سيئ الحظ في هذه الأوقات العصيبة التي حلت بالبلاد؟ ولم يبدُ الرجال القساة الثلاثة منفتحين من قلة تقدمنا، ولكنهم لا يبدون مسرورين أيضاً. ولا يبدو عليهم أي تأثر بالفوضى المحيطة بنا.

في تلك الليلة، اهتزّت أركان البيت بسبب الانفجارات التي تقع في تشابيي وهونغكيو. وامتزج الرماد الصادر من الأمكنة المجاورة بالدخان الصادر من محارق الأطفال والمحارق التي يستخدمها اليابانيون لحرق جثث قتلاهم.

في صباح اليوم التالي، نهضت بهدوء لئلا أزعج أختي. فقد رافقتني البارحة من دون تذمر. ولكنني رأيتها في مناسبات عدة وهي تفرك صدغيها بسبب الصداع. وفي الليلة الماضية، أخذت بعض الأسبرين، ولكنها تقيأته على الفور. فلا بد من أنها تعاني من الصدمة. آمل أن تكون خفيفة، ولكن كيف يمكنني أن أكون واثقة من ذلك؟ إنها على الأقل تحتاج إلى أن تنال قسطاً من النوم، ولا سيما بعد كل ما حدث لنا خلال اليومين الماضيين، لأن هذا اليوم سيكون يوماً قاسياً آخر. إذ إن جنازة تومي ستقام عند الساعة العاشرة.

نزلت إلى الطابق السفلي، فوجدت أمي في الصالة. أشارت إليّ لأنضم إليها وهي تقول: "إليك بعض المال". وشعرت أن قوة غير اعتيادية تهيمن على صوتها وهي تأمرني قائلة: "اخرجي وأحضري بعض

كعك السمسم وأصابع الكعك". ولم نكن قد تناولنا مثل هذا الفطور منذ الصباح الذي تغيرت فيه حياتنا. ثم تقول: "يجب أن نأكل جيداً، فالجنازة...".

أخذت المال، وغادرت المنزل. وأنا أسمع صوت المدافع البحرية التي تقصف مواقعنا الساحلية، وصوت إطلاق الرصاص المتواصل، ونيران البنادق، والانفجارات في تشابيي، والمعارك الدائرة في المناطق التالية. وبدا الرماد الحار من نيران الليلة الماضية أشبه بملاءة تغطي المدينة بحيث إن الملابس التي كانت معلقة لتجف أصبحت بحاجة إلى غسيل مجدداً وكذلك السيارات. شعرت بغصة في حلقي طوال الطريق. ورأيت حشوداً من الناس تتجمهر في الشارع. ربما تكون الحرب قد اندلعت، ولكن لدينا جميعاً أمور يجب أن نقوم بها. مشيت إلى ناصية الشارع، ولكن بدلاً من أن أتقيد بتعليمات والدتي، ركبت عربة لتقلّني إلى شقة زي حي لي. وربما أكون قد تصرفت بشكل طفولي من قبل، ولكن هذه المرة لا. إذ جمعت الصداقة بيننا وبينه سنوات كاملة، ولا بد من أنه لا يزال يكنّ لي ولماي شيئاً من العاطفة، وأنه سيساعد بالتأكيد على إيجاد طريقة لعيد ترتيب حياتنا.

طرقت على باب بيته، وعندما لم يجب أحد، نزلت مجدداً، لأبحث عن مالكة شقته في باحة البيت الرئيسة.

فقالت لي: "لقد رحل. ولكن ماذا يهمك في الأمر؟ لقد ولّت أيامكن، أيتها الفتيات الجميلات. أتظنين أننا نستطيع أن نصد جيش القردة مجدداً؟ فما إن يستولوا زمام السلطة، لن يحتاج أحد إلى تقويمكن، أيتها الفتيات الجميلات". وازداد انفعالها شيئاً فشيئاً فقالت: "قد يحتاج إليكن هؤلاء القردة لمهمات أخرى. أهذا هو المصير الذي تريدينه لك ولأختك؟".

فقلت لها بوهن: "قولي لي وحسب أين هو".

فرّدت عليّ بعنف وكانت كل كلمة تخرج من فمها كالرصاصة: "لقد رحل لينضم إلى الشيوعيين".

أجبتها بشك قائلة: "لن يرحل من دون أن يودعنا".

قهقهـــت المرأة العجوز قائلة: "يا لك من فتاة غبية! لقد رحل من دون أن يدفع أجرة بيته، وخلّف وراءه لوحاته وفراشه. لقد غادر من دون أن يأخذ شيئاً واحداً".

عضـــضت على شفتي لأمنع نفسي من البكاء. إذ يجب عليّ أن أركز على إنقاذ نفسي الآن.

وبالرغم من شدة حرصي على مالي، استأجرت عربة لتأخذني إلى البيـــت. وجلست محشورة بين ثلاثة ركاب آخرين. وبينما كنا نتخبط علـــى الطـــريق، أعـــددت لائحـــة ذهنية بأسماء الأشخاص الذين قد يساعدوننا. الـــرجال الذين نرافقهم؟ ينشي؟ أحد الفنانين الآخرين الذين نعرض لهم؟ ولكن الجميع يعانون من أمور خاصة تقلقهم.

عدت إلى البيت. فوجدته فارغاً وأدركت أنني غبت طويلاً بحيث إنني فوت جنازة تومي.

وعـــادت ماي وأمي بعد بضع ساعات وهما ترتديان ثوب الحداد الأبيض. وكانت عينا ماي تبدوان متورمتين كالخوخ الناضج بسبب الـــبكاء، فيما بدت أمي عجوزاً ومتعبة. ولكنهما لم تسألاني أين كنت أو لماذا لم أذهب إلى الجنازة، ولم يحضر والدي معهما. فلا بد من أنه قد بقي مع الآباء الآخرين لحضور مأدبة الجنازة".

سألتهما قائلة: "كيف كانت؟".

فهزّت ماي كتفيها، ولكنني لم ألحّ عليها بالسؤال. فاستدت إلى الباب وشبكت ذراعيها وحدقت إلى قدميها، ثم قالت: "يجب أن نعود إلى رصيف التحميل".

لم أكـــن أشعر برغبة في الخروج بسبـــب حزني على زي جي لي. وكنت أود أن أخبر ماي أنه رحل، ولكن ما الفائدة من ذلك؟ وكنت أشعر باليأس وأخاف مما سيحدث لنا. وتمنيت أن أجد خيطاً أتمســك به لـــينقذني. وإذ لم يحدث ذلك، فإنني أريد أن أعود إلى السرير، وأدفن نفـــسي تحت الأغطية ولكي لي أن تجف آخر دموعي، ولكني شقيقة مـــاي الكبرى. ويجب أن أتحلى بالشجاعة لأتغلب على مشاعري وأن أساعد نفسي وأساعدها على مقاومة مصيرنا المأساوي. فأخذت نفساً عميقاً، ونهضت على قدمي قائلة: "هيا بنا، لنذهب. إنني مستعدة".

عـــدنا أدراجنـــا إلى شـــركة النقل البحري، واليوم، كان صف المنتظرين يتحرك بسرعة. وعندما وصلنا إلى المقدمة أدركنا سبب ذلك، وهو أن الموظف عديم الفائدة. أريناه تذكرتينا، ولكن يبدو أن الإرهاق قد نال من نبرة صوته ومزاجه.

فأمرنا بصوت مرتفع قائلاً: "ماذا تريدان مني أن أفعل بهاتين؟".

فسألته وأنا واثقة من أنه سيعتبرها صفقة جيدة لشركته: "أيمكننا أن نستبدل هاتين التذكرتين بأربع تذاكر إلى هونغ كونغ؟".

لم يجبني، وبدلاً من ذلك، أشار إلى الناس من خلفي قائلاً: "التالي!".

ولكنـــني لم أتحرك من مكاني بل سألته قائلة: "أيمكننا أن نركب على متن سفينة جديدة؟".

وهـــنا، ضـــرب الحاجـــز الذي يفصل بيننا وصاح قائلاً: "أيتها الغبيـــة!". لقـــد بدا أن الجميع شعروا بالشعور نفسه حيال اليوم. ثم أمـــسك القصاصات وهزها قائلاً: "ما من تذاكر باقية! لقد نفدت كلها! التالي! التالي!".

وكـــنت أرى في تعابير وجهه الإحباط والخنوع اللذين رأيتهما في تعابير وجه مالكة بيت زي جي لي. مدت ماي يدها ووضعت أصابعها

علـى أصابعه. إن التلامس بين الجنسين، ولا سيما إن كانا شخصين غريبين عن بعضهما، أمر مستهجن جداً. فأربكه تصرفها ودفعه لالتزام الـصمت أو أنـه ربما هدأ بسبب هذه الفتاة الجميلة التي تتحدث إليه بكلام معسول. وبدا تأثير سلوكها هذا فورياً.

كانـت تميـل رأسها، وتبتسم ابتسامة تحول ملامح وجهها من اليأس إلى الهدوء: "أعلم أنك تستطيع مساعدتنا".

فقـال الموظـف: "دعيني أرى التذكرتين". فتمعّن فيهما، وتفقّد بعـض دفاتـر التسجيل، ثم قال أخيراً: "إني آسف، ولكن هذه لن تـساعدك على مغادرة شنغهاي". وأخرج مجموعة من الأوراق، وملأ إحـدى الاستـمارات، ثم قدّمها إلى ماي مع التذكرتين، وقال: "إن تمكنتما من الوصول إلى هونغ كونغ، توجها إلى مكتبنا هناك وأعطياهم هذه الاستمارة. وعندئذ ستتمكنان من استبدال تذكرتيكما بتذكرتين جديدتين إلى سان فرانسيسكو". وبعد توقف طويل، كرّر قائلاً: "هذا إن تمكنتما من الوصول إلى هونغ كونغ".

فشكرناه، وانصرفنا بالرغم من أنه لم يساعدنا على الإطلاق. إذ إننـا لا نريد أن نذهب إلى سان فرانسيسكو بل إلى الجنوب لنبتعد عن متناول يد عصابة غرين.

توجهنا إلى البيت ونحن نشعر بالفرحة واليأس. وهناك، وجدنا أمي جالـسة على الدرج الأمامي حيث كان خدمنا في ما مضى يتناولون وجباتهم بكل فخر.

فـسألتها: "هل عادوا؟"، ولم أكن أريد أن أحدد من أقصد بقولي. فالناس الوحيدون الذين نخشاهم هم رجال عصابة غرين ولا أحد غيرهم. فأومأت أمي برأسها. أدركت وماي تلك المعرفة تتسرب إلى أعماقنا، ولكن ما قالته أمي لاحقاً جعل موجة من الرعب الرهيب تسري في جسدي.

"لم يعد والدكما بعد".

جلسنا على الدرج إلى جانب أمي، وانتظرنا ونحن ننظر إلى طرف الـشارع علـى أمـل أن نرى والدي، ولكنه لم يعد إلى البيت. خيّم الظلام، وعاد معه القصف المكثف. وتوهج الليل بالنيران التي تحتدم في تشابـي. ملأت الأضواء الكشافة السماء. ومهما حدث تبقى المنطقة المحميـة بمعاهـدة دولية ومنطقة الاستثمارات الفرنسية، بصفتها منطقة أجنبية، محميتين وآمنتين.

سـألت مـاي بـصوت ناعم كفتاة صغيرة قائلة: "هل قال إنه سيذهب إلى مكان ما بعد الجنازة؟".

هـزت أمـي رأسها وقالت: "ربما كان يبحث عن عمل، وربما يقامر، وربما يقابل امرأة ما".

ولكن احتمالات أخرى كانت تجول بخاطري. وعندما نظرت إلى مـاي من فوق رأس أمي، أدركت أن الأفكار نفسها تدور في خلدها. ترى هل تخلى عنا تاركاً زوجته وابنتيه ليتعاملن مع عواقب أعمالـه؟ هل قررت عصابة غرين أن تقتل أبـي قبل انتهاء المهلة المحددة كتحذير لنا؟ أم إن القذائف والنيران المضادة للطائرات الحربية سقطت عليه؟

قرابة الساعة الثانية، ربّتت أمي على ساقيها بحزم قائلة: "ينبغي أن نحظـى بقـسط مـن النوم. إن لم يأتِ والدكما إلى البيت". غصّت وتـوقفت عـن الكلام، وأخذت نفساً عميقاً وقالت: "إن لم يعد إلى البـيت، فسنـستمر في الخطة التي وضعتها. وستأويننا عائلة والدكما. فنحن ننتمي إليهم الآن".

"ولكـن كـيف يمكننا أن نصل إلى هناك؟ فنحن لا نستطيع أن نستبدل التذكرتين".

سيطر اليأس على ملامح أمي ثم خطرت لها فكرة سريعة، وقالت: "يمكننا أن نذهب إلى ووسونغ. إنها تقع على بعد بضعة أميال فقط من هنا. أستطيع أن أمشي إليها إن توجب عليّ ذلك. إن شركة نفط ستاندرد لديها رصيف تحميل هناك. وإن أبرزنا لهم وثيقة زواجكما، فربما يمنحوننا مكاناً على أحد زوارقهم ذات المحركات. ومن هناك نستطيع الذهاب إلى الجنوب".

قلت لها: "لا أعتقد أن هذه الخطة ستنجح. فلماذا ستود شركة النفط أن تقدم لنا المساعدة؟".

قالت أمي بعرض آخر: "قد نحاول العثور على قارب يقلّنا إلى يانغتشي،...".

سألتها ماي قائلة: "وماذا عن اليابانيين. فهناك الكثير منهم في النهر. إن الأميركيين يغادرون الآن داخل البلاد متوجهين إلى هنا".

فحاولت أمي مجدداً قائلة: "يمكننا أن نتوجه شمالاً إلى تيتسين ونحصل على رحلة على متن سفينة". ولكنها هذه المرة رفعت يدها لتمنعني وأصدق من الكلام، ثم قالت: "أعلم أن اليابانيين هناك أصلاً، لذا يمكننا أن نتوجه شرقاً، ولكن كم سيمر من الوقت قبل أن تتعرض تلك المناطق للغزو؟"، وتوقفت عن الكلام قليلاً لتفكر. شعرت أنني أستطيع أن أرى دماغها وهو يتوقع الأخطار المختلفة التي يمكن أن نتعرض لها خارج شنغهاي. وأخيراً، انحنت إلى الأمام، وتحدثت إلينا بصوت منخفض ولكنه راسخ العزيمة: "دعونا نتوجه نحو الجنوب الغربي إلى قناة غراند. وحالما نصل إلى القناة ينبغي لنا أن نصبح قادرات على ركوب قارب أو ربما زورق تجديف أو أي شيء، فنتابع طريقنا إلى هانغتشو. ومن هناك، يمكننا استئجار قارب صيد ليأخذنا إلى هونغ كونغ أو كانتون". ثم نقلت بصرها من ماي إليّ وقالت: "هل توافقان على هذا؟".

شعرت برأسي يدور. فلا فكرة لديّ عما ينبغي لنا أن نفعله.

همست ماي قائلة: "شكراً لك، يا أمي. شكراً لعنايتك بنا".

دخلنا البيت. ورأينا ضوء القمر يشع من خلال النوافذ. وعندما تمنينا لبعضنا ليلة سعيدة، ارتجف صوت أمي، ولكنها عندئذ دخلت غرفتها، وأغلقت الباب.

في الظلام، نظرت ماي إليّ وقالت: "ماذا سنفعل؟".

ولكنني أعتقد أن السؤال الذي يجب أن يُطرح هو: ما الذي سيحدث لنا؟ ولكني لم أطرحه. إذ يجب عليّ أن أخفي مخاوفي عن أختي الصغرى.

في صباح اليوم التالي، حزمنا أمتعتنا بسرعة. واخترنا كل ما نعتبره عملياً ومفيداً: اللوازم الصحية، وثلاثة أرطال من الأرز لكل شخص، وقدراً للطهي، وأعواداً للأكل، وملابس، وأثواباً، وأحذية. وفي اللحظة الأخيرة، استدعتني أمي إلى غرفتها. وأخرجت من أحد أدراج خزانتها بعض الأوراق، ومن بينها الأوراق التعليمية ووثيقة زواجنا. رأيت أنها جمعت ألبومات صورنا جميعاً، ولكنها ثقيلة جداً، لذا، أظن أنها ستأخذ فقط بعض الصور للذكرى. سحبت صورة من الورق الأسود وأمسكت بورقة نقدية مطوية خلفها ثم كرّرت العملية نفسها مرة تلو الأخرى إلى أن جمعت رزمة صغيرة من الأوراق النقدية فدسّتها في جيبها. ثم طلبت مني أن أساعدها على تحريك الخزانة بعيداً عن الجدار. فوجدت حقيبة صغيرة معلقة بمسمار أخذتها أمي وقالت لي: "هذا كل ما تبقى من مهري".

فسألتها باستياء قائلة: "كيف استطعت أن تبقي هذه الأشياء مخفية؟ لماذا لم تعرضي أن تقدميها لعصابة غرين؟".

"لم تكن لتكفي".

"لكنها كانت ستساعد على الأقل".

شرحت لي أمي قائلة: "لطالما قالت لي والدتي: احتفظي بشيء لنفسك. فأدركت أنني سأضطر إلى استخدام هذه الأشياء يوماً ما. والآن، حان هذا اليوم".

غادرت أمي الغرفة. فتلكأت خلفها، وحدقت إلى الصور، ورأيت صورة ماي وهي طفلة رضيعة، وصورة لنا ونحن مرتديات ملابس الحفلات، وصورة زفاف أبي وأمي. وترافقت ذكريات سعيدة وسخيفة في مخيلتي، وترقرقت الدموع في عيني، لكنني قاومتها والتقطت بضع صور ووضعتها في حقيبتي، ونزلت إلى الطابق السفلي. وجدت أمي وماي تنتظرانني على الدرج الأمامي.

أمرتني أمي قائلة: "اعثري لنا على عربة، يا بيرل". فأطعتها لأنها أمي ولأننا لا نملك أي خيارات أخرى فهي امرأة مربوطة القدمين لم تضع في حياتها خطة تتعدى خطتها للعب لعبتها المفضلة مع صديقاتها.

وقفت عند المنعطف بانتظار مرور عربة تبدو قوية وكبيرة، ويبدو الرجل الذي يدفعها قوياً أيضاً. يندرج الرجال الذين يجرون العربات تحت فئة العمال، ولهذا فهم فقراء إلى درجة تدفعهم إلى فعل أي شيء ليجنوا مبلغاً صغيراً أو يجلبوا أي كمية من الأرز. وبعد بضع محاولات، عثرت على رجل نحيف بحيث إن جلد بطنه يبدو ملتصقاً بعموده الفقري. ووجدته راغباً في دخول مفاوضات حادة معي.

فسألني بحكمة قائلة: "من يود أن يغادر شنغهاي الآن. إنني لا أود أن ألقى حتفي على يد جيش القردة".

فلم أذكر له أن عصابة غرين في أعقابنا، وبدلاً من ذلك قلت له: "إننا عائدون إلى موطننا في مقاطعة كوانغتونغ".

"لن أدفع العربة بكلّ تلك المسافة".

"كلا بالطبع. ولكن إن استطعت أن توصلنا إلى قناة هوانغ...".

واتفقت معه على دفع ضعف أجرته اليومية.

عدنا إلى البيت، فحمّل الرجل حقائبنا في العربة. ووضعنا حقائبنا الملفوفة بالقماش والمليئة بأثوابنا على الجزء الخلفي من العربة كي تتمكن أمي من الاستناد إليها.

قالت أمي: "قبل أن تذهب، أريد أن أعطيكما شيئاً، أيتها الفتاتان". ثم عقدت كيساً قماشياً صغيراً بخيط حول عنق ماي وكيساً أحمر حول عنقي. وقالت: "لقد اشتريتهما من أحدهم. إنهما يحويان ثلاث قطع نحاسية وثلاث بذور خسم وثلاث حبات فول أخضر. قال البائع إنها ستحميا من الأرواح الشريرة والمرض وتزيل مدافع عصابات الأقزام".

إن أمي حساسة جداً وساذجة وقديمة الطراز. ترى كم دفعت ثمن هذا الهراء؟

صعدت أمي إلى العربة، وعدّلت جلستها لتصبح مريحة. وأمسكت أوراقنا بيديها، وهي تذكرتا القارب ووثيقتا الزواج والأوراق التعليمية، ملفوفة بقطعة من الحرير ومربوطة بشريط حريري. ثم ألقينا نظرة أخيرة إلى بيتنا، ولكن الطاهي ومستأجري البيت لم يخرجوا ليلوحوا إلينا مودعين أو ليتمنوا لنا التوفيق في رحلتنا.

سألت ماي بقلق قائلة: "هل أنت واثقة من أنه ينبغي لنا المغادرة؟ ماذا عن أبي؟ ماذا إن عاد إلى البيت؟ ماذا إن كان مصاباً في مكان ما؟".

"إن والدك يتمتع بقلب ضبع ورئتي أصلة. هل كان سيلقى هنا من أجلنا؟ أو يتعب بحثاً عنا؟ إن كان ذلك صحيحاً، إذاً، فلماذا ليس هنا الآن؟".

لم أصدّق أن أمي تقصد أن تكون مبتذلة للشاعر. لقد كذب والدي علينا وأقحمنا في موقف يائس، ولكنه لا يزال زوجها ووالدنا. ومع ذلك، فهـي محقـة. فإن كان والدي على قيد الحياة، فهو على الأرجح لا يفكر فينا. ويجب علينا ألاّ نفكر بشأنه أيضاً إن كنا نريد أي فرصة للنجاة.

أمسك الـرجل بمقبضي العربة. فتمسّكت أمي. وانطلقنا. وفي الـوقت الحاضـر، أمشي وماي على الجانبين. إذ أمامنا مسافة طويلة سنقطعها ولا نريد أن يتعب الرجل بسرعة. وكما يقولون: إن المسافة البعيدة تجعل أي حمل ثقيلاً.

عـبرنا جسر غاردن، فرأينا حولنا الرجال والنساء الذين يرتدون القطـن المـبطن بـبطانة سميكة ويحملون كل شيء يملكونه كأقفاص العـصافير، والدمـى، وأكياس الأرز، والملصقات الملفوفة. وبينما نحن نـسلك علـى طـول الطريق، حدّقت إلى نهر وانغبو فرأيت العبّارات الأجنبية تلمـع تحت ضوء الشمس، والسحب السوداء تتصاعد من مداخنها. فيما القوارب ذات المجاذيف والسفن الشراعية تبحر في المياه. في كل مكان، حتى في هذا الوقت الذي نعاني فيه ويلات الحرب، كان العمال يتحركون جيئة وذهاباً حاملين أحمالاً ثقيلة.

انعطفنا يميناً إلى طريق نانكينغ، فرأيناه مفروشاً بالرمل ومضادات الجـراثيم لتنظيفه من الدماء ورائحة الجثث. وفي نهاية المطاف، انعطفنا مـن طريق نانكينغ إلى طريق بابلينغ ويل. وكان ذلك الشارع المظلل بالأشـجار يبدو مزدحماً. فاجتزناه بصعوبة متجهين نحو محطة ويست للقطـارات، وهـناك رأينا الناس محملين في عربات القطار على أربعة مـستويات: الأرض والمقاعد والمضاجع والسقوف. واصل الرجل دفع العربة، فتحركت الطرقات الإسمنتية والرخامية بسرعة مفاجئة إلى حقول لزراعة الأرز والقطن. أخرجت أمي وجبات خفيفة لتناولها وحرصت

على أن تقدم إلى الشاب حصة سخية. وخلال كل بضع ساعات، كنا نـتوقف لنريح أنفسنا تحت شجرة ثم نواصل طريقنا. وكنت أنظر بين الحـين والآخـر فـأرى الـدخان يتصاعد من تشابـي وهونغكيو. وتـساءلت بوهن إن كانت تلك النيران ستخمد نفسها بنفسها ومتى سيحدث ذلك.

أصـيبت كعابنا وأصابع أقدامنا بالتقرحات، ولكننا لم نفكر في طلـب ضـمادات أو دواء. وعندما أصبحت الظلال أطول، انعرف الـرجل إلى طريق ترابـي يؤدي إلى بيت ريفي ذي سقف من القش. فـوجدنا حـصاناً مشدوداً إلى وتد ويأكل من دلو أمامه بعض الفول الأصـفر، فيما الدجاج ينقر الأرض أمام الباب المفتوح. وعندما وضع الرجل العربة وهزّ ذراعيه، خرجت امرأة من الباب.

فقال الرجل بنبرة ريفية خشنة: "لدي ثلاث نساء هنا. إننا بحاجة إلى الطعام وإلى مكان ننام فيه".

لم تقل المرأة شيئاً بل أشارت إلينا لندخل، ثم صبت الماء الساخن في حـوض وأشارت إلى قدمي وقدمي ماي. فخلعنا حذاءينا، ووضعنا أقدامنا في الماء. عادت المرأة ومعها إبريق من الفخار، فدهنت بأصابعها قروحنا بمرهم منـزلي كريه الرائحة. بعد ذلك، تحول انتباهها إلى أمي. فساعدتها لتجلس على كرسي في زاوية الغرفة وصبت الماء الساخن في حوض ووقفت بطريقة تحجب أمي عنا. ولكنني استطعت أن أرى أمي وهي تبدأ بفك أربطة قدميها. فأشحت بوجهي عنها. إذ إن عناية أمي بقدمـيها هي أكثر شيء حميمي وخاص بها. ولم أرهما حافيتين من قبل قط. ولم أرغب في فعل ذلك الآن.

حالما تمّ غسل قدمي أمي وربطهما بأربطة نظيفة، ذهبت المرأة لتعد العشاء. فأعطيناها كمية من الأرز الذي أحضرناه معنا، فعدّت

في الماء المغلي وبدأت بالتحريك المستمر لمحلول الماء والأرز إلى عصيدة.

للمرة الأولى، سمحت لنفسي بالنظر إلى المكان حولي، فوجدته قذراً، وحتى الأكل أو الشرب فيه، ولكن يبدو على المرأة أنها تشعر بهذا لأنها تضع الأواني الفارغة وملاعق الحساء المعدنية على الطاولة إلى جانب وعاء من الماء الساخن، وتشير إلينا بيدها.

سألت ماي: "ماذا تريدنا أن نفعل؟".

فأمسك الرجل الوعاء وصب الماء في الأوعية وغمس الملاعق في الماء الساخن وحرك السائل ثم صب الماء على الأرض الترابية المرصوصة، فاستحسنته على الفور. ثم قدّمت لنا المرأة العصيدة ومعها بعض أوراق الجزر الخضراء. لقد بدا طعم الأوراق مراً في الفم وحامضاً عندما ابتلعناه. ثم ذهبت المرأة وعادت بعد لحظة ومعها بعض السمك المجفف، فوضعته في زبدية ماي، ثم وقفت خلفها ودلكت كتفيها.

تملّكني شعور بالانزعاج من تصرفها. إذ إن هذه المرأة الفقيرة، التي تبدو غير مثقفة وغريبة تماماً، قدمت للرجل الذي جر العربة أكبر حصة من العصيدة ومنحت أمي الخصوصية وبدأت الآن تعتني بماي. ترى ما الذي يجعل حتى الغرباء كذلك يرونني غير جديرة بأي شيء؟

بعد العشاء، خرج الرجل لينام إلى جانب العربة بينما تمدّدنا نحن على حصيرة من القش مفروشة على الأرض. شعرت أنني خائرة القوى، ولكن بدا على أمي أنها كانت تحترق بنيران تتأجج داخلها. واختفى الغضب الذي لطالما شكّل جزءاً من شخصيتها وهي تتحدث عن طفولتها والبيت الذي نشأت فيه.

تذكّرت أمي وهي تتحدث بصوت منخفض جداً لئلا تزعج مضيفتنا التي كانت تستريح على إفريز مرتفع إلى جانب الموقد: "في

الصيف، عندما كنت فتاة صغيرة، اعتادت أمي وعماتي وأخوالي وكل سيدات أعمامي أن ينمن في الخارج على حصائر كهذه تماماً. إنكما لم تقابلا شقيقاتي قط، ولكننا كنا نشبهكما كثيراً". فضحكت بحزن ثم قالت: "كنا نحب بعضنا ونعرف كيف نتجادل. وعندما كنا نسهر تحت السماء في ليالي الصيف تلك، لم نكن نتشاجر، بل كنا نصغي إلى أمي وهي تروي لنا القصص".

في الخارج كانت الجداجد ترقرق، ويصل إلينا من بعيد صوت انفجار القنابل التي تسقط على مدينتنا الأصلية. فتتردد أصداء الانفجارات وترتعش منها أجسادنا. وعندما أنّت ماي، تقول أمي: "أعتقد أنكما لم تكبرا على سماع قصة الآن...".

فتحثها ماي قائلة: "نعم، يا أمي، من فضلك، قصي علينا قصة شقيقتان على القمر".

مدّت أمي يدها، وربّتت على ماي بمحبة. ثم بدأت سرد قصتها بصوت أعادني بالذاكرة إلى أيام طفولتي: "في قديم الزمان، كان هناك شقيقتان تعيشان على القمر. وكانتا فتاتين مدهشتين". فانتظرت وأنا أعلم بالضبط ما سيأتي تالياً. فتقول أمي: "وكانتا جميلتين مثل ماي، ونحيلتين كعيدان الخيزران، ورشيقتين كأغصان الصفصاف وهي تترنح في النسيم، ولهما وجهان كبذور البطيخ البيضوية. وكانتا ذكيتين ومجدتين مثل بيرل. إذ إنهما اعتادتا تطريز أحذيتهما الصغيرة بآلاف القطب. وطوال الليل، كانت الفتاتان تطرزان بإبر تطريزهما السحرية. فذاع صيتهما، وسرعان ما تجمع الناس ليحدقوا إليهما".

إنني أحفظ النص الذي يخص الفتاتين الأسطوريتين عن ظهر قلب، ولكنني أشعر أن أمي تريدنا أن نسمع القصة اليوم بشكل مختلف.

تابعــت أمــي قائلــة: "كانت الشقيقتان تعرفان قواعد سلوك الفتيــات. فلا ينبغي أن يراهما أي رجل ولا أن يحدق إليهما. فأخذت كــل لــيلة تمــر تزيدهما تعاسة. وذات يوم، خطرت فكرة ببال الفتاة الكــبرى. فقالت: *يجب أن نستبدل مكاننا مع أخينا*. لم تكن الشقيقة الــصغرى واثقــة جداً، ولكنها شعرت أن من واجبها أن تطيع أوامر شــقيقتها. فارتــدت الشقيقتان أجمل أثوابهما الحمراء المطرزة بالتنانين الحالمــة والــبراقع الــذهبية وذهبتا لزيارة شقيقهما الذي يعيش على الشمس، وطلبتا منه أن يبادلهما المكان".

تابعت ماي القصة التي لطالما أحببتها من هنا قائلة: "فهزئ منهما أخــوهما قائلاً: *إن عدد الناس الذين يمشون على الأرض في النهار أكثر مــن عدد الذين يمشون عليها في الليل. وهكذا، ستجعه الأنظار إليكما أكثر من أي وقت مضى*".

تابعــت أمي قائلة: "فبكت الشقيقتان كما اعتدت أن تفعلي، يا ماي، عندما كنت تطلبين شيئاً من والدك".

وبينما كنت ممددة على الأرض الترابية في الزريبة المكشوفة أصغيت إلى أمي وهي تحاول أن تخفف عنا ببعض قصص الطفولة، وكانت أفكار قاســية تقض مضجعي. كيف تستطيع أمي أن تتحدث عن والدي بهذه السهولة بالرغم من كل ما فعله؟ ألا ينبغي لها أن تشعر بالمرارة؟ والأسوأ مــن ذلك، كيف يمكنها أن تختار هذا الوقت لتذكرني أنني لم أكن غالية على قلبه؟ فلم يكن والدي يستسلم لدموعي عندما أبكي. هززت رأسي محاولــة أن أصــرف ذهني عن هذه الأفكار التي راودتني عن والدي في الوقت الذي ينبغي لي فيه أن أقلق عليه، وقلت لنفسي إن التعب والخوف شــلا ذهني تماماً بحيث إنني أعجز عن التفكير السليم. ولكني تألمت، حتى في لحظة المعاناة هذه، وأنا أدرك أنني لست محبوبة كأخي.

قالــت لي: "كان الأخ مولعاً بشقيقتيه ووافق أخيراً أن يستبدل المكــان معهمــا. فجمعت الشقيقتان إبر تطريزهما، وذهبتا إلى بيتهما الجديد. وعلى الأرض، نظر الناس عالياً فرأوا رجلاً على القمر. فسألوا: *أين الــشقيقتان؟ أين ذهبتا؟* والآن عندما ينظر الجميع إلى الشمس تــستخدم الشقيقتان إبر تطريزهما السبعين لتخزا كل شخص يتجرأ أن يحدق طويلاً. وأولئك الذين يرفضون إبعاد نظرهم يصيبهم العمى".

تنهّدت مــاي بسخط شــديد. إنني أعرفها جيداً وأعرف أنها ستغرق في النوم في غضون لحظات. ومن الإفريز في الزاوية، تنهّدت مضيفتنا أيضاً. أترى ألم تعجبها القصة؟ شعرت بكل جزء من جسدي يؤلمني. وبــدأت الآلام تحــصر قلــبي أيضاً، فأغمضت عينيّ لأمنع دموعي من أن تسيل على وجهي.

التحليق عبر سماء الليل

في صباح اليوم التالي، غلت المرأة الماء كي نغسل وجوهنا وأيدينا، وأعدّت الشاي وأعطت كل واحدة منا وعاء من العصيدة. ثم دعكت أقدامنا بالمرهم من دوائها الرهيب، وأعطتنا أربطة أقدام قديمة ولكنها نظيفة لنستخدمها كضمادات. ثم تبعتنا إلى الخارج وساعدت أمي على الصعود إلى العربة. فحاولت أمي أن تدفع لها، ولكنها أبعدت المال عنها رافضة حتى أن تنظر إلينا مجدداً لأنها شعرت بإهانة كبيرة.

كنا نمضي طوال فترة الصباح ونحن نمشي، فيما يغطي السديم الحقول. كانت تصل إلينا رائحة الأرز المطهو على نيران القش من القرى التي مررنا فيها. ولسعت أشعة الشمس بشرتنا، وذلك لأننا وضبنا قبعتي وقبعة ماي الخضراوين المزينتين بالريش بعناية كبيرة بحيث لا نستطيع إخراجهما. وفي نهاية المطاف، انضممت وماي إلى أمنا في العربة. فلم يتذمر الرجل أبداً ولم يهدد بالتخلي عنا ولم يطلب المزيد من المال بل واصل التقدم بلا كلل.

في فترة متقدمة من العصر، وكما حدث في اليوم الذي مضى، انعطف الرجل في طريق يؤدي إلى مزرعة تبدو أكثر فقراً من السابقة. فوجدنا الزوجة تفلق الحبوب وطفلاً نائماً على ظهرها، ورأينا بعض الأطفال الهزيلين الآخرين يقومون بأعمال أخرى بوهن شديد. فنظر الزوج إلينا بحرص وحسب مبلغ المال الذي سيجنيه منا. وعندما لمح قدمي أمي المربوطتين ابتسم ابتسامة عريضة بفم خالٍ من الأسنان.

فدفعنا له أكثر مما ينبغي مقابل بعض الفطائر الجافة المصنوعة من الذرة المطحونة.

استغرقت ماي وأمي في النوم قبلي. أما أنا، فبقيت صاحية وأنا أحدق إلى السقف، وأصغيت إلى جرذ يعدو على طول جدران الغرفة ويتوقف بين الحين والآخر ليقضم بعض الأشياء. غدت حياتي مذللة في مأكلي وملبسي ومكان نومي ووسيلة انتقالي من مكان إلى آخر. والآن، يخطر ببالي كم من السهل بالنسبة إلى أشخاص مثلي ومثل ماي وأمي عاشوا حياتهم في ظل الدلال والعناية أن يلقوا حتفهم هنا على الطريق. إننا لا ندرك حتى ما يعنيه أن يعيش المرء عيش الكفاف، ولا ما يتطلبه الأمر لنحافظ على حياتنا من يوم إلى آخر. ولكن العائلة التي تعيش هنا والمرأة التي اعتنت بنا في الليلة الماضية يعرفون كيف يفعلون ذلك. فعندما لا يملك المرء شيئاً، لا يبدو حصوله على القليل سيئاً جداً.

في صباح اليوم التالي، مشينا في أنحاء قرية أحرقت عن بكرة أبيها. وعلى الطريق، رأينا بعض السكان الذين قتلوا في الحرب؛ وهم رجال طعنوا بالحراب أو أُطلق عليهم الرصاص، وأطفال هجرهم أهلهم، ونساء لا يرتدين إلا قمصاناً داخلية. وبعد الظهر بقليل، مررنا بجثث جنود صينيين مرمية تحت أشعة الشمس الحارقة، فأحدهم مطوي على نفسه كالكرة، فيما الآخر يضع ظاهر يده على فمه وكأنه في لحظاته الأخيرة كان يعض عليها من شدة الألم.

ترى كم تبلغ المسافة التي قطعناها؟ لا أعرف بالضبط. ربما تبلغ خمسة عشر ميلاً في اليوم؟ كم تبلغ المسافة التي لا يزال علينا أن نقطعها؟ لا أحد منا يعرف ذلك أيضاً. ولكن، يجب علينا أن نستمر في المشي قدماً على أمل ألا نصادف أي يابانيين قبل أن نصل إلى قناة غراند.

في تلك الأمسية، كرر الرجل الذي يدفع العربة نمط اليومين الماضيين نفسه. فانعطف إلى طريق ترابي ثم إلى أحد الأكواخ، ولكننا هذه المرة لم نجد سكاناً فيه. وبدا لنا وكأنهم نزحوا لتوهم لأن أغراضهم كانت لا تزال هناك، بما فيها دجاجهم وبطهم. فبحث الرجل في بعض الرفوف إلى أن عثر على مرطبان من اللفت المملح. فراقبناه ونحن عديمات الفائدة والحيلة وهو يعد الأرز. كيف لا نعرف اسمه حتى بعد أن أمضينا ثلاثة أيام معاً؟ كان يبدو أكبر سناً مني ومن ماي ولكنه أصغر من أمي. ومع ذلك، كنا ندعوه صبياً بينما يستجيب لنا بالاحترام الذي تفرضه عليه مكانته المتدنية. وبعد أن تناولنا الطعام، نظر حوله إلى أن عثر على بعض البخور المستعمل لإبعاد البعوض، فأشعله ثم خرج من الكوخ لينام إلى جانب عربته. فدخلنا إلى الغرفة الأخرى التي تحوي سريراً مصنوعاً من حصانين لنشر الخشب وثلاثة ألواح خشبية فرشت عليها بعض الحصائر. ووجدنا لحافاً محشواً بالقطن عند أسفل السرير. كان الطقس حاراً جداً بحيث لا يمكن النوم تحت اللحاف، ولذا لففناه ووضعناه على الحصائر كي يقي بسماكته عظامنا من قسوة السرير.

في تلك الليلة، جاء اليابانيون، وسمعنا وقع خطواتهم وأصواتهم القاسية الخشنة. صاح الرجل الذي يجر العربة طلباً للرحمة. وسواء أكان ذلك عن عمد أم لا، منحتنا معاناته وموته وقتاً للاختباء. ولكننا في كوخ مؤلف من غرفتين. فأين يمكننا أن نخفي أنفسنا؟ أمرتنا أمي أن نأخذ الألواح عن حصاني النشر ونسندها إلى الجدار.

ثم قالت: "تسللا خلفها". فتبادلت وماي النظرات. ما الذي تفكر فيه؟ فقالت هامسة: "هيا، افعلا ذلك الآن".

حالما دسست وماي نفسينا خلف الألواح، مدّت لنا حقيبة مهرها والأوراق الملفوفة بالحرير وقالت: "خذا هذه".

"أمي..."
"اصمتا!".

ثم قبضت على يدي وألقتها على الحقيبة والرزمة. ثم سحبناها إلى أحد الحصانين على الأرض. ثم دفعت الألواح عليّ وعلى أختي بحيث إننا على إدارة وجهينا جانباً. إن هذا المكان ضيق جداً، ولكنه بالكاد يجعلنا مخفيين عن الأنظار. فلن يستغرق الأمر أكثر من دقائق معدودة حتى يعثر الجنود علينا.

همست لنا أمي قائلة: "ابقيا هنا ولا تخرجا مهما سمعتما". أمسكت بمعصمي وهزّته ثم تمتمت بلهجة الهي بوب لئلا تفهم ماي كلامها فقالت: "إني جادة، يا بول، لا تدعي أختك تبارح مكانها".

سمعنا أمي تغادر الغرفة وتغلق الباب. فأطلقت ماي أنفاساً قصيرة وزفرت على وجهي هواء حاراً ورطباً. وشعرت بقلبي يكاد يقفز من صدري.

سمعنا من الغرفة الأخرى صوت الباب وهو يفتح بعنف وصوت وقع الأحذية والأصوات العسكرية العالية. وسرعان ما سمعنا صوت أمي وهي تتوسل إلى الجنود وتساومهم. وفي اللحظة نفسها، فُتح باب الغرفة، فارتعش ضوء القناديل من جانب إلى آخر في مكان اختبائنا. فصاحت أمي بصوت مرتفع وحاد. وأُغلق الباب وانطفأ الضوء.

قالت ماي باكية: "أمي!".

فهمست لها قائلة: "يجب أن تلزمي الصمت".

سمعنا صوت صياح وضحك، ولكن لم نسمع أي صوت صادر عن أمنا. ترى هل ماتت؟ إن كانت كذلك فهم قادمون لا محالة إلينا هنا. ألا يجب أن أفعل شيئاً لأمنح أختي فرصة للنجاة؟ أسقطت الأشياء التي أعطتني إياها أمي من يدي ثم انزلقت إلى اليسار.

"كلا!".
"اهدأي!".

في مكاننا الضيق، أمسكت ماي بذراعي بيد واحدة، وتوسّلت إليّ قائلة: "لا تذهبي، يا بول، لا تتركيني".

انتزعت ذراعي بعيداً حتى سقطت يد ماي. خرجت بهدوء قدر المستطاع من خلف الألواح الخشبية. ومن دون تردد مشيت إلى الباب وفتحته وخرجت إلى الغرفة الرئيسة، وأغلقت الباب خلفي.

رأيت أمي ممددة على الأرض وهناك رجل معها. فشعرت بالصدمة لرؤية رِجلي ساقيها النحيفتين نتيجة عمر كامل أمضته بالمشي - أو بالأحرى عدم المشي - على قدميها المربوطتين. ورأيت جنوداً آخرين مرتدين ملابس عسكرية صفراء، ومنتعلين أحذية جلدية، ويحملون بنادق مسنودة إلى أكتافهم وهم واقفون وينتظرون أن يحين دورهم.

أنّت أمي عندما رأتني. وقالت لي بكلمات ضعيفة من الألم والحزن: "لقد وعدتني ألا تبارحي مكانك. كان شرفاً لي أن أنقذكما".

فصفع الجندي أمي على وجهها، وقبضت عليّ ذراعان قويتان وسحبتاني هنا الاتجاه وذاك. ترى من سيحصل عليّ أولاً؟ الأقوى؟ فتوقّف الرجل الأول عما كان يفعله ووقف، وبدأ بالتنمر على الرجال الباقين ليحاول الحصول عليّ كجائزة له.

فتمتمت أمي بيأس قائلة: "لقد قلت لهم إنني وحدي". وحاولت أن تقف على قدميها ولكنها لم تستطع النهوض إلا على ركبتيها.

رغم الهياج السائد حولي، حافظت على هدوئي نوعاً ما.

فقلت برباطة جأش وأنا عاجزة عن التفكير من الخوف: "إنهم لا يستطيعون فهمك".

فقالت أمي وهي تبكي: "أرجوك ومايي أن تبقيا آمنين".

دفعني أحدهم، وعاد بعض الجنود إلى أمي وضربوها على رأسها وكتفيها وهم يصيحون. إذ إنهم ربما لا يريدون أن تتحدث، ولكني لست واثقة من ذلك. فأنا لا أجيد لغتهم. وأخيراً جرّب أحد الجنود التحدث بالإنكليزية.

"ما الذي تقوله المرأة العجوز؟ من تقيان أيضاً؟".

رأيت الطمع جلياً في عينيه. فهناك جنود كثر وامرأتان فقط إحداهما أم.

أجبت باللغة الإنكليزية: "إن أمي مستاءة لأنني لم أبقَ عذبة. إنني ابنتها الوحيدة". ولم أضطر إلى التظاهر بالبكاء، إذ سرعان ما بدأت بالنحيب من شدة رعبي مما سيلحقه الجنود بنا.

هناك لحظة معينة طفوت خلالها بعيداً تاركة جسدي والغرفة والأرض، وفقدت بمقدرة التحليق في أنحاء الليل باحثة عن الناس والأماكن التي أحبها. فرحت أفكر في زي حي لي، ترى هل سيظن أن ما فعلته تصرف يدل على الطاعة الأبوية؟ وفكرتُ في بيتسي، وفكرت حتى في تلميذي الياباني. ترى هل الكابتن ياماسكي قريب من هنا ومدرك وجودي ويأمل أن يكتشف الجنود مكان ماي؟ هل يفكر في أنه أرادها كزوجة ولكنه الآن سيحصل عليها كغنيمة حرب؟

انهارت أمي، ولكنّ دماءها وصراخها لم يوقفا الجنود عند حدهم. ففكّوا رباط قدميها وقتل الرباط في الهواء كأشرطة البهلوانيين، وبدت قدماها بلون الجثة الفاسدة فهما يبدوان مزرقتان وملطختان باللونين الأخضر والأرجواني تحت الجلد الممزق. فسحبهما الجنود واغتصبوها لم داسوا عليهما بأقدامهم ليعيدوهما إلى شكلهما الطبيعي. فلم يبدُ

صراخها كصراخ من ترتبط قدميها أو تلك، إذ إنها صرخات عميقة أشبه بصرخات حيوان جريح يعاني آلاماً تفوق الوصف.

أغمضت عيني، وحاولت أن أتجاهل كل ما يفعلونه. وظلّت التفاصيل في ذهني صور جثث النساء اللواتي مرّرنا بهن في الطريق ولم أرد أن أرى نفسي ممددة بنفس تلك الوضعية المخزية. وشعرت بتمزق في أحشائي وكأنها تنشق إلى نصفين، وشعرت بالهواء المحيط بي ثقيلاً ومرعباً وخانقاً بروائح الدماء وبخور البعوض وقدمي أمي المكشوفتين.

عندما ازدادت صرخات أمي سوءاً، فتحت عيني لأرى ما يحدث لها. فخشيت أن أصيح وأناديها ولكني لم أفعل ذلك. إذ إنني لا أريد أن أمنح أولئك الجنود القردة متعة رؤية رعبي. مددت يدي وأمسكت يدها. كيف يسعني أن أصف النظرة التي تبادلنا؟ إننا أم وابنتها تعانيان حتى الموت. فرأيت في عينيها ألم ولادتي، ومآسي حب الأم التي لا تنتهي، وحياةً كاملاً للأمل. وفي مكان ما في قعر تلك البركة الموحلة رأيت فيهما ضراوة لم أعهدها من قبل.

طوال الوقت كنت أدعو أن تبقى ماي مختبئة من دون أن تحدث أي صوت، وألا يغريها شيء باستراق النظر من الباب، وألا ترتكب أي حماقة لأن الشيء الوحيد الذي لن تقوى على تحمله هو وجودها في الغرفة نفسها مع هؤلاء... الرجال. وبعد قليل، لم أعد أسمع صوت أمي. وفقدت كل إدراك، فلم أعرف مكاني وما يحدث لي. فكل ما أشعر به هو الألم.

انفتح الباب الأمامي، وسمعت وقع المزيد من الأحذية العسكرية على الأرض الترابية المتراصة. وبالرغم من كل الرعب الذي أشعر به، أدركت أن هذه أسوأ لحظة لأني أعلم أن هناك المزيد، ولكني

مخطلة. إذ يصيح صوت غاضب تسلطي وقاس على الرجال. وهنا، هبّوا يتعثرون على أقدامهم، وعدّلوا ملابسهم، ومشّطوا شعرهم، ومسحوا أفواههم بظهور أيديهم. ثم وقفوا بوضعية الاستعداد وقدّموا التحية. فتمدّدت بلا حراك قدر استطاعتي على أمل أن يظنوا أنني ميتة. صرخ الصوت الجديد بالأوامر، أم إنها توبيخات؟ فيصيح الجنود الآخرون استجابة.

مرّ نصل بارد لحربة أو سيف على وجنتي، ولكنني لم أبدِ أي رد فعل. ثم ركلني حذاء، وأيضاً لم أبدِ أي رد فعل. كوني ميتة، كوني ميتة وربما لن تبدأ معاناتك من جديد. ولكن جسدي التفّ على نفسه كوقفة جسريّة فلم أسمع صوت ضحك، بل مجرد صمت رهيب. وانتظرت طعنة الحربة.

شعرت بنفحة من الهواء البارد، وبشخص يضع قطعة قماش على جسدي. وأدركت أن الجندي القاسي واقف فوقي مباشرة وهو يصيح بأوامره. وسمعت وقع أحذية الجنود وهم يمشون في رتل إلى الخارج. فمدّ الجندي يده إلى الأسفل، وعدّل القماش عليّ ثم غادر.

لوقت طويل، ملأ صمت مخيف الغرفة. ثم سمعت صوت أمي وهي ترفع ثقلها عن الأرض وتئن. وبالرغم من شدة رعبي، همست لها قائلة: "ابقي ساكنة فقد يعودون".

ربما كنت أتوهم قولي هذا الكلام لأنه لا يبدو أن أمي تعير أي اهتمام لتحذيري، فسمعتها تزحف قريباً مني ثم شعرت بأصابعها على وجهي. سحبتني أمي، التي لطالما ظننتها ضعيفة، ووضعتني على حضنها. واتكأت على جدار الكوخ الطيني.

قالت أمي وهي تملس شعري: "لقد سماك أبوك يول دراغون (أي لؤلؤة التنين) لأنك ولدت في عام التنين، والتنينُ يجب أن يلعب

باللآلئ، ولكنني أحببت الاسم لسبب آخر. إن اللؤلؤة تنمو عندما تدخل حبة رمل في المحارة. لقد كنت صغيرة في الرابعة عشرة من عمري عندما رتب والدي لزواجي. فتوجب عليّ أن أعيش مع والدك لأن ذلك من واجبي. وكانت معاملة والدك لي بغيضة وخشنة كالرمل، ولكن انظري ما الذي حدث. لقد أنت لؤلؤتي".

همهمت أمي لبعض الوقت. فشعرت بالنعاس وبأن جسدي بأكمله يؤلمني. تُرى أين ماي؟

واصلت أمي حديثها فجأة بلغة الخي بوت، لغة طفولتي التي نتحدث بها لنخفي الأسرار عن ماي: "لقد هبت عاصفة استوائية عندما ولدت. ويقال إن التنين الذي يولد في أثناء عاصفة يعاني من مصير عاصف. إنك دائماً تظنين أنك على حق، وهذا يجعلك تقومين بأشياء لا ينبغي لك...".

"أمي...".

"اصغي إليّ هذه المرة وحسب... ثم حاولي أن تنسي... كل شيء". فانحنت لتهمس في أذني وقالت: "أنت تنين، ومن بين كل العلامات الأخرى، يستطيع التنين وحده أن يغير مصيره وأن يتحلى بالقوة والواجب. إن أختك مجرد خروف. ولطالما كنت لها أماً أفضل مما كنت أنا". فتحرّكت، ولكن أمي ضمتني بقوة. وقالت: "لا تغادريني الآن. فليس أمامنا متسع من الوقت هنا".

بدا وقع صوتها جميلاً. ولم أشعر في حياتي قط بحبها الأمومي هذه القوة كما شعرت به حينها. فاسترخى جسدي بين ذراعيها وشعرت بنفسي أنجرف ببطء إلى الظلام.

قالت لي: "يجب عليك أن تعتني بأختك. عديني بذلك يا يول. عديني الآن".

فـوجدتها. وبعد مرور الوقت وكأنه أيام وأسابيع وشهور، خيّم الظلام على عيني واستغرقت في النوم.

أكل الرياح وتذوق الأمواج

استيقظت مـرة لأجد قطعة قماش رطبة تمسح وجهي. عندما فـتحت عـيني رأيت ماي شاحبة وجميلة ومرتعشة كالشبح، ورأيت السماء من فوقها. أترى هل متنا؟ أغمضت عيني مجدداً، وشعرت بنفسي أتمايل وأتخبط.

بعد ذلك، أدركت أني على متن أحد القوارب. حاولت جاهدة أن أبقى مستيقظة هذه المرة، فنظرت إلى يساري، فرأيت شبكة صيد، ثم نظـرت إلى يميني، فرأيت اليابسة. كان القارب يشق طريقه بثبات، فـيما يوحـي هدوء الأمواج بأننا لسنا في المحيط. رفعت رأسي لأرى قفصاً تحت قدمي بالضبط وفي داخله صبـي في السادسة من عمره ربما يكون معوقاً أو مجنوناً أو مريضاً، فوجدته ينتفض ويرتعش. ثم أغمضت عـيني، وتـركت نفسي أتمتعد على إيقاع القارب الثابت وهو يمخر عباب المياه.

لم أعرف كم يوماً مضى علينا ونحن مسافرون في القارب. ومرت أمـام عـيني صـور مؤلمة، وترددت أصداؤها في أذنيّ، ورأيت القمر والـنجوم فوقي، وسمعت صوت نقيق الضفادع وصوت المجاذيف وهي تـضرب الماء وصوت أم تنادي طفلها بصوت مرتفع وأزيز طلقات البنادق. وفي خواء ذهني المؤلم سمعت صوتاً يقول: "أصحيح أن الرجال الموتى يطفون على الماء ووجوههم نحو الأسفل، أما النساء فيطفُوْن على ظهورهن ووجوههن نحو السماء؟". لا أعرف من سأل هذا السؤال أو

إن كان قد حل على الإطلاق، ولكني فضلت أن أحدق إلى صفحة المياه المظلمة الممتدة إلى ما لانهاية.

رفعت ذراعي لأحجب ضوء الشمس، وشعرت بشيء ثقيل ينزلق نحو مرفقي، إنه سوار أمي المصنوع من اليشب. فأدركت حينئذ أنها ماتت، وشعرت بأحشائي تغلي من الحمى بينما ارتعش جلدي من البرد. رفعتني يدان حنونتان لأجلس. إنني في المستشفى، وتفوّهت أصوات ناعمة بكلمات مثل مورفين وكزاز والتهاب وجراحة. وعندما سمعت صوت أختي، شعرت بالأمان. وعندما لم أكن أسمعه، كان يتملكني اليأس.

أخيراً، استيقظت من تحوّل العالم، ووجدت ماي تغفو على كرسي إلى جانب سرير المستشفى، ويداها ملفوفتان بالضمادات السميكة بحيث إنهما تبدوان كقائمتي حيوان بيضاوين وضخمتين على حضنها. وقف طبيب فوقي ووضع إصبعه على شفتيه. ثم أمال رأسه باتجاه ماي وقال لي: "دعيها تنام. فهي بحاجة إلى النوم".

عندما انحنى باتجاهي، حاولت أن أبتعد عنه، ولكني وجدت معصمي مثبتين إلى جانبي السرير.

قال الطبيب بلطف: "لقد كنت تعانين من الهذيان لبعض الوقت وقاومتنا بضراوة. ولكنك بأمان الآن". ثم وضع يده على ذراعي. إنه رجل صيني، ولكنه رجل على كل حال. فقاومت رغبتي في الصراخ. عندها، نظر الطبيب إلى عيني بقلق وابتسم قائلاً: "لقد زالت الحمى، وستعيشين".

في الأيام التالية، أخبرتني ماي أنها وضعتني في العربة ودفعتني بنفسها إلى أن وصلنا إلى قناة غراند. وعلى طول الطريق، تخلصت من معظم الأشياء التي أحضرناها معنا أو باعتها. والآن أصبحت ممتلكاتنا

الوحيدة هي ثلاثة أطقم من الملابس وأوراقنا وما تبقى من مهر أمي. وعند قناة غراند، أنفقت ماي بعض مال أمي لتدفع أجر قارب صيد ليقلّنا إلى هانغتشو. وكنت على شفير الموت طوال الوقت الذي وصلنا فيه إلى المستشفى. وعندما أدخلوني غرفة العمليات، عالج أطباء آخرون يدي ماي اللتين تقرحتا واهترأتا من جر العربة. فسددت أختي ثمن العلاج من خلال بيع بعض مجوهرات زفاف أمي.

تماثلت يدا ماي للشفاء شيئاً فشيئاً، ولكنهم كانوا سيجرون لي عمليتين جراحيتين أخريين. وأتى الأطباء في أحد الأيام بوجوه عابسة ليخبروني أنهم يشكون بقدرتي على إنجاب الأطفال بعد الآن. فأجهشت ماي بالبكاء حزناً عليّ، ولكني لم أذرف دمعة واحدة. فإن كان الإنجاب يعني الزواج برجل، فأنا أفضل الموت على فعل ذلك مجدداً.

بعد مرور ستة أسابيع في المستشفى، سمح لي الأطباء أخيراً بالخروج من المستشفى. فذهبت ماي لتقوم بإجراءات ذهابنا إلى هونغ كونغ. وفي اليوم المقرر لخروجي من المستشفى، ذهبت إلى الحمام لأغير ملابسي، فاكتشفت أني فقدت الكثير من الوزن. وبدت الفتاة التي تطالعني صورتها في المرآة لا تتعدى الثانية عشرة من العمر، فهي طويلة وشديدة النحول وبارزة العظام وذات وجنتين غائرتين، وهناك هالتان سوداوان حول عينيها. أما شعري فقد نما وأصبح زغباً وكامداً. وتركت الأيام التي أمضيتها تحت الشمس من دون مظلة أو قبعة بشرتي متوردة وخشنة. كم كان والدي سيشعر بالغضب إن رآني الآن. وبدت ذراعاي نحيلتين جداً بحيث إن أصابعي تبدو طويلة جداً كالمخالب، فيما بدا الفستان الغربي الذي أرتديه فضفاضاً ومتدلياً على جسدي كالستائر.

عندما خرجت من الحمام، رأيت ماي جالسة على السرير بانتظاري. فألقت عليّ نظرة واحدة ثم طلبت مني أن أخلع الفستان.

وقالت: "لقد حدثت أمور كثيرة بينما كنت تتعافين من مرضك. إن جنود القردة منتشرون كالنمل الباحث عن شراب السكر. إنهم في كل مكان". وترددت قليلاً، إذ إنها لا تود أن تتحدث عما حدث في تلك الليلة في الكوخ، وهذا ما شعرت بالامتنان من أجله، ولكنه بقي معلقاً بيننا مع كل كلمة نقولها وكل نظرة نتبادلها. ثم تابعت بسرور مريب قائلة: "يجب أن نبدو منسجمتين مع محيطنا، لذا، يجب أن نجعل مظهرنا شبيهاً بمظهر الجميع حولنا".

باعت ماي إحدى أساور أمي، واستخدمت المال لتشتري طقمين من الملابس المحلية مكونين من سروالين أسودين من الكتان وسترتين زرقاوين فضفاضتين ووشاحين لتغطي بهما شعرنا. فسلّمتني طقماً من الملابس الريفية الخشنة لأرتديه. لم أكن أعاني من أي خجل فقط بالنسبة إلى ماي، فهي أختي، ولكنني لم أستطع أن أتقبل رؤيتها لي الآن وأنا أبدل ملابسي، فأخذت الملابس وعدت إلى الحمام.

نادتني ماي من الطرف المقابل للباب المقفل قائلة: "لدي فكرة أخرى، لا يسعني القول إنها فكرتي الخاصة ولا أعرف إن كانت ستنجح أم لا. فقد سمعتها من سيدتين من الطبقة البشرية الصينية. سأنتظر حتى تخرجي لأريك ما سأفعله".

عندما حدقت إلى المرآة هذه المرة كدت أنفجر ضاحكة. فخلال الشهرين الفائتين، تحولت من فتاة جميلة إلى فلاحة مثيرة للشفقة. ولكن، عندما خرجت من الحمام، لم تعلق ماي على مظهري، بل أشارت إليّ لأجلس على السرير، ثم أخرجت مرطباناً من كريم البشرة وعلبة من مسحوق الكاكاو ووضعتهما على الطاولة. وحين عندما

رأت صبية فطوري واكتشفت أنني لم أتناول شيئاً بعدما، أخذت الملعقة وغرفت بعض كريم البشرة ووضعت كميتين كبيرتين منه على الصينية.

"صبّي بعض مسحوق الكاكاو هنا، يا بول". وعندما نظرت إليها بشك، قالت وهي تبتسم: "ثقي بي". فرششت المسحوق داخل المرطبان، وبدأت بتحريك المزيج المتبقي للاختبار. وقالت: "سنضع هذا على وجهينا وأيدينا كي تبدو بشرتنا أدكن كأهل الريف".

إنها فكرة ذكية، ولكن بشرتي الداكنة أصلاً لم تحمني من جنود الجنود، ومع ذلك، غادرت المستشفى وأنا أضع مزيج ماي على وجهي.

خلال إقامتي في المستشفى، عثرت ماي على صياد اكتشف طريقة جديدة لجني ثروة تغنيه عن البحث تحت الأمواج، وهي عبارة عن نقل اللاجئين من هاغفتشو إلى هونغ كونغ. عندما صعدنا على متن القارب، انضممنا إلى عدد من المسافرين في مخزن صغير مظلم جداً كان يستخدم في ما سبق لتخزين السمك. فلم يصلنا أي ضوء إلا من خلال شقوق دفة القارب فوقنا. وغمرتنا رائحة السمك العالقة. كنا ننطلق في البحر خلف إعصار استوائي، وكان القارب يتمايل بعنف، ولم يمض وقت طويل حتى أصيب الجميع بدوار البحر، ولكن ماي كانت تعاني أكثر من الجميع.

في اليوم التالي، سمعنا صوت صراخ. فبدأت امرأة إلى جانبي بالبكاء وهي تقول: "إنهم اليابانيون. سنموت جميعاً".

إن كانت محقة، فلن أمنحهم الفرصة لإيذائي مجدداً. سأرمي نفسي في البحر أولاً. تردد وقع الأحذية العسكرية فوقنا. فاحتضنت

الأمهات أطفالهن إلى صدورهن ليكتمن أي أصوات قد تصدر عنهم. وحرّك طفل رضيع ذراعيه بيأس وهو يحاول أن يأخذ نفساً.

نقّبت ماي في حقائبنا، وأخرجت آخر ما تبقى من مالنا، ووزعته على ثلاثة أكياس. فطوت الأول وحشرته بين الألواح الخشبية في السقف. ثم دست بعض المال تحت منديل رأسها. وأعطتني الكيس الثالث. فحلوت حلوها ودسسته تحت منديلي. نـزعت ماي سوار أمي من يدي وكذلك قرطيها ثم وضعتها مع ما تبقى في حقيبة مهر أمي. وحشرت الحقيبة بين هيكل القارب واللوح الذي نجلس عليه. وأخيراً، مدّت يدها إلى حقيبة سفرنا وأخذت مزيج الكريم والكاكاو، فلطخنا وجهينا وأيدينا بطبقة أخرى.

انفتح المزلاج، وشعّ ضوء النهار علينا.

فأمرنا صوت باللغة الصينية قائلاً: "اخرجوا إلى هنا!".

فعلنا ما طُلب منا. وعندما صعدنا هبّ الهواء المالح المنعش على وجهي. ورأيت أمواج البحر صاخبة تحت قدمي. وشعرت بخوف شديد من النظر إلى الأعلى.

همست ماي قائلة: "لا بأس. إنهم صينيون".

ولكنهم ليسوا من مفتشي البحر أو الصيادين أو حتى اللاجئين الذين يتم تحويلهم من قارب إلى آخر بل قراصنة. إن شعبنا يستغل فرصة الحرب على اليابسة بنهب المناطق التي تقع تحت الهجوم. فلماذا ينبغي أن يكون البحر مختلفاً؟ هيمن الرعب على قلوب المسافرين الآخرين. وهم لا يدركون أن سرقة المال والمتاع مصيبة سخيفة مقارنة بغيرها من مآسي الحرب.

فتش القراصنة الرجال وأخذوا المجوهرات كلها والأموال التي عثروا عليها، ولكنها لم ترضهم. فأمر زعيم القراصنة الرجال بخلع

ملابسهم. في البداية، ترددوا قليلاً. وعندما هزّ الزعيم بندقيته، فعل الرجال ما أمروا به. فعثر القراصنة على المزيد من المجوهرات والأموال المخبأة تحت الملابس الداخلية أو الموضوعة داخل حواشيها أو المخفية في نعال الأحذية.

من الصعب أن أشرح كيف كان شعوري، فهي المرة الأخيرة التي رأيت فيها رجالاً في وضع كهذا كانوا... ولكن هؤلاء أبناء بلدي الذين يرتجفون من البرد والخوف وهم يحاولون أن يستروا أنفسهم بأيديهم. إنني لا أود أن أنظر إليهم، ولكنني أفعل ذلك. فأشعر بالارتباك والقسوة والنصر الغريب لأنني أرى الرجال ينحدرون إلى هذا المستوى الضعيف.

لم تأمر القراصنة النساء أن يعطيهم ما يخفينه. وبعد أن رأين ما حدث مع الرجال، أطاعت النساء الأوامر على الفور. فمددت يدي بلا تردد إلى منديلي وقدّمت الأوراق النقدية. فجمع القراصنة جميع أغراضنا القيمة، ولكنهم لم يكونوا أغبياء.

"أنت!".

فقفزت، ولكنه لم يكن يخاطبني أنا.

"ما الذي تخفينه؟".

فتقول فتاة واقفة إلى جانبي بصوت متهدج: "إنني أعمل في إحدى المزارع".

"فتاة مزرعة؟ ولكن وجهك ويديك وقدميك لا تدل على هذا".

هذا صحيح. فالفتاة ترتدي ملابس ريفية، ولكنّ وجهها شاحب ويديها جميلتان. كما أنها تنتعل حذاء فروسية جديداً. فساعد القرصان الفتاة على خلع ثيابها فلم يبقَ على جسمها إلا منديل وحزام. وعندئذ عرفنا بكل تأكيد أنها تكذب. إذ إن فتاة ريفية لا تتحمل نفقة المناديل

ذات الطراز الغربي، بل تستخدم أوراق الأعشاب الخشنة كبقية النساء الفقيرات.

كيف حدث أننا عجزنا حتى في هذه الأوقات عن منع أنفسنا من النظر؟ لا أعرف، ولكنني كنت أنظر مجدداً وأنا خائفة على نفسي وعلى ماي وفضولية في آن معاً. نزع القرصان المنديل وشقه بسكينه، وحصل على خمسة عشر دولاراً، وهي عملة هونغ كونغ.

استشاط القرصان غضباً من غنيمته التافهة، فألقى بالمنديل في البحر، وجال ببصره بيننا نحن النساء، ولكنه قرّر أننا لا نستحق العناء. ثم أشار إلى اثنين من رجاله ليفتشوا الغرفة. وعندما عادوا بعد بضع دقائق تفوّهوا ببضع كلمات تهديد وقفزوا إلى مركبهم وأبحروا مبتعدين. فهرع الناس ليكونوا أول من يدخل الحجرة للفرقة ليعرفوا ما الذي أخذه القراصنة. فبقيت على سطح المركب، ولكنني سرعان ما سمعت صراخ خيبة الأمل.

هرع رجل صاعداً الدرج وقطع سطح المركب بثلاث خطوات عملاقة ثم ألقى بنفسه في الماء. ولم أحظ أو الصياد بأي فرصة لإنقاذه. فصارع الرجل الأمواج لدقيقة أو نحو ذلك ثم اختفى عن الأنظار.

لقد سطع في كل يوم مضى عليّ منذ استيقظت في المستشفى أنني أموت، ولكن رؤيتي لذلك الرجل وهو يغرق بين الأمواج أشعرتني بشيء يقاوم في داخلي. إن التين لا يستسلم بل يحارب مصيره، ولكن هذا ليس شعوراً صاخباً هادراً، وإنما هو أشبه بشيء يتوهج كالجمر ويعثر على بصيص صغير ليتأجج ويشتعل. يجب عليّ أن أتمسك بحياتي مهما بدت لي مدمرة وعديمة الفائدة. فتردّد في أعماقي صوت أمي وهي تردد مقولتها المفضلة: "ليست هناك كارثة أسوأ من الموت، ولا

يمكن أن يصبح المرء أفقر من المتسول". إنني أريد بل يجب عليّ، أن أفعل شيئاً أكثر شجاعة ورقياً من مجرد الاستسلام للموت.

توجّهت إلى الغرفة ونزلت الدرج، ثمّ أقفل الصياد الباب بإحكام وثبّته. ومن خلال الضوء الخافت، عثرت على ماي وجلست إلى جانبها. فأرتني بصمت حقيبة مهر أمي ثم ألقت نظرة خاطفة إلى الأعلى، فتبعت نظرها واكتشفت أن آخر ما تبقى من مالنا لا يزال آمناً في الشق.

بعد وصولنا إلى هونغ كونغ ببضعة أيام، قرأنا أن المناطق المحيطة بشنغهاي كانت معرضة للهجوم طوال ذلك الوقت. ووصلتنا أخبار لا تحتمل لشدة قسوتها. فقد تعرضت تشابي للقصف وتحولت إلى رماد. ولم تدفع هونغكيو حيث كنا نعيش ثمناً أقل، ولا تزال منطقتا الاستعمارات الفرنسية والمنطقة المحمية بموجب معاهدة دولية آمنتين لأنهما منطقتان أجنبيّتان. فكان المزيد من اللاجئين يتدفقون إلى هذه المناطق التي لم يعد فيها مكان لحركة. وبحسب ما ذُكر في الصحيفة، فقد ذهل سكان الامتيازات الأجنبية، وهم قرابة ربع مليون، من الازدحام الذي تسبب به ثلاثة ملايين ونصف مليون لاجئ أصبحوا يعيشون في الشوارع وفي دور السينما وقاعات الرقص ومضامير السباق. والآن بعد أن أصبحت هذه الامتيازات محاطة من كل الجوانب بعصابات الأقزام، أطلق عليها اسم *الجزيرة الموحشة*. ولم يقتصر الرعب على شنغهاي، إذ إن كلّ يوم يجلب معه أخباراً عن التعذيب والقتل اللذين تعرض لهما الناس في أرجاء الصين كافة. فقد تعرضت كانتون، وهي تبعد بعيداً عنا هنا في هونغ كونغ، لغارات جوية مكثفة. لقد أرادتنا أمي أن نذهب إلى قرية والدي، ولكن ما الذي سنعثر عليه حالما نصل إلى

هـــناك؟ هل ستجدها مخروقة وقد أبيدت عن بكرة أبيها؟ هل سيكون فيها أحد على قيد الحياة؟ هل سيعني اسم والدي أي شيء بعد الآن في من يو؟

أقمـــنا في فندق مطل على الواجهة المائية لهونغ كونغ، وهو فندق متسخ ومغبر وموبوء بالحشرات. وقد بدت شبكات البعوض ملطخة بالســخام ومحرقة، وأصبحت الأشياء التي تجاهلناها في شنغهاي واضحة بـشكل صـارخ الآن: كالعائلات التي تقبع في زوايا الشوارع ومعها بـضائعها البخسة مفروشة على ملاءة أمامها على أمل أن يتوقف أحد ويـشتري منها. ومع ذلك، تصرف البريطانيون وكأن جنود القردة لن يـصلوا إلى هذه المستعمرة أبداً. فكانوا يقولون بلكنتهم الحازمة: "إننا لسنا متورطين في هذه الحرب، ولن يتجرأ اليابانيون على الهجوم علينا". وبسبب قلة المال بين أيدينا، اقتصر طعامنا على نخالة الأرز المطهية وهي وجـبة تعطـى غالباً للحيوانات، فتحشل النخالة بلعوم كل منا عندما نبلعها. إننا لا نجيد أي مهارات، ولم يعد أحد بحاجـــة إلى الفتيـــات الجميلات، إذ ليس هناك هدف من الترويج لهن في وقت أصبح فيه كل العالم قبيحاً.

ذات يوم، رأينا بوكماركت هونانغ يترجل من سيارة ليموزين ويصعد درج فندق بينينسولا. ولم يكن هناك مجال بأن نخطئه. فعدنا أدراجنا إلى فندقنا وأغلقنا الباب على نفسينا، وحاولنا أن نكتشف ما يعنيه وجوده هنا في هونغ كونغ. ترى هل أتى إلى هنا ليهرب من الحـرب؟ هــل نقلت عصابة غرين عملياتها إلى هنا؟ إننا لا نعرف ذلك، وليست هناك طريقة آمنة تمكننا من اكتشاف الحقيقة. ولكن ذلـــك الرجل ذو نفوذ، وإن كان هنا في الجنوب، فسيعثر علينا من دون شك.

عـــندما نفـــدت لدينا الخيارات الأخرى، ذهبنا إلى شركة السفر واســتبدلنا تذكرتينا الأصليتين وتدبّرنا مكانين في الدرجة الثانية على رحلة لمدة عشرين يوماً إلى سان فرانســيسكو. ولم نفكر في ما قد يحدث حالما نصل إلى هناك، وإن كنا سنعثر على زوجينا أو أي شيء من هذا القبـــيل. إذ إننا حاولنا وحسب أن نبتعد عن متناول يد عصابة غرين ونسيق اليابانيين.

على متن السفينة، عاودتني الحمى مجدداً. فلزمت مقصورتنا وفاتني معظم الرحلة. وأصيبت ماي بدوار البحر، لذا، أمضت معظم وقتها في الخـــارج لتنـــشق الهواء النقي على سطح الدرجة الثانية. وأطلتني عن لقائها بشاب ذاهب إلى جامعة برينستون ليدرس.

أخبرتني بما حدث قائلة: "إنه في الدرجة الأولى، ولكنه أتى لرؤيتي، فتمـــشينا وتحدثنا. إنني معجبة به إعجاباً شديداً". وشعرت من حديثها أن الفتى غريـــبي الطباع كثيراً. فلا عجب أن ماي معجبة به.

أحـــياناً لم تكن ماي تعود إلى الغرفة حتى وقت متأخر من الليل، فتتسلق إلى السرير العلوي وتخلد إلى النوم مباشرة، ولكنها أحياناً تتسلق إلى الســـرير الـــضيق إلى جانبـــي وتحيطني بذراعيها لم تجعل نفـــسها بتماشى مع نفسي وتستغرق في النوم. فأبقى مـــستيقظة وأنا أخشى أن أتحـــرك لئلا أوقظها، ويبدأ القلق ينهشني. إذ يبدو على ماي أنها متيمة بـــذلك الشاب. فتساءلت عن مدى عمق علاقتها به. ولكن، أيمكنها فعل ذلك حقاً؟ ونقلتني أفكاري المظلمة إلى أماكن أكثر وحشة.

إن العديـــد مـــن الـــناس يتمنون الذهاب إلى أميركا، وبعضهم مستعدون لفعل أي شيء للوصول إلى هناك، ولكن الذهاب إلى أميركا لم يكـــن حلمـــي قط. بل كان ضرورة ومجرد خطوة بعد العديد من

الأصدقاء والمآسي والموت واتخاذ قرار خطأ تلو الآخر. لم يتبق لي ولأخي سوى بعضنا. وبعد كل شيء مررنا به، أصبحت علاقتنا أقوى من أي وقت مضى، ولكن كل ما علينا فعله الآن هو أن نواصل طريقنا الذي بدأناه مهما كان المكان الذي سيأخذنا إليه.

ظلال على الجدران

في الليلة التي سبقت رسونا على الشاطئ، أخرجت الأوراق الطبية التي أعطاني إياها سام وتصفحتها. وقد ورد في الأوراق أن لوي العجوز قد ولد في أميركا وأن سام، وهو أحد أبنائه الخمسة، قد ولد في الصين في العام 1913، وهو عام الثور، خلال زيارة والديه إلى قريتهما الأصلية واه هونغ، وهذا ما جعله مواطناً أميركياً لأن والده أميركي. (فكرت غير مكترثة في أنه لا بد من أن يكون من مواليد عام الثور لأن أمي قالت إن أولئك الذين يولدون تحت علامة الثور يفتقرون إلى الخيال ويجرون أعباء العالم إلى الأبد). عاد سام إلى لوس أنجلوس مع والديه، ولكن في العام 1920، قرر الرجل العجوز وزوجته أن يعودا إلى الصين عندئذ، وتركا ابنهما وهو في السابعة من عمره مع جديه لأبيه. (وهذا يختلف عما كنت أعتقده. فقد ظننت أن سام أتى إلى الصين مع أبيه وأخيه ليعثر على عروس، ولكنه كان هناك أصلاً. وأعتقد أن هذا يفسر سبب حديثه معي بلغة السي يوب بدلاً من الإنكليزية خلال المناسبات الثلاث التي التقينا فيها، ولكن لماذا لم تخبرني عائلة لوي أياً من هذه المعلومات؟) الآن عاد سام إلى أميركا للمرة الأولى منذ سبعة عشر عاماً. أما فيرن فقد ولد في لوس أنجلوس في العام 1923، وعاش هناك طوال حياته. وولد الإخوة الآخرون في الأعوام 1907 و1908 و1911 في قرية واه هونغ، وكلهم يعيشون الآن في لوس أنجلوس. بذلت ما في وسعي لأحفظ التفاصيل الصغيرة وتواريخ البلاد المتعددة

والعشاوين في واه هونغ ولوس آنجلوس وما شابه. وأطلعت ماي على المعلومات التي ظننتها مهمة، ثم صرفت بقية الأمور عن ذهني.

في صباح اليوم التالي، الموافق 15 تشرين الثاني، نهضنا باكراً وارتدينا أفضل ملابسنا ذات الطراز الغربي. وقلت لأختي: "إننا ضيفتان في هذه البلاد، وينبغي لنا أن نبدو وكأننا ننتمي إليها". فوافقتني ماي الرأيَ وارتدت فستاناً خاطته لها مدام غارنييه قبل سنة. تُرى كيف قطع فستانها الحريري كل هذا الطريق من دون أن يفسد أو يتلوث بنما...؟ يجب عليّ أن أتوقف عن التفكير على هذا النحو.

جمعنا حاجاتنا وأعطينا حقيبتينا إلى الحمال، ثم صرنا، وعثرنا على مكان إلى جانب الحاجز، ولكننا لم نستطع أن نرى الكثير بسبب غزارة المطر. وقد بدا جسر البوابة الذهبية فوقنا محاطاً بالضباب. وإلى يميننا تقبع المدينة على الشاطئ. فبدت لنا رطبة وكئيبة وضئيلة الأهمية مقارنة بشنغهاي. ومن تحتنا، رأينا سطح السفينة الرئيس وعليه مئات العمال والرجال الذين كانوا يجرون العربات والفلاحين الذين يتدافعون ككومة ملتوية ورائحة ملابسهم الرطبة والقذرة تصل إلينا.

رست السفينة على رصيف الميناء. فتجمّعت عائلات صغيرة من الدرجة الأولى والثانية وهم يضحكون بسعادة لوصولهم. وقدّموا أوراقهم ثم مشوا على ممر مغطى ليحميهم من المطر. وعندما حان دورنا، قدّمنا أوراقنا. نظر المفتش إليها وعبس ثم أشار إلى أحد أفراد الطاقم.

وقال: "يجب أن تذهب هاتان الاثنتان إلى مركز هجرة جزيرة أينجل".

فتبعنا رجل الطاقم عبر دهاليز السفينة، ونزلنا درجاً يسوده الهواء الرطب. فشعرت بالراحة لخروجنا مجدداً إلى أن وجدت نفسي

مع ركاب الدرجة الرخيصة. وبالطبع ليست هناك مظلات تغطي سطح السفينة هنا. فعصفت الرياح الباردة على وجوهنا وبللت ملابسنا.

رأينا الناس حولنا يتصفحون الكتب التعليمية بانفعال. ثم مزّق أحد الرجال إلى جانبنا صفحة من كتابه وحشرها في فمه ومضغها قليلاً ثم ابتلعها. وسمعت شخصاً يقول إنه قد أسقط كتابه في الأمواج في الليلة الفائتة، ويتبجح آخر بأنه رماه في المرحاض ويقول: "التمني حسن الحظ لكل من يود أن يبحث عنه الآن!". فشعرت بقلبي ينقبض من القلق. تُرى هل كان يجب عليّ أن أتخلص من الأوراق؟ لم يقل لي سام ذلك. ولا سبيل لديّ للوصول إليها الآن لأنها مدسوسة داخل قبعتي مع أمتعتنا. أخذت نفساً عميقاً، وحاولت أن أطمئن نفسي. إذ ليس لدينا شيء نخشاه. فنحن هاربتان من الحرب الدائرة في الصين وقادمتان إلى أرض الأحرار، وهذا كل ما في الأمر.

شقت وماي طريقنا عبر العمال الذين وصلت رائحتهم القذرة إلى الحاجز. ألم يكن في وسعهم أن يغتسلوا قبل أن ترسو السفينة؟ أي انطباع يقدمونه لضيفينا؟ لقد بدا على ماي أنها مشغولة الذهن بشيء آخر كلياً. إذ لاحظت أنها تراقب الناس وهم لا يزالون يخرجون من الدرجة الأولى والثانية باحثة عن شاب اعتادت أن تمضي وقتها معه في الرحلة. ثم قبضت على يدي بانفعال عندما رأته.

"ها هو! ها هو سبنسر". فرفعت صوتها ونادته قائلة: "سبنسر! سبنسر! انظر إلينا هنا! أيمكنك أن تساعدنا؟".

لوّحت ونادت مرات عدة، ولكنه لم يلتفت أو ينظر إلى مكان وقوفها عند الحاجز في الدرجة الثالثة. فانقبضت ملامح وجهها عندما

قدّم إكرامية إلى الحمالين ثم واصل سيره مع مجموعة من الركاب القوقازيين نحو بناء إلى اليمين.

من مكان عميق داخل السفينة، أُخرجت البضائع في رزم كبيرة مكسوة بالشباك ووُضعت على الرصيف. ومن هنالك، اتجهت معظم البضائع مباشرة إلى إدارة الجمارك. وسرعان ما رأينا تلك الصناديق والأقفاص تغادر الجمارك وتُحمّل في الشاحنات. وبعد أن تمّ دفع الضرائب، توجّهت البضائع في طريقها إلى التخزين، ولكننا بقينا منتظرين تحت المطر.

كان بعض رجال الطاقم ينصبون ممراً خشبياً آخر نحو عمّي من عوامل الطفو على الدفة السفلية التي كنا نقف عليها، أتى رجل مرتد معطفاً مشمعاً وثبّت الممر وصعد على أحد الأقفاص ثم صاح باللغة الإنكليزية: "حلوا كل شيء أحضرتموه معكم. فكل ما ستتركونه هنا سنتخلص منه".

فتجمّع الناس حولي بارتباك.

"ما الذي يقوله؟".

"اصمتوا. لا أستطيع أن أسمع شيئاً".

صاح الرجل ذو المعطف: "أسرعوا! هيا! هيا!".

سألني رجل مسنّ ومرتجف قائلاً: "هل تفهمين ما يقوله؟ ماذا يريد منا أن نفعل؟".

"حلوا أمتعتكم وغادروا السفينة".

بينما بدأنا بتنفيذ الأوامر، وضع الرجل ذو المعطف المشمع قبضتي يديه على خصره وصاح: "وابقوا معاً!".

ترجلنا من السفينة، وكل شخص كان يدفع الآخر، وكأن أهم شيء في العالم هو أن يكون المرء أول من يغادر السفينة. وعندما وطأت

أقدامنا الأرض، لم نمشِ إلى المبنى الذي إلى اليمين، إلى حيث ذهب المسافرون، ولكن إلى اليسار على طول الرصيف، ثم عبرنا ممشى ضيقاً واستقللنا قارباً صغيراً، وكل ذلك من دون أي تفسير. وعندما أصبحنا على متن القارب، أدركت أنه بالرغم من وجود بعض القوقازيين واليابانيين فمعظم الموجودين هم من الصينيين.

انطلق بنا القارب داخل الخليج.

سألتني ماي قائلة: "إلى أين نحن ذاهبون الآن؟".

كيف يمكن لماي أن تكون منعزلة تماماً عما يحدث حولها؟ ألا يسعها أن تبدي بعض الاهتمام؟ لماذا لم تقرأ الأوراق التعليمية؟ لماذا لا تستطيع أن تتقبل ما يحل بنا؟ لقد فهم تلميذ جامعة برينستون ذلك، أيا يكن اسمه أو موقعه تماماً، ولكن ماي ترفض أن تتقبل ذلك.

فشرحت لها قائلة: "إننا ذاهبون إلى مركز هجرة جزيرة آينجل".

فقالت ببساطة: "آه، حسناً".

ازداد المطر غزارة والرياح برودة. وتمايل القارب الصغير وسط الأمواج. وتقيّأ الناس. مدت ماي رأسها فوق الحاجز وتنشّقت الهواء الرطب. مررنا بجزيرة في وسط الخليج، وبعد بضع دقائق، وجدنا أنفسنا عائدين نحو جسر البوابة الذهبية. فظننا أنهم سيعيدوننا إلى الصين. أنّت ماي، وحاولت أن تركز نظرها على الأفق. ثم تحوّل مسار القارب إلى اليمين وانعطف حول جزيرة أخرى ثم إلى أحد الخلجان حيث رسا على رصيف صغير. فرأينا أبنية خشبية بيضاء منخفضة على سفح التلة، وأربع أشجار نخيل نحيلة ترتعش في الرياح، وعلم الولايات المتحدة الأميركية الرطب يخفق على ساريته مصدراً صوتاً، وهناك لافتة كبيرة كتب عليها: "ممنوع التدخين". ومرة أخرى، تدافع الناس ليكونوا أول من يغادر القارب.

صاح الرجل ذو المعطف الشمع مجدداً، وكأن صوته المرتفع سيجعل الناس الذين لا يفهمون اللغة الإنكليزية يفهمونها، وقال: "ليتقدم البيض الذين لا يملكون أوراقاً مرضية أولاً". خرج المسافرون البيض من الصف وتقدّموا إلى الأمام، بينما دفع الحراس الشباب بعض الصينيين الذين ارتكبوا خطأً ووقفوا في مقدمة الصف، ولكنّ هؤلاء الرجال البيض لم يفهموا هم أيضاً معظم ما كان يقوله الرجل ذو المعطف. إن هؤلاء الناس من روسيا البيضاء، وهم من أفقر أهالي شنغهاي، ومع ذلك، وجدناهم يتلقون معاملة خاصة هنا! فتمّ اقتيادهم من القارب وإيصالهم إلى المبنى، ولكن ما حدث لاحقاً أصابني بصدمة أكبر، إذ تمّ وضع اليابانيين والكوريين في مجموعات معاً وتمّ اقتيادهم بأدب عبر باب مختلف إلى المبنى. وتوجه الرجل إلينا مجدداً وقال: "إننا مستعدون لكم الآن. عندما تخرجون من القارب اصطفوا في صفين: الرجال إلى اليسار والنساء والأطفال تحت سن الثانية عشرة إلى اليمين".

ساد الكثير من الارتباك والمعاملة الخشنة من الحراس، ولكن حالما اصطففنا كما يريدون، تمّ اقتيادنا تحت المطر المنهمر على طول الدكة إلى المبنى الإداري. وهناك دخل الرجال من أحد الأبواب والنساء والأطفال من باب آخر، وهم هنا فصلوا الأزواج عن زوجاتهم والأبناء عن عائلاتهم. ملأت صرخات الذعر والخوف والقلق الجو، ولكنّ الحراس لم يُبدوا أي رحمة بل عاملونا معاملة أشد قسوة وكأننا أقل شأناً أو كما عاملوا البضائع التي تم شحنها معنا.

استمرّ فصل الأوروبيين (أي كل البيض) والآسيويين (أي كل القادمين عبر المحيط الهادئ من غير الصينيين) عنا نحن الصينيين خلال صعودنا تلة منحدرة إلى مؤسسة طبية في أحد الأبنية الخشبية. أتت

امرأة كانت ترتدي زياً أبيض اللون ذا ياقة بيضاء منشاة، وبدأت بالتحدث باللغة الإنكليزية بذلك الصوت المرتفع نفسه الذي من المفترض أن يعوّض عن حقيقة أن الجميع لا يفهمون ما كانت تقوله باستثنائي وماي.

قالت: "العديدون منكم حاولوا أن ينقلوا أمراضاً خطيرة وكريهة وطفيلية إلى بلادنا، وهذا أمر غير مقبول. ولهذا، سأقوم والأطباء بفحصكم لتشخيص أمراض مثل: التراخوما، ودودة الأنسيلوستوما، وداء الخيطيات، والمثقبة الكبدية.

بدأت النساء حولنا بالبكاء، إذ إنهن لا يعرفن ما كانت تريده تلك المرأة، ولكنها كانت ترتدي الزي الأبيض، وهو لون الموت. ثم أتت امرأة صينية ترتدي رداء طويلاً أبيض أيضاً لتترجم الحديث. لقد حاولت طوال الوقت أن ألتزم الهدوء، ولكني أصغيت إلى ما يعتزم هؤلاء الناس أن يفعلوه بنا، وبدأت بالارتجاف. إذ إنهم سيتفحصوننا كالأرز الذي بعد الطهي. وعندما أمرونا بخلع ملابسنا، تمتمت كل النساء في الغرفة بعبارات الألم. قبل وقت ليس بطويل، كنت وماي سنسخر من فرط احتشام النساء الأخريات لأننا لم نكن كمعظم النساء الصينيات بل كنا فتاتين حديثتين. وسواء أكان ذلك جيداً أم سيئاً، فقد كشفنا عن جسدينا في مناسبات عدة. ولكنّ معظم النساء الصينيات محتشمات جداً ولا يظهرن أجسادهن علناً، ونادراً ما يفعلن ذلك حتى أمام أزواجهن أو بناتهن.

ولكن مهما يكن التحرر الذي اكتسبته في الماضي، فقد اختفى الآن إلى الأبد. وأشعر أنني لا أتحمل فكرة خلع ملابسي ولمس أحد جسمي. تشبثت بماي، فأمسكت بي لتدعمني. وحتى عندما حاولت الممرضة أن تفصلنا، بقيت ماي معي. عضضت على شفتي لأمنع نفسي

من الصراخ عندما اقترب مني الطبيب. فنظرت من فوق كتفه إلى خارج النافذة. وحلمت أنني إن أغمضت عينيّ فستعود بي ذاكرتي إلى ذلك الكوخ مع أولئك الرجال وسأسمع صراخ أمي وأشعر... لذا، أبقيت عينيّ مفتوحتين على وسعهما. وبدا كل شيء أمامي أبيض ونظيفاً... حسناً، إنه على الأقل ألطف من ذكرياتي عن الكوخ. تظاهرت أنني لا أشعر ببرودة أجهزة الطبيب المتجمدة ولا يديه. حدّقت عبر الخليج، وكل ما استطعت أن أراه هو المياه الرمادية الممتزجة بالمطر الرمادي. ولا بد من أن اليابسة هناك، ولكن ليست لديّ فكرة عن مدى بعدها. وحالما انتهى الطبيب من فحصي، تنفست الصعداء مجدداً.

قام الطبيب بفحص الآخرين واحداً تلو الآخر، بينما انتظرنا ونحن نرتجف من البرد والخوف إلى أن يعطي كل واحد منا عينة براز. وبقينا معزولين عن بقية الأعراق بينما بقي الرجال مفصولين عن النساء. ثم تمّ تقسيم النساء إلى عدة مجموعات، إحداها ذهبت إلى المهجع وأخرى بقيت في المستشفى لتعالج من دودة الأنسيلوستوما، فيما سيتم ترحيل مجموعة النساء اللواتي يعانين من داء المثقبة الكبدية على الفور إلى الصين. فبدأت أنهار من الدموع بالتدفق.

انضممت ومايّ إلى المجموعة المتوجهة إلى مهجع النساء في الطابق الثاني من المبنى الإداري. وحالما دخلنا المهجع، أُقفل الباب خلفنا. وجدنا أنه يحوي صفوفاً من الأسرّة مربوطة ببعضها بقضبان حديدية ومثبتة بالسقف والأرض من دون أفرشة للنوم عليها وإنما فقط شبكات من الأسلاك، وهذا يعني أنه يمكن أن تطوى الإطارات لتمنح المزيد من المساحة في الغرفة، ولكن من الواضح أن أحداً لم ترد أن يجلس على الأرض، ولا أن تبعد المسافة بين الأسرّة أكثر من ثماني عشرة بوصة. أما

المسافة العمودية بين الأسرّة فهي ضيقة جداً بحيث إنني أدركت من أول نظرة أنني لن أتمكن من مدّ ذراعي من دون أن ألمس السرير الذي فوقي. ويمتع السرير العلوي فقط بمساحة كافية للجلوس بشكل عمودي، ولكن تلك المنطقة مليئة بأكوام من الغسيل الذي وضعته النساء اللواتي كن يقمن هنا من قبل. وهناك غسيل منشور على أسلاك معلقة بين القضبان في نهاية الأسرّة. وتوجد بضعة أكواب وأوعية من الصفيح على الأرض تحت كل صف من الأسرّة المشغولة.

توجهت مايّ بسرعة إلى آخر الممر المركزي وطالبت بسريرين علويين إلى جانب بعضهما قرب النافذة. فتسلّقت سريرها وتمدّدت عليه واستغرقت في النوم على الفور. ولم يحضر أحد أمتعتنا. فلا يتعدى كل ما نملكه في الوقت الحالي الملابس التي نرتديها وحقائب اليد التي نحملها.

في صباح اليوم التالي، حاولت ومايّ أن نعدل هيئتنا قدر المستطاع. فأخبرنا الحراس أننا سنذهب إلى جلسة استماع أمام هيئة التحقيق الخاصة، ولكن النساء في المهجع يسمينه استجواباً. مهما كانت التسمية، فالاسمان ينذران بالشؤم. فاقترحت علينا إحدى النساء أن نشرب الماء البارد لتهدئ من خوفنا؛ ولكنني لست خائفة، إذ ليس لديّ ما أخفيه، وهذه مجرد إجراءات شكلية.

قادنا الحراس مع مجموعة صغيرة من النساء إلى غرفة تبدو أشبه بالقفص. فجلسنا على المقاعد وحككنا إلى بعضنا. هناك عبارة يستخدمها أهل الصينيون، وهي *تجرّع المرارة*. فقلت لنفسي إنه مهما حدث في جلسة استماعنا، فلن يكون أسوأ من الفحص الجسدي، أو مما حدث لي ولمايّ يوماً بعد يوم منذ اللحظة التي أعلن فيها أبي أنه رتب لزواجنا.

همست لماي ونحن ننتظر في القفص قائلة: "قولي لهم ما قلته لك وكل شيء سينتهي على خير. وعندئذ ستتمكن من مغادرة هذا المكان".

أومأت برأسها وهي مستغرقة بالتفكير. وعندما استدعاها الحرس، راقبتها وهي تدخل إحدى الغرف. ثم أغلق الحارس الباب خلفها. وبعد لحظة، أشار إليّ الحارس نفسه لأدخل غرفة أخرى. فرسمت ابتسامة مزيفة على وجهي، وعدّلت فستاني، وخطوت بأسلوب يوحي بالثقة، كما أملت. فوجدت رجلين ذوي بشرة بيضاء، أحدهما أصلع تقريباً والآخر له شارب وكل منهما يضع نظارة، خلف طاولة في غرفة خالية من النوافذ. فلم يبادلاني ابتسامتي بمثلها. ثم رأيت طاولة أخرى موضوعة جانباً يجلس إلى جانبها رجل آخر كان يطقطق أزرار الآلة الكاتبة بانهماك. فيما تفحّص رجل صيني يرتدي بذلة سيئة القماش ملفاً بين يديه. نظر إليّ ثم عاود النظر إلى الملف مرة أخرى.

قال لي بلغة الجي يوب وهو يناول الرجل الأصلع الملف: "أرى أنك ولدت في قرية ين يو، يسرني أن أتحدث إليك بلهجة المقاطعات الأربع".

قبل أن أقول إنني أجيد اللغة الإنكليزية قال الرجل الأصلع: "قل لها أن تجلس".

أشار المترجم إلى كرسي وتابع بلغة الجي يوب: "اسمي لوي فون. إنني أشارك زوجك اسم القبيلة نفسه والمقاطعة الأصلية نفسها. إن الرجل الأصلع أمامك هو بلم رئيس المجلس، والآخر هو السيد وايت وطابع الآلة الكاتبة هو السيد هيمسترت. ويجب ألاّ تخشي لأمره...".

قاطعه بلم رئيس المجلس قائلاً: "لنتابع الموضوع. اسألها...".

في البداية، سارت الأمور على ما يرام. فذكرت لهم تاريخ ولادتي بكل من التقويم الغربي والقمري، وسألوني عن اسم القرية التي ولدت فيها والقرية التي ولد فيها سام واليوم الذي تزوجنا فيه. ثم ذكرت لهم العنوان الذي يعيش فيه سام مع عائلته في لوس أنجلوس. وعندئذ...

"كم شجرة أمام بيت زوجك المزعوم في قريته؟".

فلم أجب على الفور. وعندئذ حدّقت إليّ عيونهم جميعاً بكل فضول وملل وتعصب ووضاعة.

ثم تذكّرت ما قرأته في الأوراق التدريبية وقلت: "خمس شجرات أمام البيت. أما الجانب الأيمن فخالٍ من الأشجار. وفي الجانب الأيسر، هناك شجرة حنكا".

"كم غرفة توجد في البيت الذي تعيش فيه عائلتك؟".

كنت قد ركزت على الأجوبة الموجودة في أوراق سام بحيث إنني لم أفكر في أنهم سيطلبون أي تفاصيل عني. فحاولت أن أفكر في الجواب الصحيح. أينبغي أن أعد غرف النوم أم لا؟ هل أعد الغرف قبل تقسيمها من أجل المستأجرين أم بعد ذلك؟

"ست غرف رئيسة...".

قبل أن أشرح كلامي، سألوني عن عدد الضيوف الذين تواجدوا في زفافي المزعوم.

فأجبتهم قائلة: "سبعة أشخاص".

"هل تناولتم أنتم والضيوف أي طعام؟".

"لقد تناولنا الأرز وثمانية أطباق أخرى. فقد كان عشاء في فندق وليس مأدبة".

"كيف تم ترتيب المائدة؟".

"على الطريقة الغربية، ولكن بوجود العيدان الصينية".

"هل قدمتم لهم بذور الفوفل؟ وهل صببتم لهم الشاي؟".

فوددت أن أقول له إنني لست فتاة ريفية خرقاء ولن أقدم بذور الفوفل في ظل أي ظروف وإنني كنت سأصب الشاي لو حصلت على الزفاف الذي أحلم به، ولكن تلك الليلة لم تكن احتفالية على الإطلاق. إذ إنني تذكرت كم بدا لوي العجوز بغيضاً عندما رفض اقتراح والدي بأن أقوم وماي بتنفيذ ذلك الطقس.

قلت لهم: "لقد كان زفافاً غريباً جداً...".

"هل قمتم بتبجيل أسلافكم كجزء من المراسم؟".

"بالطبع لا. فأنا مسيحية".

"هل لديك أي دليل موثق على زواجك المزعوم؟".

"في حقيبة أمتعتي".

"هل يتوقع زوجك حضورك؟".

لقد أصابني ذلك السؤال بالصدمة بعض الشيء. إذ إن لوي العجوز وابنيه يعلمون أننا لم نأتِ إلى هونغ كونغ لنستقل السفينة معهم. وقد قاموا بالتأكيد بإعلام عصابة غرين أننا قد فشلنا في تنفيذ ما يُلزمنا به العقد، ولكن هل أطلعوا مفتشي جزيرة أينجل على أي من هذه المعلومات؟ هل لا يزال الرجل العجوز وابناه يتوقعون وصولنا؟

فقلت له: "لقد تأخرت وأختي في سفرنا بسبب الحرب. ولا بد من أن زوجينا يتوقان إلى وصولنا".

بعد أن نقل المترجم هذا الكلام، تحدث المفتشان الآخران معاً غير مدركين أنني أفهم كل كلمة يقولانها.

قال السيد وايت: "إنها تبدو صادقة تماماً، ولكنّ أوراقها تثبت أنها زوجة تاجر مقيم قانونياً وزوجة مواطن أميركي. ولا يمكن أن تكون الحالتان كلتاهما صحيحتين".

قال بلم رئيس المجلس بتجهم: "قد يكون هناك خطأ في الأوراق القديمة. وفي كلتا الحالتين سيتوجب علينا أن نسمح لها بالدخول، ولكنها لم تثبت بعد أياً من الحالتين. وانظر إلى وجهها. هل تبدو لك زوجة لتاجر؟ إنها داكنة البشرة كثيراً. أراهن أنها قد عملت في حقول الأرز طوال حياتها".

ها أنا أسمع الشكوى نفسها مجدداً. فأطرقت نحو الأرض وأنا أخشى أن يروا الاحمرار الذي تسرب إلى وجهي. وفكرت في الفتاة التي ركبت معنا في القارب إلى هونغ كونغ وكيف عمل القراصنة على تلقيمها. وهنا، فعل أولئك الرجال الشيء نفسه معي. أترى هل أبدو ريفية إلى هذا الحد فعلاً؟

فأشار السيد وايت قائلاً: "ولكن انظر إلى طريقة لباسها. إنها لا تبدو كزوجة عامل أيضاً".

نقر رئيس المجلس بأصابعه على الطاولة وقال: "سأدعها تمر، ولكنني أريد أن أرى وثيقة زواجها التي تثبت أنها متزوجة من تاجر شرعي أو أي وثيقة تثبت جنسية زوجها". ثم نظر إلى المترجم وقال: "ما الأيام التي يسمح فيها للنساء بالعودة إلى الرصيف لأخذ أمتعتهن؟".

"في أيام الثلاثاء، يا سيدي".

"حسناً إذاً. لنؤجل هذه القضية إلى الأسبوع القادم. قل لها أن تحضر وثيقة زواجها في المرة المقبلة". فأشار إلى المدون وأملى عليه موجزاً انتهى بعبارة: "تؤجل القضية من أجل المزيد من التحقيق".

مرت خمسة أيام ارتديت فيها وماي الملابس نفسها. فكنا نغسل ملابسنا الداخلية ليلاً ونعلقها لتجف مع الغسيل الذي تعلقه النساء الأخريات فوق رؤوسنا. لا يزال لدينا مبلغ بسيط من المال نستطيع أن

نشتري به معجون الأسنان وبعض أدوات الزينة الأخرى من كشك صغير يفتح في أثناء الوجبات. وعندما حان يوم الثلاثاء، اصطففنا مع النساء اللواتي أردن أن يأخذن بعض الأشياء من حقائبهن. وأوصلتنا نساء البعثة إلى المخزن في نهاية رصيف الميناء. فأخذت وماي أوراق زواجنا، ثم تحققت من الأوراق التعليمية. فرأيتها لا تزال مخبّأة. إذ لم يزعج أحد نفسه بالتفتيش داخل قميصي ذات الريش. فشددت البطانة وحبكتها جيداً. ثم أخذت ملابس داخلية جديدة وطقم ملابس نظيفاً.

كنت كل صباح، أبدل ملابسي تحت غطاء السرير بسبب شعوري بالإحراج من أن تراني النساء الأخريات. ثم أنتظر أن يتمّ استدعاؤنا إلى غرفة الاستماع، ولكن، لم يأتِ أحد ليستدعينا. وحين لم يكن يتم استدعاؤنا بحلول الساعة التاسعة، ندرك أن شيئاً لن يحدث في ذلك اليوم. وعندما حان العصر، ملأ شعور جديد من الترقب والرعب الغرفة. وفي تمام الساعة الرابعة، دخل الحارس ونادى قائلاً: "حظّاً جيداً". مستخدماً عبارة مسيئة باللهجة الكانتونية. ثم بدأ بعدد أسماء أولئك اللواتي سمح لهن بركوب القارب لإتمام المرحلة الأخيرة من رحلتهن إلى أميركا. ثم اقترب الحارس من امرأة وفرك عينيه وكأنه يبكي ثم ضحك وهو يقول لها إنهم سيقومون بترحيلها إلى الصين، ولكننا لا نعرف أبداً سبب ترحيلها.

على مدى الأيام القليلة التالية، عرفنا أن النساء اللواتي وصلن في الوقت نفسه الذي وصلنا فيه قد سمح لهن بمواصلة الرحلة إلى سان فرانسيسكو، ورأينا نساء جديدات يصلن ويخضعن لجلسات الاستماع ثم يغادرن. ومع ذلك، لم يستدعنا أحد. وكنت كل ليلة، بعد أن أتناول وجبة مقززة من يخنة السمك المملح مع خثارة الفول المخمر،

أخلع فستاني تحت الملاءة وأعلقه على الحبل فوقي وأحاول أن أنام وأنا مدركة أنني سأبقى سجينة هذه الغرفة إلى الصباح.

ولكن شعوري أنني مسجونة وعالقة امتدّ إلى ما وراء جدران هذه الغرفة. ففي وقت مختلف ومكان مختلف وبوجود المزيد من المال، ربما كنا سنتحرر من مستقبلنا، ولكننا هنا لم نكن نحظى بأي خيار أو حرية. وحياتنا حتى اللحظة لا هدف لها. فنحن لا نعرف أحداً باستثناء زوجينا ووالدهما. لقد قال والدي إننا إذا ذهبنا إلى لوس أنجلوس فسنعيش في بيوت جميلة، ونحظى بالخدم ونرى نجوم السينما. فربما تكون هذه هي الحياة التي من المقدر لي ولماي أن نمضي فيها طوال حياتنا. وربما يجب أن نعتبر أنه من حسن حظنا أن نحظى هكذا زيجتين، إذ إن النساء، سواء أكان ذلك في الزيجات المدبرة أم لا، وسواء أكان ذلك في الماضي أو الحاضر أو حتى حالياً في العام 1937، يتزوجن من أجل الثروة وكل ما تنطوي عليه من امتيازات. ومع ذلك، فقد وضعت خطة سرية لي ولأختي. فعندما نصل إلى لوس أنجلوس، سنسرق بعض المال الذي يعطيه لنا زوجانا من أجل شراء الملابس والأحذية وتجميل نفسينا وتدبير البيت وسنستخدمه للهرب. تمددت على الشبكة المعدنية على سريري، وأصغيت إلى أصوات النساء الحزينة المنخفضة أو أصواتهن وهن يبكين أو يشخرن أو يهمسن بين بعضهن وأنا أخطط كيف سنهرب من لوس أنجلوس يوماً ما ونتوجه إلى نيويورك أو باريس، وهما المدينتان اللتان قيل لنا إنهما تعادلان شنغهاي في التألق والثقافة والثروات.

بعد أسبوعين، وعندما سمح لنا يوم الثلاثاء بأخذ بعض أغراضنا، أخرجت ماي الملابس الريفية التي اشتراها لنا في هانغتشو. فارتديناها

ليلاً وفي فترات العصر لأن الجو بارد والمكان قذر بحيث لم نستطع أن نرتدي ملابسنا الجيدة التي كنا نرتديها في الصباح في حال تم استدعاؤنا لإلغاء جلسة استماعنا. وفي منتصف الأسبوع التالي، اعتادت ماي على ارتداء ملابس السفر طوال الوقت.

سألتها: "ماذا إن تم استدعاؤنا من أجل المقابلة؟"، كنا نجلس على قمة سريرينا وهناك وهدة صغيرة تفصل بيننا وملابسٌ معلقة كالرايات في كل مكان حولنا. ثم أضفت: "هل تعتقدين أن هذا المكان مختلف جداً عن شنغهاي؟ إن الملابس تشكل أهمية هنا. فأولئك اللواتي يرتدين ملابس أنيقة يغادرن أسرع من أولئك اللواتي يبدين كالـ..."، فينقطع صوتي عن الكلام.

فأكملت ماي كلامي: "كالفلاحات؟". وجلست وذراعاها مطويتان على بطنها وكتفاها منخفضتان. إنها لم تبدُ على طبيعتها. وبعد مرور شهر على إقامتنا هنا، شعرت أن كل الشجاعة التي أظهرتها عندما أوصلتني إلى بر الأمان قد استنزفت منها. إذ بدا وجهها شاحباً، ولم تبدُ مهتمة جداً بغسل شعرها الذي أصبح فوضوياً ومبعثراً كشعري.

"هيا، يا ماي، يجب أن تصمدي. لن نبقى هنا وقتاً أطول من ذلك. خذي حماماً وارتدي فستاناً وستشعرين بالتحسن".

قالت ماي: "لماذا؟ ما السبب الذي يدفعني إلى ذلك. إني لا أطيق أن أتناول طعامهم الرديء، لذلك فأنا نادراً ما أستخدم حماماتهم. ولا أفعل شيئاً، ولذلك لا أتعرق. ولكن، حتى لو فعلت ذلك، فلماذا يجب عليّ أن آخذ حماماً في مكان يستطيع الناس أن يروني فيه؟ إن هذا يشعرني بالإذلال، لذا، يمكنني أن أضع كيساً أغطي به رأسي". ثم أضافت تحذر قائلة: "وبالإضافة إلى ذلك، فأنا لا أراك تذهبين إلى المرحاض أو الحمام".

هذا صحيح بالفعل، فالحزن واليأس قد غمرا أولئك اللواتي بقين هنا لوقت طويل. وأصابتنا الرياح الباردة والأيام الضبابية والظلال التي على الجدران جميعاً بالكآبة وبعث الخوف في نفوسنا. وفي غضون شهر واحد، رأيت العديد من النساء - وبعضهن غادرن الجزيرة - رفضن الاستحمام خلال فترة إقامتهن كلها، وليس ذلك لأنهن لا يعرقن، ولكن السبب هو انتحار الكثير من النساء في الحمامات بشنق أنفسهن أو بدس أعواد الطعام وإقحامها في آذانهن وصولاً إلى أدمغتهن. لم ترد النساء الذهاب إلى الحمامات، ليس فقط لأنهن لا يردن أن يراهن أحد، ولكن لأن جميعهن تقريباً خائفات من أشباح الموتى التي ترفض أن تغادر المكان المقرف الذي ماتت فيه من دون إجراء مراسم دفن لائقة.

لذا، قررنا منذ تلك اللحظة أن نذهب إلى الحمامات أو المراحيض العامة معاً. فكانت تتفقدها ماي إن كانت فارغة ثم تقف خارج الباب لتمنع النساء الأخريات من الدخول، وكنت أفعل بدوري الشيء نفسه من أجلها بالرغم من أني لست واثقة من السبب الذي يدفعها إلى التصرف هذا الاحتشام منذ وصولنا إلى هنا.

أخيراً، استدعانا الحارس للمثول في جلسة التحقيق. فمرّرت مشطاً في شعري، وأعدت بضع رشفات من الماء البارد لأهدئ من روعي، واستعطت حذائي. ثم ألقيت نظرة عاطفة على ماي، فرأيتها تبتسم وهي تبدو كمتسولة سقطت هنا بشكل عجيب من أحد أزقة شنغهاي. فانتظرنا في القفص إلى أن حان دورنا. إنها الخطوة الأخيرة قبل أن يتم تحويلنا إلى سان فرانسيسكو. فابتسمت ابتسامة ملمحة

شاي، ولكنها لم تبتسم لي بدورها، ثم تبعت الحارس إلى غرفة الاستماع، فرأيت [illegible] رئيس المجلس والسيد وايت وكاتب الاعتزال، ولكني هذه المرة حظيت بمترجم جديد.

قال المترجم: "اسمي لان أون تاي. ومن الآن فصاعداً، سيكون لديك مترجم مختلف في كل جلسة استماع، فهم لا يريدوننا أن نصبح أصدقاء. سأتحدث إليك بلغة المي يون. هل تفهمين، يا سيدة لوي لشن لنشي؟".

يقضي التقليد الصيني القديم أن تعرف المرأة المتزوجة باسم قبيلتها وتضاف إليه كلمة نشي. ومن الممكن أن تعود هذه الممارسة إلى ثلاثة آلاف سنة؛ إلى فترة حكم سلالة تشاو. ولا تزال شائعة لدى المزارعين، ولكني من مشجعيها!

سأل المترجم قائلاً: "هذا اسمك، أليس كذلك؟". وعندما لم أكن أجيب على الفور، كان يلقي نظرة خاطفة إلى الرجال البيض ثم ينظر إليّ مجدداً. ويقول: "ينبغي ألاّ أقول لك ذلك، ولكن قضيتك تعاني من مشاكل، ولهذا، فمن الأفضل أن تقبلي الموجود في سجلك ولا تغيري قصتك الآن".

"ولكني لم أقل قط إن اسمي هو...".

أمرني رئيس المجلس قائلاً: "اجلسي!"، وبالرغم من أنني تظاهرت بأنني لا أجيد اللغة الإنكليزية خلال مقابلتنا الأخيرة، إلاّ أن تحذير المترجم دفعني إلى التمسك بجهلي المزعوم. فأطعت رئيس المجلس على أمل أن يظن أن لهجته قد أرعبتني. يقول رئيس المجلس: "في مقابلتك الأخيرة، قلت إنك حظيت بزفاف غربي، ولهذا السبب لم تبجلي أسلافك كجزء من الطقوس، ولكن في ملف زوجك هنا ذُكر أنك قمت فعلاً بتبجيل أسلافك".

انتظرت أن يترجم لي المترجم هذا الكلام، ثم أجبت قائلة: "قلت لك من قبل إنني مسيحية ولا أبجل الأسلاف. وربما يكون زوجي قد عمل على تبجيل أسلافه بعد أن افترقنا".

"كم أمضيتما من الوقت معاً؟".

"ليلة واحدة". مع أنني أعرف أن هذا يبدو سيئاً.

"هل تتوقعين منا أن نصدق أنك كنت متزوجة ليوم واحد والآن أرسل زوجك طالباً حضورك؟".

"إن زواجنا مدبر".

"على يد الخاطبة؟".

فحاولت أن أتخيل كيف أجاب سام عن هذا السؤال خلال التحقيق معه.

"نعم على يد الخاطبة".

فأومأ المترجم برأسه قليلاً ليعلمني أنني أجبت بطريقة صحيحة.

قال رئيس المجلس وهو يفتح ملفاً آخر افترض أنه يتعلق بقضية ماي: "لقد قلت إنك لم تقدمي بذور القوقل و لم تصبي الشاي، ولكن أختك تقول إنك فعلت ذلك".

وبينما كنت أنظر إلى الرجل الأصلع أمامي بانتظار المترجم لينهي الترجمة، كنت أتساءل إن كانت هذه خدعة. فلماذا قد تقول ماي كلاماً مماثلاً؟ إنها لن تفعل ذلك.

"لم أقدم أنا أو أختي بذور القوقل أو نصب الشاي".

لكنّ هذا ليس الجواب الذي يريده الرجلان. فنظر لان أون تاي إليّ بمزيج من الشفقة والانزعاج.

تابع رئيس المجلس الكلام قائلاً: "لقد قلت إنكما حظيتما بزفاف غربي، ولكن أختك تقول إنكما لم تضعا خماراً".

فلكنني الحيرة إن كان ينبغي لي أن أوبخ نفسي وماي لعدم العمل أكثر على قصصنا وتساءلت عن سبب أهمية كل هذه الأسئلة.

قلت لـه: "لقد حظينا بزفاف عربي، ولكن أياً منا لم تضع حماراً".

"هل رقصتما حماريكما خلال مأدبة الزفاف؟".

"قلت لك أصلاً إننا لم نضع حمارين".

"لماذا قلت إن سبعة أشخاص فقط أتوا إلى المأدبة بينما قال زوجك وعمك وأختك إن الغرفة كانت تحوي طاولات كثيرة مشغولة بالناس؟".

شعرت بالغثيان. تُرى ما الذي يجري هنا؟

"لقد أقمنا حفلاً صغيراً في مطعم الفندق حيث كان هناك ضيوف آخرون يتناولون طعامهم".

"لقد قلت إن بيت عائلتك يتألف من ست غرف، ولكن أختك تقول إنها أكثر بكثير. وقال زوجك إن البيت فخم". ثم تحوّل وجه رئيس المجلس إلى اللون القرمزي وهو يسألني بغضب: "لماذا تكذبين؟".

"هناك طرائق عديدة لعد الغرف وزوجي...".

"لنعد إلى موضوع زفافك. هل كانت مأدبة زفافك في الطابق الأرضي أم العلوي؟".

وهكذا استمرّ الأمر: هل استقللت القطار بعد زواجي؟ أم إنني ركبت القارب؟ هل البيوت مبنية في صفوف في الحي الذي كنت أقطن فيه؟ كم بيتاً يفصل بين بيتنا والشارع الرئيس؟ كيف أعرف إن كنت قد تزوجت حسب التقاليد القديمة أم الحديثة إن كنت قد تزوجت عن طريق الخاطبة ومع ذلك لم أضع حماراً؟ لماذا لا أتحدث وأختي اللغة نفسها؟

استمرّ التحقيق معي لثماني ساعات متواصلة من دون استراحة لتناول الغداء أو الذهاب إلى الحمام. وفي النهاية، نال الإرهاق من رئيس المجلس وبدا وجهه محمراً. وبينما كان يتلو الخاتمة على كاتب الاختزال، شعرت بالإحباط يغلي في أعماقي. إذ إن كل جملة بدأت بعبارة: "تقول أمت مقدمة الطلب المزعومة..."، إنني أتفهم وجود اختلاف بين أجوبتي وأجوبة سام ولوي العجوز، ولكن كيف يمكن لماي أن تعطي أجوبة مختلفة إلى هذا الحد عن أجوبتي؟

لم يظهر المترجم أي عاطفة وهو يترجم خاتمة رئيس المجلس قائلاً: "يبدو أن هناك تناقضات كثيرة ولا سيما في ما يتعلق بيت المتقدمة الذي تتشاركه مع أختها المزعومة. إذ بينما تجيب المتقدمة عن الاستفسارات المتعلقة ببيت قرية زوجها المزعوم، يبدو أن أختها المزعومة لا تعرف أي شيء عن زوجها وعائلته أو عن بيت عائلته سواء أكان في لوس أنجلوس أو في الصين. ولهذا فقد قرر المجلس بالإجماع أن تتم إعادة استجواب المتقدمة بالإضافة إلى أختها المزعومة إلى أن يصبح بالإمكان حل هذه التناقضات". ثم نظر المترجم إليّ وقال: "هل فهمت كل الأسئلة التي طرحت عليك؟".

فأجبته قائلة: "نعم". ولكنني كنت أغلي من شدة غضبي من هؤلاء الرجال القطيعين، ومن استجوابهم المستمر لي، ومن نفسي لعدم إجابتي بذكاء أكبر. ولكن أكثر من كل شيء آخر كنت غاضبة من ماي التي تسبب كسلها في احتجازنا لوقت أطول في هذه الجزيرة الرهيبة.

عندما غادرت الغرفة لم أجدها في قفص الاحتجاز. فجلست هناك منتظرة امرأة أخرى لم يجر التحقيق معها على ما يرام. وبعد مرور ساعة من الوقت، شدّ الحارس المرأة من ذراعها خارج غرفة الاستماع.

ثم فتح الحارس القفص وأشار إليّ، ولكننا لم نذهب إلى المهجع في الطابق الثاني من المبنى الإداري بل مشينا على طول المبنى إلى نافذة صغيرة مغطاة بشبكة ناعمة كتب عليها الغرفة رقم 1. وقد شعرنا أننا في السجن على هذه الجزيرة في مهجعنا المقفل، ولكن هذا هو الباب الحقيقي إلى السجن. فانتحبت المرأة وحاولت أن تحرر نفسها من الحارس، ولكنه كان أقوى بكثير مما كانت عليه. فتح الباب ودفعها إلى الظلام وحبسها في الداخل.

الآن، أنا وحدي مع هذا الرجل الأبيض والضخم جداً. وليس لديّ مكان لأذهب أو أهرب إليه. فارتعشت أوصالي بشدة. ثم حدث أغرب شيء على الإطلاق، إذ تحوّل عبوسه المحتقر إلى تعبير أشبه بالتعاطف.

وقال: "إني آسف لأنه قد توجب عليك أن ترى هذا. إننا نعاني من قلة العمال الليلة". وهزّ رأسه ثم قال: "إنك لا تفهمين كلمة واحدة مما أقوله، أليس كذلك؟". ثم أشار إلى الباب الذي دخلنا منه، وتابع قائلاً: "يجب علينا أن نذهب من ذلك الاتجاه لأتمكن من إعادتك إلى المهجع". وقال وهو يطيل كلماته ويبالغ فيها بحيث إن شفتيه تمطان وملامحه تلتوي: "هل فهمت؟".

وبينما كنت أمشي على طول المهجع عائدة إلى سريري وسرير ماي أصبحت مشاعري في حالة هياج، نعم، تلك هي الكلمة. وشعرت أنني أغلي من الغضب والخوف والإحباط. فتبعتني عيون النساء الأخريات وأنا أخطو كل خطوة بالحذاء ذي الكعب العالي على الأرضية المكسوة بالشمع. لقد عشنا معاً في هذا المكان الضيق جداً مدة شهر واعتدنا على أمزجة بعضنا. فأصبحنا نعرف من تلتزم الصمت ومتى تقدم العزاء. أما حينها شعرت أن النساء يبتعدن عني كالأمواج التي تبتعد عن حجر كبير ألقي به في بركة هادئة جداً.

جلست ماي على حافة السرير وساقاها متدليتان. فأمالت رأسها بطريقتها المعهودة منذ الصغر عندما تعرف أنها واقعة في ورطة.

"لماذا استغرقت كل هذا الوقت؟ إنني بانتظارك منذ ساعات".

"ما الذي فعلته، يا ماي؟ ما الذي فعلته؟".

فتجاهلت سؤالي، وقالت: "لقد فوت غداءك. ولكني أحضرت لك بعض الأرز".

فتحت يديها وأرتني كرة من الأرز. لكنني أوقعتها من يدها، وأشاحت النساء الأخريات حولنا بوجوههن.

ثم سألتها قائلة: "لماذا كذبت عليهم هناك؟ لماذا فعلت ذلك؟".

أرجحت ساقيها إلى الأمام والخلف وكأنها طفلة لا تصل قدماها إلى الأرض. حدّقت إليها وأنا أتنفس من أنفي بعمق. لم أشعر أنني قد غضبت منها إلى هذا الحدّ في حياتي، ولكن هذا الوضع مختلف، فهي لم تلوّث زوجاً من الأحذية أو تقطّع كنزة.

"لم أفهم ما كانوا يقولونه. فأنا لا أجيد لغة الجي يوب بل فقط لهجة شنغهاي الشمالية".

"أهي غلطتي أنا؟"، وبينما كنت أقول ذلك، أدركت أنني أتحمل جزءاً من المسؤولية عن ذلك. إذ إنني أعرف أنها لا تفهم لهجة موطن أسلافنا. فلماذا لم أفكر في ذلك؟ ولكن التنين في داخلي لا يزال عنيداً وغاضباً.

"لقد عانينا الكثير، ولكنك لم تفرغي ولو لخمس دقائق على متن السفينة لتتصفحي الأوراق التعليمية".

عندما هزت كتفيها بلامبالاة، اجتاحتني نوبة من الغضب.

"هل تريدينهم أن يرحلونا؟".

لم تجب عن سؤالي، ولكن الدموع التي أتوقعها ملأت عينيها.

ألححت عليها قائلة: "أهذا ما تريدينه؟".

اقتصرت بعض الدموع من عينيها وتقاطرت على سترتها الفضفاضة ملطخة القماش ببقع زرقاء تتسع ببطء. ولكن إن كانت أفعالها متوقعة، فأنا كذلك أيضاً.

هززت ساقيها، وطالبتها بلهجة الأخت الكبيرة المحقة دائماً: "ما مشكلتك؟".

فتمتمت شيئاً.

"ماذا؟".

توقفت عن أرجحة ساقيها، وأبقت وجهها مطرقاً، ولكني نظرت إليها كي لا تستطيع أن تتحاشى، وتمتمت مجدداً.

قلت بنبرة حافة حديثة الصبر: "قوليها بوضوح كي أسمعها".

أمالت برأسها جانباً، ونظرت إلى عيني، ثم همست بصوت خافت لا يتجاوز حدود سمعي: "إنني حامل".

جزيرة اينجل

.

تمددت ماي على السرير، ودفنت وجهها في الوسادة لتكتم نحيبها. فنظرت حولي، وقد بدا لي أن النساء الأخريات يتجاهلننا أو يتظاهرن بذلك. فهذا هو الأسلوب الصيني النموذجي.

خلعت حذائي، وصعدت إلى سرير ماي.

همست لها قائلة: "لقد ظننت أنه لم يحدث شيء بينك وبين فيرن".

فتمكّنت ماي من القول: ""كلا، لم أستطع فعل ذلك".

دخل أحد الحراس، وأعلن أن موعد العشاء قد حان. فأسرعت النساء لتكون كل واحدة منهن أول امرأة تخرج من الباب. وبالرغم من رداءة نوعية الطعام، يبقى العشاء أكثر أهمية من جدال بين أختين. وإن كانت هناك أي قطع صالحة للأكل في وجبة الليلة، فكل واحدة منهن تريد أن تكون أول من يستولي عليها. وبعد بضع دقائق، أصبحنا وحدنا و لم يعد يتوجب علينا التحدث همساً بعد الآن.

"أهو ذلك الشاب الذي قابلته على متن السفينة؟"، و لم أستطع حتى أن أتذكر اسمه.

"لقد حدث هذا قبل ذلك".

قبل ذلك؟ لقد ذهبنا إلى المستشفى في هانغتشو ثم إلى الفندق في هونغ كونغ. ولا أتخيل كيف يمكن لأي شيء أن يحدث خلال هذا الوقت ما لم يحدث في أثناء مرضي أو قبله عندما كنت فاقدة وعيي.

ألهو أحد الأطباء الذين اعتنوا بـــي؟ هل اغتصبها أحدهم وامن تحاول أن تصل إلى فتاة غراند؟ لقد منعني الخزي الشديد الذي شعرت به من الـــتحدث عما حدث لي. ترى هل كانت تخفي سراً مماثلاً طوال هذا الوقت؟ حاولت الالتفاف حول الموضوع بأن أطرح عليها سؤالاً يبدو عملياً:

"كم مضى على حملك؟".

عـــلكت في جلستها، وفركت عينيها بكلتا يديها ثم حدّقت إليّ بأســف وذل وتوسل، ثم طوت ساقيها تحتها بحيث إن ركبتا لامست بطنها، وبدأت بفك أزرار سترتها الريفية ببطء، ولمست بيديها قميصها لتظهـــر بطـــنها. فبدت لي في مرحلة متقدمة، مما يفسر سبب ارتدائها للملابس الفضفاضة منذ اللحظة التي وصلنا فيها إلى جزيرة آيتجل.

فسألتها وكلي أمل أن يكون كلامي صحيحاً: "ألهو تومي؟".

إذ لطالمـــا أرادت أمي أن تتزوج ماي بتومي. وبعد موت تومي وأمـــي، ألن يكون هذا الطفل هبة؟ ولكن عندما قالت ماي: "إنه مجرد صـــديق"، لم أعرف ماذا عليّ أن أقول. فقد سرحت أمتي مع رجال كثـــر في شـــبابهاي ولا ســـيما في الأيام الأخيرة التي دفعنا فيها يأسنا الـــشديد إلى محاولـــة نسيان ظروفنا السيئة. وبالرغم من أنني لا أعرف أصـــحابهم، فلـــم أود أن أستجوبها بأسئلة مثل: ألهو ذلك الشاب الذي قابلنـــاه في تلـــك الليلة في نادي فينوس؟ أم هو ذلك الأميركي الذي اعـــتادت يتـــي أن تصطحبه معها أحياناً؟ ألن تكون تلك الطريقة سخيفة وغبية كالتي استجوبوني بها اليوم؟ ولكنني لم أستطع منع لساني عن الكلام.

"ألهو ذلك التلميذ الذي أتى ليعيش في غرفة الطابق الثاني؟". ولم أستطع حتى أن أتذكر الكثير عنه عدا عن أنه كان نحيلاً ويرتدي اللون

الـــرمادي ويعزل نفسه. ماذا كان يدرس؟ لا يسعني أن أتذكر، ولكنني لم أنسَ كيف رأيته يحوم حول كرسي ماي يوم التفجير. أترى هل فعل ذلك لأنه كان مغرماً بماي كما كان حال الكثير من الشبان؟

اعترفت لي ماي قائلة: "لقد كنت حاملاً من قبل".

ثم خطرت فكرة مثيرة للاشمئزاز ببالي: "قولي لي إنه ليس الكابتن ياماسكي". فإن كانت ماي ستنجب طفلها من رجل ياباني، لا أعرف ما الذي سأفعله.

فهزّت رأسها، وذلك أشعرني بالراحة.

قالـــت مـــاي بصوت متهدج: "أنت لم تقابليه قط. فأنا نفسي بالكـــاد قابلته. إن ذلك مجرد تصرف قمت به ولم أتوقع أن يحدث لي هـــذا. ولـــو تسنى لي الوقت الكافي، لطلبت من طبيب الأعشاب أن يعطـــيني شيئاً لأجهض الطفل. ولكنني لم أفعل ذلك. آه، يا بيرل، إنها غلطتي أنا". ثم أمـــسكت بيدي وبدأت بالبكاء مجدداً.

"لا تقلقـــي. سيمضي كل شيء على ما يرام". وحاولت أن أبدو مطمئنة ولكنني أدركت أنه مجرد وعد لا معنى له.

"كـــيف يمكن أن يمضي على ما يرام؟ ألم تفكري في ما قد يعنيه هذا؟".

إنـــني بصراحة لم أفكر في ذلك فعلاً. إذ لم تسنح لي أشهر لأفكر في حالة ماي بل مجرد دقيقتين اثنتين.

"لا نستطيع أن نذهب إلى لوس أنجلوس على الفور". توقفت ماي عـــن الكلام وحدّقت إليّ متفحّصة رد فعلي، ثم قالت: "إنك تدركين أنه يجب علينا أن نذهب إلى هناك، أليس كذلك؟".

"مـــا مـــن خيار أمامنا، ولكن بغض النظر عن حملك، فنحن لا نعرف إن كانوا لا يزالون يريدوننا بعد الآن".

"بالطبع يريدونها. فقد اشتروا بمالهم! ولكن هناك مشكلة الطفل. لقد ظننت في البداية أنني أستطيع أن أمر بفعلتي وأن فيرنون لن يخبر أحداً بما جرى بيننا، ولكن لوي العجوز عرف الحقيقة بطريقته الخاصة".

"كنت تعرفين عندئذ؟".

"لقد رآني عندما تقيأت في المطعم. لقد أصابني خوف شديد آنذاك. إذ إنني خشيت أن يكتشف أحد الأمر. واعتقدت أنك ستدركين الحقيقة".

عندما فكرت في الأمر أدركت أن العديد من الناس لاحظوا ما منعني جهلي وعماي من ملاحظته. فقد قدمت تلك المرأة العجوز التي أوقفتنا في بيتها خلال ليلتنا الأولى علاج شفهياً عناية خاصة لماي. وحرص ذلك الطبيب في هانغتشو أن تحظى ماي بقسط من النوم. إنني أحببت ماي ولطالما ظننت أننا مقربتان، ولكنني كنت غارقة في أحزاني الخاصة. فمنذ أن افترقت عن زي جي لي وتركت بيتنا، وتعرضت للأذى على يد الجنود حتى أوشكت على الموت وأتيت إلى هنا، لم أنتبه إلى عدد المرات التي تقيأت فيها ماي خلال الأسابيع والأشهر الماضية، ولم ألحظ التغيرات التي طرأت على جسدها. لقد أهملت أختي في أكثر وقت احتاجت فيه إلى وجودي إلى جانبها.

"إنني آسفة جداً...".

"إنك لا تنتبهين إلى ما أقوله، يا بيرل! كيف يمكننا أن نذهب إلى لوس أنجلوس؟ إن فيرنون ليس والد طفلي ولوي العجوز يعرف ذلك".

إن كل شيء حدث بسرعة رهيبة خلال هذا اليوم الطويل الشاق الذي لم آكل فيه شيئاً منذ وجبة الفطور، ولكنني مرهقة ومتعبة بحيث إنني لا ألاحظ أن ماي تخطط لشيء ما في ذهنها. ومع ذلك، فقد أخبرتني أنها حامل فقط لأنني غضبت منها بسبب...

"لقد كذبت على المجلس عمداً. وفعلت ذلك خلال المقابلة الأولى".

ثم أضافت ماي: "يجب أن يولد الطفل هنا في جزيرة آنجل".

أنا الأخت الذكية، ولكن عقلي يحاول أن يستوعب خطتها.

فقلت أخيراً: "لقد كنت تستعدين للكذب عندما رست السفينة في سان فرانسيسكو، ولهذا السبب لم تقرئي الأوراق التعليمية. إذ إنك لم تريدي أن تجيبي بشكل صحيح لأنك أردت أن ينتهي بك المطاف هنا".

"هذا ليس صحيحاً تماماً. إذ إنني كنت آمل أن يساعدنا سيسر. فقد قدم إليّ وعوداً على السفينة. وقال إنه سيحرص على الحؤول دون وجوب ذهابنا إلى لوس أنجلوس، ولكنه كذب عليّ". وهزت كتفيها بلا مبالاة قائلة: "أيفاجئك هذا بعدما فعله والدي بنا؟ لقد فكرت في هذه الخطة هنا على الجزيرة. ألا تدركين هذا؟ إن أنجبت الطفل هنا، فلن يعرفوا أبداً أنه طفلي".

"من هم؟".

قالت لي بنفاد صبر: "آل لوي. سيتوجب عليك أن تدّعي أنه طفلك لأنني سأمنحك إياه. إذ إنك أمضيت ليلة زفافك مع سام. وهكذا، سيصدقون أنه طفلك".

سحبت يدي من يديها، وانحنيت قربها.

"ما الذي تقولينه؟".

"لقد قال الأطباء إنك على الأرجح لن تتمكني من إنجاب الأطفال. وهكذا، ستكون هذه الخطة بمثابة إنقاذ لي ومساعدة لك".

ولكنني لا أريد طفلاً الآن وربما إلى الأبد. ولا أريد أن أتزوج أيضاً، ولا سيما إن كان زواجاً ذا ترتيب مسبق أو من أجل سداد ديون والدي. فلا بد من وجود طريقة أخرى لحل المشكلة.

اقترحت عليها قائلة: "إن لم ترغبي فيه، فأعطيه إلى المراكز التبشيرية وسيأخذونه. وهناك جمعية إغاثة الأطفال الصينيين. أعطيهم إياه وسيقولونه بعيداً عن النساء الريفيات".

"إنه طفلي، يا بولا لم يعد هناك ما يربطنا بأمي وأبي. إننا بنات، أي نهاية السلالة. ألا يمكن لابني أن يبدأ سلالة جديدة هنا في أميركا؟".

إننا بالطبع نفترض أن الطفل صبي. فنحن، ككوننا من الصينيين في كل مكان، لا نستطيع أن نتخيل أي طفل غير صبي يجلب السعادة لعائلته ويضمن تبجيل الأسلاف. ومع ذلك، فليس هناك أمل بنجاح خطة ماي.

قلت لها مشيرة إلى ما هو واضح: "إنني لست حاملاً. ولا يمكنني أن أنجب الطفل بدلاً منك".

مرة أخرى، أظهرت لي ماي مقدار تفكيرها في خطتها خلال ذلك الوقت.

قالت: "سيتوجب عليك أن ترتدي الملابس الريفية التي أحضرتها لك، فهي تغطي كل شيء، إذ إن أولئك النساء الريفيات لا يردن لأحد أن يرى أجسادهن لئلا يجذبن الرجال أو يعرف أحد أنهن حوامل. إنك لم تلاحظي كم أصبح بطني كبيراً، أليس كذلك؟ ويمكنك في ما بعد إذا اقتضى الأمر أن تضعي وسادة. فمن سينظر؟ ومن سيهتم؟ ولكن يجب علينا أن نطيل مدة إقامتنا هنا أطول وقت ممكن".

"كم من الوقت؟".

"نحو أربعة أشهر أو نحو ذلك".

لم أعرف شيئاً آخر أقوله أو أفعله. فهي أختي ورفيقتي الوحيدة على جزيرة ملعونة، ووعدت أمي أن أعتني بها. وهكذا، اتخذت قراراً سيغير مسار حياتي وحياة ماي أيضاً.

"حسناً، سأفعل ذلك".

وشعرت أن أحداث اليوم تهيمن على تفكيري، فلم يخطر لي أن أسألها كيف ستلد الطفل من دون أن تعلم السلطات بأمره.

بدأت الحقيقة المرة لهروبنا من الصين وحضورنا إلى هنا تتوضح لنا في الأسابيع التالية. إن المتفائلين الأغبياء يسمون جزيرة آينجل جزيرة إليس الغرب، أما أولئك الذين يريدون أن يمنعوا الصينيين من دخول أميركا، فيسمونها حارسة البوابة الغربية، فيما نسميها نحن الصينيون جزيرة آينجل. فالوقت يمر ببطء شديد ويشعرنا بأننا في العالم الآخر. والأيام طويلة ومليئة بالروتين المتوقع وغير الجدير بالملاحظة. بالإضافة إلى ذلك، فنحن لا نتمتع على الإطلاق بأي خيار. فلا نختار وقت طعامنا أو نوعيته أو وقت إطفاء الأنوار أو إشعالها أو الوقت الذي ننام فيه أو نصحو من النوم. إذ عندما يدخل المرء السجن، فهو يفقد كل امتيازاته.

عندما كبر بطن ماي، انتقلنا إلى سريرين سفليين شاغرين لئلا يتوجب عليها أن تصعد إلى الأعلى. وكنا نستيقظ صباح كل يوم ونرتدي ملابسنا، ثم يوصلنا الحراس إلى غرفة الطعام، وهي غرفة صغيرة لكنها لا تتسع للأعداد الكبيرة من الناس الذين يتناولون وجباتهم فيها. وككل شيء آخر في جزيرة آينجل، تبدو غرفة الطعام معزولة. فالأوروبيون والآسيويون والصينيون لديهم طباخوهم وأوقات طعامهم الخاصة بهم. كنا نستغرق نصف ساعة لتناول الفطور والخروج كلياً من القاعة قبل أن تصل المجموعة التالية من المحتجزين، فنجلس حول طاولات خشبية طويلة ونتناول أوعية من العصيدة. ثم يوصلنا الحراس إلى مهجعنا ويحبسوننا. فتعد بعض النساء الشاي باستخدام الماء الساخن

في إبـريق يوضع فوق جهاز التدفئة بينما تتناول أخريات الطعام الذي ترسـله إلـيهن عـائلاتهن في سـان فرانسـيسكو كالشعيرية والمخلل والزلابيات. بعد ذلك، تعود معظم النساء إلى النوم ليستيقظن فقط عندما تأتي سيدات البعثة التبشيرية ليتحدثن إلينا عن الدين ويعلمننا كيف نخيط ونغـزل. كانت إحدى القيمات تشعر بالشفقة عليّ لأنني حامل وعالقة في جزيرة أينجل، فعرض عليّ قائلة: "دعيني أرسل برقية إلى زوجك. وحالما يعلم أنك هنا، سيأتي ويخرجك. إنك لا تريدين لطفلك أن يولد في هذا المكان. إذ إنك ستحتاجين إلى مستشفى ملائم".

لكنني لا أريد هذا النوع من المساعدة الآن في كل الأحوال.

وعـنـد الظهـر، كنا نتوجه إلى غرفة الطعام لتناول الغداء، وهو مكون من الأرز البارد مع براعم الفول، التي تم طهوها على البخار إلى أن أصبحت كتلة ندية، بالإضافة إلى العصيدة وشرائح اللحم أو الحساء مـع الكعك المالح. وكان يتألف العشاء من طبق واحد كبير مؤلف من حسـن التوفو المقلي والبطاطا مع اللحم والفول أو الخضار المخفقة. في بعض الأحيان، كانوا يعطوننا وجبة من الأرز الأحمر الذي بالكاد يمكن اعتـباره صـالحاً للأكـل. وقد بدت كل أصناف الطعام وكأن أحداً مـضغها وابـتلعها من قبل. ولقد اعتادت النساء على وضع قطع من اللحم في وعائي وهن يقلن: "هذا من أجل ابنك". لم أعثر على طريقة لنقل هذا الطعام السيئ إلى ماي.

سـألتني إحدى النساء مرة على العشاء: "لماذا لا يأتي زوجاكما لـزيارتكما؟". إن اسمها الحقيقي هو دستيات، ولكنها تعرف باسمها بعد الـزواج؛ وهـو لي شي. وقد مضى عليها وقت طويل وهي محتجزة. قالـت لي: "إن استطاعا أن يوكلا محامياً من أجلكما، فسيشرح كل شيء للمفتشين. وهكذا، تستطيعان أن تغادرا غداً".

فلم أحب وماي أن زوجينا لا يعرفان أننا وصلنا، وأنهما يجب ألاّ يعـرفا إلى أن يـولد الطفل. ولكن لوحّب عليّ في بعض الأحيان أن أعترف لنفسي أنه سيكون من المريح أن نراهما بالرغم من عدم معرفتنا الوثيقة بهما.

شرحت ماي للي شي والنساء الأخريات اللواتي يشعرن بالشفقة علينا: "إن زوجينا بعيدان جداً. ومن الصعب لأحبني أن تقطع كل تلك المسافة، ولا سيما في مثل هذا الوقت".

مرت فترات العصر ببطء. فبينما كانت تكتب النساء الأخريات إلى عـائلاتهن، وهـذا أمر مسموح به بالرغم من أن الرسائل تمر على الرقابة، كنت أمضي وماي وقتنا بالتحدث أو بالنظر من خلال النافذة المغطـاة بـشبكة معدنية تمنعنا من الهرب ونحن نحلم ببيتنا الضائع أو نعمـل على الخياطة والحياكة، وهذه مهارات لم تعلمنا إياها أمي قط. فنخيط حفاضات للطفل وقمصاناً صغيرة ونحاول أن نحوك له كنـزات وقبعات وأحذية.

قالت لنا امرأة بعد عودتها من رحلة إلى قريتها الأصلية خلال إقامتها لمدة ثلاثة أيام في جزيرة أينجل: "سيولد طفلك في عام النمر وسـيكون متأثـراً بعوامل الأرض، وهي قوية هذا العام. وسيمضي طفلـك النمـر على حبالك السعادة والقلق في آن معاً، وسيكون وسـيماً وذكياً وفضولياً ونهماً للبحث والتدقيق وعاطفياً ورياضياً. وهكـذا، سـتنالين تمارين كثيرة وأنت تحاولين فقط أن تتماشي معه!".

عـادة تلتـزم مـاي الـصمت عندما تنحنا النساء الأخريات نـصائحهن، ولكنها هذه المرة لم تستطع أن تمنع نفسها، فسألت قائلة: "هل سيكون مبهجاً فعلاً؟ هل سيحظى بحياة سعيدة؟".

"السعادة؟ هنا في أرض العلم المزهر؟ لا أعرف إن كانت السعادة ممكنة في هذه البلاد. ولكن النمر يتمتع بصفات خاصة قد تبرهن أنها مفيدة لابن أختك. فإن كان منضبطاً وعفوياً بنسبة متساوية، فعندئذ سيتحلى بالدفء والتفهم، ولكن لا يسعك أبداً أن تكابحي على نمر لأنه سيقوم بأفعال هوجاء ومتمردة".

سألت ماي محتدّاً: "ولكن، أليست هذه صفات جيدة؟".

"إن أختك مولودة في عام التنين، ولكن التنين والنمر دائما التنافس على موقع السلطة. يجب أن تأمل أختك أن تنجب ابناً. وأي أم لا تأمل ذلك؟ وذلك لأن موقعهما في العمق سيكون واضحاً. إذ يجب على كل أم أن تطيع ابنها حتى لو كانت تنيناً. ولو أن أختك من يسرع الحروف، لأقلقني هذا كثيراً. إذ يحمي النمر أمه الحروف عادة، ولكنهما يتوافقان فقط خلال الطقس الجيد والأوقات السهلة. وخلافاً لذلك، يهرب النمر عادة من الحروف أو يحرقه إرباً".

تبادلت وماي نظرات الشك. فنحن لم نكن نصدق تلك الأمور عندما كانت أمي على قيد الحياة. فماذا يجب علينا أن نصدقها الآن؟

حاولت أن أختلط بالممرضات اللواتي يتحدثن لغة الهي يوب. فتحسن مفرداتي وأتذكر كلمات تعلمتها خلال طفولتي، ولكن ما الغرض من تجاذب أطراف الحديث مع أولئك الغريبات؟ إنهن لا يبقين وقتاً طويلاً يكفي كي نصبح صديقات. ولا تستطيع ماي أن تشترك معنا لأنها لا تفهمهن. كما أننا كنا نعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعزل عنهن. ولذلك استمررنا في الذهاب إلى المراحيض المشتركة والحمامات بمفردنا. وفسّرنا تصرفنا هذا بأننا لا نريد أن نعرض طفلي للأرواح الشريرة التي تمكث في تلك الأماكن، وهذا بالطبع ليس منطقياً. إذ إنني

لا أكون أكثر أماناً من الأشباح عندما أذهب إلى الحمامات أو المراحيض مع أختي وحدها، ولكن النساء يتغاضين عن ذلك ويفهمن أنني أعاني من القلق الذي تعاني منه كل أم مستقبلية.

أتت التغييرات الوحيدة في نمط الحياة مع الجولات الأسبوعية خارج المبنى الإداري. ففي أيام الثلاثاء كان يُسمَح لنا بإحضار أشياء من حقائبنا الموجودة على الرصيف. وبالرغم من أننا لم نكن نجلب أي شيء جديد، فمن المريح أن نخرج إلى الهواء الطلق. وفي أيام الجمعة، كانت تقودنا سيدات البعثة التبشيرية في نزهة حول المكان. فتبدو لنا جزيرة أينجل جميلة من نواحٍ كثيرة. إذ إننا نرى الغزلان وحيوانات الراكون ونتعلم أسماء الأشجار ونمشي إلى جانب ثكنة الرجال التي يتم فيها عزل الأعراق ليس فقط في الأجنحة أو الطوابق، بل في باحة التدريب أيضاً. وبينما تحيط الأسيجة ذات الأسلاك الشائكة بمركز المحتجزين بأكمله لتعزله عن أي شيء آخر في الجزيرة تبقى باحة تدريب الرجال محاطة بسياج مضاعف ليمنعهم من الهرب. ولكن إلى أين يستطيعون الهرب؟ فجزيرة أينجل شبيهة بجزيرة ألكاتراز التي مررنا بها في طريقنا إلى هنا، والتي تحوي سجناً عصيّاً على الفارين. وأولئك الذين يحلمون بالمسافة أو الحركة الكافية التي تحثهم على السباحة بحثاً عن الحرية، يُعثَر عليهم عادة بعد أيام غارقين على أحد الشواطئ البعيدة، ولكن الفرق بيننا وبين نزلاء الجزيرة المجاورة هو أننا لم نرتكب أي جرم.

في مدرسة البعثة التبشيرية في شنغهاي كانت معلماتنا يتحدثن عن الخطايا وعن فضائل الجنة ورعب الجحيم، ولكنهن لم يتوخين الصراحة حيال كيفية شعور أبناء بلدهن حيالنا، فندرك أن أميركا لا تريدنا وأننا لا نستطيع أن نصبح مواطنين طبيعيين. فقد أصدرت الحكومة قانوناً

عام 1882 بحظر هجرة كل الصينيين باستثناء أربع طبقات، وهي: الوزراء، والدبلوماسيون، والطلاب والتجار. وسواء أكان المرء منتمياً إلى هذه الطبقات الاستثنائية أو مواطناً أمريكياً من أصل صيني، يجب عليه أن يمتلك هوية ليبرهن على شرعيتها وأن يحمل هذه الوثيقة في كل الأوقات. ترى هل الصينيون وحدهم من يتعرضون لهذه المعاملة؟ إن هذا لا يفاجئني.

شرحت لنا لي شي ونحن نتناول أول عشاء ميلاد على هذه الأرض الجديدة: "قد لا تستطيعين أن تدعي أنك وزيرة أو دبلوماسية أو تلميذة، ولكن ليس من الصعب أن تدعي أنك تاجرة".

فستتفق معها دونغ شي، وهي امرأة أخرى متزوجة وصلت بعدنا بأسبوع: "هذا صحيح". إنها المرأة الوحيدة التي تقول لنا إن سبب نومنا على شبابيك معدنية بدلاً من الأفرشة هو اعتقادهم أننا لن نجد الأسرة مريحة. ثم تقول: "إنهم لا يريدون مزارعين على شاكلتنا ولا يريدون عمالاً أو صبياناً ممن يجرون العربات أو يجمعون السماد الليلي أيضاً".

ففكرت في نفسي قائلة: أي بلاد نريدهم؟ إن أولئك الناس ضرورة للبلاد، ولكن هل كنا نريدهم نحن في شنغهاي؟

تنحنح لي شي قائلة: "لقد اشترى زوجي حصة في متجر. وادعى أنه دفع خمسة آلاف دولار ليصبح شريكاً فيه. إنه ليس شريكاً حقيقياً ولم يدفع المال أيضاً. فمن يملك مبلغاً كهذا؟ ولكنه وعد المالك أن يعمل لديه إلى أن يسدد دينه. والآن يستطيع زوجي أن يدعي أنه تاجر".

فسألتها: "ألهذا السبب يستجوبوننا؟ هل يبحثون عن تجار مزيفين؟ يبدو أن هذه مشكلة كبيرة...".

"إن من يريدون الإمساك بهم بالفعل هم أبناء الوثيقة المزيفة".

عندما رأت المرأتان التعبير الغبي على وجهي بدأتا بالضحك. عندها رفعت ماي نظرها عن وعاء طعامها.

وقالت لي: "أخبريني، هل رويتا لك نكتة؟".

هززت رأسي، وتنهدت ماي ثم عادت إلى أكل طعامها بلا شهية. وفي الطرف المقابل من الطاولة، تبادلت المرأتان نظرات ريبة.

علقت لي شي قائلة: "إنكما لا تعرفان الكثير. ألهذا السبب مضى عليك وقت طويل هنا أنت وأختك؟ ألم يشرح لكما زوجاكما ما يجب عليكما فعله؟".

فأجبتها بصراحة: "لقد كان من المفترض أن نسافر مع زوجينا ووالدهما، ولكننا افترقنا بسبب الحرب...".

فأومأتا برأسيهما متعاطفتين.

تابعت دونغ شي قائلة: "يمكنك أيضاً أن تدخلي أمريكا إن كنت ابنة مواطن أمريكي. إن زوجي ابن وثيقة. فهل زوجك كذلك أيضاً؟".

"سامحيني، ولكنني لا أعرف عما تتحدثين".

"لقد اشترى زوجي الوثيقة ليصبح ابن أمريكي. وهو يمكنه أن يحضرني معه على أنني زوجته وفقاً لهذه الوثيقة".

فسألتها قائلة: "ماذا تقصدين بقولك إنه اشترى وثيقة؟".

"ألم تسمعي عن أبناء الوثيقة وشواهد أبناء الوثيقة؟". وعندما هززت رأسي، وضعت دونغ شي مرفقيها على الطاولة، وانحنت إلى الأمام وقالت: "افترضي أن هناك رجلاً صينياً مولوداً في أمريكا. يسافر هذا الرجل إلى الصين ليتزوج، وعندما يعود إلى أمريكا يخبر السلطات أن زوجته حامل".

أصغيت بحرص شديد بحثاً عن مهرب، واعتقدت أنني عثرت على واحد. فقلت: "ألكونه حاملاً فعلاً؟".

"كـلا، إنـه يقول لهم ذلك وحسب ولن يذهب المسؤولون في السفارة في الصين أو هنا في جزيرة آينجل إلى قرية نائية ما ليتأكدوا إن كـان يكذب أم لا. فتمنح الحكومة هذا الرجل، وهو مواطن أميركي، وثـيقة تفيد بأن لديه ابناً جديداً وهو أيضاً مواطن أميركي بسبب أبيه. ولكن تذكري أن هذا الطفل لم يولد قط لأنه موجود فقط على الورق. وهكذا، يصبح لدى الرجل وثيقة ابن ليبيعها. فينتظر هذا الرجل عشرة أعـوام أو عشرين عاماً ثم يبيع الوثيقة لشاب في الصين. فيتبنى الشاب اسم عائلته الجديد ويأتي إلى أميركا، ولكنه ليس ابناً حقيقياً بل مجرد ابن على الورق. فيحاول مسؤولو الهجرة هنا في جزيرة آينجل أن يخدعوه ليعترف بالحقيقة. فإن كشف أمره رحلوه إلى الصين".

"وإن لم يحدث ذلك؟".

"عـندئذ يـذهب إلى بيته الجديد ويعيش كابن وثيقة مع جنسية مزيفة واسم مزيف وتاريخ عائلة مزيف، وهذه الأكاذيب جميعها ترافقه طوال مدة إقامته هنا".

سألتها قائلة: "من قد يرغب في فعل هذا؟". وشككت في كلامها لأنـني قادمـة من بلاد تحمل فيها أسماء العائلات أهمية قصوى، ويمكن للمرء أن يتتبعها لعشرة أجيال وأكثر. ولم تبدُ لي فكرة تغيير رجل اسم عائلته طوعاً ليأتي إلى هنا معقولة أبداً.

أجابتني دونغ شي قائلة: "إن الكثير من الشباب في الصين يودون أن يـشتروا تلك الوثيقة ويتظاهروا أنهم أبناء أشخاص آخرين إن كان ذلـك يعـني ذهابهم إلى أميركا، بلاد الجبل الذهبـي والراية الزهرة. صـدقيني، سيعاني الكـثيرون مـنهم الإهانات والإذلال، ولكنهم سيجمعون المال ويدخرونه ليعودوا إلى بلادهم يوماً ما أثرياء".

"هذا يبدو سهلاً...".

قاطعـتني لي شي قائلة: "انظري حولك! إنه ليس بهذه السهولة! فالتحقيق صعب جداً. والأميركيون يغيرون القوانين بشكل دائم".

سـألتها قائلـة: "ماذا عن النساء؟ هل تأتي النساء إلى هنا بهذه الطريقة أيضاً؟".

"أي عائلـة ستبدد هذه الفرصة الثمينة على ابنة؟ إننا محظوظات لأننا استفدنا من أوضاع أزواجنا لنأتي إلى هنا".

ضـحكت المـرأتان إلى أن سالت دموعهما. أرى كيف يعرف هـؤلاء الفلاحون الأميون هذه الأشياء ويدركون ما يجب أن يتم فعله للوصول إلى هذه البلاد أكثر منا أنا؟ ربما لأنهم الطبقة المستهدفة بينما لا ينبغـي لي ولـماي أن نكون هنا. تنهّدت وتمنّيت لو أننا نستطيع أن نعـود، ولكـن كيف يمكننا أن نعود؟ فالصين أصبحت تحت سيطرة اليابانيين، وماي حامل وليس لدينا مال أو عائلة.

بعـد ذلك، عاد مجرى الحديث إلى الطعام الذي نفتقده: كالبط المشوي، والفاكهة الطازجة، وحساء الفاصولياء السوداء، أو أي شيء غير القمامة المحترقة التي يطعموننا إياها.

بدأت بارتداء الملابس الفضفاضة التي ارتديتها لأهرب من الصين. ولم أُقِم معظم النساء هنا مدة طويلة ليلاحظن أنني وماي نـزداد بدانة يـوماً بعـد يوم. أو أنهن ربما يلاحظن ذلك، ولكنهن يفضلن كتمي التكتم في ما يتعلق بهذه الأمور الخاصة.

لقـد نـشأت وأختي في مدينة عالمية. فكنا نتصرف وكأننا على دراية بكل شيء، ولكننا اكتشفنا أننا جاهلتان من نواحٍ كثيرة. وكانت أمي - وهذا تصرف توضحي منها في تلك الأيام - غير راغبة في تقديم المساعدة حيال أي شيء يتعلق بأجسادنا. فلم تحذرنا حتى في ما يتعلق

مظاهر البلوغ عند الفتاة. عندما حدث ذلك، أصبت بالرعب. فلم تشرح لي أمي ما كان يجري لي، بل أرسلتني إلى غرف الخدم لتجعل باسي والأخريات يعلمنني كيف أعتني بنفسي وكيف يمكن للمرأة أن تحمل. في وقت لاحق، عندما حدث الأمر نفسه مع ماي علمتها ما تعلمته، ولكننا مع ذلك لا نزال نجهل الكثير عن الحمل والولادة. لحسن الحظ، فنحن مقيمتان مع نساء يعرفن كل المعلومات المطلوبة ويقدمن كل أنواع النصائح، ولكني كنت أعتمد بالأخص على نصيحة لي شي.

كانت تنصحني أن أقوي نفسي من خلال تناول الإجاص المطهي بشراب السكر، ولكننا لم نكن نملك أياً منه في قاعة الطعام. وعندما بدأت ماي بالمعاناة من آلام في بطنها، قلت للي شي إنني أعاني من هذه الآلام، فشرحت لي أن هذه معاناة شائعة بين النساء.

ونصحتني قائلة: "إن أفضل علاج لهذا هو تناول خمس شرائح من الفجل الأبيض مرشوش عليها القليل من السكر ثلاث مرات يومياً". ولكنني لم أكن أملك أي فجل طازج. فاستمرّت ماي بالمعاناة، وهذا ما دفعني إلى بيع آخر قطعة مجوهرات من حقيبة مهر والدتي لامرأة من قرية قرب كانتون. ومنذ تلك اللحظة صرت أملك المال لأشتري أي شيء تحتاج إليه ماي مباشرة من الكنتين أو لأدفع رشوة إلى أحد الحراس أو الطهاة ليحضره إليّ. وعندما كانت تعاني ماي من سوء الهضم، كنت ألتمس وفقاً لذلك. فناقشت النساء في المهجع حول العلاج الأمثل لي واقترحن عليّ أن أمتص بعض فصوص الثوم الكاملة، فاستطعت تدبرها بسهولة، ولكن لي شي لم تشعر بالرضا.

فقالت للنساء الأخريات: "إن بول تعاني من معدة ضعيفة أو طحال ضعيف، وفي ذلك دلالة على ضعف في وظائفها الأرضية. هل

تملك أي منكن بعض اليوسفي أو الزنجبيل الطازج لنتمكن من صنع الشاي لها؟".

تمكّنت من جلب هذه الأشياء من دون أي مشقة. فشعرت ماي بالراحة، وهذا ما أسعدني وأسعد المحجوزات أيضاً لأنهن تمكن من تقديم الدعم لامرأة حامل.

ازدادت المسافات الزمنية التي تفصل بين جلسات التحقيق، وهذا إجراء شائع في جلسات الاستماع التي تعاني من صعوبات. إذ كان يعتقد المفتشون أن الساعات الطويلة التي نقضيها في المهجع ستضعفنا وتخيفنا وأجبرنا على نسيان قصصنا التي حفظناها عن ظهر قلب وتدفعنا إلى ارتكاب الأخطاء. إن تم التحقيق مع المرء مرة في الشهر لثلاث ساعات متواصلة، فكيف يسعه أن يتذكر كل ما قاله بالضبط قبل شهر أو شهرين أو ستة أشهر أو ثمانية أشهر؟ وكيف يطابق كلامه الأوراق التعليمية التي أتقنها أو ما قاله عنه أقاربه ومعارفه الذين ليسوا في هذه الجزيرة في جلسات استماعهم؟

بقي الأزواج والزوجات منفصلين خلال فترات إقامتهم، وهكذا، لم يسمح لهم بالتخفيف عن بعضهم، والأهم من ذلك تبادل المعلومات عن التحقيق معهم أو الأسئلة التي طرحت عليهم، مثل: *هل أوقفت كرسي الجنة في زفافكما عند البوابة الأمامية أو الباب الأمامي؟ هل كان الطقس غائماً أم ممطراً عندما دفنتما ابنتكما الثالثة؟* من يستطيع أن يتذكر هذه الأشياء حيث يمكن مقاطعة هذه الأسئلة وأجوبتها بطرائق مختلفة؟ وفي كل الأحوال، أليست البوابة الأمامية والباب الأمامي الشيء نفسه في قرية يبلغ تعداد سكانها مئتي شخص؟ ماذا يهم حالة الطقس في اليوم الذي وضعا فيه ابنتهما عديمة القيمة تحت التراب؟ من

الواضح أنه يهم المحققين. فقد تبقى العائلة التي لا تتوافق إجاباتها محتجزة لأيام وأسابيع وأحياناً لأشهر.

لكنني وماي أحنان ونستطيع أن نقارن بين القصص قبل حضور جلسات استماعنا. فتزداد الأسئلة التي تطرح علينا صعوبة بعد طرح ملفات سام وفيرنون وإخوتهما ولوي العجوز وزوجته وزملاء عمله والجيران والتجار الآخرين، مثل: كم عدد الدجاج والبط الذي تربيه عائلة زوجي في بيتها في القرية؟ أين يحتفظون بصندوق حفظ الأرز في بيتنا في لوس أنجلوس وفي بيت عائلة لوي في قرية واه هونغ؟

فإن تواليننا عن تقديم الإجابات، كان ينفد صبر المفتشين ويصيحون: "أسرعي! أسرعي!". وهذه الطريقة كانت تنجح مع المحتجزين الآخرين وتخيفهم، مما يدفعهم إلى ارتكاب أخطاء فادحة، ولكننا كنا نستغلها لنبدو مرتبكين أو غبيين. فيزداد رئيس المجلس انزعاجاً مني. ويحدق إليّ بصمت لساعة كاملة أحياناً محاولاً أن يخيفني لآتي بجواب جديد، ولكن جميع محاولاته للتنمر عليّ وتهديدي تجعلني أزداد هدوءاً وتركيزاً.

عملت وماي على استغلال تعقيد أو بساطة أو حماقة هذه الأسئلة لنمدّد فترة إقامتنا. فعندما كانوا يطرحون علينا سؤالاً مثل: "هل كان لديكم كلب في الصين؟". تجيب ماي بقولها نعم وأنا أجيب بقولي لا. وخلال جلستي استماعنا التاليتين، واجهنا مفتشنا كل من جلستي التحقيق هذا التناقض الغريب. فتبقى ماي متشبثة بقصتها وهي أننا كنا نملك كلباً، بينما أشرح أنا أنه كان لدينا كلب ولكن والدي قتله كي نتمكن من أكله في وجبتنا الأخيرة في الصين. وفي جلسة الاستماع التالية، يعلن المفتشون أن كلتينا محقتان وأننا كنا نربي كلباً فعلاً ولكننا أكلناه قبل مغادرتنا، ولكن الحقيقة هي أننا لم نرب كلباً على

الإطلاق وأن الطاهي لم يقدم لنا لحم الكلاب، سواء أكان كلبنا أو كلب أي شخص آخر. فأضحك وماي لساعات لانتصارنا عليهم.

سألنا المفتش في أحد الأيام: "أين كنتم تضعون مصباح الكيروسين في بيتكم؟". وقد كنا نحظى بالكهرباء في شنغهاي، ولكنني أخبره أننا كنا نحتفظ بمصباح الكيروسين في الجانب الأيسر من الطاولة بينما تقول ماي إننا كنا نحتفظ به في الجانب الأيمن.

لنقل وحسب إنهم ليسوا من أذكى الرجال. إذ إن السترات الصينية التي نرتديها تجعلهم لا يلاحظون نمو الطفل داخل أحشاء ماي أو وجود الوسادة داخل ملابسي. وبعد حلول السنة الصينية الجديدة، بدأت بالتهادي في مشيتي وأنا أدخل وأخرج من غرفة التحقيق وأبالغ ببذل الجهد خلال الجلوس والنهوض. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا إلى جولة أخرى من الأسئلة. هل أنا واثقة من أنني أصبحت حاملاً في الليلة التي أمضيتها مع زوجي؟ هل أنا واثقة من التاريخ؟ أليس من الممكن أن يكون طفل شخص آخر؟ هل كنت بائعة هوى في بلادي؟ هل والد طفلي هو من أدعي أنه والده؟

فتح رئيس المجلس ملف سام وأراني صورة لصبي في السابعة من عمره وسألني قائلاً: "هل هذا زوجك؟".

فأتفحص الصورة وأفكر في نفسي ربما تكون صورة سام عندما ذهب إلى الصين مع والديه عام 1920 أو صورة شخص آخر. فأقول: "نعم، ذلك هو زوجي".

استمرّ الكاتب بالطباعة وواصلت مقابلنا التوسع. وخلال ذلك الوقت، تعلمت الكثير عن عمي وسام وفيرنون وتجارة عائلة لوي.

قال رئيس المجلس وهو يتصفح ملف لوي العجوز: "لقد كُتب هنا أن عمك قد ولد في سان فرانسيسكو عام 1871، وهذا يجعله في

السادسة والسبعين من عمره. وكان والده تاجراً. فهل هذه المعلومات صحيحة؟".

كنت قد تعلمت من الأوراق التعليمية كل شيء إلا سنة ميلاد لوي العجوز، ومع ذلك غامرت وقلت: "نعم".

"ذُكر هنا أنه تزوج امرأة ذات قدمين طبيعيتين في سان فرانسيسكو عام 1904".

"لم أقابلها بعد، ولكني علمت أنها ذات قدمين طبيعيتين".

"في عام 1907، ذهبا إلى الصين، وهناك ولد طفلهما الأول. فتركاه في قريتهما الأصلية لأحد عشر عاماً ثم أحضراه إلى هنا".

عندئذ، التفى السيد وايت وهمس شيئاً في أذن رئيسه، وتصفحا كلاهما الملفات. ثم أشار السيد وايت إلى شيء على إحدى الصفحات، فأومأ رئيس المجلس برأسه وقال: "لدى خالتك المزعومة خمسة أبناء. لماذا لديها أبناء ذكور فقط؟ ولماذا ولدوا جميعاً في الصين؟ ألا يبدو لك هذا أمراً مثيراً للشكوك؟".

فعرضت عليه مساعدتي قائلة: "في الواقع، لقد ولد الابن الأصغر في لوس أنجلوس".

فرمقني رئيس المجلس بنظرة وقال: "لماذا قد يرغب أهل زوجك في ترك أربعة أبناء في الصين قبل أن يحضروهم إلى هنا؟".

كنت قد تساءلت عن الشيء نفسه، ولكني أجبته بما حفظته قائلة: "لقد نشأ أشقاء زوجي في قرية واه هونغ لأن المعيشة فيها أقل كلفة من لوس أنجلوس. وأرسل والدا زوجي ابنهما إلى الصين ليقابل جديه ويتعلم اللغة والتقاليد الأصلية ويقدم القرابين لأسلاف عائلة لوي نيابة عن أبيه".

"هل قابلت أشقاء زوجك؟".

"فقط المدعو فيرنون، أما البقية فلم أقابلهم بعد".

سأل رئيس المجلس قائلاً: "إن كان والدا زوجك يعيشان معاً في لوس أنجلوس، فلماذا انتظرا أحد عشر عاماً لينجبا طفلاً آخر؟".

لا أعرف الإجابة عن هذا السؤال، ولكني أربت على بطني وأقول: "إن بعض النساء لا يتناولن الأعشاب أو الطعام الملائم أو يتبعن القواعد الصحيحة كي يحملن الأطفال من أزواجهن".

أرضت إجابتي القروية المتحلقة المحققين لذلك اليوم، ولكن بعد أسبوع، عادت أفكارهم إلى مهنة حمي محاولين أن يتأكدوا أنه ليس من طبقة العمال الممنوعة. لقد افتتح لوي العجوز خلال السنوات العشرين الماضية عدة مشروعات في لوس أنجلوس. وحالياً لديه متجر واحد فقط.

فسأل رئيس المجلس قائلاً: "ما اسم المتجر وماذا يُباع فيه؟".

فأجبته بلا تردد قائلة: "إنه يدعى القنديل الذهبي، ويُباع فيه البضائع الصينية واليابانية، بما فيها الأثاث والحرير والسجاد والأحلية والخزف وتبلغ قيمتها نحو خمسين ألف دولار". وأشعرني مجرد ذكر ذلك المبلغ في فمي أنني أتناول قطعة حلوى شهية.

بدا رئيس المجلس متأثراً مثلي. فعلّق قائلاً: "خمسون ألف دولار؟ ذلك مبلغ كبير من المال".

مرة أخرى، قرّب رأسه من السيد وايت، وهذه المرة ليتحدثا عن قسوة الركود الاقتصادي الذي تعاني منه بلادهم. فتظاهرت أنني لا أصغي إليهما. ثم تفقّدا ما يملكه لوي العجوز من مال، وسمعتهما يقولان إنه ينوي أن ينقل متجره الأساسي ويفتتح متجرين إضافيين ومطعماً في نهاية هذا العام. فربتّ على بطني المريب وتظاهرت بعدم الاهتمام عندما شرح السيد وايت وضع عائلة لوي.

فقـــال: "إن زملاءنا في لوس أنجلوس يزورون عائلة لوي كل ستة أشهر، فلم يلاحظوا حتى الآن أي علاقة تربط بين عملك وبين مغسل للملابـــس أو محل لبيع الباغيتي أو بيت للإيجار أو محل حلاقة أو قاعة للعب البلياردو أو أي شيء يسعنا الاعتراض عليه. ولم يذكر أحد قط أنـــه رآه يقـــوم بعمل يدوي. وبعبارة أخرى، يبدو أنه تاجر ذو مكانة جيدة في المجتمع".

اعتـــرتني دهشة رهيبة مما اكتشفه في جلسة التحقيق التالية عندما قرأ الســـيد وايت سجلات سام وأبيه التي يترجمها إلى لغة الجي يوب مترجم آخر تم استدعاؤه ليغطي جلسة الاستماع. إذ ذُكر في السجلات أن لوي العجـــوز قد ذكر للمفتشين أن تجارته خسرت قرابة ألفي دولار في العام، وذلـــك من عام 1930 إلى عام 1933، وهذا يعتبر مبلغاً ضخماً من المال بمقاييس شنغهاي. إذ إن مجرد قيمة خسارة عام واحد من ذلك العام كانت ســـتفقد عـــائلتي وأمارة والدي والبيت ومدخراتي ومدخرات ماي. ومع ذلك، فقد تمكن لوي العجوز من القدوم إلى الصين وشراء زوجتين لابنيه.

قالـــت ماي في تلك الليلة: "لا بد من أن العائلة ثرية من خلال ثروة خفية".

ومع ذلك، بدا كل شيء مشوشاً ومربكاً بشكل متعمد. أترى هل كذب لوي العجوز لدى الإدلاء بمعلوماته الخاصة كما كذبنا نحن؟

في أحد الأيام، فقد رئيس المجلس صبره أخيراً وضرب بقبضة يده علـــى الطاولـــة وسألني قائلاً: "كيف تدعين أنك زوجة تاجر مسجل قانونياً وزوجة مواطن أميركي؟ هذان شيئان مختلفان، وواحد منهما هو المطلوب فقط".

لقد طرحت السؤال ذاته على نفســـي عدة مرات في الأشهر القليلة الماضية، وما زلت حتى الآن لا أجد له جواباً.

شقيقتان بكل ما للكلمة من معنى

بعـــد أسبوعين، استيقظت عند منتصف الليل بسبب كابوس من كوابيـــسي، وعـــادة تكون ماي إلى جانبـــي لتخفف عني، ولكنها في تلـــك الليـــلة لم تكن هناك. التفتُّ متوقعة أن أراها في السرير المجاور لسريري، ولكنها لم تكن هناك أيضاً. فتمدّدت بصمت، وأنا أصغي إلى السكون. فلم أسمع صوت أحد يبكي أو يهمس بالتهويدات الخافتة أو يتجول في أنحاء المهجع، وهذا يعني أن الوقت متأخر جداً. فأين ماي؟

لقد بدأت ماي تعاني مؤخراً من مشاكل في النوم. فقد ألقت إليّ قبل أسبوع بعنان كيو قائلة: "إن طفلك يجب أن يركلني عندما أتمدد. ولم يعـــد هـــناك متسع من المكان له داخلي، ويجب أن أذهب إلى المـــرحاض طوال الوقت". فلم يسعني إلا أن أحبها والطفل الذي تحمله مـــن أجلـــي. ومـــع ذلك، فقد وعدنا بعضنا ألا نذهب إلى المرحاض وحـــدنا. فـــمددت يدي إلى ملابسي وطفلي المزيف. فحتى في وقت متأخـــر من الليل لا أستطيع أن أجازف بأن يراني أحد لا أبدو حاملاً. ثم زررت سترتي فوق بطني المزيف ونهضت.

لم أجـــدها في المـــرحاض، فتوجهت إلى الحمام. وعندما دخلت انقـــبض صـــدري وانقلـــبت معدتي. إذ لا يمكن للغرفة أن تبدو أكثر اختلافاً عن الغرفة التي رأيتها في أحلامي، ولكنني أرى أختي ممددة على الأرض هناك ووجهها شاحب وتبدو منتشية ومتألمة.

مدّت ماي ذراعها نحوي وقالت: "يا بيرل...".

فركضتُ إلى جانبها وكددتُ أنزلق على الأرض المبللة بالماء.

قالت لي: "سأنجب الطفل".

"كان يفترض بك أن توقظيني".

"لم أدرك أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد".

كنتُ وأختي وفي أوقات متأخرة من الليل، أو عندما نستطيع أن ننفرد بأنفسنا في أثناء الجولات الأسبوعية التي تأخذنا فيها سيدات الجمعة التبشيرية نناقش ما يجب علينا فعله عندما يحين موعد الولادة. فوضعنا خطة تلو الخطة، وناقشنا تفصيلاً تلو الآخر. فبدأت أعدّد الآن في ذهني لائحة الأشياء التي سألنا عنها السيدات وأجوبتها، وهي: ستعانين من الآلام إلى أن تشعري أن بطيخة ستخرج من أحشائك، عندها انحني إلى زاوية واجلسي القرفصاء. وعندما يولد الطفل نظفيه ولفّيه ثم امضي إلى زوجك في حقل الأرز والطفل مربوط إليك بقطعة قماش طويلة. وبالطبع هذا كله مختلف تماماً عن الكيفية التي تجري بها الأمور في شنغهاي، فهناك تنسحب النساء من الحفلات والأسواق ثم يتوجهن إلى مستشفى غربي الطراز حيث يتم تخديرهن، وعندما يستيقظن يسلمن أطفالهن، ولكنهن يبقين لأسبوع أو ثلاثة أسابيع في المستشفى وهن يستقبلن الزوار ويحظين بالرعاية لأنهن جلبن الابن إلى العائلة. وأخيراً يذهبن إلى البيت في الوقت المحدد لإقامة حفلة الشهر الأول ليقدمن الطفل إلى العالم ويتلقين الثناء من العائلة والجيران والأصدقاء. ومع ذلك، فالطريقة المتبعة في شنغهاي ليست ممكنة هنا، ولكن ماي قالت مرات عديدة خلال الأسابيع الماضية: "إن النساء الريفيات ينجبن أطفالهن بأنفسهن منذ الأزل. وإن كن يستطعن فعل ذلك، فأنا أستطيع القيام بذلك أيضاً. لقد مررنا بالكثير من المصاعب،

فلم أتناول الكثير من الطعام. وعندما كنت آكل، كنت أتقيأ كل شيء. وهكذا، فلن يكون الطفل كبيراً جداً وسيولد بسهولة".

تشاورنا حول المكان الذي يجب أن يولد فيه الطفل حتى استقرّ رأينا على الحمام لأنه أكثر مكان تخشى النساء الخارقة بدخوله. وحتى لو فعلن ذلك، فالنساء يستحممن في النهار. وعدتني ماي قائلة: "لن أدع الطفل يولد عندئذ".

صرت أتذكر حينها ما حدث في اليوم السابق. فأدركت أن ماي كانت تعاني آلام المخاض معظم اليوم وهي جالسة على سريرها، وركبتاها مرفوعتان، وساقاها متشابكتان لتبقي الطفل في الداخل.

سألتها وأنا أتذكر المعلومات التي تشير إلى الوقت الذي سيرى فيه الطفل النور: "متى بدأ الألم؟".

"لقد بدأ صباح هذا اليوم. ولم يكن سيئاً جداً. فأدركت أنه يجب عليّ أن أنتظر. وفجأة بدأت أشعر أنني بحاجة إلى استخدام المرحاض، فخرج الماء عندما وصلت إلى هنا".

ولا بد من أن هذا هو الماء الذي بلل قدميّ وركبتيّ.

تشبثت ماي بيدي عندما بدأت الانقباضات. فأغمضت عينيها واحمرّ وجهها وهي تكتم معاناتها، وغرست أظفارها في راحة يدي بعمق بحيث وددت أن أصرخ. وعندما انتهت الانقباضات، أخذت نفساً واسترخت يدها في يدي. وبعد ساعة رأيت قمة رأس الطفل.

سألتها: "أتظنين أنك تستطيعين أن تجلسي القرفصاء؟".

فتحت ماي إجابة عن سؤالي. ووقفت خلف ظهرها وسحبتها إلى جدار كي تتمكن من سند ظهرها إليه. ثم جلست أمامها وضممت يديّ إلى بعضهما، وأغمضت عينيّ لأستجمع شجاعتي. ثم فتحت عينيّ، ونظرت إلى وجه أختي المنقبض، وحاولت

أن أجعل صوتي موحياً بالاقتناع وأنا أكرر لها ما قالته لي شي مراراً وتكراراً في الأسابيع القليلة الماضية: "تستطيع أن تفعل هذا، يا ماي. إني واثقة من ذلك".

عندما ولد الطفل، اكتشفنا أنه ليس الابن الذي تمنّاه بل كان فتاة صغيرة تبدو أصغر مما نتوقع. لم تبكِ الطفلة بل أصدرت أصواتاً خافتةً كأصوات فرخ عصفور حزين.

"دعيني أراها".

رمشت بعينيّ ونظرت إلى آمي، فرأيت شعرها مبللاً، ولكن علامات الألم كانت قد اختفت من وجهها. فسلمتها الطفلة ونهضت.

وقلت لها: "سأعود سريعاً". ولكن ماي لم تصغ إليّ. إذ رأيتها تلف ذراعيها حول الطفلة لتحميها من صدمة الهواء البارد وتمسح وجهها بكم قميصها. فحدقت إليهما للحظة وأدركت أن هذا هو كل الوقت الذي ستحظيان به قبل أن آخذ الطفلة لتصبح لي.

أسرعت إلى المهجع بهدوء قدر المستطاع، وأخذت أحد الأطقم التي قمت وماي بخياطتها، وكرة من الخيوط، ومقصاً صغيراً أعطتنا إياه سيدات البعثة التبشيرية لمساعدتنا بمشروعاتنا اليدوية، وبعض المستلزمات الصحية، ومنشفتين أحضرناهما من الكشك. كما أخذت إبريق الشاي عن السخان وأسرعت إلى الحمام. هناك، بللت أحد طرفي المنشفة النظيفة بالماء الساخن وسلّمتها إلى ماي لتنظف الطفلة. ثم بللت المنشفة الأخرى ببعض الماء لأنظف ماي. إن الطفلة صغيرة جداً، ولهذا لم تعانِ ماي من تمزق كبير مقارنة بما حدث معي. وكنت آمل أن تشفى من دون قطب. ولكن في الواقع، ما الذي يمكنني فعله غير ذلك؟

وبينما كانت ماي تُلبس الطفلة، كنت أمسح الأرض وأنظفها. وعندما أصبح كل شيء نظيفاً قدر المستطاع دسست الأشياء المتسخة في القمامة.

في الخارج، تحوّل لون السماء إلى اللون الأرجواني، ولم يعد لدينا الكثير من الوقت.

قالت ماي: "لا أظن أني أستطيع أن أنهض بمفردي". وارتجفت ساقاها الشاحبتان تحتها من البرد وبفعل الجهد الذي بذلته. فابتعدت عن الجدار، فيما أعنتها على الوقوف على قدميها.

قالت لي: "لا تقلقي. خذيها".

أعطتني الطفلة، وكنت قد نسيت أن أحضر الملاءة التي حاكتها ماي، فتحركت ذراعا الطفلة بارتباك بسبب حريتها المفاجئة. ولم أكن قد حملتها في داخلي كل تلك الأشهر، ولكنني وقعت في حبها على الفور وكأنها ابنتي.

قالت لي ماي: "إنني جاهزة".

نظرنا في أنحاء الغرفة. إذ سرعان ما سيكتشف الجميع أن امرأة أنجبت طفلاً هنا، ولكن المهم ألا يشك أحد في وجود شيء غير اعتيادي لأنني لن أتمكن من أن أسمح لأطباء المركز بمعاينتي.

تمددت على السرير حاملة ابنتي فيما جلست ماي إلى جانبي. وحين نهضت النساء الأخريات كانت ماي قد غفت قليلاً ورأسها على كتفي. ومضى بعض الوقت قبل أن تلاحظنا النساء.

فصاحت لي شي بانفعال قائلة: "يا للروعة! انظرن من أتى في الليل!".

تجمّعت النساء الأخريات وأطفالهن الصغار حولنا وهن يتدافعن برفق لينظرن إلى الطفلة.

قالت إحداهن: "لقد وصل ابنك!".

فصحّحت لها ماي كلامها قائلة: "ليس ابناً، إنها ابنة". وبدا صوتها حائلاً جداً بسبب الإرهاق بحيث شعرت بالقلق للحظة خوفاً من أن تفضح أمرنا.

قالت لي شي: "إنها سعادة صغيرة". واستخدمت العبارة التقليدية لتعبر بها عن خيبة أملها لولادة فتاة. ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: "ولكن انظري حولك. إن كل شخص تقريباً هنا هو امرأة باستثناء الصبية الصغار الذين يحتاجون إلى أمهاتهم، لذا، يجب علينا أن نعتبر هذا حدثاً مبشراً بالخير".

قالت إحدى النساء بصوت منذر بالشر: "لن يبقى مبشراً بالخير إن بقيت الطفلة مرتدية هذه الملابس".

نظرتُ إلى الطفلة، فوجدتُ أن ملابسها هي أول الملابس التي تعلمت وماي خياطتها. فالأزرار معقوفة والقبعة مائلة، ولكن ليست هذه هي المشكلة على ما يبدو. إذ يجب حماية الطفلة من العوامل المؤذية. لذا، ذهبت النساء ليحضرن الهدايا. قدّمت لنا بعض النساء القطع النقدية التي تمثل رعاية/استخدام العائلة. وربطت إحداهن خيطاً أحمر على شعرها الأسود ليجلب لها حسن الطالع. وواحدة تلو الأخرى، خاطت النساء تميمات صغيرة تمثل حيوانات الأبراج على قبعتها والملابس الأخرى التي أعطاها لتحميها من الأرواح الشريرة والفأل السيئ والمرض.

انتحت النساء واحدة منهن لتعطي المال لأحد الطهاة الصينيين ليعد زبدية من حساء الأمومة المكوّن من اللحم المخلل والزنجبيل

والفول السوداني وأي نوع من المشروبات يستطيع العثور عليه. فهناك أم حديثة مستنزفة القوى تعاني الكثير من الطاقة الباردة. إن معظم مكونات هذا الحساء ساخنة وتبني الطاقة. وقد قيل لي إنها تساعد على تقلص الرحم وتخليص جسدي من الدم الراكد وإدرار الحليب.

وفجأة، مدّت إحدى النساء يدها وبدأت بفك أزرار سترتي، وقالت: "يجب عليك أن ترضعي الطفلة. سنريك كيف تفعلين ذلك".

فدفعت يدها بعيداً عني بلطف، وقلت لها: "إننا في أمريكا الآن، وابنتي مواطنة أمريكية. وسأفعل ما يفعله الأمريكيون". ثم قلت في نفسي: *وما تفعله نساء شنغهاي العصريات أيضاً*. وتذكّرت كل تلك الأوقات التي عرضت بها وماي نفسينا للترويج للشركات التي تصنع حليب الأطفال. ثم قلت: "سأطعمها حليباً اصطناعياً".

وكالعادة ترجمت الحادثة من لغة الجي يوب إلى لغة الوو لتفهم ماي ما تقوله.

فقالت ماي بسرعة: "إن الزجاجات والحليب في الرزمة تحت السرير. قولي لها إنني لا أريد أن أتركك، لذا إن تكرمت إحداهن بمساعدتنا فسأكون شاكرة".

وبينما أخذت إحدى النساء الزجاجة ومزجت مسحوق الحليب الذي اشتريناه من الكشك بالماء من إبريق الشاي ووضعته على حافة النافذة ليبرد، ناقشت لي شي والأخريات مشكلة اسم الطفلة.

فشرحت قائلة: "يقول كونفوشيوس: إن لم تكن *الأسماء صحيحة فاللغة والمجتمع ليسا منسجمين* مع حقيقة الأشياء. ولهذا، يجب على جد الطفلة أو شخص ذي مكانة عالية أن يختار لها اسماً". وزمّت شفتيها ونظرت حولها ثم قالت: "ولكنني لا أرى حولي أحداً بهذه المواصفات. وربما يكون ذلك جيداً أيضاً. لقد أنجبت ابنة. ويا لها من خيبة أمل!

ولكنك لا تريدين أن يسميها أحد البرغوثة أو تلك الكلبة أو منفضة الغبار، كما سماني والدي".

إن التسمية مهمة، ولكنها ليست من صلاحيات النساء. والآن بعد أن واتتنا الفرصة لنسمي الطفلة، نجد المهمة أكثر صعوبة بكثير مما تبدو عليه فعلاً. فلا يمكننا أن نطلق عليها اسم أمي، أو أن نستخدم اسم عائلتنا لتكريم عائلة والدي لأن هذه الاحتمالات ممنوعة ومحظورة. ولا نستطيع أن نسميها على اسم إحدى البطلات أو الشخصيات الخيالية أيضاً لأن ذلك يعتبر وقاحة وعدم الاحترام.

اقترحت إحدى الممرضات الشابات قائلة: "أحب اسم جاد (أي حجر اليشب) لأنه يوحي بالقوة والجمال".

"إن أسماء الزهور جميلة، كزهرة السحلبية وزهرة الزنبق وزهرة السوسن،...".

فاعترضت لي شي قائلة: "آه، ولكن هذه الأسماء شائعة جداً وضعيفة. انظرن إلى المكان الذي ولدت فيه هذه الطفلة. ألا ينبغي أن يطلق عليها اسم ماي غوك؟".

يعني هذا الاسم البلد الجميل، وهو الاسم الرسمي بلغة أهل كانتون للولايات المتحدة الأميركية، ولكنه ليس جميلاً لو رنّانا.

اقترحت امرأة أخرى قائلة: "لا يمكن أن تخطئي إن استخدمت اسم عائلة من حرفين". فراقت لي هذه الفكرة بما أنني وماي نشترك في اسم الجيل لونغ (أي التنين) نفسه. ثم قالت المرأة: "يمكنك أن تستخدمي اسم دي (أي الفضيلة) ثم تضيفي إليه كلمة أخرى لكل ابنة، فهكذا تحصلين على الفضيلة الطيبة، فضيلة القمر، فضيلة الحكمة،...".

فصاحت لي شي قائلة: "ولكن هذا مربك جداً! لقد أسميت بناتي الابنة الأولى والابنة الثانية والابنة الثالثة، وأبنائي الابن الأول والابن

الثاني والابن الثالث. إننا نسميهم بالأرقام بذكر الجميع بترتيب الطفل في العائلة".

لكن مضمون حديثها هو: من يريد أن يزعج نفسه بالأسماء في حين أن الكثير من الأطفال يموتون في أغلب الأحيان؟

لا أعرف كم تابعت ماي من هذا الكلام أو كم فهمت منه، ولكنها عندما تحدثت صمت الجميع.

قالت ماي باللغة الإنكليزية: "هناك اسم واحد مناسب لهذه الطفلة. ينبغي أن نسميها جوي (أي الفرح). فنحن في أميركا الآن، لذا دعونا لا نثقل عليها بعبء الماضي".

عندما رفعت ماي رأسها لتنظر إليّ، أدركت أنها كانت طوال الوقت تحدق إلى الطفلة. وبالرغم من أنني كنت أحتضن جوي، إلاّ أنّ ماي بدت أقرب إليها جسدياً مني. فمدّت ماي يدها إلى عنقها وانتزعت الكيس الذي يحوي ثلاث قطع نقدية وثلاث حبات حمص وثلاث حبات فول أخضر والتي أعطتها إياه أمي لتبقيها آمنة. فمددت يدي إلى الكيس الذي لا أزال أضعه. وقد لا أكون واثقة بقدرته على حمايتي، ولكني لا أزال أضعه إلى جانب سوار اليشب كتذكار من أمي. وضعت ماي الخيط الجلدي حول رأس جوي، ودست الكيس داخل ملابسها.

وهمست قائلة: "ليبقيك آمنة أينما ذهبت".

بكت النساء الأعزبات لدى سماعهنّ كلماتها ورؤيتهنّ عملها ودعوها خالة طيبة، ولكننا كنا نعرف جميعاً أن هذه الهدية يجب أن تؤخذ من جوي كي لا تختنق.

عندما وصلت نساء البعثة التبشيرية رفضت أن أدعهن يأخذنني إلى مستشفى المركز. وقلت: "إن هذا مخالف للتقاليد الصينية. ولكن إن أرسلتن برقية إلى زوجي، فسأكون ممتنة لكن كثيراً".

كتبت رسالة قصيرة ومحددة جداً: *وصلت ماي وبول إلى جزيرة آينجل. أرسلوا مبلغاً من المال لنتمكن من السفر. ولد الطفل أحمر، نحلل الشهر الأول.*

في تلك الليلة، عادت النساء من العشاء ومعهن حساء الأمومة الخاص. وبالرغم من اعتراض النساء اللواتي يحتشدن حولي، شاركت الحساء مع أختي قائلة إنها قد عملت بجد مثلي. فهززن رؤوسهن باستهجان، ولكن ماي بحاجة إلى الحساء أكثر مني.

أصيب رئيس المجلس بارتباك شديد عندما رآني أدخل إلى جلسة استماعي الثانية مرتدية أحد أجمل فساتيني الحريرية، ومعتمرة قبعتي ذات الريش التي لا تزال الأوراق التعليمية التي درستها وماي بحرص مخبأة في حاشيتها، وتحدثت اللغة الإنكليزية بطلاقة، وحملت طفلة مزينة بالمصممات. أجبت عن كل سؤال إجابة صحيحة من دون تردد وأنا أعلم أن ماي تقوم بالشيء نفسه في الغرفة الأخرى. ومع ذلك، فلا أهمية لأعمالي وأعمال ماي مقارنة بأهمية مسألة زوجة التاجر والمواطن الأمركي. تُرى ما الذي سيفعله المسؤولون بهذه الطفلة؟ إن جزيرة آينجل جزء من الولايات المتحدة. ومع ذلك، فلا يتم الاعتراف بجنسية شخص ما لو وضعه إلى أن يغادر تلك الجزيرة. ومن الأسهل بالنسبة إلى المسؤولين أن يطلقوا سراحنا بدلاً من أن يتعاملوا مع المشاكل البيروقراطية التي يفرضها عليهم وضع جوي.

قدّم رئيس المجلس ملخصه الأخير في نهاية التحقيق، ولكنه بالكاد بدا مسروراً عندما وصل إلى ملخصه الختامي، فقال: "لقد تم تأجيل إحالة هذه القضية لأكثر من أربعة أشهر. وبينما بدا من الواضح أن هذه المرأة قد أمضت وقتاً قصيراً جداً مع زوجها، الذي تدعي أنه

مواطن أمركي، فقد أنجبت طفلتها في مركزنا. وبعد تشاور مطوّل، توصلنا إلى اتفاق على النقاط التامة، وهذا، فسأقر بالسماح للوي تشن تشي بدخول الولايات المتحدة بصفتها زوجة مواطن أمركي".

قال السيد وايت: "أنا موافق".

فقال الكاتب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوته: "وأنا موافق أيضاً".

عند الساعة الرابعة من عصر اليوم التالي، أتى الحارس واستدعى اسمين: لوي تشن تشي ولوي تشن تشي، اسمي واسم ماي بالزواج، وهما اسمان قديما الطراز. وأعلن بصوت مرتفع بعبارته المعهودة: "حظاً سعيداً". فسلمّ تسليمنا وثيقتي هويتينا وشهادة ميلاد أمركية من أجل جوي يذكر فيها أنها "صغيرة جداً بشكل يتعذر معه قياسها"، وهذا يعني أنهم لم يرهقوا أنفسهم بفحصها. وأملت أن تفيد هذه الكلمات في محو أي شكوك حول عمر جوي عندما يراها لوي العجوز وسام.

ساعدتنا النساء الأخريات على حزم أمتعتنا وبكت لي شي عندما ودّعتنا. خرجنا وأقفل الحارس باب المهجع خلفنا ثم تبعناه خارج المبنى وإلى آخر الممر ثم إلى الرصيف حيث أخذنا بقية أمتعتنا واستقللنا الباخرة التي ستنطلق بنا أخيراً إلى سان فرانسيسكو.

القسم الثاني

الحظ

حبة أرز واحدة

دفعنا أربعين دولاراً لنستقل باخرة عابرة إلى سان بيدرو. وخلال الرحلة، وبعد أن تعلمنا درساً قاسياً في جزيرة آينجل، تدرّبنا على القصص التي سنرويها عن سبب قدومنا للسفينة قبل كل تلك الأشهر وكم حاولنا جاهدتين أن نهرب من الصين لنذهب إلى زوجينا وكم كان التحقيق معنا صعباً. ولكننا اكتشفنا لاحقاً أنه يجب علينا ألا نروي أي قصص حقيقية أو ملفقة. إذ عندما لاقانا سام على الرصيف قال ببساطة: "لقد ظننا أنكما قتلتما".

لقد قابلنا بعضنا ثلاث مرات فقط: الأولى في تشاينا تاون القديمة، والثانية خلال زفافنا، والثالثة في اليوم الذي أعطاني فيه التذاكر وأوراق السفر الأخرى. وبعد أن تفوّه سام بجملته الوحيدة، حدّق إليّ بصمت وحدّقت إليه بصمت مماثل. ومشت ماي خلفنا أهوينا حاملة حقائبنا بينما غفت الطفلة بين ذراعيّ. لم أتوقع منه أي عناق أو قبلات، ولا أن يحترف بجوي بأسلوب مترف، فهذا غير ملائم. ومع ذلك، فلقاؤنا بعد كل هذه المدة بقي مبعث إحراج شديد.

ركبنا السيارة. فجلست وماي خلف سام وأنا أتفرّج على معالم المدينة. فرأيتها خالية من الأبنية العالية المبهرة كتلك التي في شنغهاي. في نهاية المطاف، رأيت برجاً أبيض إلى اليسار، وبعد بضعة مجمعات سكنية، أشار إلينا سام، فرأينا موقع بناء ضخماً ومجمعاً سكنياً طويلاً من الأبنية القرميدية ذات الطابقين، بعضها له لافتات باللغة الصينية.

وحين توقفت السيارة ترجلنا منها ومشينا، ثم انعطفنا حول المجمع السكني الذي كتب عليه شارع لوس ألطوس، وعبرنا الشارع، وطفنا حول الساحة، ومررنا بمركز الإطفاء، ثم انعطفنا يساراً إلى شارع سانشيز الذي يوجد على جانبيه صفان من الأبنية القرميدية الأخرى، وعبرنا باباً كتبت عليه عبارة مجمع غارلييه، ثم مشينا عبر ممر مظلم، وصعدنا درجاً خشبياً قذراً، ثم مشينا في ممر معتم تفوح منه روائح الطعام المطهي والحفاضات المتسخة. فتردد سام أمام باب الشقة التي يشاركها مع أبويه وأخيه فورد. والتفت إليّ وإلى ماي ورمقنا بنظرة فسّرتها على أنها دلالة على التعاطف، ثم فتح الباب ودخلنا.

إن أول شيء فاجأني هو شدة الفقر والاتساخ والتواضع التي يبدو عليها كل شيء. إن أثاث المنزل لا يتعدى أريكة مغطاة بقماش بلاستيكي ملطخ مسنودة إلى الجدار، وطاولة ذات ستة كراسي ليس لها شكل محدد أو تصميم موجودة وسط الغرفة. وإلى جانب الطاولة، هناك وعاء للبصق يبدو أنه لم يتم تفريغه منذ فترة ولم تكن هناك لوحات أو صور فوتوغرافية أو تقاويم معلقة على الجدران، وبدت النوافذ متسخة وخالية من الستائر. ورأيت من مكاني وقوفي خارج الباب الأمامي داخل المطبخ الذي لا يحوي أكثر من طاولة عليها بعض الأدوات وعراب لتبجيل أسلاف عائلة لوي.

هرعت إلينا امرأة قصيرة ومنتفخة القامة، شعرها مثبّت بالدبابيس على هيئة كعكة صغيرة عند الجزء الخلفي من عنقها، وصاحت بلغة الجي يوب: "أهلاً بكما! أهلاً بكما! لقد وصلتما!"، ثم نادت من فوق كتفها قائلة: "إنهما هنا! لقد وصلتا!"، ثم ضربت سام برسغها وقالت: "أحضر والدك وأخاك". وبينما مشى سام مسترخياً عبر الغرفة الرئيسة وإلى آخر القاعة، أعادت توجيه انتباهها إلينا، وقالت: "دعيني أمسك

الطفل! آه، دعيني أراه! آه! بن بن!"، وقصدت الجدة بلغة الجي يوب، ثم أضافت قائلة: "يمكنكما أن تناديانا بن بن أيضاً".

بدت حماتنا أكبر سناً مما توقعتُ على اعتبار أن فيرنون لا يزال في الرابعة عشرة من عمره. إذ إنها تبدو في أواخر العقد الخامس من عمرها، أي عجوزاً مقارنة بأمي التي توفيت في الثامنة والثلاثين من عمرها.

ثم صدر صوت صارم قائلاً بلغة الجي يوب أيضاً: "أنا وحدي سأرى الطفل. أعطيني إياه".

دخل لوي العجوز مرتدياً رداء طويلاً ويصحبه فون الذي لم يبدُ أكبر مما كان عليه عندما رأيناه آخر مرة. مرة أخرى، توقعت وماي أن يطرح علينا أسئلة عن المكان الذي كنا فيه وعن سبب تأخرنا في الوصول، ولكن الرجل العجوز لم يكن مهتماً بنا على الإطلاق. سلمته جوي ووضعها على الطاولة وفحصها. بدأت جوي بالصراخ بعد أن أزعجتها أصابعه وقسوة الطاولة على ظهرها.

عندما رأى لوي العجوز أنها فتاة تراجعت يداه إلى الخلف، وانعقدت ملامح وجهه من الاشمئزاز. وقال: "لم تكتبي لنا أن الطفل فتاة. كان ينبغي لك أن تخبرينا. فلم تكن لنعدّ وليمة لو عرفنا أنها فتاة".

قالت حماتي بسرعة: "إنها بالطبع بحاجة إلى حفل أول شهر، إذ إن كل طفل، وإن كان فتاة، بحاجة إلى حفل الشهر الأول، وعلى كل حال، فلا مجال للتراجع الآن لأن الجميع قادمون".

سألت ماي قائلة: "هل جهزتم لكل شيء مسبقاً؟".

فصاحت بن بن بسعادة قائلة: "الآن! لقد استغرقتما وقتاً للوصول من المرفأ أطول مما توقعنا. إن الجميع ينتظرون في المطعم".

فكرّرت ماي قائلة: "الآن؟".

"الآن!".

سألت ماي قائلة: "ألا ينبغي أن نغير ملابسنا؟".

صاح لوي العجوز قائلاً: "لا وقت لذلك. لستما بحاجة إلى شيء. فأنتما غير مهمتين إلى هذا الحد الآن. ولا حاجة إلى أن تحاولا بيع نفسيكما هنا".

لو أنني أتحلى بقدر أكبر من الجرأة، لكنت سألته لماذا يتعمد أن يكون وقحاً ولئيماً، ولكننا لم نمضِ في بيته أكثر من عشر دقائق.

قال لوي العجوز وهو يومئ إلى الطفلة: "إنها بحاجة إلى اسم".

فقلت له: "اسمها جوي".

صاح العجوز قائلاً: "ليس جيداً. إن اسم تشاو دي أو بان دي أفضل".

بدأ وجهي بالاحمرار من شدة الغضب. فهذا هو بالضبط ما حذرتنا منه المرأة في جزيرة آينجل. شعرت بيد سام على ظهري، ولكن إيماءة التعاطف تلك جعلت موجة من القلق تسري في جسدي. فخطوتُ بعيداً عن متناول يده.

عندما شعرت ماي بأن هناك خطأً ما سألتني بلهجة الوو: "ماذا يقول؟".

"يريد أن يسمي جوي أحد اسمين معناهما *تريد أخاً* أو *تتمنى أخاً*".

فضاقت عينا ماي.

أعلن لوي العجوز قائلاً: "لن تتحدثا لغة سرية في بيتي. يجب أن أفهم كل ما تقولانه".

فشرحت له قائلة: "إن ماي لا تفهم لغة الجي يوب". ولكنني في أعماقي اشمأززت من اقتراحه هذا الاسم لجوي التي ملأت صرخاتها الصمت المشحون المحيط بنا.

قال مؤكداً على كلامه بالخبط بقوة على الطاولة: "فقط لغة الجي يوب. إن سمعتكما تتحدثان لغة أخرى، حتى الإنكليزية، فسترعجانني كثيراً. هل فهمتما؟".

لم يبس لوي رجلاً طويلاً أو ضخم البنية، ولكنه وقف وقدماه راسختان على الأرض وكأنه يهدد أياً منا أن تتحداه، ولكني وماي حديدتان هنا. توجّهت بن بن إلى الجدار محاولة على ما يبدو أن تجعل من نفسها غير مرئية. ولم يتفوه سام بكلمة واحدة بينما وقف فيرنون جانباً وهو يتوازن بقلق على إحدى قدميه ثم على الأخرى.

أمر لوي العجوز قائلاً: "ألبس بان دي. وأنتما الاثنتان مشطا شعركما. وأريدكما أن تضعا هذه". مدّ يديه إلى جيبه العميقين، وأخرج أربعة أساور ذهبية للزفاف.

أمسك بيدي، ووضع سواراً ذهبياً صلباً يبلغ عرضه ثلاث بوصات حول رسغي. ثم وضع سواراً آخر حول الرسغ الآخر ودفع سوار أمي الخشونة بعيداً. وبينما وضع سواري ماي في مكانهما، نظرت إلى سواري، فرأيت أنهما سوارا زفاف جميلان وتقليديان وباهظا الثمن جداً، ووجدت فيهما دليلاً مادياً على الثروة التي توقعتها. وهكذا، إن تمكنت وماي من العثور على محلّ لرهن الجوهرات، فيمكننا عندئذ أن نستخدم المال من أجل...

صاح لوي العجوز بغضب قائلاً: "لا تقوما بمجرد الوقوف في مكانيكما. افعلا شيئاً لتمنع هذه الفتاة من البكاء. لقد حان وقت الذهاب". ثم نظر إلينا باشمئزاز وقال: "دعونا ننهي هذا الأمر".

في غضون خمس عشرة دقيقة انعطفنا حول ناصية الشارع وعبرنا شارع لوس أنجلوس، وصعدنا درجاً ثمّ دخلنا مطعم غولدن دراغون لحضور

حفل بقسوم مقام وليمة الزفاف وحفل الشهر الأول. رأينا أطباقاً من البيض المسلوق المطلي باللون الأحمر ليرمز إلى الخصوبة والسعادة على طاولة عند المدخل وأشعار الزفاف معلقة على الجدران. ورأينا أطباقاً من شرائح الكعك الزنجبيل لترمز إلى استمرار بناء طاقتي بعد مجهود الولادة على كل طاولة. وبالرغم من ذلك، ظلت الوليمة، مع أنها ليست مترفة كما تخيلتها في أيامي الرومانسية في شقة زي حي تي، أفضل وجبة حظينا بها منذ أشهر، وهي مكونة من طبق بارد من السمك الهلامي، والدجاج المطهي بصلصة الصويا، وشرائح الكلى، وحساء أعشاش الطيور، وسمكة كبيرة مشوية، وبط، ومعكرونة، وقريدس، وجوز، ولكنني وماي لم نبدأ بتناول الطعام.

أخذتنا بن بن حاملة حفيدتها الجديدة من طاولة إلى أخرى لتقدمنا إلى الضيوف وكان أغلبهم من عائلة لوي ويتحدثون جميعاً لغة الحي يوب.

قالت لجوي: "هذا عمك ويلبرت، وهذا عمك تشارلي وهذا عمك إيدغرد".

إن هؤلاء الرجال الذين يرتدون بذلات متشابهة مصنوعة من قماش رخيص هم إخوة سام وفرن. ترى أهذه هي الأسماء التي أطلقت عليهم عندما ولدوا؟ هذا ليس معقولاً. فلا بد من أنها الأسماء التي اتخذوها ليبدوا كأمركيين بالضبط كما فعلت وماي وتومي وزي حي لي عندما اتخذنا أسماء غربية تبدو أكثر رقياً في شفاهنا.

بسبب مضي فترة على زواجي وماي، دار المزاح حول جوي بدلاً من المزاح الاعتيادي حول العرسان.

قال العم ويلبرت بلغة إنكليزية ركيكة: "لقد أتيت هذه الطفلة سريعاً، يا بيرلا؟"، فتذكّرت من المعلومات التي قرأتها في الأوراق

التعليمية أنه يبلغ الحادية والثلاثين من عمره، ولكنه يبدو أكبر بكثير. وأضاف: "لقد ولدت هذه الطفلة قبل موعدها بأسابيع!".

قال إيدغرد، وهو في السابعة والعشرين من عمره ولكنه يبدو أصغر: "إن جوي كبيرة بالنسبة إلى سنها! نحن نجيد العد، يا بيرلا!".

أضاف تشارلي قائلاً: "سيمنحك سام ابناً في المرة القادمة!". يبلغ تشارلي الثلاثين من عمره، ولكن من الصعب أن أحدد ذلك لأن عينيه متورمتان ومحمرّتان ودامعتان بسبب إصابته بالحساسية. فقال: "ستنجبين الطفل القادم في وقت أبكر من هذه الطفلة!".

وبّختهم بن بن قائلة: "يا رجال عائلة لوي، كفاكم! أتظنون أنكم تجيدون العد جيداً؟ يجب أن تعدوا الأيام التي أمضتها كنتاي وهما قريبان من حيش القردة. أتظنون أنكم تواجهون المصاعب هنا؟ هراء! إن الطفلة محظوظة لأنها ولدت أساساً! إنها محظوظة لأنها على قيد الحياة!".

قمتُ وماي بصب الشاي لكل ضيف، وتلقينا هدايا الزفاف، وهي عبارة عن مغلفات حمراء مزينة بالأحرف الذهبية ومليئة بالنقود التي ستكون لنا وحدنا والمزيد من الذهب على شكل أقراط ودبابيس شعر وخواتم وأساور كافية تصل إلى مرفقينا. وشعرت أنني بالكاد أطيق الانتظار حتى نصبح وحدنا وذلك لنعد النقود التي ستعيننا على الهرب وإيجاد طريقة لبيع المجوهرات.

لا بد من تبادل بعض التعليقات المعتادة عن جوي لأنها فتاة، ولكن معظم الناس يسرون لرؤية طفل حديث الولادة، أيّاً كان جنسه. وعندئذ أدركت أن معظم الضيوف هم من الرجال مع عدد قليل من الزوجات ومن دون أي أطفال تقريباً. وشيئاً فشيئاً اتضح كل ما مررنا به في جزيرة آنجل في ذهني. وأدركتُ أن الحكومة الأميركية تبذل كل

ما في وسعها لتمنع الرجال الصينيين من دخول البلاد، مما يجعل دخول النساء الصينيات أمراً صعباً حقاً. وفي العديد من الولايات، يحظر القانون على الصينيين الزواج من القوقازيين، وكل هذا يصب في مصلحة الولايات المتحدة، وهي التقليل من عدد النساء الصينيات على الأراضي الأميركية. وهكذا، لن يولد الأبناء والبنات، وبالتالي، سيوفر هذا الأمر على البلاد قبول مواطنين من أصول صينية غير مرغوب فيهم.

ودّ الرجال الخالدون جميعاً أن يحملوا جوي، وبعضهم بكوا عندما أمسكوها بين أيديهم، فتفحّصوا أصابع يديها وقدميها. ولم يسعني أن أمنع نفسي من الشعور بالتألق من موقعي الجديد كأم. إنني سعيدة. فقد نجونا ووصلنا إلى هنا بسلام. وبالرغم من خيبة أمل لوي العجوز من جوي، ولن أناديها بان دي ولو بعد ألف عام، فقد حظينا بهذا الحفل وهذا الترحيب. ألقيت نظرة خاطفة إلى ماي آملة أن تكون شاعرةً بما أشعر به. ولكن أختي، حتى وهي تؤدي واجبات العروس الجديدة، بدت كئيبة ومنطوية على نفسها. فشعرت بقلبي ينقبض. كم يبدو هذا الوضع كله قاسياً عليها! ولكنها لم تدفعني في غرية لأسأل وتعتني بي لتعيد إليّ صحتي من خلال تصرفها هذا الضعف. فلا بد أن أختي قد عثرت نوعاً ما على طريقة تساعدها على المضي قدماً.

تذكّرت ما حدث في جزيرة آينجل قبل أن تولد الطفلة، وحديثي مع ماي عن أهمية حساء الأمهات الخاص وأنه ينبغي لنا أن نسأل شخصاً ما أن يحرص على أن يعده الطهاة من أجلنا. فلقد قررت ماي أن تتناوله بالرغم من علمها أنه يسبب إدرار الحليب، وهكذا، فقد شاركتني تناوله. وعندما أصبح عمر جوي ثلاثة أيام، ذهبت ماي إلى

الحمام ولم تعد. فتركت الطفلة مع لي شي وذهبت إلى أختي. إذ تملكني خوف شديد مما قد تفعله ماي إن تُركت وحدها. فوجدتها في الحمام تبكي ليس من الحزن ولكن من الألم في ثدييها. فقالت لي وهي تبكي: "إنه أسوأ من ألم الولادة". نعم، لقد تقلص رحمها وبدت وكأنها لم تحمل طفلاً قط، ولكن ثدييها كانا متورّمين وقاسيين كالحجر بسبب الحليب المتجمع فيهما. فساعدتها غسلهما بالمياه الدافئة على إخراج الحليب.

قد يقول بعضهم إنني تصرفت بغباء شديد عندما سمحت لها أن تأكل من الحساء الذي يسبب إدرار الحليب، ولكننا لم نكن نعرف شيئاً عن إنجاب الأطفال، أو ما يكفي عن الحليب، أو الألم الذي يتسبب به.

راقبت ماي وهي تصب الشاي على طاولة كان يجلس حولها رجال عازبون وتأخذ المغلفات الحمراء وتدسها في جيبها. فقام الرجال بواجبهم ومازحوها وألفاظوها وسخروا منها، بينما كانت تبذل ما في وسعها لترسم ابتسامة على وجهها.

صاح ويليرت بسخرية عندما عبرنا حول طاولة الأعمام عمداً: "سيحين دورك تالياً، يا ماي".

ووعدها إيدغر قائلاً: "ستنجبين الحفيد الذي يتمناه والدنا. وعندئذ ستصبحين المفضلة لديه".

فابتسمّت إليهم بن بن ضاحكة، ولكن قبل أن ننتقل إلى الطاولة التالية، سلّمتني جوي، ثم تأبّطت ذراع ماي، وبدأت بالمشي وهي تكرّر بشيء جعل بلغة الهي يوب قائلةً: "لا تدعي هؤلاء الرجال يزعجونك، فهم مشتاقون إلى زوجاتهم في الديار، وبعضهم مشتاقون إلى زوجات ليس لديهم أصلاً! لقد أتيت إلى هنا مع أختك وساعدت على إحضار

هذه الطفلة بأمان إليبا. يا لك من فتاة شجاعة!"، وقفت بن بن في الممر وانتظرتني إلى أن أكملتُ الترجمة. وعندما وصلت إلى النهاية، أخذت يد ماي بيدها، وقالت: "إنك تستطيعين أن تتحرري من شيء واحد، ولكن هذا يضعك في موقف صعب في أمور أخرى. هل تفهمين ما أقوله؟".

كان الوقت متأخراً عندما عدنا إلى الشقة. فشعرنا جميعاً بالتعب، ولكن لوي العجوز لم ينته منا بعد.

فقال: "أعطياني مجوهراتكما".

أصابتني الصدمة من سماع طلبه. إذ إن ذهب العرس ملك للعروس وحدها. إنه الكنز السري الذي تستطيع أن تأخذه لتشتري لنفسها هدية مميزة من دون سماع نقد زوجها، أو أن تستخدمه في أوقات الطوارئ كما فعلت أمنا عندما خسر أبونا كل شيء. وقبل أن أعترض، قالت ماي: "إن هذه الأشياء ملك لنا، والجميع يعرفون ذلك".

فأكّد لها قائلاً: "أظن أنك مخطئة. فأنا عمك. وأنا السيد هنا". مثلما يسعنا أن نرد عليه. فإن قال إنه لا يثق بنا، فهو على حق. وإن اقتنع بأننا نريد أن نستخدم الذهب لنجد طريقة للهرب من هنا، فهو على حق أيضاً، ولكنه بدلاً من ذلك أضاف قائلاً: "هل تظنين أنك وأختك، بالرغم من ذكاء أسلوب حيالكما الذي اعتمدتما عليه في شنغهاي، ستعرفان أين ستذهبان الليلة مع هذه الطفلة؟ هل ستعرفان أين ستذهبان غداً؟ لقد دمرتكما دماء أبيكما إلى الأبد، ولهذا السبب استطعت أن أشتريكما بثمن بخس، ولكن هذا لا يعني أنني راغب في خسارة بضاعتي بهذه السهولة".

توجّهت أنظار ماي نحوي. فأنا الأخت الكبرى ويفترض أن أعرف ماذا يجدر بنا أن أفعل، ولكنني شعرت بحيرة شديدة مما رأيته

وسمعته. لم يسأل أحد منهم لمرة واحدة لماذا لم نلتقِ بهم في هونغ كونغ في الموعد المحدد، أو يستفسر عما عانيناه، وكيف نجونا، أو كيف وصلنا إلى أميركا، إذ إن كل ما يهتم به لوي العجوز وبن بن هو الطفلة والمجوهرات. أما فيرنون، فكان يعيش في عالم خاص به بينما كان يبدو سام بعيداً بشكل غريب عن علاقات أسرته. وقد بدا عليهم جميعاً أنهم غير مهتمين بنا من أي ناحية، ومع ذلك شعرنا بأننا محكمتان عالقتان في شبكة صيد السمك وليس هنالك من مهرب لنا، كما لاحظت، ليس بعد على الأقل.

تركنا الرجل العجوز يأخذ مجوهراتنا، ولكنه لم يطلب المال المخبأ في ملابسنا. إذ ربما شعر بأن هذا كثير جداً، ولكنني لم أشعر بأي انتصار. واستطعت أن ألاحظ أن ماي لم تكن تشعر بذلك أيضاً لأنها وقفت وسط الغرفة وقد بدت مهزومة وحزينة ووحيدة جداً.

أخذ كل واحد دوره في دخول الحمام، وأوى لوي العجوز وبن بن إلى الفراش أولاً. حدّقت ماي إلى فيرن الذي كان يتسلى بشد أطراف شعره. وعندما غادر الغرفة تبعته.

سألت سام: "هل هناك مكان للطفلة؟".

فمدّ ذقنه وزفر قائلاً: "لقد حضرت بن بن شيئاً، كما آمل".

تبعته على طول القاعة المظلمة، ودخلنا غرفة خالية من النوافذ، فوجدت مصباحاً واحداً معلقاً وسط السقف، واحتلّ السرير ومرآة الزينة معظم المكان. رأيت الدُّرج الأوسط مفتوحاً ومحشواً ببطانية ناعمة لتنام فيه جوي، فمدّدتها ونظرت حولي، ولكنني لم أجد خزانة بل زاوية علقت عليها قطعة قماش لتمنح بعض الخصوصية.

فسألته قائلة: "أين ملابسي؟ تلك التي أخذتها والدتك قبل أن أتزوج؟".

حدّق سام إلى الأرض. وقال: "إننا في الحي الصيني. سأصطحبك إليه غداً. وربما يسمح لك بأخذ بعض الأغراض".

ولكنني لم أكن أعرف ما هو الحي الصيني، ولم أفهم ما كان يقصده بالسماح لي بالحصول على ملابسي لأن تفكيري منصب على شيء آخر مختلف كلياً. إذ يجب عليّ أن أنام في السرير مع رجل هو زوجي. وشعرت أنني نسيت خلال تخطيطي مع ماي أن أفكر في هذا الجزء. وقفت وسط الغرفة مسمرة مكاني كما فعلت ماي قبل قليل.

حتى في هذا المكان الضيق، بدا سام منشغلاً بأموره الخاصة، ففتح مرطباناً يحوي شيئاً ذا رائحة حادة، وركع على ركبتيه ويديه، وصبّه في أربع علب معدنية محشورة تحت السرير. وعندما أنهى عمله، جلس القرفصاء وأغلق المرطبان ثم قال: "إنني أستخدم الكيروسين لأحول دون ظهور بق الفراش".

بق الفراش!

خلع قميصه ونزع حزامه وعلّقهما على خطاف خلف الستارة، ثم جلس على طرف السرير، وحدّق إلى الأرض. وبعد فترة بدت لي طويلة، قال: "إنني آسف بشأن ما حدث اليوم". وبعد عدة دقائق، أضاف قائلاً: "إنني آسف بشأن كل شيء".

تذكّرت كم كنت جريئة ليلة زفافي. فقد كنت امرأة مغامرة ومتهورة كالجاريات من العصور الغابرة، ولكن تلك الجارية انهزمت في كوخ في مكان ما بين شنغهاي وقناة غراند.

وأخيراً تمكّنت من القول: "إن الوقت مبكر جداً بعد ولادة الطفلة".

نظر سام إليّ بتلك العينين الداكنتين الحزينتين وقال: "أعتقد أنك ستفضلين النوم على طرف السرير الأقرب إلى جوي".

وحالما دس نفسه تحت الأغطية، سحبت الخيط لأطفئ الضوء. وخلعتُ حذائي، وتمددت فوق الملاءة، وأنا أشعر بالامتنان لأن سام لم يحاول أن يفعل أكثر من ذلك. وبعد أن غطّ في النوم، مددتُ يدي إلى جوي وتحسّست النقود.

*

ما أول انطباع تشكله المرأة حيال انتقالها إلى مكان جديد؟ هل تفكر في الوجبة الأولى التي ستأكلها؟ أم في المرة الأولى التي ستتناول فيها المثلجات؟ أم في أول شخص ستقابله؟ أم في أول ليلة ستمضيها في سريرها الجديد في بيتها الجديد؟ أم في أول وعد لم يوفَ به؟ أم في أول مرة تدرك فيها أن لا أحد يعدّها أكثر من مجرد أم للأبناء؟ أم في معرفتها أن حمويها فقراء جداً بحيث إنهم لا يمنحونها أكثر من دولار واحد كهدية زفافها وكأن ذلك يكفي ليمنحها كنزاً سرياً يبقى مدى الحياة؟ أم في إدراكها أن عمها، وهو رجل ولد في هذه البلاد، قد بقي معزولاً في الأحياء الصينية طوال حياته وأنه يتحدث أسوأ لغة إنكليزية على الإطلاق؟ أم في اللحظة التي ستفهم فيها أن كل شيء تعتقده حيال ثراء عائلة زوجها ومنزلتها ورخائها خطأ ككل شيء اعتقدته حيال عائلتها الأصلية وثروتها ومكانتها؟

لكن ما لازمني أكثر من كل شيء هو مشاعر الخسارة وعدم الاستقرار والقلق والاشتياق إلى الماضي. إنها المشاعر التي لم أستطع فقدها أبداً، ولكن السبب تعدّى شعوري وأختي أننا حديثتان في هذه البلاد الغريبة والأجنبية بل إدراكنا أن كل شخص في الحي الصيني مجرد لاجئ، إذ لا يحضر كل شخص هنا من رجال الجيل الذهبي، ثرياً فوق الشعور، ولا حتى لوي العجوز. لقد علمت عن مشروعاته التجارية، وقيمة تجارته في جزيرة آنجل، ولكنني أدركتُ الآن أنها لا

تحسّن شيئاً في مكان جميع قاطنيه فقراء. لقد فقد الناس وظائفهم خلال فترة الركود الاقتصادي. أما أولئك المحظوظون بوجود عائلاتهم، فقد أرسلوهم إلى الصين لأن إعالتهم هناك أقل كلفة من إطعامهم وإيوائهم هنا. وعندما هاجم اليابانيون البلاد، عادوا إلى أمريكا، ولكنهم لم يجنوا أي مبالغ مالية جديدة. وأصبحت الأوضاع أكثر تشنجاً واضطراباً من السابق، أو إن ذلك ما قيل لي.

قبل خمس سنوات، أي في العام 1933، تم هدم معظم الحي الصيني لإفساح المجال أمام بناء محطة سكة حديدية جديدة في موقع البناء الضخم ذاك الذي رأيناه عندما أحضرنا سام إلى هنا بالسيارة. فمُنح الناس مهلة أربع وعشرين ساعة للانتقال، وهي أقل بكثير من المهلة التي أتيحت لي ولماي لنغادر شنغهاي، ولكن إلى أين بوسعهم الذهاب؟ فالقانون لا يسمح للصينيين بامتلاك العقارات، كما أن معظم أصحاب البيوت لا يؤجرون بيوتهم للصينيين، ولهذا، ينحشر الناس في غرف ضيقة في آخر الأبنية المتبقية من الحي الصيني الأصلي حيث نعيش، أو في حي سوق المدينة الصيني. إن الجميع، بمن فيهم أنسا، كانوا يفتقدون إلى عائلاتهم في الصين، ولكني عندما علّقت الصور التي أحضرتها وماي على جدار غرفة نومي، صاحت بن بن في وجهي قائلة: "أيتها الفتاة الغبية! هل تريدين أن تعرضينا للمتاعب؟ ماذا سيحدث إن أتى مفتشو الهجرة إلى هنا؟ كيف ستشرحين لهم من هؤلاء الناس؟".

قلت لها: "إنهما والداي، وهذه ماي وأنا عندما كنا صغيرتين، وليس هذا سراً".

"إن كل الأمور تظل طي الكتمان هنا. هل تريننا نعلّق صوراً لأحد في بيتنا؟ والآن، انتزعي هذه الصور قبل أن أرميها".

هذا هو صباحي الأول. وسرعان ما اكتشفت أني، وبالرغم من وجودي على أرض جديدة، أشعر بأنني من نواحٍ كثيرة قد خطوت خطوة عملاقة نحو الماضي.

تتألف الكلمة المستعملة في لهجة كانتون بمعنى الزوجة من مقطعين، أحدهما يعني امرأة والثاني يعني مكنسة. لقد كان لدينا خدم في شنغهاي، ولكني حينها أصبحت الخادمة. ولماذا أنا فقط؟ لا أعرف. فربما يكون السبب هو أنني أنجبت طفلة، وربما لأن ماي لم تفهم ما كانت تقوله بن بن عندما كانت تأمرها أن تفعل شيئاً ما بلغة الحي سيوب، أو ربما لأن ماي لم تكن حاملة بشكل دائم من أن يُكتشف أمرنا فنتعرض للتحري، هي لأنها أنجبت طفلة ليست من زوجها، وأنا لعدم قدرتي على إنجاب الأطفال على الإطلاق، وأننا سنطرد إلى الشارع. وهكذا، ففي صباح كل يوم، وبعد أن يذهب فيرن من أجل حضور دروس الصف التاسع في مدرسة جونيور المركزية الثانوية، وتذهب ماي وسام والرجل العجوز إلى تشاينا تاون، أبقى أنا في الشقة لأغسل اللاءات والملابس الداخلية وحفاضات جوي وملابس الأعمام المتعرقة، بالإضافة إلى ملابس العراب الذين كانوا يقيمون لدينا بين الحين والآخر. وبالإضافة إلى ذلك، كنتُ أفرغ وعاء البصق، وأضع علباً إضافية لقشور بذور البطيخ التي كان يأكلها أهل زوجي، وأغسل الأرضيات والنوافذ.

وبينما كانت بن بن تعلمني كيفية إعداد الحساء وصلصة الصويا، أو تحضير وعاء من الأرز ووضع طبقة من الرغوة فوقه ورش صلصة الصويا لإعطاء النكهة، كانت أختي تلعب للاستكشاف. وبينما كنتُ أقوم وبن بن بكسر قشور الجوز لنبيعها في المطاعم، أو بمسح حوض الاستحمام الذي كان يتركه عمي بعد نقع نفسه يومياً، كانت أختي

تقابل الناس. وبينما كانت حماتي تعلّمني كيف أكون زوجة وأمّ، وهي مهمّـــة تقـــوم بهـــا بمزيج من الإحباط وعدم الكفاءة والمزاج الحسن والحماية الضارية، كانت أختي تعلّم مكان وجود كل شيء.

بالرغم من أن سام قال لي إنه سيصطحبني إلى تشاينا تاون، وهي مكـــان جذب سياحي مبني على بعد مجمعين سكنيين من هنا، فإنني لم أذهـــب إليها بعد. أما ماي فكانت تذهب إلى هناك كل يوم لتساعد علـــى تجهيـــز الأشياء من أجل الافتتاح الكبير. وقالت لي إنني سأعمل قـــريباً في المقهى وفرن الأثريات ومتجر التحف أو غيرها من الأماكن الـــتي قال لنا عنها لوي العجوز. كنت أصغي إليها بشيء من الملل وأنا أعلم أنني لا أملك أي خيار في اختيار المكان الذي سأعمل فيه ولكنني ســـأكون ممتنة لأنني لن أقوم بالمزيد من العمل اليدوي مع بن بن: مثل حزم الكرات في مجموعات، وفصل الفراولة حسب حجمها ونوعيتها، وكسر قشور الجوز اللعين إلى أن تتقطع أصابعي وتتكسر أظفاري، أو زرع الفـــول في الحوض بين حمامات العجوز، وهذا عمل مقرف فعلاً. وبيـــنما كنت أمكث مع حماتي وجوي في البيت، كانت أختي تعود في نهايـــة اليوم وتروي لنا قصصاً عن الأشخاص الذين قابلتهم في يومها. وعـــندما كانت تنقب في صناديق ملابسنا في تشاينا تاون، كانت تصر علـــى إحضار ملابس صينية تقليدية بالرغم من أننا قد اتفقنا أن نرتدي ملابس أميركية، فتختار أجمل الملابس لنفسها، ولكن هذا ما كان يجب أن يحـــدث. إذ قالت بن بن: "لقد أصبحت أماً الآن، ولكن أختك لم تمنح ولدي ابناً بعد".

كـــل يوم، كانت ماي تأتي لتقص عليّ قصصاً عن المغامرات التي خاضتها وخدعها أحمر ان من الهواء المنعش، ووجهها متألق من السعادة. إنني الأخت الكبرى، ولكنني كنتُ أعاني من مرض العين الخضراء، وهو

الحســـد. فطالما كنت أول من تكتشف الأشياء الجديدة، ولكن ماي هـــي التي أصبحت تخبرني عن المتاجر والأشياء الممتعة التي يتم التخطيط لهـــا في تشاينا تاون. فأخبرتني أن الكثير منها قد بني من مناظر الأفلام المستعملة، وكانت تصفها لي بالتفصيل المملّ بحيث إنني أصبحتُ واثقة مـــن أنـــني ســـأميزها على الفور وأعرف قصصها حالما أراها في نهاية المطـــاف. وبالرغم من كل شيء، أزعجني أن تنال هي كل المتعة بينما تـــوجّب علـــيّ أن أبقى مع حماتي وجوي في الشقة الكئيبة فيما يجعلني الغبار المتطاير في الجو أشعر وكأنني أكاد أختنق وأصاب بالدوار. فقلت لنفسي إن هذا الوضع كله مؤقت كما كانت إقامتنا في جزيرة أينجل مؤقتة وإننا قريباً وبطريقة ما سنلوذ بالفرار من هذا المكان.

في تلـــك الأثناء، واصل لوي العجوز معاقبتي على إنجاب ابنة من خـــلال تجاهله لي. وظل سام يجوب المنـــزل بتعبير كئيب على وجهه لأنـــني رفضت أن يقترب مني. إذ كلما حاول فعل ذلك، كنت أطوي ذراعـــي وأقرّب مرفقي من بعضهما. وهذا ما جعله يبتعد عني وكأنني جـــرحته في الصميم ويحجم عن التحدث إليّ. وإذ تحدث استخدم لغة الـــوو التي يتحدث الناس بها في الشوارع وكأنني أقل منه فهماً. فكانت بـــن بن ترد على تعاستي وإحباطي الواضحين بدرس عن الزواج قائلة: "يجب أن تعتادي على ذلك".

في بداية شهر آيار، وبعد مضي أسبوعين على إقامتنا في منـــزلنا الروحـــي، طلبت أختي من بن بن الإذن لتأخذني وجوي في نـــزهة، فـــسمحت لنا بذلك. وعندما خرجنا، قالت ماي وهي تشير إلى أحد الاتجاهـــات: "عبر الساحة يقع شارع أولفيرا حيث يملك المكسيكيون متاجر صغيرة للسياح، وتقع خلفه تشاينا تاون. ومن هناك، إذا مشيت إلى بـــرودواي وانعطفت إلى الشمال، فستشعرين بأنك دخلت بطاقة

بريدية إيطالية. فالسحق معلق على الواقف... وآه، يا بول، إن المكان أجنبي وغريب ويذكر بالروس البيض الذين كانوا يعيشون في منطقة الاستعمارات الفرنسية". وتوقفت قليلاً عن الكلام ثم ضحكت من نفسها قائلة: "لقد كدت أنسى. هناك منطقة استعمارات فرنسية هنا أيضاً. ويدعونها فرانش تاون. وتقع في شارع هيل الذي يبعد مسافة مجمع سكنيّ واحد عن برودواي. لديهم هناك مستشفى فرنسي ومقاهٍ و... دعينا من كل ذلك الآن. لنتحدث فقط عن برودواي. إن انعطفت جنوباً في برودواي، فستصلين إلى دور السينما الأميركية والمتاجر الضخمة. وإن انعطفت شمالاً عبر إيطاليا الصغيرة، فستصلين إلى تشاينا تاون قيد الإنشاء. إنها تدعى حالياً نيو تشاينا تاون. سأصطحبك إلى هناك إن رغبت في ذلك".

ولكنني لم أكن أشعر برغبة في الذهاب إلى هناك.

أوضحت لي ماي في الأسبوع التالي عندما أعطتني وجوي في جولة حول البناء مجدداً قائلة: "إن هذا المكان مختلف عن شنغهاي، حيث يتم تصنيف الناس حسب العرق والثروة والنفوذ. ولكنهم مع ذلك يستطيعون أن يروا بعضهم كل يوم. لقد كنا نمشي في الشوارع معاً حتى لو كنا لا نرتاد النوادي الليلية نفسها. أما هنا، فكل عرق من الأعراق معزول عن الأعراق الأخرى: كاليابانيين والمكسيكيين والإيطاليين وذوي البشرة السوداء والصينيين. إن الناس البيض موجودون في كل مكان، ولكن الأعراق الأخرى تحتل أسفل السلم الاجتماعي، وكل واحد منها يريد أن يكون متميزاً عن جاره وكأنه حبة أرز واحدة. تذكري كم كان من المهم في شنغهاي بالنسبة إلى المرء أن يعرف اللغة الإنكليزية، وكم كان الناس يفخرون بلهجتهم الأميركية أو البريطانية! إن التفريق بين الناس هنا يتم حسب لهجتهم الصينية وطلاقتهم بها والمكان الذي

تعلموها فيه. هل تعلموها في إحدى المدارس التبشيرية هنا في تشاينا تاون أم هل تعلموها في الصين؟ أتعرفين الفرق بين متحدثي لهجتي الصي يوب والسام يوب؟ إن أحدهم لا يتحدث إلى الآخر ولا يتعامل معه. وإن لم يكن ذلك كافياً، فالصينيون المولودون في أميركا يتكبرون على أمثالنا ويدعوننا حديثي النعمة ومتخلفين. أما نحن، فنتكبر عليهم لأننا ندرك أن الثقافة الأميركية ليست عريقة كالثقافة الصينية. ويلتزم الناس بعضهم حسب اسم العائلة أيضاً. فإن كان المرء من عائلة لوي يجب عليه أن يشتري بضاعته من عائلة لوي حتى لو توجب عليه أن يدفع خمسة سنتات إضافية على السعر الأصلي، إن الجميع يدركون أن الأميركيين لا فائدة ترجى منهم، ولكن حتى أفراد العائلات الصينية الأخرى يرفضون تقديم المساعدة لفرد ليس من عائلتهم".

مشينا إلى محطة البنزين مع أننا لم نلتق بعد بشخص يمتلك سيارة، ومررنا بمشرب جوي جوينت وهو مشرب يبيع الطعام الصيني ويتمتع بجو صيني، ولكن مالكيه ليسوا من الصين. اكتشفنا أن كل عقار غير تجاري أشبه بالفندق من بعض النواحي، فالشقق الصغيرة، كشقتنا التي نعيش فيها، تؤجر غرفها للعائلات، بينما تؤجر البيوت مقابل بضعة دولارات في الشهر للعمال الصينيين العزاب مثل الأعمام. وهناك الغرف التي تؤجرها البعثات التبشيرية للرجال ذوي الحظ السيئ حيث يستطيعون أن يناموا ويتناولوا طعاماً ويكسبوا بضعة دولارات في الشهر مقابل ترتيب المكان والاعتناء به.

بعد مرور شهر على تلك الجولات حول المجمع، رافقتني ماي إلى الساحة وقالت: "لقد كانت هذه الساحة قلب المستوطنة الإسبانية الأصلية. هل كان هناك إسبان في شنغهاي؟ لا أتذكر أنني قابلت أحدهم".

لم تسنح لي ماي فرصة للإجابة لأن اهتمامها منصب على أن تريني شارع أولفوا الذي يقع مقابل شارع سانشيز على الطرف المقابل من الساحة. ولم أشعر برغبة ملحة في رؤيته، ولكن بعد عدة أيام من تذمرها وإصرارها، عبرت ذلك المكان المكشوف معها، وغامرت بدخول طريق المشاة المليء بالأكشاك الملونة المصنوعة من الخشب الرقيق والتي تعرض القمصان القطنية المطرزة ومنافض السجائر الطينية الثقيلة والصاصات التي تشبه القمم المتدفقة. ورأينا بعض الناس كانوا يرتدون الملابس المحترمة ويصنعون الشمع وينفخون الزجاج ويطرقون نعالاً للصنادل، بينما كان بعضهم الآخر يغنون ويعزفون على الآلات الموسيقية.

سألت ماي قائلة: "أهذا هو أسلوب حياة الناس في المكسيك فعلاً؟".

لا أعرف إن كان ذلك المكان يشبه المكسيك على الإطلاق، ولكنه مبهج ونابض بالحياة مقارنة بشقتنا القذرة. فقلت لها: "ليست لديّ أي فكرة. ربما يكون كذلك".

"حسناً، إن كنت تظنين أن هذا ممتع وظريف، فانتظري حتى تشاهدي تشاينا تاون".

توقفت ماي فجأة وسط الشارع وقالت: "انظري هذه كريستين ستيرلينغ". وأشارت إلى سيدة عجوز بيضاء ترتدي ملابس أنيقة جالسة على شرفة بيت بدا مصنوعاً من الطين. ثم قالت: "لقد طورت شارع أولفيرا. وسمعت وراء بناء تشاينا تاون أيضاً. إن الجميع يقولون إنها تملك قلباً كبيراً. ويقولون إنها تريد أن تساعد المكسيكيين والصينيين حتى يحظوا بمتاجرهم الخاصة خلال هذه الأوقات العصيبة. لقد أتت إلى لوس أنجلوس من دون أي شيء كما فعلنا نحن تماماً، ولكنها الآن على وشك أن تبني مكانين لجذب السياح".

وصلنا إلى نهاية المجمع السكني. فرأينا مجموعة من السيارات الأميركية تسير وتطلق أبواقها. وفي الطرف المقابل لشارع ماسي، رأيت السور المحيط بتشاينا تاون.

اقترحت ماي قائلة: "سآخذك إلى هناك، إن أردت ذلك. وكل ما يجب عليك فعله هو عبور الشارع".

فهززت رأسي قائلة: "ربما في وقت آخر".

وبينما كنا نمشي عبر شارع أولفيرا، لوّحت ماي إلى مالكي المتاجر وابتسمت لهم، لكنهم لم يردّوا عليها بالمثل.

وبينما عملت ماي مع لوي العجوز واستمرّ سام بالتحضير لافتتاح تشاينا تاون، عملت مع يِن يِن في الشقة، فكنا نحضّر الطعام، ونعتني بجوي عندما يعود من المدرسة، ونتبادل الأدوار بحمل جوي خلال فترات العصر الطويلة عندما يبكي بشكل مستمر لسبب لا يعرفه أحد. ولكن حتى لو كنت أستطيع الذهاب للزيارات، فمن أزور؟ إذ إن هناك امرأة أو فتاة واحدة فقط مقابل كل عشرة رجال. وعادة يحظر على الفتيات المحليات اللواتي في مثل سني وسن ماي أن يخرجن مع الشبان. ولا يريد الشبان الصينيون الذين يعيشون هنا أن يتزوجوا هؤلاء الفتيات.

شرح العم إدموند عندما أتى لتناول العشاء يوم الأحد قائلاً: "إن الفتيات المولودات هنا متأمركات جداً. عندما أصبح ثرياً، سأعود إلى قريتي الأصلية وآخذ لنفسي زوجة تقليدية".

بعض الرجال، مثل العم ويلبرت، لديهم زوجات في الصين لا يرونهن لسنوات. ثم قال: "لم أرَ زوجتي منذ وقت طويل. إذ إن الذهاب إلى الصين مكلف جداً، ولهذا، فأنا أدخر مالي لأذهب إلى هناك ولا أعود مجدداً".

إن طريقة التفكير الشعبية هذه تبقي معظم الفتيات بلا زواج، فيلتحقن خلال الأسبوع بالمدرسة الأميركية وبمدرسة تعليم اللغة الصينية في إحدى البعثات التبشيرية. وخلال عطل نهاية الأسبوع، يعملن في مصانع عائلاتهن ويذهبن إلى البعثات التبشيرية من أجل الحصول على إرشادات عن الثقافة الصينية. إننا لا ننتمي إلى هذا المكان كهؤلاء الفتيات، كما أننا صغيرتان جداً كي ننسجم مع الأمهات والزوجات الأخريات اللواتي يبدون متخلفات بالنسبة إلينا. وبالرغم من أنهن مولودات هنا، فمعظمهن، مثل بن بن، لم يكملن تحصيلهن العلمي إلى ما بعد المدرسة الابتدائية، ويبدون منعزلات ومنطويات وبعيدات عن المجتمع.

خلال إحدى الأمسيات في نهاية شهر أيار، وبعد مرور تسعة وثلاثين يوماً على وصولنا إلى لوس أنجلوس، وقبل افتتاح تشاينا تاون ببضعة أيام، أتى سام إلى البيت وقال: "يمكنك أن تخرجي مع أختك، إن أردت ذلك. وأستطيع أنا أن أعطي جوي زجاجة حليبها".

شعرت أنني غير راغبة في تركها معه، ولكنني لاحظت خلال الأسابيع القليلة الماضية أنها تستجيب جيداً للطريقة الخرقاء التي كان يحملها بها، والتي كان يهمس بها في أذنها، أو تلك التي كان يدغدغ بها بطنها. وعندما كنت أراها راضية وأدرك أن سام يريدني أن أغادر كيلا يتوجب عليه أن يتحدث إليّ، كنت أخرج مع ماي في تلك الليلة الربيعية. فمشينا إلى الساحة، ثم جلسنا على أحد المقاعد وأصغينا إلى الموسيقى الكلاسيكية التي وصلت إلى مسامعنا من شارع أولفيرا، وشاهدنا الأطفال وهم يلعبون في شارع سانشيز.

في نهاية المطاف، تخلّت ماي عن محاولتها أن تريني الأشياء أو تحثني على عبور هذا الشارع أو ذاك. فأصبح في إمكاننا وحسب أن نجلس

لنستمتع بالقلق وحدنا، إذ إننا لم نكن نتمتع بأي خصوصية في الشقة حيث كان الجميع يستطيعون أن يسمعوا كل ما نقوله ونفعله. فأصبح في وسعنا الآن، من دون وجود أحد يسمعنا، أن نتحدث بحرية ونتبادل الأسرار. تذكرنا أمي وأبي وتومي وبيتسي وزي جي لي، وحيّنا القديم. وتحدثنا عن الطعام الذي كنا نفتقده وروائح شنغهاي وأصواتها التي بدت لنا حينها من الماضي السحيق. وأخيراً، نأينا بنفسينا عن وحشة الأشخاص والأماكن الضائعة وأجبرنا نفسينا على التركيز على ما يدور حولنا. فحاولت أن أفتح مع ماي موضوع علاقتها بفيرن التي يبدو أنها بعيدة كل البعد عن علاقة الأزواج.

فجادلتني ماي قائلة: "إن علاقتك بسام هكذا أيضاً، ولكن يجب عليك أن تعتادي عليه. فأنتما متزوجان ولديكما طفلة".

"ماذا ينبغي لي فعله، إن كنت أنت لا ترغبين في ذلك مع فيرن؟".

فسخرت ملامحها وقالت: "كيف يسعني أن أفعل ذلك؟ إنه ليس طبيعياً".

عندما كنا في شنغهاي، ظننت أنها تتحدث بفظاظة وحسب، ولكنني الآن بعد أن عشت مع فيرن وأمضيت معه وقتاً أطول مما فعلت ماي، أدركت أنها محقة. إذ بدا لي أن الأمر تعدّى مجرد عدم اكتمال رجولته.

قلت لها محاولة أن أساعدها: "لا أظنه معوقاً".

صرفت ماي الفكرة بنفاد صبر وقالت: "ليس الأمر كذلك. إنه... من دون جدوى". ونظرت متأملة الأشجار المحيطة بنا وكأنها قد تعثر على الجواب هناك. ثم قالت: "إنه يتحدث ولكن ليس كثيراً. وفي أوقات أخرى، يبدو مهووساً كلياً بمجسمات الطائرات والقوارب التي يشتريها له لوي العجوز دائماً ليعمل على لصقها بعضها بالغراء".

فناقشتها قائلة: "إنهم على الأقل يعتنون به. أتتذكرين الصبي الذي رأيناه على متن القارب في قناة غراند؟ لقد حبسته عائلته في قفص".

لم يبدُ على ماي أنها تتذكر ما أقوله أو تأبه له لأنها واصلت كلامها من دون أن ترد عليّ قائلةً: "إنهم يعاملون فونغ وكأنه مهر جداً. فتشكو بن بن من ملابسه وتعلقها من أجله حتى الصباح. وتلقبه بالزوج الفتى...".

"إنها تشبه أمي من تلك الناحية لأنها تحب أن تنادي كل واحد حسب لقبه أو مرتبته في العائلة. إنها حتى تلقب زوجها لوي العجوز!".

أضفى علينا الضحك شعوراً جيداً. وكان والدي ووالدتي قد أطلقا عليه هذا الاسم كدلالة على الاحترام. أما نحن فكنا ندعوه هكذا لأننا لا نستلطفه. أما بن بن، فهي تناديه بالعجوز لأنها تراه عجوزاً فعلاً.

تابعت قائلة: "لديها قدمان طبيعيتان، ولكنها أكثر تخلفاً مما كانت عليه أمي على الإطلاق".

أظهرت ماي الاشمئزاز والانزعاج ثم قالت: "هل تتذكرين عندما أخطأت وقلت لها إنني مصابة بالبرد؟ لقد حضّرت لي شاي الزنجبيل والكرات المحشوة لتخفيف صدري، وجعلتني أستنشق بخار الزنجبيل ليخفف من الاحتقان. وكان ذلك مقرفاً!".

"ولكنه أفادك".

اعترفت ماي قائلة: "نعم، ولكنها الآن تريدني أن أذهب إلى طبيب الأعشاب ليجعلني أكثر خصوبة وجاذبية في نظر زوجي الفتى. وتقول لي إن الخروف والحيوان المقزز البري من أكثر الأبراج توافقاً".

"لطالما قالت أمي إن الحيوان المقزز البري يتمتع بقلب صافٍ ويتميز بصدق وبساطة كبيرين".

هزت ماي كتفيها قائلةً: "إن فونغ بسيط على كل الأحوال، ولكنني سعيدة. وأمي...". ترددت قليلاً ثم قالت: "إنني أشاطره السرير نفسه. وقد يظن بعضهم أنه محظوظ لوجودي معه، ولكنه لا يفعل أي شيء".

تركت تلك العبارة لي لأفكر فيها. كنا نضيع الوقت في هذا السجن الرهيب. وإن كنت أعتقد أن وضعي سيئ، فكل ما عليّ فعله هو التفكير في وضع أختي في الغرفة المجاورة.

قالت ماي: "عندما أذهب إلى المطبخ في الصباح، تسألني بن بن: *أليس لديك؟ إنني أريد حفيداً*". وفي الأسبوع الماضي، عندما عدت من نشاطنا نلوذ إلى البيت، تنحت بي جانباً وقالت: *أرى أنك لم تحملي بعد. غداً ستأكلين كلى العصفور وقشور اليوسفي المجففة المفرومة. إذ يقول لي طبيب الأعشاب إن هذا سيجعل رحمك مهيأً للحمل*.

جعلتني الطريقة التي قلّدت بها صوت بن بن المرتفع الحاد أبتسم، ولكن ماي لم ترَ أي شيء طريف في هذا.

سألتني قائلة: "لماذا لا يجعلونك تأكلين كلى العصفور الدوري وقشور اليوسفي؟ لماذا لا يرسلونك إلى طبيب الأعشاب؟".

لم أكن أعرف لماذا يعاملني لوي العجوز وزوجته أنا وسام بطريقة مختلفة. إذ إن بن بن كانت تنادي الجميع بألقاب معينة، ولكنني لم أسمعها قط تنادي سام بأي شيء، لا بلقبه ولا باسمه الأميركي ولا حتى باسمه الصيني. وباستثناء الليلة الأولى، لم يتحدث عمي معنا قط.

قلت: "إن سام لا يتفق مع أبيه كثيراً. هل لاحظت ذلك؟".

"إنهما يتشاجران كثيراً. ويدعو الرجل العجوز ابنه بأسماء غريبة لا أعرف ماذا تعني، ولكنني واثقة أنها ليست مجاملات".

"إنه يقول إن سام كسول وغبي". ولكنني لم أمضِ الكثير من الوقت مع سام، ولهذا سألتها: "هل هو كذلك؟".

"لم ألاحظ هذا عليه، ولكن الرجل العجوز يصر على أن يدير سام تجارة العربات عندما يتم افتتاح تشاينا تاون، ويريد أن يقوم سام بجر العربات، ولكن سام لا يريد أن يقوم بذلك".

هززت كتفيّ وقلت: "من يود أن يقوم بهذا الأمر؟".

وافقتني ماي الرأي قائلة: "لن يود أحد القيام بذلك هنا أو في أي مكان، ولا حتى لمجرد تسلية الناس".

لم أمانع بمواصلة الحديث عن سام، ولكن ماي عاودت الحديث عن مشكلة زوجها.

"قد تظنين أنهم يعاملونه كسائر الصبية في أنحاء المكان ويجعلونه يعمل مع والده بعد المدرسة ويساعدني ويساعد سام على تحميل الصناديق ووضع البضائع على الرفوف عندما يتم افتتاح تشاينا تاون، ولكن الرجل العجوز يصر على أن يتوجه فرن إلى الشقة مباشرة ليؤدي واجباته المنزلية. وأظن أن كل ما يفعله هو الذهاب إلى غرفته وتركيب نماذج الطائرات بشكل سيئ، كما ألاحظ".

"أعلم ذلك. فأنا أراه أكثر منك لأنني أمكث معه كل يوم". ولم أعلم إن كانت ماي تسمع المرارة في صوتي، ولكنني لاحظتها، فسارعت بإغفالها قائلة: "إن الجميع يدركون مدى أهمية الابن، لذا، فهم ربما يهيئونه لاستلام العمل يوماً ما".

"ولكن الابن الأصغر! لن يدعوه يفعل ذلك، فهذا ليس صواباً. ويجب على فرن أن يتعلم القيام بشيء ما، ولكن يبدو لي وكأنهم يريدون أن يبقوه طفلاً صغيراً إلى الأبد".

"إنهم ربما لا يريدون لفرن أن يغادر، ولا يريدون لأحد منا أن يغادر. إنهم متخلفون وحسب، فهم يريدون منا جميعاً أن نعيش معاً وأن يبقوا العمل ضمن العائلة ويحفظوا بمالهم مخبأ وعيناً ويمنعونا من إنفاقه".

إن هذا صحيح، إذ إنني وماي لم نتلقّ أي مخصصات مالية. وبالطبع، لم نستطع القول إننا نريد أن نحظى بمالنا الخاص لنهرب من هذا المكان ونبدأ حياة جديدة.

قالت ماي بقسوة: "إنني أراهم كمجموعة من الريفيين الخرقى. هل رأيت الطريقة التي تطهو بها يي بن الطعام. أي نوع من النساء الصينيات هي؟".

"إننا لا نعرف كيف نطهو أيضاً".

"ولكن لم يكن من المتوقع منا أبداً أن نطهو! لقد ظننا أننا سنحظى بخدم من أجل ذلك".

جلسنا وفكرنا في الأمر لبعض الوقت، ولكن ما جدوى أن نحلم بالماضي الذي لن يعود أبداً؟ نظرت ماي إلى شارع سانشيز ووجدت أن معظم الأطفال قد عادوا إلى شققهم، فقالت: "من الأفضل أن نعود قبل أن يحبسنا لوي العجوز خارج البيت".

مشينا عائدتين إلى الشقة وقد تأبطت كل واحدة ذراع الأخرى. فشعرت بقلبي أكثر خفة. إذ إنني وماي لسنا شقيقتين فقط ولكننا سلفتان أيضاً. منذ آلاف السنين والكنات يتذمرن من قسوة الحياة في بيوت أزواجهن في ظل القبضة الحديدية لأحمائهن وحمواتهن، ولكنني وماي محظوظتان لأننا حظينا برفقة بعضنا.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

أحلام الرومانسية الشرقية

في الثامن من شهر حزيران، وبعد شهرين تقريباً على وصولنا إلى لسوس ألغلوس، عبرت الشارع ودخلت تشاينا تاون لأحضر الافتتاح الكبير. فبدت محافظة بنموذج مصغر عن سور الصين العظيم بالرغم من أنه من الصعب أن يسمى عظيماً في حين أنه بدا أشبه بقطع من الورق المقوى المركبة في أعلى جدار ضيق. مررتُ من خلال البوابة الرئيسة، وصادفتُ ألف شخص أو نحو ذلك متجمعين معاً في الساحة الكبيرة التي تسمى باحة ذا فور سيزن. فألقى نجوم السينما والشخصيات الكبيرة خطابات، وأشعلت الألعاب النارية، وأقيم استعراض للتنانين والسوك. وقد بدا الأمريكيون متأنقين ومعصريين. فالنساء ارتدين الحرير والفراء ووضعن القفازات واعتمرن القبعات ووضعن أحمر الشفاه اللماع. بينما ارتدى الرجال البذلات وانتعلوا الأحذية اللماعة واعتمروا القبعات. أما أنا وماي فارتدينا ملابس صينية تقليدية أنيقة وجميلة، ولكني شعرتُ أننا قديمتا الطراز وأحسبناك مقارنة بالنساء الأمريكيات.

أعلنت كريستين ستوليبغ من خشبة المسرح قائلة: "إننا ننسج في تشاينا تاون هذه أحلاماً رومانسية شرقية كخيوط الحرير. ونطلب من حضراتكم أن تروا الأنوال الرافة التي تشع من هذه الآمال والمثل العليا، وأن تنسوا شوائب صنعها لأنها ستزول مع مرور الأعوام. لندع أجيال الصينيين الذين نجوا من الكوارث التي حلت بأوطانهم يعثرون على ملاذ جديد بحيث يمكنهم أن يحققوا رغبتهم في الهوية المشتركة، ويتعرا

عطـوات أسلافهم ويواصلوا تجارتهم ويمارسوا فنون تراثهم في سكون وهدوء".

يا للرومانسية!

تابعت كريستين ستولينغ كلامها قائلة: "دعوا العالم الجديد المليء بالهياج والارتباك خلفكم والسوء. وادخلوا العالم القديم، عالم الانبهار الرائع".

حقاً!

حالما انتهت الخطابات، فتحت المتاجر والمطاعم أبوابها للعمل. وأولئك الذين كانوا يعملون هناك – بمن فيهم بن بن وأنا – توجب عليهم أن يسرعوا لاتخاذ مواقعهم. وبينما كنا نمضي، وأنا أحتضن حوتي بين ذراعي أتحرى ما يجري، انفصلنا عن بن بن بسبب الحشود المتماوجة والتدافع. وكان يفترض بـي أن أذهب إلى مقهى التين النعيسـي، ولكنني لم أكن أعرف أين يقع. كيف يمكنني أن أضيع في مجمـع واحد محاط بجدار؟ ولكن وجود الكثير من الممرات والأزقة المظلمـة التي تنعطف في هذا الاتجاه أو ذاك جعلني أشعر بأنني تائهة تمامـاً. فمررت عبر مداخل بعض الأبنية لأجد نفسي في باحة فيها بـركة للأسمـاك أو في كشك يبيع البخور. فاحتضنت حوتي إلى صدري وضغطت نفسي على أحد الجدران عندما مرّت العربات التي كانـت تحمل شعار العربات الذهبية، حاملة الأمريكيين الضاحكين عـبر الأزقـة ومـن يجرها كان يقول: "افسحوا الطريق! افسحوا الطريق!"، إنهم لا يشبهون أي رجل يجر عربات رأيته في حياتي. فهم يـرتدون بـيجامات حريرية، وينتعلون أحذية مطرزة، ويعتمرون قبعات جديدة مصنوعة من القش. وفوق هذا، فهم ليسوا صينيين بل مكسيكيين.

مـرّت فتاة صغيرة مرتدية رداء تنكرياً على شكل قنفذ – ولكنه ألطف منه – وشقّت طريقها بشكل متعرج بين الحشد موزّعةً خرائط علـى المـارة. فأخذت واحدة وفتحتها باحثةً عن المكان الذي أردت الـذهاب إليه. فأظهرت الخريطة العالم الكبير، مثل ستيب أو هيلي، وهاريـس والفسيو، واللوتس بوول، وكورت لوف ما فور سيزن. وفي أسـفل الخريطة، ظهر رجلان مرسومان بالحبر الأسود يرتديان رداءين ويستعملان عفين وينحني واحدهما للآخر. وقد كتب في التعليق: "إن تنازلت وتكرمت لتضيء مدينتنا المتواضعة بوجودك، فسنرحب بك بالحلـوى والشراب والموسيقى النادرة والقطع الفنية التي ستبهج عينيك البيانين". ولم يظهر على هذه الخريطة أي مشروع من مشروعات لوي العجوز والتي يحمل كل واحد منها كلمة ذهبـي.

لم تكـن ثنايا تاون تشبه شنغهاي ولا تشابنا تاون القديمة أيضاً ولا حـتى القرى الصينية، ولكنها بدت أكثر شبهاً بالصين التي اعتدت وماي أن نراها في الأفلام السينمائية التي كانت تصل إلى شنغهاي من هوليـوود. نعم، إنها تشبه بالضبط ما وصفته لي ماي خلال نـزهاتنا معـاً. فقـد تبرعت شركة بارامونت بديكورات من فيلم زوجة ذي اللحية الزرقاء الثامنة، ليتم تحويل أحد الأماكن إلى مقهى جنك الصيني. ولقـد قـام عمال من شركة أم دجي أم بتجميع مزرعة وانغ من فيلم الأرض الطيبـة. ويقع خلفها طريق القاعات المئة الذي قام عمال أم دجـي أم أنفسهم بتحويله من متجر حداد قديم إلى عشرة متاجر تحفظ حاملات الجوهرات والشاي المعطر والشالات الإسبانية المطرزة والمزودة بالحواشـي المصنوعة في الصين. ومن المعروف عن الأقمشة المزركشة الموجودة في معبد كوان ين أن عمرها آلاف السنين. ويقال إن التمثال قد أنقذ من قصف شنغهاي. وفي الواقع، لقد تم بناء المعبد كالكثير من

الأشياء الأخرى في تشاينا تاون من بقايا مشاهد أفلام شركة أم دجي أم. وحتى السور العظيم أحضر من مشهد أحد أفلام الغرب الأمريكي حيث يكونون بحاجة إلى حصن للحماية. وهكذا، فقد تماشى إصرار كريستين ستيرلينغ على تجديد افتتاح شارع أولفيرا ليصبح معلماً صينياً مع قلة فهمها لثقافتنا وتاريخنا وذوقنا.

حاولتُ أن أقنع نفسي أنني بأمان. فالكثير من الناس كانوا يتدافعون حولي بحيث لا يمكن لأحد أن يفكر في الإيقاع بي أو إيذائي. احتضنت جوي بين ذراعي بشدة، حتى بدأت بالبكاء، حملق الناس إليّ وكأنني أم سيئة. لذا وددتُ أن أصيح: *لست أماً سيئة*، وهذه طفلتي. وبالرغم من شدة فزعي، فكّرت في أنني إن تمكنت من الوصول إلى المدخل الأمامي، فعندئذ سأتمكن من العثور على طريق العودة إلى الشقة. ولكن لوي العجوز أقفل الباب وأمن في طريقنا إلى الخروج وليس معي مفتاح. ازداد شعوري بالسخط والخوف، فأطرقت رأسي، وبدأت بشق طريقي بين الناس.

خاطبني صوت بلهجة الوو المحكية في شنغهاي: "هل أنت تائهة؟ هل تحتاجين إلى مساعدة؟".

رفعتُ رأسي ورأيتُ أمريكياً ذا شعر أبيض ولحية بيضاء ويضع نظارة.

قال: "أظن أنك أخت ماي ولا شك في ذلك. هل أنت بيرل؟".

فأومأت برأسي.

"أنا توم غوبنر. ومعظم الناس ينادونني باك واه توم، أي توم الأفلام السينمائية. لديّ متجر هنا. وأعرف أختك. أخبريني أين تريدين أن تذهبي".

"إنهم ينتظرونني في مقهى التنين الذهبي".

"آه نعم، إنه أحد المشروعات الذهبية. إن كل ما قيمته خمسة سنتات هنا يدره عملك. تعالي معي. سآخذك إلى هناك".

إنني لا أعرف هذا الرجل. إذ إن ماي لم تذكره أمامي، ولكنه ربما يكون أحد الأشخاص الذين لم تخبرني عنهم. ومع ذلك، فلهجة شنغهاي التي كان يتكلم بها منحتني الاطمئنان الذي أحتاج إليه. وبينما نحن في طريقنا إلى المقهى، أشار إلى المتاجر المتنوعة التي يملكها عمي. فهناك القنديل الذهبي، وهو المتجر الأصلي الذي يملكه لوي العجوز في تشاينا تاون القديمة، حيث تُباع التحف الرخيصة: كمنافض السجائر وحاملات أعواد الأسنان وحكاكات الظهر. ومن خلال النافذة، رأيت بن بن يتحدث إلى الزبائن. وعلى بعد بضع خطوات، رأيت فيرن جالساً وحده في متجر صغير، وهو زهرة اللوتس الذهبية، ويبيع الأزهار الحريرية. وكنت قد سمعت لوي العجوز يتبجح أمام جيراننا عن تدني الكلفة التي افتتح بها تجارته. فقد قال: "إن الأزهار الحريرية لا تكلف شيئاً تقريباً في الصين. وأستطيع بيعها هنا بخمسة أضعاف سعرها الحقيقي". ويهزأ بعائلة أخرى افتتحت كشكاً لبيع الأزهار النضرة قائلاً: "لقد دفعوا ثمانية عشر دولاراً مقابل صندوق الثلج في متجر البضائع المستعملة. وكل يوم يدفعون خمسين سنتاً ليشتروا مئة رطل من الثلج. يجب عليهم أن يشتروا علباً ومزهريات ليضعوا الأزهار فيها. وكل التكلفة هي خمسون دولاراً. هذا كثير جداً ومضيعة للمال! أما الأزهار الحريرية، فليس من الصعب بيعها. وحتى ابني يستطيع القيام بذلك".

رأيت قمة التنين الذهبي قبل أن نصل إليه وعرفت أنني منذ اللحظة فصاعداً أستطيع أن أحدد الاتجاهات حسب موقعه. تألف التنين الذهبي من هيكل مزيف بعلو خمس طبقات. وقد بنى لوي العجوز

أن يبيع فيه، وهو مرتد ردائه الكحلي الداكن، أفضل بضائعه: كالخزف الراقي، والتحف المطعمة باللآلئ، والأثاث المصنوع من خشب الساج المنحوت، وخلاخيل الأفيون، وأطقم لعبة الماه جونغ، والتحف النفيسة. ومن خلال الواجهة، استطعت أن أرى ماي واقفة إلى يساره تثرثر مع عائلة مؤلفة من أربعة أشخاص وتشير بيديها بحيوية وتبتسم ابتسامة عريضة بحيث استطعت أن أرى أسنانها. إنها تبدو مختلفة وأقرب بكثير إلى الأخت التي لطالما عرفتها. وبدا ثوبها التقليدي ملتصقاً بجسدها وكأنه بشرة أخرى لها، وتمايل شعرها حول وجهها، فأدركت أنها ذهبت لقص شعرها وتسريحه. كيف لم ألاحظ هذا من قبل؟ ولكنّ الشكل القديم الذي شعّ منها هو ما فاجأني حقاً. فأنا لم أرها هكذا منذ وقت طويل.

علّق توم وكأنه يقرأ أفكاري: "إنها جميلة جداً. لقد قلت لها إنني أستطيع أن أحصل لها على وظيفة، ولكنها تخشى ألا توافقي. فما رأيك، يا بيرل؟ يمكنك أن تلاحظي أنني لست رجلاً سيئاً. لِمَ لا تفكرين في الأمر وتتحدثين به مع ماي؟".

فهمتُ كلماته، ولكنني لم أستطع أن أستوعب ما يرمي إليه.

لاحظ ارتباكي، فهزّ كتفيه ثمّ قال: "حسناً إذاً. هيا بنا إلى التنين الذهبي".

عندما وصلنا إلى هناك، ألقى نظرة خاطفة إلى الواجهة وقال: "يبدو وكأنهم بحاجة إلى مساعدتك. لذا، لن أعطلك أكثر من ذلك. ولكن، إن احتجت إلى أي شيء، تعالي وقابليني في شركة الأزياء الآسيوية. ستدلك ماي على المكان. إنها تزورني كل يوم".

بعد أن قال ذلك، انعطف وغاب عن نظري في الحشد. ففتحت باب مقهى التنين الذهبي ودخلت. فوجدت أنه يحوي ثماني طاولات

ومناضد لها عشرة كراسي. وخلف المناضد، يقف العم ويلوت مرتدياً مئزراً أبيض ومعتمراً قبعة ورقية مطوية من صحيفة عادية. وكان يتعرق فوق مقلاة تغلي وإلى جانبه العم تشارلي يقطّع المكونات بالساطور، والعم إيدغرد يحمل الأطباق المتسخة إلى المغسلة حيث يغسلها سام تحت الصنبور.

نادى أحد الرجال قائلاً: "هيه، هل يمكن أن أحظى ببعض المساعدة هنا؟".

مسح سام يديه وأتى ليسلمني دفتر ملاحظات ثم أخذ جوي مني ووضعها في صندوق خشبي خلف المنضدة. وطوال الساعات الست التالية، عملنا بلا كلل. وبحلول الوقت الذي ينتهي به الافتتاح الكبير رسمياً، بدت ملابس سام ملطخة بالطعام والدهن، وشعرت بكتفي وقدمي وذراعي تؤلمني، ولكن جوي نامت ملء جفنيها في صندوقها. بعد ذلك، أتى لوي العجوز والآخرون لإحضارنا وتوجّه الأعمام إلى المكان الذي كان يقيم فيه العزاب في تشاينا تاون. وبعد أن أقفل عمي الباب، انطلقنا إلى شقتنا. مشى سام ووالده وفرن في المقدمة، بينما بقيت وين بن وماي خلفهم بعشر خطوات. وجعلني إرهاقي أحس بجوي ثقيلة ككيس من الأرز. ولكن، لم يعرض أحد أن يأخذها مني.

كان لوي العجوز قد أمرنا بألا نستخدم لغة لا يمكنه فهمها، ولكنني تحدثت إلى ماي بلهجة الوو على أمل أن ين بن لن تفضحنا وأننا بعيدتان بما يكفي عن الرجال بحيث لن يسمعونا.

"لقد كنت تخفين أسراراً عني، يا ماي".

لم أكن أشعر بالغضب وإنما شعرت أنني مجروحة الشعور. فقد كانت ماي تبني حياة جديدة في تشاينا تاون بينما أنا حبيسة الشقة. حتى إنها قصت شعرها! آه، كم آلمني أنني لم ألاحظه حتى اليوم.

"أخفي أسراراً؟ أي أسرار؟"، وأبقت صوتها منخفضاً. هل فعلت هذا لئلا يسمعنا أحد؟ أم لئلا أرفع صوتي؟

"لقد ظننت أننا قررنا أن نرتدي فقط الملابس الغربية حالما نصل إلى هنا. وقلنا إننا سنحاول أن نبدو كأميركيين، ولكن كل ما تحضرينه لي هو هذه الملابس".

قالتْ ماي: "هذا أحد أثوابك المفضلة".

"لا أريد أن أرتدي هذه الملابس بعد الآن. لقد اتفقنا...".

فأبطأت ماي من سرعتها. وعندما تجاوزتها، وضعت يدها على كتفي لتمنعني من مواصلة السير. فاستمرت بن بن بالتقدم بكل طاعة وتبعت خطى زوجها وابنها.

همست ماي قائلة: "لم أرد أن أخبرك لأنني كنت أعلم أنك ستستائين". وربّتت بأصابعها بتردد على شفتيها.

تنهّدت قائلة: "ما الأمر؟ قولي لي وحسب".

"لقد اختلفت قصتنا الغربية. إنه..."، وأومأت برأسها باتجاه الرجال، ولكنني علمت أنها كانت تلمح إلى عمي، ثم قالت: "إنه لا يريدنا أن نرتدي أي شيء غير ملابسنا الصينية".

"لماذا...".

"أصغي إليّ وحسب، يا بيرل. لقد كنت أحاول أن أخبرك بالأشياء وأن أريك ما يجري حولك، ولكنك في بعض الأحيان تصبحين شبيهة بأمي. فلا تريدين أن تعرفي شيئاً ولا أن تصغي إلى أحد".

أذهلتني كلماتها وجرحتني، ولكنها لم تكن قد أنهت حديثها بعد.

"أتعرفين لماذا يتوجب على الناس الذين يعملون في شارع أولفيرا أن يرتدوا الملابس المكسيكية؟ هذا لأن السيدة ستيرلينغ تصر على هذا.

إن هذا اتفاق عقد الإيجار الموقع بينهم؛ تماماً كما هي عقودنا في تشاينا تاون. يجب علينا أن نرتدي الملابس الصينية لنعمل هناك. يحتم السيدة ستيرلينغ وشركاؤها الأميركيون، يريدوننا أن نبدو وكأننا لم نغادر الصين قط. ولا بد من أن لوي العجوز كان يعرف ذلك عندما أخذ ملابسنا من شنغهاي. فكري في هذا، يا بيرل. لقد ظننا أنه لا يتمتع بأي ذوق أو تمييز، ولكنه كان يعرف بالضبط ما يبحث عنه. فأخذ فقط ما اعتقد أنه مفيد هنا وخلّف كل شيء آخر وراءه".

"لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟".

"كيف أستطيع ذلك؟ فقد كنت بالكاد تأتين إلى هنا. لقد حاولت أن أصطحبك إلى بعض الأماكن معي، ولكنك عادة لا تودين أن تغادري الشقة. فيوجب عليّ أن أتحرك خارجاً لمجرد الجلوس في الساحة. وقد لا تقولين أي شيء عن ذلك، ولكني أعلم أنك تلومينني وسام وفيرن؛ تلوميننا جميعاً لأننا نبقيك محتجزة في الشقة، ولكنّ هذا ليس صحيحاً لأنك أنت لا تودين الذهاب إلى أي مكان. فلم أستطع أن أقنعك بعبور الشارع للذهاب إلى تشاينا تاون حتى اليوم!".

"لماذا يجب أن آبه لهذه الأماكن؟ إننا لن نبقى هنا إلى الأبد".

"ولكن، كيف ستهرب إن لم تكن تعرف ما يجري في الخارج؟".

فقلت في نفسي: لأنه من الأسهل ألا نفعل شيئاً ولأنني خائفة.

قالت ماي: "إنك أشبه بطائر تحرر من القفص، ولكنه لا يتذكر كيف يطير. إنك أختي، ولكني لا أعرف إلى أي حدّ وصلت بتفكيرك. فأنت بعيدة جداً عني الآن".

صعدنا الدرج عائدتين إلى الشقة. وعند الباب، منعتني من التقدم مجدداً، وقالت: "لماذا لا تستطيعين أن تعودي الأخت التي عرفتها في شنغهاي؟ لقد كنت ممتعة ولا تهابين شيئاً، ولكنك الآن تتصرفين

الصين". وأمسكت عن الكلام هنيهة ثمّ قالت: "إنني آسفة. أعلم أن هذا يبدو مريعاً وأنك عانيت الكثير. وأدرك أنه يجب عليك أن تنحي كل اهتماماتك ورعايتك للطفلة، ولكني أفتقدك، يا بول. إنني أفتقدك، يا أخي".

من الداخل، سمعنا صوت بن بن وهي تتودد إلى ابنها قائلة: "أيها الزوج الفتيّ، لقد حان وقت نومك. اذهب وأحضر زوجتك وادخلا إلى النوم الآن".

"إنني أفتقد أمي وأبي وبيتنا. وهذا كله..."، وأشارت حولها في الممر المظلم ثم قالت: "صعب جداً عليّ. فلا أستطيع أن أصمد من دونك". وسالت الدموع على خديها، ولكنها مسحتها بخشونة وأعلنت نفساً ودخلت الشقة لتأوي إلى غرفتها مع زوجها الفتي.

بعد بضع دقائق، مدّدت حوتي في الدرج وذهبت إلى السرير، فانقلب سام إلى الجهة الأخرى بعيداً عني كما كان يفعل كل ليلة. فتمدّدت على حافة السرير في أبعد مسافة عنه وأقرب مسافة ممكنة إلى حوتي. وشعرت بأحاسيسي وأفكاري مشوشة. لقد أتت اللاليس كضربة أخرى غير متوقعة، ولكن ماذا عن الأمور الأخرى التي ذكرتها ماي؟ لم أدرك أنها تعاني أيضاً، ولكنها كانت محقة بشأني. فقد تركت الخوف يسيطر عليّ، ويمنعني من مغادرة الشقة، ومن الذهاب إلى شارع سالتشير، ومن دخول الساحة، ومن المشي إلى شارع أولفيرا، ومن عبور الشارع إلى تشاينا تاون. فخلال الأسابيع القليلة الماضية، عرضت ماي عليّ عدة مرات أن تصطحبني إلى تشاينا تاون. وفي الوقت الذي كنت أرغب فيه بذلك، إلا أنني لم أذهب.

تشبثت بالكيس الذي أعطتني إياه أمي من خلال ملابسي. أترى ماذا دهاني؟ كيف تحولت إلى جبانة وخائفة؟

في الخامس والعشرين من حزيران، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع، أقام الحي الصيني الجديد افتتاحه الكبير على بعد بضعة مجمعات سكنية. وكانت هناك بوابات صينية كبيرة تقليدية منحوتة واقفة بفخامة وتألق على كلا طرفي المجمع. وأقيم عرض قدّمته النجمة السينمائية المتألقة آنا ماي وونغ. وقدمت فرقة طبول صينية، كلها من الفتيات، عرضاً مدهشاً. فيما زيّنت الأضواء الأنيقة المزخرفة بالكشاكش الصينية على الشرفات والأفاريز. فبدا كل شيء هنا أكثر حجماً وأفضل. وأقاموا المزيد من الألعاب النارية واستدعوا المزيد من السياسيين المهمين ليقصوا الشرائط الحريرية، ويلقوا الخطابات، كما أحضروا المزيد من الفرق البهلوانية لتؤدي رقصات الأسود والتنانين. كل ذلك كان يدل على أن أصحاب المتاجر والمطاعم هنا أفضل وأكثر ثراء وثباتاً من أولئك الذين في تشاينا تاون.

قال الناس إن افتتاح تشاينا تاون هو بداية عصر جيد بالنسبة إلى الصينيين في لوس أنجلوس، بينما قلت أنا إنه بداية تحمّ للشاهر. ففي تشاينا تاون، يجب علينا أن نعمل أكثر وأن نبذل جهداً أكبر. وقد استخدم عمي قبضته الحديدية ليجبرنا على العمل لساعات أطول. إنه عديم الرحمة وقاسٍ في معظم الأحيان. فلم يعصِ أحد منا أوامره، ولكنني لم أكن أدرك كيف سنقوى على المنافسة. كيف يمكننا أن ننافس آخرين يتمتعون بميزات أكبر؟ وكيف سنتمكن على الإطلاق من أن نجمع مالاً يعيننا على الهرب من هذا المكان؟

أريج الديار

في الوقت الذي كان ينبغي لي فيه أن أحتاط للمكان الذي سأهرب إليه مع ماي وحوبي، لم أجد أي شيء يدفعني إلى الاستكشاف أكثر من معدتي. إذ كنت أفتقد أطعمة مثل الحلوى المغطاة بالعسل وكعك الورد المحلى بالسكر والبيض المهروس المسلوق بالشاي. وبعد أن فقدت الزبد من الوزن بسبب طبخ بن بن أكثر مما حصل لي في جزيرة أينجل رافقت العم ويلبرت والعم تشارلي، وهما الطاهيان الأول والثاني في التنين الذهبي، وحاولت أن أتعلم منهما. وكانا يسمحان لي باللحاق معهما إلى متجر سام ينغ للجزارة ذي الواجهة الذهبية لنشتري لحماً مدهناً وبطاً. وكانا يصطحبانني إلى سوق جورج وونغ للسمك ليعلماني أن أشتري فقط الأسماك الطازجة، ثم أختار بعد ذلك الشارع إلى متجر البقالة الدولي، وهناك شممت أريج الديار للمرة الأولى منذ وقت طويل. فأنفق العم ويلبرت بعض ماله الخاص ليشتري لي كيساً من الفول الأسود المملح، فشعرت بامتنان شديد له. وبعد ذلك بدأ الأعمام الآخرون يتداولون الأدوار ليشتروا لي أطعمة صغيرة كالعناب والتمر المحلى بالعسل وأغصان الخيزران وبراعم اللوتس والفطر. وإذ ساد الهدوء في المقهى، كانوا يسمحون لي بالانضمام إليهم خلف الشاشة ليروني كيف أطبخ طبقاً سريعاً واحداً مستخدمة هذه المكونات الخاصة.

وفي كل ليلة أحد، كان الأعمام يحضرون إلى الشقة لتناول العشاء، فأطلب من بن بن أن تسمح لي بإعداد الوجبة لتناولها العائلة.

بعد ذلك، أصبح إعداد العشاء كل ليلة من إحدى مهماتي. وسرعان ما أصبحت تحضير العشاء خلال ثلاثين دقيقة طالما أن فرن كان يغسل الأرز وسام يقطع الخضار. في البداية، لم يشعر لوي العجوز بالسعادة. وكان يقول: "لماذا ينبغي لي أن أدعك تبددين مالي على الطعام؟ لماذا ينبغي لي أن أدعك تخرجين لتشتري الطعام". (هذا بالرغم من أنه لم يكن يمانع أن أمشي إلى العمل ذهاباً وإياباً وأقدم الطعام إلى الغرباء).

وكنت أقول له: "إنني لا أبدد مالك لأن العم ويلبرت والعم تشارلي هما اللذان يدفعان ثمن الطعام. كما أنني لا أمشي وحدي لأنني دائماً معهما".

"إن هذا الأمر أسوأ! لأن الأعمام يدخرون مالهم ليعودوا إلى الديار. إن الجميع، بمن فيهم أنا، لديهم الرغبة في العودة إلى الصين. وإن لم يعيشوا في الصين، فهم يريدون على الأقل أن يدفنوا فيها". كالعديد من الرجال، أراد لوي العجوز أن يدخر عشرة آلاف دولار ويعود رجلاً ثرياً إلى قرية أسلافه حيث يتخذ لنفسه محظيات، وينجب المزيد من الأبناء، ويمضي أيامه وهو يرتشف الشاي. وأراد أيضاً أن ينظر الناس إليه على أنه رجل مهم. ثم تابع قائلاً: "كلما عدت إلى هناك، كلما اشتريت المزيد من الحقول. وإن لم يسمحوا لي بامتلاك الأراضي هنا، فسأمتلكها في الصين. آه، إنني أعرف ما تفكرين فيه يا بول. ربما أكون قد ولدت هنا، ولكني صيني في صميمي. وسأعود إلى الديار".

إنه رجل يمكن توقع شكواه، كما يمكن توقع الطريقة التي يحول فيها كل شيء متعلق بالأعمام أو أي شخص آخر إلى شيء يتعلق به، ولكنني أقبل ذلك لأنه يحب طبخي. وقد لا يصرح بذلك على فمه أبداً، ولكنه فعل شيئاً أفضل. فبعد مرور بضعة أيام أحد، أعلن قائلاً:

"سأعطيك المزيد من المال كل يوم اثنين لتشتري الطعام من أجل كل وجباتنا". وفي بعض الأحيان، سولت لي نفسي أن أوفر القليل من المال، ولكني كنت أعلم كيف كان يراقب كل قرش وفاتورة وكنت أعرف أنه كان يتفقد بشكل دوري أصحاب متاجر الجزارة وسوق السمك ومتجر البضائع الجافة. إنه حريص جداً على ماله، ويرفض أن يودعه في المصرف بل كان يخفيه ويوزعه في مخابئ سرية في كل مؤسسات مشروعه الذهبي ليحميه من الكوارث ومن المصارف الأمريكية.

الآن، وبعد أن أصبح في وسعي الذهاب إلى المتاجر بنفسي، صار أصحاب المتاجر يعرفونني. وأعجبهم عملي بالرغم من ضآلته، وكافأوا إخلاصي لبطهم المشوي وسمكهم الطازج أو عنق اللفت الذي يصنعونه بإعطائي التقاويم. فبدت الصور المرسومة عليها ذات الألوان الحمراء والزرقاء والخضراء على خلفية بيضاء جرداء، وبدلاً من صور الفتيات الجميلات الجالسات في مخادعهن بمظاهر توحي بالراحة والاسترخاء والعفوية، اختار الفنانون أن يرسموا مناظر طبيعية غير ملهمة للسور العظيم أو لجبل إيماي أو لجبال كوابلين الغامضة أو صور نساء تافهات يرتدين ملابس صينية تقليدية مصنوعة من قماش لماع في تصاميم هندسية، ويجلسن في وضعيات توحي بالفضيلة والحشمة الأخلاقية. وكانت أساليب الفنانين تبدو مبهرجة وتجارية وتفتقر إلى الذوق أو المشاعر. ولكن، كنت أعلق التقاويم على جدران الشقة بالضبط كما يعلق أفقر فقراء شنغهاي تقاويمهم في أكواخهم الصغيرة الكئيبة ليضفوا شيئاً من البهجة والأمل والتفاؤل إلى حياتهم. فتضيء تلك الأشياء الشقة كما تفعل وجباتي. وطالما أنها تقدم مجاناً، يظل عمي راضياً.

في صباح اليوم الذي يسبق الميلاد، استيقظت عند الساعة الخامسة فارتديت ملابسي وتركت جوي مع حماتي، ثم مشيت بصحبة سام إلى تشاينا تاون. كان الوقت لا يزال مبكراً، ولكنّ الجو دافئ بشكل غريب. فقد هبت رياح دافئة طوال الليل مخلفة وراءها أغصاناً مكسورة وأوراق أشجار جافة وقصاصات ورق ملونة وقمامة أخرى من مهرجانٍ عطلة شارع أولفيرا مبعثرة في الساحة وعلى طول الشارع الرئيسي. عبرنا شارع مايسي ودخلنا تشاينا تاون، وسلكنا الطريق المعتاد الذي يبدأ بموقف العربات التي تُجر باليد في ساحة ذا فور سيزنز، ثم انعطفنا حول الدجاج والبط الذي كان ينقر الأرض أمام مزرعة وانغ. لم أكن قد رأيت فيلم الأرض الطيبة بعد، ولكن العم تشارلي أخبرني أنه ينبغي لي ذلك. وقال: "إنه يعبر تعبيراً صادقاً عن الصين". كما وحثني العم ويلبرت أيضاً على مشاهدته. فقال: "إن ذهبت لحضوره فشاهديني مشهد الحشد. فأنا موجود فيه! سترين الكثير من الأعمام والعمات من الحي الصيني في ذلك الفيلم". ولكنني لم أذهب إلى السينما ولم أدخل المزرعة لأنني كلما مررت بها تذكرت تلك الليلة المشؤومة التي أمضيتها في الكوخ خارج شنغهاي.

حين مزرعة وانغ، ابتعد سام إلى آخر شارع التين. فتحدّث إليّ بلغة الحي يوب قائلاً: "امشي قربي". ولكنني لم أفعل ذلك لأنني لا أريد أن أشجعه على القرب مني. فإن تجاذبت أطراف الحديث معه خلال اليوم أو مشيت إلى جانبه، فسيرغب في القيام بأمور أخرى لا أريدها.

وباستثناء طرقات العربات، كانت كل مشروعات الشركة الذهبية بيضوية الشكل يلتقي فيها شارعا التين وكواي ين. وعلى طول هذا الطريق كانت العربات تسير بشكل متعرج. وخلال الأشهر الستة

التي عملت فيها، لم أتجرأ سوى مرتين على الذهاب إلى بركة اللوتس أو إلى المنطقة المخططة التي تحوي مسرح الأوبرا الصينية وشركة تون غوينز للأزياء الأسيوية. وقد تكون تشاينا تاون مجمعاً ذا شكل غريب ترخفه شوارع مين ومايسي وسبرينغ وأورد بأكثر من أربعين متجراً محشورة مع بعضها إلى جانب كل المقاهي والمطاعم وأماكن الجذب السياحية مثل مزرعة وانغ، ولكن هناك مناطق أخرى معزولة ومحاطة بجدران نادراً ما يختلط قاطنوها مع جوارهم.

فتح سام قفل الباب المؤدي إلى المقهى وأنار المكان، وبدأ يغلي القهوة. وبينما بدأت أنا بملء أوعية الملح والفلفل، تحرك الأعمام ذهاباً وإياباً وبدلوا أعمالهم. وبحلول الوقت الذي يتم فيه تقطيع الفطائر ووضعها للعرض، كان أوائل الزبائن قد وصلوا. فثرثرت مع زبائننا المعتادين، وهم سائقو الشاحنات وعمال البريد، وأخذت طلباتهم لأقدمها للطهاة.

عند الساعة التاسعة، وصل شرطيان وجلسا قرب النافذة. فملّست مئزري وسمحت لشفتيّ أن تنفرجا عن ابتسامة عريضة. فإن لم نملأ بطون رجال الشرطة مجاناً لحقوا بزبائننا إلى سياراتهم وأعطوهم مخالفات. لقد كان الأسبوعان الماضيان سيئين جداً لأن رجال الشرطة راحوا يدخلون من متجر إلى آخر ويجمعون هدايا الميلاد إلى أن أصبحت أياديهم محملة بالهدايا. وقبل أسبوع، وبعد أن قرروا أنهم لم يستلموا هدايا كافية، سدوا مرآب السيارات مانعين الزبائن من الدخول على الإطلاق. حينها، أصبحنا جميعاً خائفين ومطيعين وراغبين في منحهم أي شيء يطلبونه طالما أنهم يسمحون لنا بإبقاء أبوابنا مفتوحة.

حالما غادر رجلا الشرطة، نادى أحد سائقي الشاحنات سام قائلاً: "هيه، يا صاح، أعطني قطعة من فطيرة العنبية تلك، هلا فعلت ذلك؟".

ربما كان سام لا يزال متوتراً بسبب زيارة الشرطة، فتجاهل الطلب وواصل غسل الكؤوس. أتذكر أنني علمت قبل وقت طويل من خلال الأوراق التعليمية أن سام سيصبح مدير المقهى، ولكن موقعه في الواقع لا يتعدى كونه غاسل كؤوس أو غاسل أطباق. فكنت أراقبه وأنا أقدم البيض والبطاطا والخبز المحمص والقهوة مقابل خمسة وثلاثين سنتاً، والفافة هلام وقهوة مقابل نيكل واحد. طلب أحدهم من سام أن يعيد ملء قهوته، ولكنه لم يلبِّ الطلب إلى أن ضرب الرجل فنجانه بنفاد صبر على الطاولة. وبعد نصف ساعة، طلب الرجل نفسه فاتورته. فأشار سام إليّ من دون أن يتفوه بكلمة واحدة مع الزبائن ولو لمرة واحدة.

وبعد أن خفّ الازدحام على تناول وجبة الفطور، جمع سام الصحون المتسخة والفضيات بينما تحته أنا ومعي قطعة قماش مبللة لأمسح الطاولات والمناضد.

فقلت له بالإنكليزية: "لماذا لا تتحدث إلى الزبائن، يا سام؟"، وعندما لم يجبني، تابعت كلامي بالإنكليزية أيضاً: "في شنغهاي، كان الأميركيون يقولون دائماً إن النادل الصينيين وقحون وأخلاقهم سيئة. إنك لا تريد أن يكوّن زبائننا تلك الفكرة عنك، أليس كذلك؟".

اكتسبت ملامحه مظهراً متوتراً وعضّ على شفته السفلى.

فحوّلت كلامي إلى لغة الجي يوب قائلة: "إنك لا تجيد اللغة الإنكليزية، أليس كذلك؟".

قال: "أعرف القليل". ثم ابتسم بخجل قائلاً: "القليل منها. القليل جداً".

"كيف حدث هذا؟".

"لقد ولدت في الصين. فمن أين لي أن أعرفها؟".

"لأنك عشت هنا إلى أن بلغت السابعة".

"لقد حدث هذا قبل وقت طويل. ولا أتذكر الكلمات التي تعلمتها في ذلك الوقت".

فسألته: "ولكن ألم تدرسها في الصين؟"، لقد كان جميع الذين عرفتهم في شنغهاي يتعلمون اللغة الإنكليزية، وحتى ماي تجيدها بالرغم من أنها كانت تلميذة كسولة جداً.

لم يجب سام عن سؤالي بشكل مباشر بل قال: "أستطيع محاولة التحدث باللغة الإنكليزية، ولكنّ الزبائن يرفضون أن يفهموني. وعندما يتحدثون إليّ، لا أفهمهم أيضاً". ثم أومأ برأسه وأشار إلى الساعة الجدارية قائلاً: "من الأفضل أن تذهبي".

دفعني من الباب لأخرج، ولكنني كنت أعرف أنه يذهب إلى مكان ما في الصباح وفي فترات العصر المتأخر بالضبط كما أفعل أنا. وبالرغم من أنني زوجته، فليس من حقي أن أسأله إلى أين يذهب. وإن كان سام يقامر أو يقابل النساء، فماذا يسعني أن أفعل؟ ماذا يسعني أن أفعل له إن كان زير نساء أو مقامراً كوالدي؟ لقد تعلمت من أمي وبين بين كيف أكون زوجة صالحة. وأدركت تماماً أنه ليس هناك ما يسع المرأة أن تفعله إن أراد زوجها أن يهجرها. ولا تستطيع أن تعرف الأماكن التي يتردد إليها وأوقات عودته منها، فهذا شأنه الخاص.

غسلت يدي وخلعت مئزري. وبينما كنت أمشي إلى الفندق الذهبي، فكرت في ما قاله سام. كيف يمكنه ألا يجيد اللغة الإنكليزية؟ إن إنكليزيتي مثالية. فقد تعلمت أنه من المهذب أن أقول كلمة غربي بدلاً من أن أقول أميركي وأن أقول كلمة شرقي بدلاً من صيني، ولكنني أدركت أن هذه ليست الطريقة المناسبة لبيع البضائع وللحصول على بقشيش. إذ إن الناس يأتون إلى تشاينا تاون للتسلية

ويجوز أن نتحدث إليهم بلغة ركيكة. فوجدت القيام بذلك سهلاً ولا سيما بعد أن أصغيت إلى فيونا ولوي العجوز والعديد من الأشخاص الذين يتحدثون بلغة ركيكة وسيئة اللفظ بالرغم من أنهم ولدوا هنا. إن هذا عمل مقصود بالنسبة إليّ، ولكني أعتبره بالنسبة إلى سام، إلى جانب عيشه مع أناس لا أعرفهم، جهلاً وحماقة وتصرفاً غير مقبول.

توجهت إلى القنديل الذهبي حيث تبع بن بن التحف وأعالس جوي. فقمنا معاً بتلميع الأرضيات والكنس والمسح. وعندما أنهيت عملي تحدثت مع جوي قليلاً. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف، تركت جوي مجدداً مع بن بن وعدت إلى المقهى حيث عملت بأقصى سرعتي على تقديم شطائر الزغر مقابل خمسة عشر سنتاً. قد لا تكون شطائر الزغر التي نبيعها شهيرة كتلك التي تباع في مقهى فونغ فاي بما تحتويه من براعم الفول المقلية والفطر الأسود وصلصة الصويا، ولكننا بذلنا ما في وسعنا من خلال تقديم أطباق السمك المملح مع اللحم مقابل عشرة سنتات، وأطباق الأرز مع الشاي مقابل خمسة سنتات.

بعد الغداء، عملت في متجر زهرة اللوتس الذهبية بيع الأزهار الحريرية إلى أن وصل فيونا من المدرسة، ثم ذهبت إلى المعبد الذهبي لأنني أردت أن أتحدث إلى ماي بشأن خططنا ليوم الميلاد، ولكنها كانت مشغولة بإقناع أحد الزبائن بشراء تحفة فيه. لذا، قمت بالكنس ونفض الغبار والتلميع والتنظيف.

وقبل أن أتوجه عائدة إلى المقهى، عدت إلى القنديل الذهبي وأخذت جوي في نزهة قصيرة في أزقة تشاينا تاون. إذ إنها تحب أن تراقب العربات الذهبية كما يفعل السياح. إن العربات مشهورة جداً وأكثر مشروعات لوي العجوز نجاحاً. ويقوم جوني بي، وهو أحد الصبية المحليين، بجر العربات التي يركبها الشاعر من أجل التقاط الصور

الشروانية، ولكن عادة يقوم ميغول وجوزيه ورامون بهذا العمل أيضاً فيكسبون بعض البقشيش ونسبة صغيرة من أجرة كل عملية ركوب والتي بلغت خمسة وعشرين سنتاً. ويكسبون أكثر بقليل إذ استطاعوا أن يقنعوا أحد الزبائن بشراء صورة مقابل خمسة وعشرين سنتاً إضافية.

اليوم، رأيت راكبة تركل ميغول ثم تضربه بحقيبتها. لماذا تفعل ذلك؟ ربما تجرد أنها تستطيع فعله. لم تكن المعاملة التي يلقاها الذين يجرون العربات في شنغهاي ترعبني قط. ألأن أبي كان يملك العربات يا ترى؟ أم لأنني كنت كتلك المرأة البيضاء أشعر أنني أفوقهم في الطبقة الاجتماعية؟ أم لأننا كنا نعتبر أولئك الناس في شنغهاي أعلى مستوى من الكلاب بقليل بالرغم من أنني وماي أصبحنا ننتمي إلى المستوى نفسه؟ يجب عليّ أن أعترف بأن هذا صحيح.

تركت جوي مجدداً مع جدتها، وقبّلتها متمنية لها ليلة سعيدة لأنني لن أراها مجدداً إلى أن أعود إلى البيت. ثم أمضيت بقية الأمسية وأنا أقدم أطباق اللحم الحلو والحامض والدجاج وطبق الأرز باللحم والخضار، وكلها أطباق لم أرها أو حتى أسمع عنها من قبل في شنغهاي. ثم حان موعد الإغلاق عند الساعة العاشرة. فبقي سام للإغلاق، فيما انطلقت أنا إلى الشقة وحيدة. وكنت أفضل أن أمشي متعرجة في طريقي عبر الحشود الاحتفالية في ليلة الميلاد في شارع أولفيرا بدلاً من المشي وحيدة في شارع مين.

كنت أشعر بالخزي لأن المطاف انتهى بسام وبماي هنا، ولمت نفسي لأننا نعمل بجد طوال اليوم من دون أن نتلقى ولا حتى عشرة سنتات. فعندما مددت يدي وطالبت لوي العجوز بالأجر، بصق في راحة يدي، وقال: "لديك طعام لتأكليه ومكان لتأوي إليه. لذا، فأنت لست بحاجة إلى المال". وتلك كانت نهاية كل شيء. فبدأت أشعر

بقيمتنا الحقيقية هنا. إذ إن معظم الناس في تشاينا تاون يجنون ما بين ثلاثين إلى خمسين دولاراً في الشهر، ويجني ماسحو الزجاج عشرين دولاراً في الشهر فقط، بينما يجني غاسلو الأطباق والندل ما بين أربعين إلى خمسين دولاراً في الشهر، ويجني العم ويلبرت سبعين دولاراً في الشهر، ويعتبر هذا أجراً جيداً جداً.

كلَّ ليلة سبت، كنت أسأل سام قائلة: "هل ادخرت أي مبلغ من المال؟". وكنت آمل أنه يوماً ما سيعطيني بعضاً من هذه المدخرات لأغادر هذا المكان، ولكنه لم يكن يطلعني قط على ما يجنيه. بل كان يقوم بعصره الإصبعاء وهو ينظف إحدى الطاولات، ثم يحمل جوي عن الأرض، أو يذهب إلى آخر الممر فيدخل الحمام ويغلق الباب.

عندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، أتذكر كيف كنت وأمي وأبي وماي نظن أن لوي العجوز ثري. لقد كانت عائلتنا تعتبر في شنغهاي عائلة موسرة، فقد كانت لوالدي تجارته الخاصة، وكان لدينا منزل وخدم. فظننا أنه لا بد من أن يكون الرجل العجوز أكثر ثراء منا بكثير، ولكنني الآن أرى الأمور من وجهة نظر مختلفة. فالدولار الأميركي يقطع شوطاً طويلاً في شنغهاي حيث يشترى كل شيء بدءاً من البيوت إلى الملابس إلى الزوجات أمثالنا بسعر بخس. لقد كنا ننظر إلى لوي العجوز ونرى ما نريد أن نراه: أي رجلاً يتبجح بماله. وكان يجعلنا نبدو عديمي القيمة ويشعرنا بذلك من خلال معاملته لأبي بازدراء تام خلال زياراته، ولكن هذه المظاهر كلها ليست إلا بحره كذبة لأن لوي العجوز يعتبر هنا في أرض الراية المزهرة أفضل من معظم العاملين في تشاينا تاون، ولكنه فقير بالرغم من ذلك. نعم، لديه خمسة مشروعات تجارية، ولكنها صغيرة بل ضئيلة في الواقع ولا تتعدى الخمسين قدماً مربعة هنا ومئة قدم مربعة هناك. وهكذا، فهي لا تساوي الكثير. إن ثروته التي

بلغت خمسين ألف دولار من البضائع تساوي صفراً إذا لم يشترها أحد. ومع ذلك، فلو أتت عائلتي إلى هنا، لكنا عشنا في قعر المجتمع مع رجال المصبغة وماسحي الزجاج وبائعي الخضار.

وبينما كانت تلك الفكرة الكئيبة تراودني، صعدت درج الشقة، وخلعت ملابسي المتسخة، وتركتها مكومة في زاوية الغرفة. ثم أويت إلى سريري، وحاولت أن أبقى مستيقظة لبضع دقائق لأستمتع بالهدوء والسكينة بينما تغفو طفلتي في درجها.

في صبيحة الميلاد، ارتدينا جميعاً ملابسنا، وانضممنا إلى الآخرين في الغرفة الرئيسة. فوجدنا بن بن ولوي العجوز يعملان على إصلاح زهريات مكسورة، وصلت في شحنة من متجر تحف في سان فرانسيسكو كان قد توقف عن العمل. وكانت ماي تحرّك وعاء من العصيدة على الموقد الحار في المطبخ، فيما جلس فيرن مع والديه وهو ينظر حوله ويبدو متفائلاً ولكنه حزين. لقد نشأ فيرن هنا، وهو يرتاد الآن المدرسة الأميركية، لذا، فهو يعرف الميلاد. فخلال الأسبوعين الماضيين، أحضر معه إلى البيت زينة ميلاد جديدة صنعها في صف الفنون، ولكن، باستثناء هذه الزينة لم يكن هناك شيء واحد يوحي بالميلاد، فلا جوارب ولا شجرة ولا هدايا. بدا أن فيرن أراد أن يحتفل، ولكن ما الذي يستطيع أن يقوله أو يفعله؟ إنه ابن في بيت والديه، ويجب عليه أن يطيع قواعدهما. تبادلت وماي نظرة عاطفة، ثم نظرنا إلى فيرن ثم إلى بعضنا مجدداً. كنا نتفهّم شعوره. إذ عندما كنا في شنغهاي، كنت وماي نحتفل بالميلاد في المدرسة التبشيرية، ولكن ذلك لم يكن عطلة يعترف بها والدي ووالدتي على كل حال. وهنا، أردنا أن نحتفل به كما يحتفل به الأميركيون.

سألت ماي بتفاؤل قائلة: "ماذا ينبغي لنا أن نفعل اليوم؟ أنذهب إلى دار العبادة في الساحة وشارع أوليفر؟ سيقيمون الاحتفالات هناك".

قال لسوي العجوز: "إننا لا نقوم بالأشياء التي يقوم بها أولئك الناس".

فأجابت ماي قائلة: "إنني لا أقول إننا سنفعل الأشياء معهم، بل أفكر وحسب في أنه سيكون من المثير للاهتمام أن نرى كيف يحتفلون".

ولكنني خلال هذا الوقت تعلمت وماي أنه ليس هناك جدوى من مناقشة أهل زوجينا، وأنه يجب علينا وحسب أن نشعر بالسعادة لأننا حظينا بيوم إجازة.

اقترح فون قائلاً: "أريد أن أذهب إلى الشاطئ". إنه نادراً ما كان يتكلم بحيث إنه عندما كان يقول شيئاً، كنا نعرف أنه يريده فعلاً. ثم تابع قائلاً: "لنستأجر سيارة".

فاعترض الرجل العجوز قائلاً: "تلك مسافة بعيدة جداً".

قالت بن بن ساخرة: "لا أريد أن أرى محيطهم. فكل ما أريده موجود هنا".

قال فون مفاجئاً جميع من في الغرفة: "إذاً، ابقي في البيت".

فرفعت ماي حاجبيها، واستطعت أن ألاحظ أنها تريد هي أيضاً أن تذهب. ولكن، لم تكن لديّ النيّة لإنفاق شيء من مال زفافنا من أجل شيء تافه كهذا، كما أنني لم أرَ سام يملك أي مال بين يديه باستثناء الوقت الذي يكون فيه في المطعم.

قلت: "سنحظى بوقت ممتع هنا. إذ يمكننا أن نمشي على طول الجزء الأمريكي من بسرودواي، ونشاهد واجهات متاجر المجمع

التجاري. إن كل شيء هناك مزين من أجل الميلاد. ستحب ذلك، يا فون".

فبالغ فون قائلاً: "أريد الذهاب إلى الشاطئ. أريد رؤية المحيط". ولكنْ أحداً لم يقل شيئاً. فنهض عن كرسيه وتوجه إلى غرفته بتثاقل وأغلق الباب بشدة، ثم خرج من غرفته بعد بضع دقائق وبحوزته بضعة دولارات مجعدة في قبضته. وهو يقول بتحدٍ: "أنا سأدفع".

حاولت بن بن أن تأخذ المال منه وهي تقول للباقين: "من السهولة تفريق الحيوان المقرز الوري عن ماله، ولكن ينبغي لكم ألا تستغلوا سذاجته".

أبعد فون يديها عنه ثم رفع ذراعه فوق رأسه لئلا تتمكن من الوصول إلى المال. وقال: "إنها هدية الميلاد لأمي وماي وبيرل والطفلة. ابقيا أنتما في البيت إن شئتما".

قد لا تكون تلك الكلمات أكثر كلمات حنكة يقولها على الإطلاق، ولكنها ربما أكثر كلمات سمعها معظمنا منه. وهكذا، نفّذنا رغبة فون. فذهبنا نحن الخمسة إلى الشاطئ، ومشينا على الرصيف، وغمسنا أصابعنا في مياه المحيط، وحرصنا على ألا تصاب حوى بحروق بسبب الشمس الشتوية الحارة في غير موسمها. بدت صفحة الماء متألقة تحت السماء. ومن بعيد، بدت التلال الخضراء مغمورة في البحر. ذهبت وماي لنتمشى بمفردنا. فسمحنا للرياح وأصوات الأمواج أن تريح عنا ما يقلقنا. ولدى عودتنا إلى المكان الذي كان فون وسام يجلسان فيه مع الطفلة تحت المظلة، قالت ماي: "إنها دعوة لطيفة من فون". وكان هذا أول كلام ودود أسمعها تتفوه به عنه.

بعـد أسـبوعين، دعت مجموعة نساء من جمعية الصين المتحدة الحرة بن بن لتذهب إلى ويلمبنغتون للاعتصام عند مصانع السفن التي ترسـل الحديـد إلى اليابان، ولكنني كنت أعلم يقيناً أن لوي المحور سيرفض عندما تطلب منه الإذن لذلك. ففاجأنا جميعاً بقوله: "يمكنك الذهاب إن رافقتك بيرل وماي".

فقالـت بـن بن: "ولكن هذا سيتركك مع عدد قليل جداً من العمـال". وذلك بالرغم من أن أملها في حدوث هذا وخوفها من أن يغير زوجها رأيه يبدوان واضحين في نبرة صوتها.

فقال: "لا بأس. سأطلب من الأعمام العمل لساعات إضافية".

قـد لا تجسر بن بن على أن تبتسم ابتسامة عريضة لترينا مدى سعادتها، ولكننا جميعاً سمعنا رنين صوتها وهي تغني وماي قائلة: "هلاً تأتيان معي؟".

فقلـت لها: "بكل تأكيد". إذ إنني مستعدة لبذل كل ما أملكه في سبيل جمع الأموال لمحاربة اليابانيين الذين طبقوا بكل وحشية ومنهجية سياستهم التي تهدف إلى قتل الجميع وإحراق كل شيء وتدميره. وفوق ذلـك، فمـن واجبـي أن أساعد النساء اللواتي تعرضن للاغتصاب والقتـل. التفت إلى ماي وأنا واثقة من أنها تود أن تنضم إلينا. وإن لم يكـن ذلـك من أجل الهدف نفسه، فعلى الأقل من أجل الخروج من تشاينا تاون ليوم واحد، ولكنها رفضت الدعوة.

وقالت: "ما الذي نستطيع أن نفعله؟ فنحن مجرد نساء".

لكـن ما شجعني على الذهاب هو كوني امرأة. فمشيت بصحبة بـن بـن إلى مكان اللقاء، وركبنا حافلة لتوصلنا إلى رصيف السفن، وهناك سلمنا المنظمون لافتات مطبوعة. فمشينا في مسيرة ونحن نصرخ بشعاراتنا. ومنحني هذا شعوراً بالحرية آدين به كلياً إلى حماتي.

قالـت لي ونحن في الحافلة في طريق عودتنا إلى تشاينا تاون: "إن الصين موطني وستبقى كذلك دائماً وأبداً".

ومنذ ذلك اليوم، وضعت فنجاناً على المنضدة في المقهى ليضع فيه النـاس الفكة، ووضعت دبوس حلية يحمل شعار جمعية الصين المتحدة الحـرة. كمـا شاركت في تظاهرات تمنع شحنات الحديد تلك من الوصـول إلى اليـابان، وشاركت في اعتصامات تمنع بيع شعب القردة وقود الطائرات. وكنت أفعل كل ذلك لأن شنغهاي والصين لا تزالان تسكنان صميم قلبـي.

تجرع المرارة لكسب الذهب

أوشكت السنة الصينية الجديدة على الحلول، فاتبعنا كل التقاليد المتعلقة بها. ومنحنا لوي العجوز المال لنشتري الملابس الجديدة، فأحضرت طقم ملابس لجوي يعبر عن النمر، وهو عبارة عن حذاء للأطفال على شكل أشبال النمر وقبعة أطفال برتقالية وذهبية لها أذنان صغيرتان في قمتها وذيل مصنوع من خيوط تطريز مفتولة في الجزء الخلفي منها. كما اشتريت وماي لوبين أمركين قطنيين مطبوعين بأشكال الورود ثم غسلنا شعرنا وصففناه. وفي البيت، أخذنا صورة سيد للطبخ وأحرقناها في الزقاق كي يسافر ويقدم تقريراً عن النشاطات التي قمنا بها خلال العام الماضي، وأزلنا المقصات والسكاكين كي نحرص على ألا نقص حظنا الجيد. وقدّمت بن بن القرابين لأسلاف عائلة لوي وهي تعبر عن أمنياتها من خلال أدعيتها البسيطة، مثل: "امنحونا صبياً للزوج الغني. اجعلوا زوجته تحمل. امنحوني حفيداً".

في تشاينا تاون، علّقنا القناديل المصنوعة من الورق الأحمر والذهبي، ثم رتّبنا لحضور الراقصين والمغنين والبهلوانيين ليعملوا على تسلية الأطفال وآبائهم. ثم اخترنا مكوناتنا الخاصة لنعد أطباق العطلة في المقهى بحيث تكون صينية ولكنها تروق للأذواق الغربية، وكنا نتوقع حضور حشود ضخمة، وقد طلب لوي العجوز المزيد من المساعدين لإدارة مشروعاته المتعددة، ولكنه احتاج إلى المزيد من الناس للمساعدة

في ما يحتوه أكثر المشروعات المرئحة في هذا اليوم من السنة الجديدة، ألا وهو ركوب العربات.

فقال لسام في ليلة السنة الجديدة: "يجب علينا أن نتفوق على الحي الصيني الجديد، ولكن كيف يمكننا فعل ذلك إن كان لدينا صبية مكسيكيون يجرون العربات في ليلة السنة الصينية الجديدة؟ إن قوتك ليس قوية كفاية، ولكنك كذلك".

قال سام: "ولكنني مشغول جداً في المقهى".

لقد طلب عمي من سام أن يجر العربات في أوقات أخرى. ولطالما قدم سام أعذاراً كي لا يقوم بذلك. ولا يسعني توقع ما سيكون عليه الحال في العام الجديد، ولكني رأيت بنفسي مدى الازدحام الذي صادفنا في الأيام الاحتفالية الأخرى، إذ لم نكن فقط مشغولين جداً هكذا، بحيث شعرت أنني عاجزة عن مواصلة العمل في المقهى ومتجر الأزهار ومتجر التحف ومتجر التحف الأثرية كالمعتاد. كنت أدرك أن سام يكذب، وكذلك يفعل لوي العجوز. وفي الأحوال العادية، يكون غضب الوالد أشد مما كان عليه اليوم، ولكن هذه ليلة السنة الجديدة حيث يجب ألا يتبادل الناس أي كلمات قاسية.

في صباح العام الجديد، ارتدينا ملابسنا الجديدة متخلين عن الأزياء الصينية التقليدية التي تشترط السيدة ستوليبغ ارتداءها للذهاب إلى العمل. إن هذه الملابس مصنوعة في المصنع، ولكن ارتداء هذه الملابس الغربية الجديدة أضفى علينا شعوراً رائعاً. وبدت جوي - وعمرها أحد عشر شهراً - محبة جداً بفتحها وخفها الجديدين. إنني أمها، ومن الطبيعي أن أراها جميلة جداً. فوجهها مستدير كالقمر، وعيناها السوداوان محاطتان ببياض كالثلج. أما شعرها فهو ناعم ورقيق وبشرتها شاحبة وشفافة كحليب الأرز.

لم أكن أعتقد بالأبراج الصينية فقط عندما كانت أمي تتحدث عنها، ولكن كلما مرّ وقت على وفاتها كنت أتذكر الأشياء التي كانت قد قالتها عن ماي وعني وأفكر في أنها قد تكون صحيحة. وعندما كنت أسمع بن بن تتحدث عن صفات النمر، أراها تنطبق على طفلتي بوضوح كبير. إذ إن جوي، كالنمر، متقلبة المزاج وسريعة الانفعال. ففي لحظة واحدة تغمرها السعادة وفي اللحظة التالية تنفجر بالبكاء. وفي أوقات أخرى، كانت جوي تتسلق ساقي حتى سعياً إلى لفت انتباهه فتحصل عليه. وقد تبقى في نظره فتاة عديمة القيمة إلى الأبد، ولكن صفات النمر فيها تحتل فؤاده. إن مراعيها أقوى من مراعيه، وأعتقد أنه كان يحترم هذا فيها.

إنني أعرف بالضبط اللحظة التي بدأ فيها يوم السنة الجديدة بالتحول إلى يوم عصيب. إذ بينما كنت وماي نسرّح شعر بعضنا في الغرفة الرئيسة، كانت بن بن تضع جوي على ظهرها على الأرض وتدغدغ بطنها وتحرك أصابعها وترفع صوتها وتخفضه، ولكن الكلمات التي كانت تخرج من فمها لم تكن تتماشى وأفعالها السعيدة.

فسألت بن بن بينما صاحت جوي بترقب: "هل تريدين أن تصبحي زوجة أم خادمة؟ إن النساء في كل مكان يفضلن أن يصبحن خادمات".

فلم يكن لقهقهات جوي أيّ تأثير في حدتها التي رافقتها بمرارة من حيث تجلس على كرسيها.

ثمّ دندنت يس بن قائلة: "إن الزوجة ترزح تحت سلطة حماتها وتعاني الويل من أقفالها. ويجب عليها أن تطيع زوجها حتى لو كان غير مصيب. ويجب على الزوجة أن تعمل طوال حياتها من دون أن تسمع كلمة شكر، لذا، فمن الأفضل أن تكوني خادمة وسيدة نفسك، وعندئذ تستطيعين أن تقفزي في البحر. لو أن لدينا بحراً...".

ابتعد لوي العجوز عن الطاولة، وأشار بصمت إلى الباب، ثمّ غادر الشقة. إنها فترة الصباح الباكر، ولكن الكلمات المثيرة بالسوء بدأت بتعكير صفونا.

أتى الآلاف من الناس إلى تشاينا تاون وأقيمت احتفالات رائعة. وعلا صوت الألعاب النارية المتنوعة، وتلوّى الراقصون وهم يتنقلون من منحنى إلى آخر. فيما ارتدى الجميع ملابس فاقعة الألوان وكأن قوس قزح كبيراً قد هبط على الأرض. وخلال فترة العصر، جاء المزيد من الناس. وكلما نظرت من النافذة، مرّت عربة بنا. وبحلول المساء، بدا الصبية المكسيكيون الذين يجرون العربات مستنزفي القوى.

وخلال فترة العشاء أصبح التين الذهبي مزدحماً كلياً. وربما وقف أكثر من عشرين شخصاً خارج الباب منتظرين أن تصبح إحدى الطاولات شاغرة. وقرابة الساعة السابعة والنصف، دخل عمي وشق طريقه عبر الزبائن المحتشدين.

وقال: "أريد سام".

نظرت حولي، فرأيت سام يعد طاولة لثمانية أشخاص. فتبع لوي العجوز نظري وخطا بخطوات عريضة عبر الغرفة، وتحدث إلى سام. ولم أستطع أن أسمع ما يقوله، ولكن سام هزّ رأسه. فقال لوي العجوز شيئاً آخر إلاّ أنّ سام هزّ رأسه مجدداً. وعندما رفض سام للمرة الثالثة، أمسك عمي بقميصه، ولكن سام دفع يد والده بعيداً. فبدأ الزبائن بالتحديق إليهما.

صاح الرجل العجوز بلغة الجي يوب قائلاً: "لا تعصِ أمري!".

"قلت لك إنني لن أفعل ذلك".

إنني أعمل إلى جانب سام منذ أشهر وأنا على يقين من أنه ليس كسولاً ولا تافهاً. سحب لوي العجوز ابنه عبر الغرفة، فارتطم

بالطاولات، وعبر به الحشد الواقف أمام الباب. فتبعتهما إلى الخارج حيث ألقى عمي سام على الأرض.

"عندما آمرك بشيء ما، نفّذه! إن الصبية الآخرين متعبون من جر العربات. وأنت تجيد القيام بذلك".

"كلا".

فقال له عمي: "أنت ابني وستنفذ ما آمرك به". وارتعد وجهه، ثم تحولت لحظة ضعفه إلى قوة مجدداً. وعندما تحدّث مجدداً بدا صوته كصوت طحن الصخور. فقال: "لقد وعدت بمنحك كل شيء".

ليس هذا المشهد أحد مشاهد الغناء والرقص التي كانت تحدث في كل أنحاء تشاينا تاون كجزء من الاحتفالات. ولم يفهم السياح كلمة مما يقال. ومع ذلك، بدا لهم المشهد آسراً ومسلياً. وعندما بدأ عمي يركل سام في الزقاق، ليحتهما مع الآخرين. فلم يقاوم سام أو يصرخ، بل تحمّل كل شيء، أي نوع من الرجال هو؟

عندما وصلنا إلى موقف العربات في ساحة ذا فور سيزن، نظر لوي العجوز من فوق إلى سام وهو يقول: "أنت صبي تجر العربات ومولود في عام الثور، ولهذا السبب أحضرتك إلى هنا. والآن قم بعملك!".

شحب وجه سام من الخوف والخزي، ثم لحظ شيئاً قشيباً على قدميه. فبدا أطول قامة من أبيه. وللمرة الأولى، لاحظت أن هذا الأمر كان مزعجاً للرجل العجوز كما كان طولي مزعجاً لوالدي. اقترب سام خطوة من أبيه ونظر إليه من الأعلى قائلاً بصوت متهدج: "لن أجر عرباتك. لن أفعل هذا الآن ولن أفعله مطلقاً".

عندئذ، أصبح الرجلان مدركين أن الصمت يحيط بهما على ما يبدو. فنفض عمي رداءه فيما جال سام بنظره في الأنحاء بقلق. وعندما

رآني، انكمش جسده بأكمله، ثم انطلق من بين السياح المتدفقين إليه وحولنا الفضوليين فجريت خلفه.

وجدته في غرفتنا الخالية من النوافذ. ووجدت قبضتيه مشدودتين، ووجهه محمراً من الغضب والأذى، ولكن كتفيه بقيتا مشدودتين فيما كانت وضعيته مستقيمة وهيئته موحية بالتحدي.

"لشوقت طويل شعرت أمامك بالحرج والخزي، ولكنك الآن تعرفين الحقيقة. لقد تزوجت رجلاً بلا العربات".

صدقته من أعماق قلبي، ولكنّ عقلي حاول أن يجد تفسيراً آخر لكلامه. فقلت: "ولكنك الابن الرابع...".

"ابن بالوثيقة فقط. إن الناس في الصين يسألون دائماً: ما اسمك؟ ولكن ذلك يعني فعلاً: ما اسم عائلتك الفعلية؟ إن لوي مجرد اسم على ورقة بالنسبة إليّ، ولكنني في الواقع من عائلة وونغ. لقد ولدت في قرية لو تين التي تقع في مكان غير بعيد عن قريتك في المقاطعات الأربع. وكان والدي مزارعاً".

جلست على حافة السرير وعقلي يدور. إنه صبي بلا العربات وابن وثيقة. وهذا يجعلني زوجة بالوثيقة، مما يعني أننا مقيمون هنا بشكل غير قانوني. شعرت بالغثيان. ومع ذلك، رددت له الحقائق التي قرأتها في الأوراق التعليمية قائلة: "والدك هو الرجل العجوز. وولدت في قرية واه هونغ. وأتيت إلى هنا وأنت طفل...".

هزّ سام رأسه وقال: "لقد مات ذلك الصبي في الصين قبل سنوات عديدة. فسافرت أنا مستخدماً أوراقه".

تذكّرت أن رئيس المجلس أراني صورة صبي صغير معتقداً أنها لا تبدو إلى هذا الحد شبيهة بسام. لماذا لم أسأل عن ذلك أكثر؟ يجب أن أسمع الحقيقة. إنني أريدُ من أجلي ومن أجل أمي ومن أجل جوي،

وأردتُ منه أن يخبرني كل شيء من دون أن ينطوي على نفسه، وينأى بها بعيداً كما يفعل عادة. فاستخدمت وسيلة تعلمتها من الأسابيع التي أمضيناها خلال التحقيقات في جزيرة أنجل.

قلت له على أمل ألا يهزه صوتي المنفعل بسبب المشاعر التي تحتدم في داخلي: "حدثني عن قريتك وعائلتك الحقيقية". وأعتقد أنه إن تحدث عن هذه الأمور المربكة فسيطلعني في نهاية المطاف على الطريقة التي أصبح فيها ابن وثيقة لعائلة لوي. فلم يجبني على الفور، بل حدّق إليّ كما اعتاد أن يفعل منذ المرة الأولى التي التقينا فيها. لطالما اعتبرت نظرته تلك نظرة تعاطف معي، ولكنه ربما كان يحاول أن يظهر تعاطفه بسبب ماضينا وأسرارنا المشتركة. فحاولت أن يبدو تعبير وجهي مثل تعبيره، ولكن الغريب هو أنني شعرت بمماثلة فعلاً.

ثم أخيراً: "كانت لدينا بركة أمام بيتنا. فكنا نسمح للجميع أن يرموا السمك فيها ويربوه. وكان في وسع أي شخص أن يغمس جرة في الماء ويخرجها ويجد فيها سمكاً من دون أن يتوجب عليه أن يدفع لنا. وعندما جفت مياه البركة، أصبح في وسعنا أن نلتقط السمك ونحن جالسون على الطين. ومع ذلك لم نطلب من أحد أن يدفع ثمن ذلك. واعتدنا أن نزرع الحقل المجاور لبيتنا بالخضروات والبطيخ وأن نربي حيوانين مقرزين في العام. وهكذا، لم نكن أغنياء ولا فقراء أيضاً".

لكنّ الأمر بدا فقراً بالنسبة إليّ، فقد كانت عائلته تعيش عيش الكفاف. وعندما أدرك فهمي حقيقة حياته، تابع كلامه بتردد: "عندما حلّ الجفاف، حملت إلى جانب أبي وجدي بمشقة شديدة محاولين أن نجعل الأرض تنبت لنا المحاصيل. وذهبت أمي إلى قرى أخرى لتكسب المال من خلال مساعدة الآخرين على زراعة الأرز أو حصاده، ولكن

تلك المناطق كانت تعاني بدورها من شحّ الأمطار. فبدأت تنسج الثياب، وتأخذها إلى السوق محاولة أن تساعد عائلتنا، لكن ذلك لم يكشف لسائلين معيشتنا. فلا يمكن لأحد أن يعيش على الهواء وأشعة الشمس. عندما توفيت أختان من أخواتي، ذهبت بصحبة أخي وأبي إلى شنغهاي لنعمل هناك، ونكسب مالاً كافياً يعيننا على العودة إلى قريتنا لو تين وزراعة الأرض مجدداً. وبقيت أمي في البيت مع أختي وأخي الصغيرين".

لكنهم لم يعثروا في شنغهاي على الأمل بل على المشقة فقط. إذ لم تكن تربطهم علاقات وثيقة بأحد هناك، لم يستطيعوا العثور على وظائف في المصانع. فعمل والد سام في جر العربات، بينما راح سام الذي كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره وأخوه الذي يصغره بعامين يبحثان عن أعمال صغيرة. فباع سام أعواد الثقاب في الشوارع بينما كان أخوه يجري خلف شاحنات الفحم ليلتقط القطع التي تسقط منها ليبيع الفقراء إياها. وكانوا يأكلون قشور البطيخ التي يلتقطونها من علب القمامة صيفاً والعصيدة الممددة بالماء شتاء.

تابع سام كلامه قائلاً: "عمل والدي في جر العربات بكل قوته. في البداية، كان يشرب الشاي ومعه قطعتان من السكر ليستعيد قوته ويبرّد بشرته. وعندما قلّت نقودنا لم يعد يتحمل سوى نفقة الشاي الرخيص المصنوع من التفل والقشور من دون سكر. وعندئذ بدأ يدخن الأفيون ككل الذين يجرّون العربات. إنه ليس أفيوناً حقيقياً! فهو لم يكن يتحمل نفقته! ولم يدخنه من أجل المتعة أيضاً، وإنما ليحفزه على جر العربة في أشد الأجواء حرارة أو حتى عندما يخور إعصار. وكان يشتري البقايا التي يتركها الأغنياء ويبيعها الخدم. فمنح الأفيون والدي قوة مزيفة، ولكن قوته بدأت تخور وقلبه أخذ يضعف. وسرعان ما بدأ

يسعل دماً. يقال إن المرء لا يرى رجلاً يجر العربات يصل إلى سن الخمسين وإن معظم الذين يعملون في هذه المهنة يكونون قد لفظوا أنفاسهم عندما يبلغون الثلاثين. لقد توفي والدي في الخامسة والثلاثين من عمره. فلففته بحصيرة من القش وتركته على الشارع، ثم حللت محله في جر العربة. وكنت في السابعة عشرة وأخي في الخامسة عشرة".

وبينما كنت أصغي إليه وهو يتكلم كنت أفكر في كل العربات التي ركبتها في حياتي وكيف أنني لم أفكر قط في الرجال الذين يجرونها ولم أعتبرهم بشراً حقيقيين. إذ إنهم بالكاد كانوا يبدون لي من بني البشر. وأتذكر كيف أن العديد منهم لم يملكوا قمصاناً أو أحذية وكيف كانت عظامهم وأكتافهم بارزة من تحت جلودهم وكيف كنت أرى العرق يتصبب من أجسادهم حتى في الشتاء.

تابع سام قصته قائلاً: "تعلمت أن أحصل على بقشيش إضافي عبر حمل الركاب من عربتي إلى أبواب بيوتهم خلال موسم الأعاصير لئلا يبتلوا أحذيتهم. وتعلمت أن أنحني للرجال والنساء وأدعوهم لركوب عربتي وأدعوهم بسيدي وسيدتي. ولطالما أخفيت شعوري بالخزي عندما يضحكون من لغتي الإنكليزية السيئة. فكنت أجني تسعة دولارات في الشهر، وبالرغم من ذلك لم أستطع أن أرسل المال إلى عائلتي في قرية لو تين. إنني لا أعرف الآن ما حل بهم. فلا بد من أنهم أموات على الأرجح. لم أستطع أن أعتني بأخي الصغير الذي انضم إلى الأطفال الفقراء الآخرين الذين يساعدون على دفع العربات فوق الجسور المائلة والمنحدرات الصعبة مقابل بضعة قروش في اليوم، ثم توفي بمرض رئوي في الشتاء التالي". أمسك سام عن الكلام بينما كانت ذاكرته تعود به إلى تلك الأحداث في شنغهاي، ثم سأل: "هل سمعت

على الإطلاق أغنية صبية العربات؟". فلم ينتظر أن يسمع إجابتي بل بدأ بالغناء:

"ليشتري الأرز، يجعل قبعته وعاءه.
ليشتري حطب الموقد، يجعل ذراعيه وعاءه.
يعيش في كوخ من القش،
والقمر سراجه الوحيد".

عـــاد إليّ ذلــك اللحـــن من الماضي، وعادت بـــي الذاكرة إلى شوارع شنغهاي وأنغامها. إن سام تحدّث عن مصاعبه، ولكني شعرت بالحنين إلى وطني.

تابع كلامه قائلاً: "كنت أصغي إلى الركاب الشيوعيين. فأسمعهم يتذمرون من أن الرجال الفقراء منذ العصور الغابرة كانوا يجدون دائماً ما يدفعهم للعثور على الرضا في الفقر، ولكن تلك لم تكن طريقة حياتي وسبب موت أبـــي وأمي. أظن لو أنني استطعت أن أغير مصيريهما، ولكـــن، فـــور موتهما لم يعد في إمكاني أن أفكر إلا في لقمة عيشي. وكـــنت أفكر في نفسي: إذا كان زعماء عصابة غرين قد بدأوا حياتهم بجر العربات، فلماذا لا يمكنني أنا أن أفعل ذلك؟ لم ألتحق بالمدرسة في لـــو تـــين لأنني مجرد ابن مزارع، ولكن الجميع يدركون أهمية التعليم. فتعلمت لهجة الوو وتعلمت المزيد من اللغة الإنكليزية. لم أتعلّم الحروف الأبجدية، وإنما بعض الكلمات فقط".

وبينما كان سام يواصل حديثه كنت أشعر بقلبـــي ينفتح له أكثر مـــن ذي قبل. فعندما التقيته للمرة الأولى في حديقة يو يوان، لم يكن انطباعـــي الأول عنه سيئاً أبداً. والآن، أدركت كم عمل جاهداً ليغير حياته وكم أسأت فهمه. كان يتحدث لغة الجي يوب ولهجة الوو التي

يـــتم التحدث بها في الشوارع بطلاقة تامة، بينما بدت لغته الإنكليزية ركيكة. أتذكر أنني لاحظت في اليوم الذي التقينا فيه أن حذاءه وبنطاله جديـــدان. فأدركت الآن أنها ولا بد أول ملابس جديدة اشتراها لأنه بـــدا غـــير مـــرتاح فيها. وأتذكر أنني لاحظت اللون الأحمر في شعره فظننت أن له علاقة بنمط حياته في أميركا من دون أن أميز أنها العلامة المعـــروفة الناتجة عن سوء التغذية. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك سلوكه الراقـــي. إذ لطالمـــا كان محترماً معي ويعاملني ليس كزوجة بل كزبونة يجـــب إرضـــاؤها. ولطالما انحنى أمام لوي العجوز وبين بن ليس لأنهما والداه وإنما لأنه بمثابة خادم مطيع لهما.

قـــال زوجي: "لا تأسفي لما حدث لي. فقد كان والدي سيموت على كل حال لأن العمل بالزراعة ليس جيّداً أيضاً. إذ يجب على المرء أن يحمـــل أحمـــالاً ثقيلة على كتفيه وأن ينحني في حقول الأرز طوال اليوم. إن الثروة الوحيدة التي جمعتها أتت من عملي بيديّ وقدميّ. لقد بـــدأت حـــياتي ككل من يبدأون بجر العربات من دون أن أعرف ما أفعلـــه، وقدماي الحافيتان تمشيان على الأرض وكأنهما زوج من أوراق النخـــيل. وتعلمـــت أن أدفع معدتي إلى الداخل وأشد صدري وأرفع ركبتيّ عالياً وأمد رأسي وعنقي إلى الأمام. فمنحني عملي بجر العربات، أكتـــب لقب الزوجة الحديدية".

لقد منحت والدي يطلق ذلك الوصف من قبل على أفضل صبيته، وهـــو وصف يوحي بظهر قوي مستقيم وصدر عريض مفتوح وقوي كمروحة مصنوعة من الحديد. وأتذكر أيضاً ما قالته لي أمي عن مولود عـــام الثور. فهو قادر على تقديم تضحيات كبيرة في سبيل رخاء عائلته كمـــا أنـــه يجر حمله وأكثر منه. أضف إلى ذلك أنه متواضع ومثابر كالثور الذي يمثل علامته. إنه يساوي إلى الأبد وزنه ذهباً.

تابع سام: "كان أكثر ما يسعدني هو أن أجني أربعة وأربعين قرشاً كتعرفة لركوب العربة. بعد ذلك، أصبحت أبدل هذه القروش بخمسة عشر سنتاً أميركياً. فواصلت تحويل قروشي إلى سنتات فضية وسنتات الفضية إلى دولارات أميركية. وكلما استطعت أن أضع بقشيشاً إضافياً في جيبي، كلّما شعرت بسعادة أكبر. ولطالما فكرت في أنني إن استطعت أن أجني عشرة سنتات في اليوم، بحيث مئة دولار خلال ألف يوم. وهكذا، كنت على أتم الاستعداد لتجرُّع المرارة في سبيل كسب المال".

"هل عملت لدى والدي؟".

"إنني على الأقل لم أعانِ ذلك الذل". ومدّ يده ليلمس سوار اليشب في يدي. وعندما لم أعترض، أدخل إحدى أصابعه من خلال السوار، وبشرته بالكاد تلمس بشرتي.

"إذاً، كيف التقيت الرجل العجوز؟ ولماذا توجب عليك أن تتزوّج بسي؟".

أجاب قائلاً: "لقد كانت عصابة غرين تملك أكبر تجارة للعربات. وكنت أعمل لديهم. وقد اعتادت العصابة أن تقوم مقام الخاطبة بين أولئك الذين يريدون أن يصبحوا أبناء وثيقة والذين يبحثون عنهم. وهكذا، قررت أن أغير حياتي. وكانت لدى لوي العجوز وثيقة ابن يريد أن يبيعها...".

فأكمل كلامه وأنا أهز برأسي وأستعيد تلك الذكريات التي بدأت تعاودني قائلة: "فأراد الحصول على العربات والعروسين. لقد كان والدي مديناً لعصابة غرين. ولم يبقَ لديه سوى ابنته وعرباته. فأتيت ومي إلى هنا كما أتت عربات والدي أيضاً، ولكنّ هذا لا يفسر سبب وصولك إلى هنا".

"كان سعر شراء الوثيقة عبارة عن مئة دولار مقابل كل سنة من سنوات حياتي، وكنت في الرابعة والعشرين، ولهذا السبب كانت الكلفة ألفين وأربعمئة دولار مقابل حصولي على رحلة القارب بالإضافة إلى الغرفة حالما أصل إلى لوس أنجلوس. وبما أنه كان من المستحيل أن أتمكن من كسب ذلك المبلغ من تسعة دولارات في الشهر، فقد حملتُ لأسدد ديني الرجل العجوز، ليس فقط مقابل وجودي هنا، ولكن مقابل وجودك أنت وجوي أيضاً".

"لهذا السبب لا يدفع لنا أي راتب؟".

فأومأ برأسه قائلاً: "إنه يخطط بمالي معه إلى أن يتم سداد ديني. كما أنه لا يدفع للأعمام أيضاً لأنهم مثلي أبناء وثيقة، ولكن فيرن وحده هو الابن الحقيقي".

"ولكنك تختلف عن الأعمام الآخرين...".

"هذا صحيح. إذ إن عائلة لوي تريدني كبديل حقيقي لابنها الذي مات، ولهذا السبب نعيش معهم، وأعمل مديراً للمقهى بالرغم من أنني لا أعرف شيئاً عن الطعام أو العمل. وإن اكتشفت سلطات الهجرة حقيقتي، فستُزج بسي في السجن وأُرحّل، ولكنني قد أتمكن من العبور على طريقة البقاء لأن لوي العجوز جعلني شريكاً له بالوثيقة أيضاً".

"ولكنني لا أفهم السبب الذي دفعه لتزويجك بسي؟ ما الذي يريده منا؟".

"يريد شيئاً واحداً فقط. إنه الحفيد، ولهذا السبب اشتراك وأختك. إنه يريد حفيداً بأي وسيلة كانت".

فشعرت بصدري ينقبض. إذ إن الطبيب قد قال لي إنني على الأرجح لن أتمكن من إنجاب الأطفال، ولكن إن قلت ذلك لسام فهذا يعني أنه سيتوجب عليّ أن أطلعه على السبب، وبدلاً من ذلك قلت له:

"إن كـان بسريرتك كـائن حقيقي، فلماذا يجب عليك أن تسدد له ديونك؟".

عـندما أمسك بيدي، لم أسحبها بعيداً بالرغم من الرعب الذي اعتراني خوفاً من أن يكتشف أمري.

تـرنم قـائلاً: "يا بول دراغون". نادراً ما كان والداي يناديانني باسمي الصيني، ولكنني أسمعه الآن وكأنه اسم دلال. ثم قال: "يجب على الابن أن يسدد ديونه من أجل نفسه وزوجته وابنته. لطالما فكرت وأنا في شـنغهاي في أنني سأصبح رجلاً من رجال الجبل الذهبـي عندما يموت الرجل العجوز، وأملك الكثير من المشروعات التجارية. ثم أتيت إلى هنا. في بادئ الأمر، مرت عليّ أيام أردت فيها أن أعود إلى الديار وحسـب، ولكنّ رحلة العودة تكلف مئة وثلاثين دولاراً. ففكرت في أنـني أستطيع أن أقوم بذلك من خلال إخفاء بقشيشي، ثم أتيت أنت وجـوي. وقلـت في نفسي: *أي نوع من الأزواج أكون إن تركتكما هنا؟ أي نوع من الآباء أكون؟*".

مـنذ اللحظة التي وصلت فيها وماي إلى لوس أنجلوس، كنا نفكر في طـرائق تساعدنا على الهرب. لينا علمنا أن الأفكار نفسها كانت تراود سام.

واصل سام كلامه قائلاً: "فبدأت أفكر في العودة بك وبجوي إلى الـوطن معـاً، ولكـن كيف يسعني أن أدع طفلتي تسافر في الدرجة الرخيصة؟ قد تموت هناك". ضغط على يدي بين يديه، وحدق إلى عينيّ فلم أشح بوجهي. ثم قال: "إنني لسـت كالآخرين. فأنا لا أريد أن أعود إلى الصين بعد الآن. ومع أنني أعاني هنا كل يوم، فهو مكان جيد كي تربـى فيه جوي".

"ولكن الصين موطننا. وسيرحل اليابانيون في نهاية المطاف...".

"ولكن، ما الذي تحبه الصين لجوي؟ ما الذي أتيته لنا جميعاً؟ لقد كنت أعمل في شنغهاي بجر العربات. وكنت أنت فتاة عرض".

لم أدرك أنـه يدرك حقيقة عملي وعمل ماي، ولكن الطريقة التي قال بها ذلك جرّدتني من كل الفخر الذي لطالما شعرت به حيال عملنا.

قال: "لا أرغب في أن أكره شيئاً بعد الآن. ولكن، لا يسعني إلا أن أكره مصيري ومصيرك أيضاً. وقد لا نستطيع أن نغير أنفسنا ولا ما حدث لنا، ولكن ألا ينبغي لنا أن نغير مصير ابنتنا؟ أي مستقبل ينتظرها في الـصين؟ إنني أستطيع هنا أن أسدد مال الرجل العجوز، وأكسب حـريتي في نهايـة المطـاف. وعندئذ سنمنح جوي حياة ملائمة مليئة بالفـرص التي لم نحظ أنا وأنت بها قط. وربما نستطيع حتى أن نلتحق بالكلية يوماً ما".

شعرت بحديثه يخاطب قلب الأم داخلي، ولكنّ عقلي الذي عاين خـسارة والدي لكل شيء، وحسدي الذي تمزق بسبب الجنود القردة لا يرى في الأفق أي بارقة أمل تعين على تحقيق هذه الأحلام.

فقلت له: "إننا لن نستطيع أبداً أن ننفصل عن هذا المكان وهؤلاء الـناس. انظـر حـولك. لقد عمل العم ويلبرت لدى الرجل العجوز لعشرين عاماً. وحتى الآن لم يسدد ديونه".

"ربما يكون قد سدد ديونه، وبدأ يدخر كنـزه ليعود إلى الوطن رجـلاً ثـرياً. وربمـا يكون سعيداً في حياته الحالية. إذ إن لديه عملاً ومكانـاً ليعيش فيه وعائلة يتناول العشاء معها في ليالي الأحد. إنك لا تـدركين ما يعنيه أن يعيش المرء في قرية ليسـت فيها كهرباء ولا مياه جارية، وأن تكون لديه غرفة واحدة أو غرفتان لكل العائلة وأن يأكل فقـط الأرز والخضار ما لم يكن هناك احتفال أو مناسبة، ولكن حتى هذه الحياة على مرارتها تتطلب الكثير من التضحيات".

"كل ما أقوله هو أن رجلاً تعرفه بالكاد يستطيع إعالة نفسه، فكيف سنستطيع أن تعيلنا نحن الأربعة؟".

"أربعة؟ تقصدين ماي؟".

"إنها أختي. وقد وعدت أمي أن أعتني بها".

فكّر للحظة ثم قال: "إنني صبور. وأستطيع أن أنتظر وأن أعمل بجد". وابتسم بخجل ثم قال: "إنني أذهب في الصباح، عندما تذهبين لمساعدة بيس بن ورؤية جوي في القنديل الذهبي، لأعمل في معبد كسوان يين. فقد حصلت على وظيفة إضافية هناك في بيع الأموكين البخور بجانب البخور البوذية الكبيرة. ويفترض بي أن أقول لهم: ستتحقق أحلامكم لأن بركة هذا الصالح الخيّر لا حدود لها. ولكني لا أحسن لفظ تلك الكلمات باللغة الإنكليزية. ومع ذلك، يشفق الناس عليّ، على ما يبدو، ويشترون مني البخور".

نهض ومشى إلى مرآة الزينة، فبدا رجلاً نحيلاً بشكل مؤسف، ولكنني لا أعرف كيف لم ألاحظ مروحته الخشبية من قبل. فتش في الدرج العلوي ثم عاد إلى السرير ومعه جورب منتفخ عند الأصابع. قلب الجورب فسقطت منه قطع عملات متنوعة على الفراش.

شرح لي قائلاً: "هذا ما وفرته من أجل جوي".

صررت بيدي على النقود وقلت: "إنك رجل صالح". ولكن يصعب عليّ أن أتخيل كيف سيغير هذا المبلغ الشحيح حياة جوي.

اعترف لي قائلاً: "أعلم أن هذا ليس مبلغاً كبيراً، ولكنه أكثر مما كنت أجنيه من جر العربات. وسأضيف المزيد من المال إليه. وربما في غضون عام أو نحو ذلك، أستطيع أن أصبح مساعد طاهٍ. وإن تعلمت أن أصبح طاهياً رئيساً، فقد أجني نحو عشرين دولاراً في الأسبوع. وحالما نصبح قادرين على الانتقال للعيش وحدنا، سأعمل كبائع سمك

متجول أو بستاني. فإن عملت كبائع سمك، فستتمكن دائماً من أكل السمك. وإن عملت بستانياً، فستتمكن دائماً من أكل الخضروات".

فاقترحت عليه بتردد قائلة: "إن لغتي الإنكليزية جيدة. وربما يمكنني العثور على عمل خارج الحي الصيني".

ولكن ما الذي يجعل أياً منا يتصور أن لوي العجوز سيطلق سراحنا على الإطلاق؟ وحتى لو فعل ذلك، أليس من واجبي أن أخبر سام الحقيقة أيضاً؟ ليس ذلك الجزء المتعلق بأن جوي ليست ابنته! فذلك سر ماي أيضاً وليس سري وحدي، ولن أبوح به أبداً، ولكن يجب عليّ أن أخبره بما فعله الجنود القزمة بي وكيف قتلوا أمي.

فبدأت كلامي بتردد: "لقد تلطخت بعار لن أتمكن من محوه أبداً". وكنت آمل أن ما قالته أمي عن برج الثور صحيح: أي إنه لن يتخلى عني في وقت الشدة، وإنه سيبقى إلى جانبي بكل إخلاص، وإنه طيب ومحب للخير. ألا يجب عليّ أن أصدقها الآن؟ ومع ذلك، فالمشاعر التي ظهرت على ملامحه، وهي الغضب والاشمئزاز والشفقة، لم تسهل عليّ مهمة إطلاعه على قصتي.

عندما انتهيت من سرد القصة قال لي: "لقد عانيت من كل هذا، ومع ذلك ولدت جوي سليمة. يجب أن تحظى بمستقبل عظيم". ووضع إصبعه على شفتي ليمنعني من التفوه بالمزيد، ثم قال: "أفضل أن أتزوج من اليشب المكسور على أن أتزوج من الطين الخالي من العيوب. لقد اعتاد والدي أن يقول هذا عن أمي التي كانت امرأة طيبة ومخلصة مثلك أنت تماماً".

سمعنا الآخرين وهم يدخلون الشقة ولكننا لم نتحرك. فاقترب سام مني وهمس في أذني قائلاً: "عندما جلسنا على ذلك المقعد في حديقة بو يوان، قلت إنني استلطفتك وسألتك إن كنت قد استلطفتني. فأومأت

برأسك فقط، وهذا أكثر مما يتمناه معظم الناس في الزواج المدبر. فلم أتوقع الوصول إلى السعادة قط، ولكن ألا ينبغي لنا أن نبحث عنها؟".

فالتفتُ إليه ثم اقتربت منه هامسة: "ماذا عن المزيد من الأطفال؟" وبالرغم من القرب الذي شعرت به إلى جانبه، إلا أنه كان يصعب عليّ أن أسرد الحقيقة كاملة. فقلت: "بعد أن ولدت جوي، قال لي الأطباء في جزيرة آنجل إنني لن أتمكن أبداً من إنجاب طفل آخر".

"لطالما قيل لنا ولمن مثلنا إننا إذا لم ننجب ابناً في عمر الثلاثين، فهذا دليل على سوء طالعنا. إن أسوأ إهانة يمكن للمرء أن يوجهها إلى أحد في الشارع هي: *أتمنى أن تموت بلا ابن*. وقد قيل لنا إننا إذا لم ننجب ابناً، فينبغي لنا أن نتبنى ابناً ليحمل اسم العائلة ويعتني بنا عندما نصبح أسلافاً. ولكن ماذا إن أنجب المرء ابناً... لا يفعل... لا يستطيع...". وحاول جاهداً، كما كنت أفعل وماي في أغلب الأحيان، أن يعثر على اسم لمشكلة فيرنون.

فأكملت جملته قائلة: "ينبغي له عندئذ أن يشتري ابناً كما أخبرك لوي العجوز كي تتمكن من العناية به وبين بن عندما ينضمان إلى الأسلاف".

"وإن لم أفعل أنا ذلك، فقد يفعل ذلك ابني الذي قد تنجبه يوماً ما. وسيضمن لهما الخلود وجوداً سعيداً هنا وهناك".

"ولكني لا أستطيع أن أمنحهم ذلك".

"يجب ألاّ يعرفا الحقيقة لأنني لا آبه لذلك. ومن يدري؟ فربما يمنح فيرنون أختك ابناً، وعندئذ سيتم سداد جميع الديون والالتزامات".

"ولكني، يا سام، لا أستطيع أن أمنحك ابناً".

"يقول الناس إن العائلة لا تكتمل إلا بوجود الابن، ولكنني سعيد بوجود جوي، فهي من لحمي ودمي، وكلما ابتسمت وأمسكت

أصابعي أو حدقت إليّ بعينيها السوداوين، شعرت أنني أسعد الناس حظاً". وبينما كان يتكلم وضعت يدي على يده وأمسكت أصابعه. فتابع قائلاً: "ربما نكون قد عانينا من حظوظ سيئة، ولكنها مستقبلنا، يا بسول. إننا نستطيع أن نمنحها كل شيء لأنها طفلة وحيدة، وأن نحظيها بالتعليم الذي لم أحظَ به قط. فربما تصبح طبيبة أو... ولكن هذه الأمور لا تهم لأنها دائماً ستكون منبع عزائنا وفرحتنا".

وبينما كنا جالسين على حافة السرير وضعت ذراعي حوله لأقربه مني وأنا أستلقي. لم يكن من السهل عليّ أن أفعل ذلك. لذا، أبقيت عينيّ مغمضتين والرعب يعتصر قلبي. إذ لن تمنحني تلك اللحظة مشاعر السعادة والفرح ولا أياً من تلك الأحاسيس التي يتغنى بها الشعراء، ولكنّ السعادة الحقيقية في نظري تكمن في القرب من سام، وفي الوحشة التي كنا نشعر بها، والطريقة التي نفتقد بها إلى أهلنا، وصعوبة حياتنا هنا في أمريكا حيث نعيش حياة عبيد البلاد الضائعة ونرزح إلى الأبد تحت وطأة الحكم الأجنبي.

بعد مرور بعض الوقت، نهضت ودخلت الغرفة الرئيسة لأحضر جوي. فوجدت أن فيرن وماي قد دخلا غرفتهما، ولكنّ لوي العجوز وين بن كانا يتبادلان نظرات ماكرة.

سألتني بن بن وهي تعطيني جوي: "ستنجبين لنا حفيداً الآن؟ أنت كنة صالحة".

فأضاف الرجل العجوز قائلاً: "ولكنك ستكونين كنة أفضل إن قلت لأختك أن تقوم بواجبها".

فلم أرد على كلامه بل قمت بمجرد أخذ جوي إلى غرفتنا، ووضعتها في درجها في أسفل الخزانة. ثم مددت يدي حول عنقي وأخذت الكيس الذي أعطتني إياه أمي. وفتحت الدرج العلوي

ودسسته إلى جانب الكيس الذي أعطت ماي إياه. فأنا لست بحاجة إليه بعد الآن. ثم أغلقت الدرج وعدت إلى سابي، وتمدّدت إلى جانبه في السرير. وبينما كان يمرر يده عليّ، استجمعت شجاعتي لأطرح عليه سؤالاً آخر.

فقلت له: "إنك أحياناً تختفي خلال فترات العصر أيضاً. إلى أين تذهب؟".

فقال بصوت ناعم وحنون: "إني لم أذهب إلى تلك الأماكن في شبابي، ولن أذهب إليها هنا أبداً".

"إذاً، أين...".

"إني أعود إلى المعبد ولكن هذه المرة لأقدم القرابين إلى عائلتي وعائلتك وحتى إلى أسلاف عائلة لوي...".

"إلى عائلتي أنا؟".

"لقد أخبرتني لتوك كيف ماتت أمك، ولكني شعرت أنها لا بد من أن تكون ميتة ووالدك أيضاً. إذ لم يكن ليتوجب عليك أن تأتي إلى هنا لو أنهما لا يزالان على قيد الحياة".

إنه ذكي ويعرفني جيداً ويفهمني.

أضاف قائلاً: "وقد قدمت القرابين أيضاً إلى أسلافنا بعد أن تزوجنا".

فأومأت لنفسي لأنه أجاب المحققين في جزيرة آينجل بصراحة حيال هذا.

اعترفت له قائلة: "إنني لا أعتقد بهذه الأمور".

"ربما ينبغي لك ذلك. فقد قمنا بها لخمسة آلاف عام".

وبينما نحن مستلقيان معاً ساد الهدوء والسكينة المكان. وعندما استيقظنا صباحاً، وصلنا خبر اندلاع حريق في تشاينا تاون. فقال البائع

إنه اندلع بمحض الصدفة بسبب المفرقعات النارية التي اشتعلت خلف سوق جورج وونغ للسمك بينما أصر آخرون على أنه حريق متعمد قام به أصحاب متاجر الحي الصيني الذين لا يحبون فكرة كريستين ستيرلينغ عن القرية الصينية الأصلية أو كمّ على يد أناس من خارج لونغ أو ديزنيلاند وذلك للقضاء على منافستنا. وهكذا دارت الأقاويل. ولكن، كائناً من كان الذي أشعل الحريق، فقد لحق الدمار والخراب بجزء كبير من تشاينا تاون.

حلى أفضل الأقمار

أ

إن سيد النار عديم التمييز، فهو يشعل المصابيح، ويجعل الواحات تحيي، ويحول القرى إلى رماد، ويحرق الكتب، ويطهو الطعام، ويدفئ العائلات. فيأمل جميع الناس أن يأتي تين، بجوهره المائي، ويطفئ النيران التي لا حاجة إليها عندما تندلع. وحتى لو كان بعض الناس لا يعتقدون بهذه الخرافات، فهم يحبون أن تقدم القرابين تصرّف حكيم على الأرجح، إذ يقول الأميركيون: إن الحرص في الوقت المناسب يقي صاحبه شر الندم. ولكن لم يقدم أحد في تشاينا تاون أي قرابين لاسترضاء سيد النار أو لإطعام أحد التنانين كي يحظى بالسعادة، ولم يحظَ أحد منهم بتأمين ضد الحريق. إن هذه أمور لا تبشر بالخير، ولكنني أقول لنفسي إن الناس في أميركا يقولون أيضاً إن البرق لا يضرب المكان نفسه مرتين.

كان إصلاح أجزاء تشاينا تاون التي دمرها الحريق والماء وإعادة إعمار الأقسام التي تعرضت للخراب سيتطلبان ستة أشهر، ولكن لوي العجوز كان يعاني من وضع أسوأ من غيره بكثير. إذ لم تتعرض أمواله النقدية وحدها للحريق في معظم أجزاء مشروعاته، ولكنّ معظم ثروته الحقيقية التي تكمن في البضائع تحولت إلى رماد. فلم يعد أي مال يملأ صندوق الأسرة، ولكنّ الكثير من المال ذهب لإعادة الإعمار ولطلب البضائع الجديدة من مصانعه في شنغهاي ومن أسواق التحف الفنية في كانتون (على أمل أن تغادر البضائع تلك البلاد على سفن أجنبية وتمر

بأسان في البناء التي يغزوها اليابانيون) ولإطعام أفراد أسرته المكونة من سبعة أشخاص وكسوتهم، بالإضافة إلى دعم شركائه وأبنائه بالوثيقة الذين يعيشون في بيوت مستأجرة قريبة منا. وبالرغم من ذلك، فلم تسر أميّ من هذه الإجراءات على ما يرام مع عمي.

وبالرغم من أنه كان يصر على أن أبقى وماي إلى جانب زوجتيه لنعمل معهما، إلاّ أنه لم يكن هناك شيء لنفعله. إذ إننا لا نعرف كيف نستخدم المطرقة أو المنشار. وليست لدينا بضاعة لنحمّلها أو نضعها أو نبيعها. وليست هناك أراضٍ لنكنسها ولا نوافذ لنغسلها ولا زبائن لنطعمهم. ومع ذلك، كنت أذهب وماي وجوي إلى تشاينا تاون كل صباح لنرى كيفية تقدم عملية البناء. وكانت ماي تبدو مسرورة لدى سماعها خطة سام للبقاء معاً وادخار نقودنا. وقالت لي، وقد بدأت تبدي أخيراً نوعاً من النضج: "إنهم يؤمّنون لنا الطعام هنا، ولكن دعونا ننتظر إلى أن نتمكن نحن الأربعة من الهرب معاً".

في فترات العصر، كنا نزور توم غوبتر في شركة الأزياء الأسيوية التي تحت من النوادي. إنه يؤجر عدة الإخراج المسرحي وأزياء للممثلين ويؤدي مهمة وكيل للممثلين الكومبارس في استديوهات الأفلام، ولكنه علاوة لذلك يبدو رجلاً غامضاً. فبعض الناس يقولون إنه ولد في شنغهاي، وبعضهم الآخر يقولون إنه ربع صيني، وغيرهم يقولون إنه نصف صيني، وآخرون يقولون إن دماءه ليست فيها قطرة دماء صينية واحدة. ويطلق عليه بعضهم اسم العم توم ويسميه آخرون الأميركي توم، فيما تسميه لمن باك واه توم وتوم الأفلام السينمائية، وهذا هو الاسم الذي قدم به نفسه إليّ عند افتتاح تشاينا تاون. فتعلمت من توم أن الغموض والارتباك والمبالغة تستطيع أن تبني شهرة المرء.

إنه يساعد الكثير من الصينيين، فهو يشتري لبعضهم الملابس ويشتري من بعضهم الآخر ملابسهم، ويعثر على غرف ليقيموا فيها ويحصل لهم على وظائف، ويعد الترتيبات لدخول النساء الحوامل إلى مستشفيات لا ترحب بالصينيين، ويقوم بمقابلات مع مفتشي الهجرة الذين يبحثون عن أبناء وآباء الوثيقة. ولكنّ القلاقل تحيط به، وربما يعود ذلك إلى أنه عمل مرة كمترجم في جزيرة آنجل. فاتهمه بعضهم بإقامة علاقة غير شرعية مع إحدى النساء، وربما لأنه مغرم بالفتيات الصغيرات. ولكن كل ما أعرفه هو أن لغته الصينية الكانتونية شبه مثالية، وأنه يتحدث بلهجة الوو بطلاقة جيدة جداً، ولهذا فنحن نحب أن نسمع أصوات لكنتنا الأصلية تخرج من فمه.

طلب توم من أختي أن تعمل لوقت إضافي في الأفلام السينمائية، ولكن لوي العجوز رفض بالطبع قائلاً: "هذا عمل النساء الرخيصات". يستطيع المرء دائماً أن يتوقع ردود أفعال لوي العجوز، ولكن تصريحه هذا كان يعبّر عن آراء الكثير من الناس الذين يعتقدون أن الممثلات، سواء أكان ذلك في الأوبرا أو المسرحيات أو الأفلام، لا يمكن أن يُعتبَرن المرء سوى أفضل من بائعات الهوى بقليل.

قال توم لماي: "واصلي محاولة إقناع عمك. وقولي له إن واحدة من أصل كل أربع عشرة امرأة من حواله تعمل في الأفلام. إن هذه طريقة جيدة لجني دخل إضافي. أستطيع حتى أن أحصل له على عمل، وأعدك أنه سيكسب خلال أسبوع واحد أكثر مما فعل خلال ثلاثة أشهر وهو جالس في متجر التحف الأثرية الخاص به". فجعلتنا هذه الفكرة ننفجر ضاحكين.

كان يدرك القائمون على الاستديوهات السينمائية أنهم يستطيعون أن يستأجروا ممثلين صينيين بمبالغ بسيطة لا تتعدى الخمسة دولارات،

وهذا ما جعلهم يتأخرون حوالنا لمشاهد الحشود تملأ كل أنواع الأدوار الصامتة في أفلام مثل: المتحضي، والأفق الضائع، والجنرال يموت عند الفجر، ومغامرات ماركو بولو، ومسلسل تشارلي شان، والطيبع الأرض الطيبة. وقد تكون فترة الركود الاقتصادي قد بدأت بالانحسار، ولكن الناس يحتاجون إلى المال وهم مستعدون لفعل أي شيء للحصول عليه. ومن جهة أخرى، فقاطنو الحي الصيني الجديد، الذين يتمتعون بثراء أكثر منا، يحبون أن يعملوا كممثلي كومبارس لأنهم يحبون أن يستمتعوا بمشاهدة أنفسهم على الشاشة الفضية.

لم أرد أن أعمل في هوليوود (هوليوود)، ولم تكن أسبابي الرفض قديمة الطراز، ولكن لأني كنت أدرك تماماً أني لا أتمتع بالجمال الكافي. ومع ذلك، فأختي جميلة وهي راغبة في العمل ومصرة عليه. إذ إنها تعشق الممثلة آنا ماي وونغ بالرغم من أن الجميع كانوا يتحدثون عنها وكأنها مصدر عار لأنها دائماً تلعب أدوار الفتيات المغنيات والخادمات والقاتلات، ولكن عندما رأيت آنا ماي وونغ على الشاشة، تذكّرت الطريقة التي كان زي جي لي يرسم فيها أختي. فقد كانت ماي متألقة ومتوهجة مثلها.

توسّل توم إلينا لأسابيع لنبيعه ملابسنا الصينية التقليدية. فقال: "إنني عادة أشتري الملابس من أناس يحملونها معهم من الصين بعد زيارتهم إياها لأنهم اكتسبوا الكثير من الوزن في الديار، أو أشتريها من الناس الذين يأتون إلى هنا للمرة الأولى لأنهم خسروا الكثير من الوزن على متن الباخرة وفي جزيرة آينجل. وفي هذه الأيام، لا أحد يعود إلى الوطن بسبب الحرب. وأولئك المحظوظون بما يكفي للخروج من الصين علّقوا كل شيء وراءهم، ولكنكما أنتما الاثنتين مختلفتان عن غيركما. فقد بحث عنكما عمكما وأحضر ملابسكما".

لم أكن أمانع بيع ملابسنا لأنني مستاءة من اضطراري إلى ارتدائها إرضاء لسياح تشاينا تاون، ولكن ماي لم ترغب في أن تفرّط فيها.

فصاحت بسخط: "إن ملابسنا جميلة وتشكل جزءاً من هويتنا. لقد خيطت أثوابنا في شنغهاي من قماش مستورد من باريس. إنها أكثر أناقة من أي شيء رأيته حتى الآن".

فقلت لها: "ولكن، إن بعنا بعض ملابسنا التقليدية فسنستطيع أن نشتري ملابس جديدة أمريكية. لقد سئمت من مظهري غير العصري الذي يجعلني أبدو متخلفة".

فسألتني ماي بدهاء قائلة: "إن بعناها فما الذي سيحدث عندما يعاد افتتاح تشاينا تاون؟ ألن يلاحظ لوي العجوز أن ملابسنا قد اختفت؟".

اعتبر توم هذا القلق غير منطقي. فقال: "إنه رجل، والرجال لا يلاحظون هذه الأشياء".

ولكنه بالطبع سيفعل ذلك. فهو يلاحظ كل شيء.

فقلت وكلي أمل بأن أكون محقة: "لن يأبه للأمر طالما أننا نمنحه قسماً مما يدفعه لنا توم".

فحكّ توم رأسه قائلاً: "لا تعطياه الكثير. والركاه يعتقد أنكما ستحتاجان للمزيد من المال إن استمررتما بالحضور إلى هنا".

كنّا نبيع توم ملابسنا بالقطعة، فنختار فُستانين من أقدم ملابسنا وأقبحها، ولكنهما كانا يبدوان مدهشين مقارنة بالمجموعة التي لديه، ثم نأخذ المال ونتجه إلى برودواي إلى أن نصل إلى المتاجر الغربية، فنشتري أثواباً من الحرير، وأحذية ذات كعاب عالية، وقفازات، وثياباً داخلية جديدة، وبضع قبعات، وكل هذا من المبلغ الذي بعنا به ثوبينا. ويبقى معنا مبلغ كافٍ نقدمه إلى عمنا تجنباً لغضبه. وعندئذ، كانت تبدأ ماي

حملتها ضده. فتمازحه وتتملقه محاولة أن تجعله يستسلم لرغباتها بالضبط كما كان والدي يفعل في الماضي.

فتقول له: "إنك تريدنا أن نشغل وقتنا بالعمل، ولكن كيف يمكننا أن نعمل الآن؟ يقول بابا وماه توم إنني أستطيع أن أجني خمسة دولارات في اليوم إن عملت في الأفلام. فكر كم سيصبح المبلغ في الأسبوع! وأضف إلى ذلك الزيادة التي سأجنيها إن ارتديت زيي الخاص، إذ لديّ الكثير من الأزياء!".

فيقول لوي العجوز: "كلا".

"وبفضل ملابسي الجميلة أستطيع أن أحصل على لقطة قريبة، وسأجني عشرة دولارات مقابل هذا. وإن تمكنت من قول جملة واحدة سأجني عشرين دولاراً".

فيقول لوي العجوز مجدداً: "كلا". ولكني هذه المرة كنت أتخيله وهو يعد النقود في ذهنه.

فترتجف شفتها السفلى وهي تطوي ذراعيها، وتنكمش على نفسها لتبدو مستثيرة للشفقة. وتقول: "لقد عملت كفتاة عرض في شنغهاي. فلماذا لا يسمح لي أن أعمل كذلك هنا؟".

وهكذا، ينهار الجبل حبة تلو الأخرى إلى أن يستسلم أخيراً، فيقول: "مرة واحدة. أسمح لك بالقيام بذلك مرة واحدة".

وعندئذ تبتسم بن بن وتخرج من الغرفة، ويهز سام رأسه غير مصدق. ويتصاعد الدم إلى وجهي من فرط سروري لأنّ ماي استطاعت التغلب على الرجل العجوز بمجرد أن تصرّفت على طبيعتها.

لا أتذكر عنوان فيلم ماي الأول، ولكنها حصلت على دور فتاة مغنية بدلاً من دور فلاحة لأنها تملك ثيابها الخاصة. فكانت تخرج ثلاث ليال وتنام خلال النهار. لذا، لم أسمع شيئاً عن تجربتها إلى أن انتهى التصوير.

كانت تتذكر بصوت حالم قائلة: "لقد جلست في صالة شاي مزيفة طوال الليل وأنا أتناول كعك اللوز. لقد دعاني مساعد المخرج حبة طماطم شهية. أتتخيلين هذا؟".

بعد هذا، اعتادت ماي على مناداة جوي بحبة الطماطم الشهية، وهذا لم يبدُ منطقياً بالنسبة إليّ. وفي المرة التالية التي عملت فيها ماي كممثلة كومبارس، عادت إلى البيت بعد أن تعلمت عبارة جديدة، وهي: "ما هي بالله عليك...؟". مثل: "بالله عليك، ما الذي وضعته في الحساء يا بول؟".

وغالباً، كانت ماي تعود إلى البيت وتتبجح بالحديث عن الطعام الذي أكلته في موقع التصوير. فتقول: "إنهم يقدمون إليّ في اليوم وجبتين من الطعام الأمريكي! يجب عليّ أن أتوخى الحذر بالفعل، يا بول، وإلا أصبحت سمينة وعندها، لن تناسبني الملابس التقليدية. وإن لم أبقَ رشيقة القوام، فلن يمنحوني دوراً متكلماً". وبعد ذلك، تبدأ باتباع حمية غذائية بالرغم من أنها ضئيلة الحجم وتدرك جيداً ما يعنيه الحرمان من الطعام بسبب الحرب والفقر والجهل، وذلك قبل أن يرسلها توم لعدة أيام لتخسر الوزن الخيالي الذي اكتسبته. كانت تفعل ذلك وكلها أمل أن يمنحها المخرج جملة تنطقها. ومع ذلك، فكنت أدرك أن الأدوار المتكلمة تذهب بمعظمها للأمريكيين الذين يضعون طلاء أصفر على وجوههم ويشدون عيونهم بالشريط اللاصق ويقلدون لكنة الصينيين.

في شهر حزيران، استنبط توم فكرة جديدة. فعرضتها ماي على عمي الذي تبناها وكأنها فكرته هو.

قال توم لماي: "إن جوي طفلة جميلة. وستصبح ممثلة كومبارس ممتازة".

فقالـــت ماي للوي العجوز: "إنها تستطيع أن تجني مالاً أكثر مما أجنيه أنا".

فقـــال لي لوي العجوز: "إن بان دي محظوظة بالنسبة إلى فتاة. إذ أصبح في وسعها أن تكسب مالها الخاص وهي لا تزال مجرد طفلة".

لم أكـــن واثقـــة مـــن أنني أريد لجوي أن تمضي وقتاً طويلاً مع خالـــتها. ولكـــن حالما يرى لوي العجوز أنه يستطيع أن يجني مالاً من طفلة، حسناً...

أجبت قائلة: "سأدعها تفعل ذلك بشرط واحد". إنني أستطيع أن أشترط ما أريده إذ إنني وبصفتي أم جوي، فأنا المخولة الوحيدة لتوقيع الأوراق الـــتي تـــسمح لهـــا بالعمل طوال اليوم وأحياناً في الليل تحت إشراف خالتها ورعايتها. ثم قلت: "ستحتفظ بكل ما تجنيه من نقود".

فلم يعجب هذا القول لوي العجوز بالطبع. ولماذا سيعجبه؟

ألححت عليه قائلة: "لن يتوجب عليك أبداً أن تشتري لها الملابس مجـــدداً. ولن تدفع قرشاً واحداً لنا لطعام هذه الفتاة التي أرجو لنفسها أما".

فيبتسم الرجل العجوز لسماعه هذا.

في أوقات الفراغ، كانت ماي وجوي تبقيان في الشقة معي ومع بـــن بـــن. وفي فترات العصر الطويلة، وبينما كنا ننتظر أن يعاد افتتاح استديوهات تاون، كانت تراودني أفكار عن القصص التي روتها لي أمي عن نفسها عندما كانت فتاة صغيرة محتجزة في غرف النساء في بيت أهلها مـــع جـــدتها وأمها وزوجات أعمامها وبناتهن وأخواتها وكلهن ذوات أقـــدام مـــربوطة. لقد أخرجهن الـــسجن الذي وضعن فيه على المناورة لاحتلال المواقع، وإضمار الضغائن، وأذية بعضهن. والآن، في أميركا،

تحـــارب ماي وبن بن بعضهما، كما تفعل السلاحف في دلو من الماء، على أتفه أمور الحياة اليومية.

فقد تقول ماي مثلاً: "إن العصيدة مالحة جداً".

فيأتي رد بن بن المتوقع: "إنها ليست مالحة بما فيه الكفاية".

وعندما كانت ماي تتجول في أنحاء الغرفة الرئيـــسة مرتدية ثوباً بلا كمـــين ومـــن دون أن تـــرتدي جـــورباً ومنتعلة صندلاً مفتوحاً عند الأصابع، تتذمر بن بن قائلة: "لا ينبغي أن يراك أحد هكذا".

فتعارضـــها مـــاي قائلـــة: "إن النساء في لوس أنجلوس يحببن أن يكشفن عن أذرعهن وسيقانهن".

وتشير إليها بن بن قائلة: "ولكنك لست أميركية".

ولكـــن أكثر المشاجرات بينهما كانت تحدث بسبب جوي. فإن قالـــت بـــن بن: "ينبغي أن ترتدي كـــنزة". تجيب ماي قائلة: "تكاد تشوى من شدة الحر". وإن علقت بن بن قائلة: "ينبغي لجوي أن تتعلم التطريـــز". يكـــون رد أخـــتي علـــيها: "ينبغي لها أن تتعلم ركوب الزلاجات".

إن أكثـــر مـــا كانـــت تكرهه بن بن هو عمل ماي في الأفلام الـــسينمائية حيث تعرّض جوي لنشاطات هذه الطبقة المتدنية. وكانت تلومني لأنني سمحت بحدوث هذا.

"لـــماذا تـــسمحين لها بأخذ جوي إلى هذه الأماكن؟ إنك تريدين لابنتك أن تتزوج يوماً ما، أليـــس كذلك؟ أتظنين أن أحداً يريد عروساً تسمح لنفسها بالظهور في هذه القصص القذرة؟".

ولكن قبل أن أقول أي شيء، وربما ليس من المعني لي أن أقول أي شـــيء على الأرجح، تبدي أختي اعتراضها قائلة: "إنها ليست قصصاً قذرة، ولكنها لا تناسب أمثالك على الأرجح".

"إن القصص الحقيقية الوحيدة هي القصص القديمة. فهي تعلمنا كيف نعيش".

فترد عليها ماي بحدة مماثلة قائلة: "إن الأفلام تعلمنا كيف نعيش أيضاً. فنحن نساعد على سرد قصص نساء بطلات وطيبات. إن هذه القصص رومانسية وحديثة وليست شبيهة بقصص عذارى القمر أو الفتيات الحوريات اللواتي تيمهن الحب".

فتوبخها ين ين قائلة: "إنك سطحية جداً، وغبية، فمن الجيد أن لديك أختاً تعتني بك. يجب أن تتعلمي منها، فهي تدرك أن هذه القصص القديمة تحوي سراً لتعلمها".

تسأل ماي وكأنني غير موجودة في الغرفة قائلة: "ما الذي تعرفه بيرل عنها؟ إنها قديمة الطراز كأمنا بالضبط".

كيف يسعها أن تدعي بأني قديمة الطراز؟ كيف يسعها أن تقارنني بأمي؟ أعترف أنني أحن إلى الوطن وإلى الماضي وإلى والدينا أصبحتُ شبيهة بأمي من نواح عديدة. إذ إن كل تلك القصص القديمة عن الأبراج والطعام والتقاليد الأخرى تمنحني الراحة، ولكني لست الوحيدة التي تتطلع إلى الماضي بحثاً عن العزاء. إن ماي متألقة ومتفعلة وفاتنة بشكل لا يمكن إنكاره وهي في العشرين من عمرها، ولكن حياتها، بالرغم من اعتيادها على الذهاب إلى مواقع التصوير السينمائية والتألق عليها، ليست الحياة التي تخيلتها لنفسها عندما كنا فتاتي عرض جميلتين في شنغهاي. إن كل واحدة منا تعاني خيبة أمل في حياتها، ولكنني، كنت أتمنى لو أنها تستطيع أن تظهر لي المزيد من التعاطف.

فتسأل ين ين قائلة: "إن كانت أفلامك تعلمك أن تكوني رومانسية، إذاً، فلماذا تؤذي أختك التي تبقى معي كل يوم واجبها أفضل منك من هذه الناحية؟".

فترد لها ماي هجومها بهجوم مماثل قائلة: "إني رومانسية فعلاً!"، وهذا يسقطها سوء حظها في فخ ين ين.

فتبتسم حماتي وتقول: "لست رومانسية بما يكفي كي تمنحيني حفيداً! لقد كان ينبغي لك أن تنجبي طفلاً...".

كنت أتنهد وأنا أفكر أن هذا النوع من الجدال بين الكنة والحماة قديم قدم التاريخ. وكان يجعلني هذا الجدال أشعر بالسعادة لأن ماي وجوي تقضيان معظم الوقت في موقع التصوير بينما أبقى أنا وحدي مع ين ين.

في أيام الثلاثاء، وبعد أن نُوصِلَ الغداء إلى زوجينا في تشاينا تاون، كنا نتنقّل أنا وين ين من باب إلى باب في كل مبنى شقق ومتجر أماري في شارع سبرينغ حيث يشتري الناس خضرواتهم وصولاً إلى الحي الصيني الجديد لنجمع التبرعات لصالح جمعية الصين المتحدة الحربية وجمعية الخلاص الوطني. فلم نعد نكتفي بمجرد الاعتصام والدعم المعنوي، بل أصبحنا نعمل على الحضروات للعلب الفارغة، ونستخدمها كأوعية التسول، ونمشي في الشوارع ونتفق على ألا نعود إلى البيت إلى أن تصبح علبنا مليئة إلى نصفها على الأقل بالعملة المعدنية. كان الناس في الصين يتضورون جوعاً، وهذا ما دفعنا إلى زيارة متاجر البقالة ومطالبة أصحابها بالتبرع بالطعام الصيني المستورد الذي نقوم بتغليفه وإعادته إلى البلد الذي أتحدر منه، أي إلى الصين.

هيأ لي هذا العمل الفرصة لمقابلة عدد من الناس، جميعهم يودون أن يعرفوا اسم عائلتي الأصلية واسم القرية التي أتحدر منها. فقابلت عدداً كبيراً من أفراد عائلة ووتنغ وعائلات لي وفونغ وليونغ وموي. بالرغم من ذلك كله، لم يلاحظ لوي العجوز قط من أموالي من حي صيني إلى آخر أو مقابلتي للغرباء لأنني كنت أبقى بصحبة حماتي التي أصبحت تعاملني ليس ككنة مكروهة، وإنما كصديقة حميمة.

في أحد الأيام، وفيما كنا عائدتين من الحي الصيني الجديد عبر بـرودواي، قالت لي بن بن: "لقد اختطفت من قريتي وأنا فتاة صغيرة. هل كنت تعرفين ذلك؟".

فقلت لها بنبرة لا تخفي ما أشعر به: "كلا، لم أكن أعلم ذلك. إنني آسفة". لقد طردت من وطني، ولكنني لا أستطيع أن أتخيل أن يخرجني أحد منه بالقوة. فسألتها: "كم كان عمرك؟".

"كم كان عمري؟ ومن أين لي أن أعرف؟ ليس هناك أحد يحتوي بسالك. ربما كنت في الخامسة أو أكبر من ذلك أو أصغر. أتذكر أنه كان لدي أخ وأخت. وأتذكر وجود أشجار كستناء على طول الطريق الرئيس المؤدي إلى قريتي ووجود بركة للسمك. ولكنني أعتقد أن كل قرية كانت تحوي بركة من هذا النوع". وتمسك قليلاً عن الكلام ثم تقول: "لقد غادرت الصين قبل وقت طويل، ولكنني ما زلت أتوق إليها كل يوم وأعاني عندما تعاني، ولهذا السبب، أبذل قصارى جهدي في سبيل جمع المال لصالح الجمعية الخيرية الصينية".

لا عجب في أنها لا تجيد الطبخ، إذ إن أمها لم تعلمها بالضبط كما لم تعلمني أمي، ولكن لأسباب مختلفة. ليست لدى بن بن الرغبة في أكل شيء أفضل مما تطهيه لأنها لا تتذكر طعم حساء زعانف القرش ولا حساء الأنكليس للقرميش ولا الحمام للشمس مع أوراق الخس. إنها متشبثة بالتقاليد القديمة التي عفا عليها الزمن كما أتشبث أنا بها كوسيلة للنجاة الروحية والتمسك بذكريات الماضي. وقد يكون من الأفضل أن تعالج السعال بشاي الطبيخ الشتوي بدلاً من وضع لصاقة الخردل على الصدر. نعم، إن قصصها القديمة وأساليبها التقليدية تتغلغل في أعماقي، وتغويني وتجعل الشخصية الصينية تتسرب إلى داخلي كما تتسرب نكهة الزنجبيل داخل الحساء.

سألتها وقلبي يتألم من شدة التعاطف لما جرى لها: "ماذا حدث بعد أن اختطفوك؟".

توقفت بن بن على الرصيف والحقائب المليئة بالبوعات تتدلى من يديها، وقالت: "ما الذي تظنين أنه حدث؟ لا بد من أنك رأيت فتيات غير متزوجات ومن دون عائلات، ولا بدّ من أنك تدركين ما يحدث لهن. لقد تم بيعي كخادمة في كانتون. وحالما كبرت بعض الشيء أصبحت فتاة رخيصة. وفي أحد الأيام، عبأني أحدهم في كيس ووضعني على متن قارب. فلم أدرِ إلا وأنا هنا في أميركا".

"ماذا حدث في جزيرة آينجل؟ ألم يطرحوا عليك الأسئلة؟ لماذا لم يقوموا بترحيلك؟".

"لقد أتيت إلى هنا قبل أن يفتحوا جزيرة آينجل. إنني أحياناً أنظر إلى المرآة وأندهش لما أراه لأنني ما زلت أتوقع أن أرى تلك الفتاة من الماضي، ولكنني لا أحب أن أتذكر الأيام التي مررت بها. فأي أهمية تشكلها بالنسبة إليّ الآن؟ أتعتقدين أنني أحب أن أتذكر أنني كنت زوجة للعديد من الرجال؟". تحث بن بن الخطى على طول الشارع ما يُوجب عليّ الإسراع للتماشي معها، ثم تقول: "لقد اختلطت بالعديد مـن الرجال. ولكن لماذا يجب عليّ أن أقلق إزاء هذا الحد؟ إن الرجال يعبرون، ولكن المرأة تبقى على حالها. أتدركين ما أعنيه، يا بيرلا؟".

أحقـاً أدركه؟ إن سام مختلف عن أولئك الرجال الذين صادفتهم في الكوخ على حدّ علمي. ولكن هل بقيت المرأة نفسها. أتذكر الآن كـل الأوقات التي رأيت فيها بن بن نائمة على الأريكة. وفي أوقات أخـرى، كـان ينام عليها أحد المهاجرين من الصين، والذي يظهر في لائحـة شـركاء لوي العجوز إلى أن يقوم شخص ما يحتاج إلى عامل بأجـرة زهيدة بسداد ديونه. ولكن، عندما لا يكون هناك أحد منهم،

غالباً ما أرى بن بن في الغرفة الرئيسة نفسها في الصباح وهي تطوي ملابسها وتردد عذراً تلو آخر، مثل: "إن ذلك الرجل العجوز يشخر كجاموس الماء". أو: "إن ظهري يؤلمني، وهذا المكان مريح أكثر". أو: "إن الرجل العجوز يقول لي إنني أتحرك في الفراش كالبعوضة فلا يستطيع النوم. وإن لم يستطع النوم، يجعل الجميع تعساء في اليوم التالي، أليس كذلك؟". أدركتُ حينها أن الأسباب التي دفعتها إلى النوم على الأريكة هي الأسباب نفسها التي جعلتني أتمنى أن أتجنب النوم مع سام. فقد اقترف الرجال في حقها أشياء كثيرة تود أن تمحوها من ذاكرتها.

وضعت يدي على ذراعها، فالتقت عيوننا وساد تفاهم بيننا بالرغم من أنني لم أخبرها بما حدث لي. فكيف يسعني ذلك؟ ولكني أعتقد أنها تدرك... شيئاً ما لأنها قالت: "أنت محظوظة لأنك تحظين بصبي سليمة ومعافاة. إن ولدي...". وأخذت نفساً عميقاً ببطء وزفرته ببطء. ثم قالت: "لقد أمضيت ربما وقتاً طويلاً في ذلك العمل. وعندما اشتراني الرجل العجوز كنت قد أمضيت فيه عشر سنوات تقريباً. لقد كان هناك القليل من النساء الصينيات في ذلك الوقت من الماضي، ربما أقل من امرأة واحدة لكل عشرين رجلاً، ولكنه حصل عليّ مقابل سعر بخس بسبب مهنتي. فسررت لأنني تمكنت أخيراً من مغادرة سان فرانسيسكو. ولكنّ زوجي كان في ذلك الوقت كما هو الآن، إذ إنه قديم الطراز وبخيل في صميمه. وكل ما أراده هو إنجاب ابن. فعمل جاهداً ليمنحني ابناً".

وأومأت برأسها لرجل يكنس الرصيف أمام متجره، فأشاح بوجهه إلى الجانب الآخر خوفاً من أن تطلب منه تبرعاً.

تابعت بن بن قصتها قائلة: "عندما عاد الرجل العجوز إلى قريته الأصلية لرؤية والديه، ذهبت بصحبته". وكنت قد سمعتها تروي هذا

الجزء من قبل، ولكنني هذه المرة كنت أسمعه بشكل مختلف. فقالت: "عندما بدأ يتجول في أنحاء الصين ليشتري البضائع، تركني وحدي، ولا أعرف السبب الذي دفعه إلى ذلك. إذ ربما أرادني أن أبقى في البيت طوال الأسابيع التي سيغيبها عني، وأن أستريح ليساعدني ذلك على الحفاظ على الحمل. ومع ذلك، فقد بدأت أتجول من قرية إلى أخرى حاملنا غادر. إنني أتحدث لغة الجي يوب. فلا بد من أن قريتي الأصلية تقع في المقاطعات الأربع، أليس هذا صحيحاً؟ رحت كل يوم أبحث عن قرية تحوي أشجار الكستناء وبحيرة للسمك. فلم أعثر عليها قط. ولم أنجب ابناً أيضاً. فقد حملت عدة مرات، ولكنّ كل أبنائي رفضوا أن يتنفسوا هواء الحياة. فكنا في كل رحلة نقوم بها إلى لوس أنجلوس نقول إنني أنجبت ابناً في الصين وتركته مع جديه، وبهذه الطريقة جلبنا الأعمام إلى هنا. وكان ويلبرت أول ابن لي بالوثيقة. وكان في الثامنة عشرة من عمره، ولكننا قلنا إنه في الحادية عشرة لتطابق الأوراق التي قدمناها. وزعمنا أنه ولد بعد زلزال سان فرانسيسكو بعام، وأتى تشارلي بعده. إذ إننا عدنا إلى الصين في العام التالي، ولهذا حصلت على شهادة بأن لديّ طفلاً مولوداً في عام 1908. وكان تشارلي مولوداً في ذلك العام".

توجب علي عمي أن ينتظر طويلاً كي يؤتي استثماره ثمرته المرجوة، ولكنه نجح في نهاية المطاف وقدم إليه عمالة رخيصة لمشروعاته وملأ جيوبه بالمال.

ابتسمت بن بن وأضافت: "وماذا عن إيدغرد؟ إنه ابن ويلبرت، كما تعلمين".

لا، إنني لا أعلم بذلك. فحتى وقت قصير، كنت أظن أن كل هؤلاء الرجال هم أشقاء سام.

تابعت بين بن كلامها قائلة: "كانت لدينا وثيقة لمولود في عام 1911، ولكن إيدفرد لم يولد حتى عام 1918. فكان إيدفرد في السادسة من عمره فقط عندما أحضرناه إلى هنا، ولكن، قد أُثبت في وثيقته أنه في الثالثة عشرة".

"ولم يلاحظ أحد شيئاً؟".

هزّت بن بن بكتفيها استهزاء بغباء مفتشي الهجرة، ثم قالت: "لم يلاحظوا حتى إن إيدفرد لم يكن في الحادية عشرة. وعندما أحضرنا إيدفرد قلنا إنه صغير الحجم وناقص النمو بالنسبة إلى سنه وإنه كان يشعر جوعاً في قريته الأصلية. فأكد لي المفتشون أنه سيصبح عملاقاً، وخاصة بعد أن أتى إلى بلاده الحقيقية".

"إن هذا كله معقد جداً".

"من المفترض أن يكون معقداً. إذ إن الأميركيين يحاولون أن يمنعونا من دخول بلادهم من خلال تغيير القوانين. ولكن كلما جعلوها أكثر تعقيداً، كلما أصبح من الأسهل لنا أن نخدعهم". أمسكت عن الكلام هنيهة لتدعني أستوعب هذا ثم قالت: "لقد أنجبت ابنين فقط. واحدهما ولد في الصين، فأحضرناه إلى هنا وعشنا حياة عادية. ثم أعدناه معنا إلى قريتنا الأصلية عندما بلغ السابعة من عمره، ولكن معدته كانت معتادة على الحياة الأميركية وليست معتادة على الحياة في القرية فمات".

"إني آسفة".

قالت بن بن بنبرة واقعية تقريباً: "لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، ولكنني حاولت طويلاً أن أنجب طفلاً آخر. وأخيراً أصبحت حاملاً. فسر الرجل العجوز كثيراً وسررت أنا أيضاً. ولكن السعادة لا تغير مصير المرء. فحين جاءت القابلة القانونية لتولّد فيرنون استطاعت أن

تعرف على الفور أنه يعاني من خطب ما. وقالت إن هذا يحدث أحياناً عندما تكون الأم كبيرة في السن. ولا بد من أنني كنت قد تجاوزت الأربعين عندما ولد. فتوجب عليها أن تستخدم...".

توقفت أمام متجر يبيع أوراق اليانصيب، ثم وضعت حقائبها كي تتمكن من تشكيل يديها على شكل مخالب وقالت: "لقد سحبته من داخلي بأداة بهذا الشكل، وبدا رأسه منحنياً. فعصرت هذا الجانب وذاك إلى أن أصبح شكله أفضل، ولكن...".

التقطت حقائبها مجدداً وهي تقول: "عندما كان فيرن طفلاً صغيراً، أراد الرجل العجوز أن يعود إلى الصين ليحصل على ابن وثيقة آخر. فقد كانت لدينا الشهادة، أليس كذلك؟ وكانت آخر وثيقة لدينا. فلم أرد أن أذهب معه. إذ إن ابني سام مات هناك في القرية. ولم أرد لطفلي أن يموت فيها أيضاً. فقال الرجل العجوز: *لا تقلقي. إذ إنك سترضعين الطفل طوال الوقت.* لذا، عدنا إلى الصين وأحضرنا إيدفرد وركبنا القارب وأعدناه معنا إلى هنا".

"وماذا عن فيرن؟".

"إنك تعرفين ما يقولونه عن الزواج. يقال إن الرجل الأعمى يستطيع أن يتزوج، وكذلك الرجل المجنون. وحتى الرجل الذي يعاني من الشلل يستطيع أن يتخذ له زوجة. إن الواجب الوحيد الذي يقع على عاتق كل أولئك الرجال هو أن ينجبوا الأبناء". نظرت إليّ وهي تبدو مثيرة للشفقة كالعصفور ولكن إرادتها قوية كالخشب. ثم قالت: "من سيعتني بي وبالرجل العجوز إن لم تنجب ابناً يعتني بنا ويقدم لنا القرابين؟ من سيعتني بابني إن لم تنجب له إحداكن ابناً؟ وإن لم تكن هي، يا بيرل، فأنت يجب أن تفعلي ذلك حتى لو كان مجرد حفيد بالوثيقة، ولهذا السبب نأويك في منزلنا ونعيلك".

خطت حماتي داخل متجر البضائع الجافة لتشتري تذكرتها الأسبوعية للمشاركة باليانصيب، وهذا أمل الصينيين الأبدي، ولكني شعرت أنني أعاني قلقاً عميقاً.

شعرت أنني بالكاد أطيق الانتظار ريثما تعود ماي إلى البيت. وحالما دخلت من الباب، أصررت عليها أن تذهب معي إلى تشاينا تاون حيث كان سام يشارك في إعادة الإعمار. وعندما جلسنا نحن الثلاثة معاً على الأقفاص، أخبرتهما بما عرفته من بن بن، ولكنهما لم يبدوا متفاجئين من أي شيء أقوله.

"لا بد من أنكما لم تسمعا ما قلته أو أنني لم أقله بوضوح. لقد قالت بن بن إنهما اعتادا أن يعودا إلى قرية الرجل العجوز الأصلية ليزوروا والديه. ولطالما قال إنه قد ولد هنا، ولكن إن كان والداه يعيشان في الصين، فكيف حدث هذا؟".

نظر سام وماي أحدهما إلى الآخر ثم نظرا إليّ.

واقترحت ماي قائلة: "ربما كان والداه يعيشان هنا. فأنجبا الرجل العجوز ثم عادا إلى الصين".

قلت لها: "هذا ممكن. ولكن إن كان قد ولد في هذه البلاد وعاش فيها سبعين عاماً تقريباً، فلماذا لم تصبح لغته الإنكليزية أفضل؟".

فتحنّح سام بالنطق قائلاً: "لأنه لم يغادر الحي الصيني قط".

فهززت رأسي وقلت: "فكرا في الأمر. إن كان قد ولد هنا فلماذا لا يزال مخلصاً للصين إلى هذا الحد؟ لماذا يسمح لي ولجن بن بأن نذهب وأجمع التبرعات من أجل الصين؟ لماذا يقول دائماً إنه يريد أن يعود إلى الوطن؟ لماذا يصر إصراراً شديداً على أن يبقيا قريبين منه؟

لأنه ليس مواطناً على الإطلاق. وإن لم يكن مواطناً، فالعواقب ستكون بالنسبة إلينا...".

قاطعني سام قائلاً: "أريد أن أعرف الحقيقة".

ذهبنا للبحث عن الرجل العجوز، فوجدناه في متجر يبيع الحساء في شارع سبرينغ وهو يتناول الشاي والكعك مع أصدقائه. وعندما رآنا، نهض وأتى إلى المدخل.

"ماذا تريدون؟ لماذا لا تعملون؟".

"يجب أن نتحدث إليك".

"ليس الآن. وليس هنا".

ولكننا أصررنا على أننا لن نذهب إلى أي مكان قبل أن نعرف الأجوبة. فأشار لوي العجوز إلى حجرة بعيدة بما يكفي بحيث لا يسمع أصدقاؤه المحادثة. لقد مرت أشهر منذ الشجار الذي حدث في يوم السنة الجديدة، ولكن ثرثرة الحي الصيني لم تنته من نشر الإشاعات حوله. فحاول لوي العجوز أن يكون أكثر تهذيباً، ولكن لا يزال التفاهم بينه وبين سام محرجاً، ولم يضيع سام وقته باللباقات.

وقال: "لقد ولدت في قرية واه هونغ، أليس كذلك؟".

فضاقت عينا الرجل العجوز وهو يقول: "من أخبركم بذلك؟".

فقال سام: "ليس المهم من أخبرنا به، ولكن هل هذا صحيح؟".

لم يُجب الرجل العجوز. فنظرنا حولنا، وسمعنا صوت الضحك والثرثرة، وأصوات عيدان الأكل على أوعية الطعام. وأخيراً، تحدّث الرجل العجوز.

فقال بلغة الحي يوب: "لستم وحدكم هنا بسبب كذبة. انظروا حولكم داخل هذا المطعم. انظروا إلى الناس الذين يعملون في تشاينا تاون. انظروا إلى الناس الذين يسكنون في مجمعنا السكني وفي بنائنا. إن

كـل واحد منهم يخفي كذبة، ولكن الكذبة التي أخفيها أنا هي أنني لم أولد هنا. فعندما احترقت كل شهادات الميلاد في سان فرانسيسكو بفعل الزلزال والحريق، كنت هنا وأبلغ الخامسة والثلاثين من عمري حسب التقويم الأمريكي. وكالكثير من الناس، ذهبت إلى السلطات وادعيت أنـني ولـدت هـنا في سان فرانسيسكو، ولم أستطع أن أثبت صحة ادعائي؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا عكسه أيضاً. وهكذا، أصبحت مواطناً على الورق بالضبط كما أنت هنا ابني على الورق".

"مـاذا عن بن بن؟ لقد أتت إلى هنا قبل الزلزال. فهل ادعت أنها مواطنة أيضاً؟".

خفقت عينا الرجل العجوز من الانفعال وهو يقول: "إنها امرأة لا تجيد رواية الأكاذيب ولا تستطيع أن تحفظ سراً. إن هذا واضح، وإلا لما كنتم هنا".

فرك سام جبهته وهو يستوعب كل مضامين هذا الكلام ثم قال: "إن اكتـشف أحد أنك لست مواطناً حقيقياً، فعندئذ سيعاني ويلبرت ويانغفرد و...".

"نعـم، ولـستم جـميعاً، بمن فيكم بيرل، ستعانون ورطة كبيرة. ولهـذا السبب أحكم قبضتي عليكم هكذا، ولا أسمح بحدوث أي زلّات أو هفوات، هل هذا مفهوم؟".

سألت ماي بصوت متردد: "وماذا عني أنا؟".

"لقد ولد فيرن هنا، وهكذا، فأنت، يا ماي العزيزة، زوجة مواطن حقيقـي. لقـد أتيت إلى هنا بشكل شرعي وستبقين آمنة إلى الأبد، ولكـن يجب عليك أن تنتبهي من أجل أختك وزوجها. فإن قدم أي شـخص تقريراً ضدهما، فسيتم ترحيلهما. ومن الممكن أن يتم ترحيلنا جميعاً باسـتثناء أنت وفيرن ويان دي، ولكنني واثق من أن الطفلة

ستفضل أن تعود إلى الصين مع والديها وجديها. إنني أثق بك يا ماي، وأنا متأكد من أنك ستحرصين على منع حدوث هذا".

فشحب وجه ماي لدى سماعها هذه الكلمات وقالت: "ما الذي أستطيع أن أفعله؟".

ارتـسمت ابتسامة مقيتة على شفتي لوي العجوز، ولكنني للمرة الأولى لم أرها قاسية، وقال: "لا تقلقي كثيراً". ثم التفت إلى سام وقال: "الآن أصبحت تعرف سري كما أعرف سرك. إننا مرتبطان ببعضنا إلى الأبـد كابن وأب حقيقيين. ولا نحمي نحن الاثنان بعضنا وحسب بل نحمي الأصنام أيضاً".

سأل سام قائلاً: "لماذا اخترتني أنا؟ لمَ لم تختر أحدهم؟".

"إنـك تعـرف السبب. إنني بحاجة إلى شخص يحتفي بتجارتي، ويهـتم بابني الحقيقي الوحيد عندما أموت، ويحللني عندما أنتقل إلى العالم الآخر وأنضم إلى الأسلاف لأن فيرن لن يتمكن من القيام بذلك مـن أجلي. أعلم أنك تعتقد أنني رجل قاسٍ وأنك على الأرجح لن تـصدقني، ولكـنني اخترتك فعلاً لتكون بديلاً عن ابني. إنني أعتبرك دائمـاً ابـني البكر، ولهذا السبب أقسو عليك كثيراً. فأنا أحاول أن أكـون أباً صالحاً! سأمنحك كل شيء، ولكن يجب عليك أن تنفذ ثلاثـة أشياء. أولاً: يجب عليك أن تتخلى عن خطتك للهرب..."، رفـع يده ليمنعنا من الكلام، ثم قال: "لا تزعجوا أنفسكم بالإنكار. فأنا لسـت غبياً. وأعلم ما يجري في بيتي. وقد سئمت من القلق حياله طوال الوقت". أمسك عن الكلام قليلاً، ثم قال: "ثانياً، يجب أن تمتنع عـن العمل في معبد كوان ين. فهذا يسبب لي الإحراج لأنه لا ينبغي أن يحتاج ابني إلى القيام بهذا العمل. وأخيراً، يجب أن تعتني بالعناية بابني عندما تحين منيتي".

تساءلت وسام وماي النظرات. وأوحت لي نظرات ماي برسالة ضمنية وكأنها تتوسل إليّ قائلة: *لا أريد أن أنتقل إلى مكان آخر بل أريد أن أبقى في هوليوود.* فيما أخذ سام الذي ما زلت لا أعرفه جيداً يدي، ونظر إليّ ولسان حاله يقول: *ربما تكون هذه فرصة جيدة لنا.* إنه يقول إنه سيعاملني كابنه البكر الحقيقي. أما بالنسبة إليّ... فقد سئمت من الغرب لأنني لا أحبه أصلاً. فلدي عائلة لأعتني بها. ولكن هل نبيع أنفسنا بسعر أقل مما اشترانا به الرجل العجوز أصلاً؟

قال سام: "إن بقينا، يجب عليك أن تمنحنا المزيد من الحرية".

فأجابه العجوز بصرامة قائلاً: "هذا ليس تفاوضاً. إذ ليس لديكم ما تساوموني عليه".

ولكن سام لم يستسلم وقال: "إن ماي تعمل أصلاً كممثلة كومبارس، وهذا يسعدها. والآن يجب عليك أن تسمح بالشيء نفسه لأختها. دع بسول ترى ما يجري خارج تشاينا تاون. وإن كنت لا ترغب في أن أعمل في المعبد، إذاً، يجب عليك أن تدفع لي أتعابي. فإن كنت ستعدني ابنك البكر، يجب عليك أن تعاملني كما تعامل ابني".

"كنتما متساويين...".

"هذا صحيح لأنني أبذل جهداً أكثر بكثير مما يفعل هو، ولكنه يحصل على راتبه من مصروف العائلة. ويجب أن تدفع لي أيضاً، يا أبي..."، ثم أضاف سام باحترام قائلاً: "لا بد من أنك تدرك أن هذا هو عين الصواب".

نقر الرجل العجوز على الطاولة بأصابعه وهو يفكر ويفكر. ثم ضرب ضربة أخيرة ونهض. ومدّ يديه إلى كتفيّ سام وضغط عليهما. ثم مشى عائداً إلى أصدقائه لتناول الشاي والكعك.

في اليوم التالي، اشتريت جريدة ووضعت علامة على إعلان مبوّب، ثم ذهبت إلى كشك الهاتف واتصلت للاستعلام عن وظيفة في محل لتصليح الثلاجات.

فردّ صوت لطيف عند الجهة الأخرى قائلاً: "تبدين مثالية، يا سيدة لوي، نرجو حضورك لإجراء المقابلة".

وعندما وصلت إلى هناك ورآني الرجل، قال: "لم أدرك أنك صينية. فقد حسبتك إيطالية بسبب اسمك".

فلم أحصل على الوظيفة. وتكررت هذه الحادثة معي عدة مرات. وأخيراً، تقدمت بطلب إلى متجر بولوك ويلشير، فتم توظيفي للعمل في المخزن حيث لا يراني أحد، وحصلت على ثمانية عشر دولاراً في الأسبوع. وبعد المدة التي أمضيتها في تشاينا تاون وأنا أتنقل بين المقهى والمحال المختلفة خلال اليوم، وجدت المكوث في مكان واحد أكثر سهولة. وكنت أرتدي ملابس أكثر أناقة من ملابس موظفات المخزن الأخريات، وأعمل بجد أكثر منهن أيضاً. وذات يوم، كلفني معاون المدير ترتيب البضائع وتنسيقها. وبعد مرور بضعة أشهر، أعجبته لكنتي البريطانية التي أتحدث بها، فحصلت على ترقية للعمل كعاملة مصعد. ولا يمكن أن يكون هناك ما هو أسهل وأقل حاجة إلى التفكير من هذا العمل. فأنا أقوم بمجرد الصعود والنزول من العاشرة صباحاً وحتى السادسة مساء، مما يجعلني أجني بضعة دولارات إضافية خلال الشهر.

وفي أحد الأيام، خطرت فكرة ببال معاون المدير، فقال لي: "لقد وصلتنا للتو شحنة من ألعاب الماه جونغ الصينية التقليدية، فساعديني على بيعها لأنك تضفين الجو الصيني الملائم".

ثم طلب مني تغيير ملابسي وارتدائي ثوب تقليدي رخيص أرسله مصنع اللعبة، ثم اصطحبني إلى الطابق الأرضي داخل المدخل الرئيسي

وملأتُ إلى طاولتي الخاصة! وعند نهاية فترة العصر، كنت قد بعت ثماني ألعاب. وفي اليوم التالي، عدت إلى العمل مرتدية فستاناً من أجمل ملابسي التقليدية. كان لونه أحمر، ومطرزاً بزهور الفاوانيا. فبعت عشرين من الألعاب. وعندما أعلن بعض الزبائن أنهم يريدون أن يتعلموا كيفية اللعب بهذه اللعبة، طلب مني معاون المدير أن أعلم صفاً مسرة في الأسبوع مقابل أجرة ألتقاها كنسبة مئوية. فتفتّحت جيداً في عملي لدرجة أنني طلبت من معاون المدير أن يسمح لي بالخضوع للامتحان التحريري من أجل الحصول على ترقية أخرى. وعندما أعطاني مديره علامة متدنية بسبب شعري وبشرتي وعينيّ، أدركت أنني قد وصلت إلى آخر حد أستطيع الوصول إليه في متجر بولوك مع أنني أبيع من الألعاب أكثر مما تبيعه غيري من الفتيات من القفازات أو القبعات.

ولكن، ماذا عليّ أن أفعل؟ كنت سعيدة بالمال الذي كنت أجنيه. كنت أمنح ثلثه للوالد لوي – فلقد أصبحنا جميعاً ندعوه الوالد لوي بعد أن توصل وسام إلى اتفاقهما – ليحفظه في صندوق العائلة، وأدخر ثلثه الثاني من أجل جوي، وأحتفظ بالثلث الأخير لنفسي أصرفه كما يحلو لي.

وبعد مرور ستة أشهر على وقوع الحريق، أقامت تشاينا تاون في الثاني من آب عام 1939 افتتاحها الكبير الثاني. فأقيمت حفلات في الأوبرا وعروض التنانين ورقصات الأسود وألعاب الخفة والألعاب النارية الخاضعة لرقابة مشددة. وفي الأشهر التالية، عبقت روائح البخور والغاردينيا في الأجواء، وصدحت أصوات الموسيقى الصينية العالية في أرجاء الأزقة، وركض الأطفال بين السياح، وامتلأت الأزقة بالغريبين، ولكن تشاينا تاون لن تعود إلى سابق عهدها أبداً.

فلقد بدأ الناس بالابتعاد عن تشاينا تاون ربما لأن العديد من المواقع الأصلية التي كانت موقع جذب كبير أصبحت الآن نسخاً طبق الأصل، أو ربما لأن الحي الصيني الجديد أصبح يعتبر أكثر متعة وحداثة. وبينما تغلق نحن متاجرنا ليلاً، يغري الحي الصيني الجديد بأضوائه الساطعة الزوار بوعود من السهر والرقص والنشوة، بينما تبدو تشاينا تاون هادئة وقديمة الطراز بأزقتها القديمة وملابس سكانها التي تجعلهم يبدون أشبه بالقرويين.

استقلت من عملي في متجر بولوك واستأنفت روتيني القديم في أعمال التنظيف وتقديم الطعام في تشاينا تاون. وهذه المرة، كنت ألتقى أجراً ملائماً مقابل العمل الذي أؤديه. ولكنّ ماي لم تكن ترغب في العودة إلى العمل في المعبد الذهبي.

وقالت للوالد لوي: "إنه توم يعرض عليّ عملاً بدوام كامل لأساهم في العثور على ممثلي الكومبارس، وأحرص على أن يصل الجميع في الموعد المحدد من أجل ركوب الحافلة إلى موقع التصوير، ولأساعد في الترجمة من الإنكليزية إلى الصينية وبالعكس".

أصغيت إلى كلامها والدهشة تعتريني لأنني أكثر جدارة منها بهذا العمل. فأنا طليقة بلغة الحي يوب، وهذا أمر قد يفهمه عمي.

"ماذا عن أختك؟ إنها ذكية. وينبغي أن تقوم هي بهذا العمل".

"نعم، إنّ أختي ذكية حقاً، ولكن...".

قبل أن تبدأ بسرد حججها، جرّب عمي سبيلاً مختلفاً، فقال: "لماذا تريدين أن تنفصلي عن العائلة؟ ألا تريدين أن تبقي مع أختك؟".

أجابت ماي قائلة: "إن بيرل لا تمانع. فقد منحتها الكثير من الأشياء التي لم تكن لتحصل عليها خلافاً لذلك".

مؤخراً. كلما أرادت ماي شيئاً ما، ذكرتني بأنها منحتني طفلة وبكل الأسرار التي تتبع ذلك. هل يعني هذا أنها تهددني بأنني إن لم أسمح لها بفعل ذلك فستخبر لوي العجوز أن جوي ليست ابني؟ كلا، على الإطلاق. فهذا مجرد وقت من الأوقات التي ترى فيها ماي حقيقة الأشياء بوضوح تام، وهذه هي طريقتها بتذكيري أن لديّ ابنة جميلة وزوجاً يحبني ومكاناً صغيراً لنا نحن الثلاثة في غرفتنا بينما ليس لديها أحد ولا تملك شيئاً. ألا ينبغي لي أن أساعدها على الحصول على شيء يجعل حياتها مقبولة ومحتملة؟

قلت لنفسي: "لقد اكتسبت ماي خبرة من عملها في هوليوود وستكون بارعة هنا".

وهكذا حصلت ماي على العمل لصالح توم غوبنسر، وحللت أنا محلها في العبد الذهبي. فكنت أنفض الغبار من أول الشهر إلى آخره، وأغسل الأرضيات والنوافذ، وأعد الغداء للوالد لوي، ثم أغسل صحونه تحت الصنبور، وأرمي المياه الوسخة خارج الباب وكأنني بنت فلاح، وأعتني بجوي.

وككل النساء الأخريات، كنت أتمنى لو أصبح أماً أفضل، ولكن جوي كانت تبلغ من العمر سبعة عشر شهراً ولا تزال ترتدي حفاضات يجب غسلها يدوياً. وغالباً ما كانت تبكي في فترات العصر فيتوجب عليّ أن أمشي بها في الأرجاء لساعات لأهدئها. ليست تلك غلطتها. إذ إن مواعيد تصويرها تجعل من الصعب عليها أن تنال قسطاً وافراً من النوم ليلاً. كما أنها نادراً ما كانت تأخذ قيلولة في النهار. وغالباً ما كان يجعلها الطعام الأميركي الذي تتناوله في مواقع التصوير تبصق الطعام الصيني الذي أعده لها. كنت أحاول أن أحضنها وأعانقها وأفعل كل الأمور التي ينبغي للأم فعلها، ولكنني في أعماقي، كنتُ

أكره أن ألمس أحداً أو أن يلمسني أحد. إنني أحب ابنتي، ولكنها مولودة في عام النمر، وهذا لا يجعلها طفلة سهلة. والآن، هناك ماي التي تقضي الكثير من الوقت مع جوي. فبدأت بذرة من المرارة تنمو في داخلي، وتنميها بين بين وتغذيها. لم يكن يجدر بي أن أصغي إلى تلك المرأة العجوز، ولكنني لم أستطع التخلص منها.

"إن ماي لا تفكر إلا في نفسها، ويخفي وجهها الجميل ذلك قلباً شريراً. هناك عمل واحد يجب عليها أن تؤديه، ولكنها مقصرة في أدائه. أما أنت يا بيرل، فيتوجب عليك أن تجلسي هنا وتعتني بالفتاة عديمة القيمة طوال اليوم. ولكن أين طفل أختك؟ لماذا لا تنجب لنا ابناً؟ لماذا يا بيرل، لماذا؟ لأنها أنانية ولا تفكر في مساعدتك أو مساعدة أي شخص آخر في العائلة".

لم أود أن أصدق أن هذه الأمور صحيحة، ولكنني لم أستطع أن أنكر أن ماي تغيّرت. ومن واجبي كأختها الكبرى أن أحاول منع ذلك، ولكنني ووالدتي لم نعرف كيف نفعل ذلك عندما كانت ماي فتاة صغيرة. فلم أعرف كيف أستطيع القيام بذلك وحدي.

إن ما صعّب الأمور أكثر هو أن ماي غالباً ما كانت تتصل بي من موقع التصوير، فتحدث بصوت منخفض قائلة: "بالله عليك، كيف أستطيع أن أطلب من هؤلاء الناس أن يبقوا أسلحتهم فوق أكتافهم؟"، أو "كيف أستطيع أن أطلب منهم أن يحتشدوا معاً عندما يحدث القصف؟". فأخبرها بكيفية قول ذلك بلغة الغي يوب لأنني لم أكن أعرف ما عليّ فعله غير ذلك.

وبحلول الميلاد، أصبحت حياتنا مستقرة. فقد مضى علينا عشرون شهراً هنا. وأصبح ادخارنا لمالنا الخاص يسمح لنا بالخروج في جولات تسوق وشراء ما يحلو لنا. فدعانا الوالد لوي مرتين، ولكن، كنا

دائماً حريصتين على صرف نقودنا بتوازن. وعندما رغبت في الحصول على قصة شعر عصرية أكثر من تلك التي حصلت عليها في الحي الصيني، توجهت إلى صالون التجميل الذي يقع في الجزء الغربي من المدينة، ولكنهم قالوا لي: "إننا لا نقص شعر الصينيين". وبعد ساعات من البحث، حصلت أخيراً على شخص ما قصّ شعري ليلاً لئلا يشعر الزبائن البيض بالإهانة من حضوري. قد يكون الحصول على سيارة أمراً لطيفاً أيضاً، إذ يمكن للمرء أن يشتري سيارة مستعملة من طراز بلايموث ذات أربعة أبواب بخمسة دولارات، ولكن لا يزال أمامنا وقت طويل لندخر ثمنها.

في غضون ذلك، كنا نذهب إلى دور العرض السينمائية في برودواي. وبالرغم من أننا كنا ندفع ثمن أفضل المقاعد، إلا أنه توجب علينا أن نجلس على الشرفة، ولكننا لم نكن نأبه لذلك لأن الأفلام تبهج السرور. فكنا نصفق عندما نرى ماي تلعب دور امرأة فقيرة تستجدي من موظفي الخدمات البشرية أو جوي في دور طفلة يتيمة يضعها الممثل كلارك غيبل في زورق. وعندما كنت أرى وجه ابنتي الجميل على الشاشة، كنت أشعر بالإحراج من شرقي الداكنة. فأعدّ بعضاً من مالي إلى الصيدلية لأشتري مستحضر تجميل للوجه مكوناً من اللآلئ المطحونة على أمل أن أجعل وجهي فاتحاً كما ينبغي أن يبدو وجه أم جوي.

خلال الوقت الذي أمضيناه معاً هنا، تحولت وماي من فتاتين جميلتين لتقويمات مصورهما وتبحثان عن مهرب من الظلم إلى زوجتين شابتين ليستا سعيدتين كلياً بحظهما، ولكن ما هي الزوجات الشابات أصلاً؟ لقد تقبلنا حياتنا الآمنة وتأقلمنا معها. وأصبحنا نبذل ما في وسعنا لنعثر على السعادة. وفي ليلة رأس السنة، ارتدينا ملابسنا وذهبنا

إلى صالة رقص بالنور، ولكننا قوبلنا بالطرد فقط لأننا صينيتان. وبينما كنا واقفتان عند ناصية الشارع، حدقت إلى الأعلى ورأيت البدر يبدو ضبابياً وقد ظللته الأضواء والدخان العالق في الجو. وتذكرت قول أحد الشعراء: *حتى أفضل الأقمار تعلوه مسحة من الكآبة*.

القسم الثالث

المصير

هوليوود

ها قد عدنا إلى شنغهاي. مرّت العربات بصخب أمامنا. وجلس المتسولون القرفصاء وأذرعهم ممدودة وأكفهم مفتوحة وهم يستجدون المال من المارة. وبدا البط المشوي معلقاً في واجهات المتاجر، وحام الباعة المتجولون حول العربات وهم يسوّقون للمكرونة، ويمصمصون الكمثرات، ويقلون الفول بينما يبيع آخرون اللفوف والطبيخ في السلال. وأتى المزارعون إلى المدينة حاملين أقفاصاً من الدجاج والبط الحي وأجزاءً من الحيوانات المقززة معلقة على أكتافهم. وجالت النساء في الأرجاء مرتديات أثواباً صينية ضيقة، فيما جلس الرجال الشيوخ على صناديق مقلوبة وهم يدخنون الغلايين وأيديهم مدسوسة في أكمامهم طلباً للدفء. واكتنف ضباب كثيف المكان، وتسرّب إلى الأزقة والزوايا المعتمة. فيما حوّلت القناديل الحمراء المعلقة فوق رؤوسنا كل شيء إلى حلم غريب.

"ليجلس الجميع في أماكنهم!".

اضمحلت صورة الوطن من مخيلتي لأجد نفسي في موقع التصوير الذي أزور فيه ماي وجوي. أطفئت الأضواء الساطعة الخبوية على المشهد المزيف، وانزلقت إحدى الكاميرات على طول الأرض، فيما وضع رجل ميكروفون في الأعلى. إننا في شهر أيلول من عام 1941.

قالت ماي وهي تزيح خصلة شعر سائبة عن وجه ابنتي: "ينبغي أن تشعري بالفخر من جوي. إنها محبوبة في كل الاستديوهات التي تزورها".

كانت جوي تجلس في حضن خالتها وهي تبدو راضية ومتيقظة في آن معاً. إنها في الثالثة والنصف من عمرها، وتبدو جميلة كخالتها، كما يقول الجميع دائماً. ويا لها من خالة مثالية تحظى بها جوي! فقد حصلت لها على عمل، وأخذتها إلى مواقع التصوير، وحرصت على أن تحظى بأزياء جيدة وأن تكون دائماً في الموقع المناسب عندما يبحث المخرج عن وجه بريء يركز عليه عدسة كاميرته. طوال العام الماضي أو نحو ذلك، أمضت جوي الكثير من وقتها مع خالتها بحيث أصبحت تمضية وقتها معي أشبه بتمضية الوقت مع وعاء من الحليب الفاسد. إلا إنني أضبط تصرفاتها، وأجبرها على تناول العشاء وارتداء ملابس ملائمة، وإظهار الاحترام لجدتيها وأعمامها وكل شخص يكبرها سناً. أما ماي، فكانت تفضّل أن تدلل جوي بالهدايا والقبلات والسهر طوال الليل في مواقع التصوير.

لطالما دعاني الناس فتاة ذكية، وحتى عمي يقول هذا، ولكن ما بدا فكرة جيدة قبل عامين، تحول إلى غلطة كبيرة. فعندما سمحت لماي أن تصطحب جوي إلى مواقع التصوير، لم أدرك أن أختي ستنقل ابنتي إلى عالم مختلف تماماً، إلى عالم ممتع ومنفصل كلياً عني. وعندما ذكرت هذا لماي، عبست وهزت رأسها قائلة: "ليس الأمر هكذا. تعالي معنا وشاهدي ما نقوم به. وعندئذ، سترين بنفسك كم هي بارعة وستغيرين رأيك". ليس هذا متعلقاً فقط بجوي. إذ تريد ماي أن تتباهى بأهميتها. وكان يفترض بي أن أعبر لها عن شدة فخري بها. وقد اتبعنا هذا النمط نفسه منذ كنا طفلتين صغيرتين.

وهكذا، انطلقنا في أواخر فترة العصر، وركبنا حافلة مع الجيران الذين حصلت لهم ماي على عمل أيضاً. وعندما وصلنا إلى الاستديو، عبرت بنا الحافلة البوابة وتوجهت مباشرة إلى قسم الملابس حيث

أعطتنا النساء الملابس بغض النظر عن قياساتنا. فأعطيت سترة متسخة وسروالاً فضفاضاً جداً. ولم أكن قد ارتديت ملابس كهذه منذ هربت وماي من الصين وانتظرنا في جزيرة أينجل. وعندما حاولت أن أستبدلها بغيرها، قالت الفتاة المسؤولة عن الملابس: "ينبغي لك أن تبدي متسخة جداً، أتفهمين هذا؟". أما ماي، التي لطالما لعبت دور فتاة متأنقة وشقية، فقد أخذت أيضاً طقماً من ملابس الفلاحين كي نظهر معاً في المشهد.

غيرنا ملابسنا في خيمة كبيرة من دون أي خصوصية أو تدفئة. وبالرغم من أنني عادة ألبس ابنتي كل يوم، فقد تولت خالتها مسؤوليتها. فخلعت عن جوي كنزتها الصوفية وألبستها سروالاً داكناً ومتسخاً وقفطاناً كسروالي وسروال ماي. ثم ذهبنا لتسوية شعرنا وزينة وجهنا. فعملوا على إخفاء شعرنا تحت قماش أسود مربوط بإحكام حول رأسينا. كما ربطوا شعر جوي بعدة مطاطات حتى أصبح رأسها يبدو وكأن نباتاً أسود غريباً ينبت منه. ثم لطخوا وجوهنا بمستحضر بني اللون وأعادوا بذلك إليّ ذكريات عن الوقت الذي لطخت فيه ماي وجهينا بمزيج الكريم الأبيض والكاكاو. ثم عرضنا مجدداً ليتم تلطيخنا بالطين بواسطة مرشّة. وبعد ذلك، انتظرنا في شنغهاي المزيفة وسراويلنا السوداء الفضفاضة ترفرف مع النسيم كالأطياف السوداء. إن هذا الموقع يشكل بالنسبة إلى الذين ولدوا هنا أقرب ما قد وصلوا إليه من أرض أسلافهم. أما نحن الذين ولدنا في الصين، فيمنحنا لحظة لنشعر بأننا عبرنا المحيط وعدنا بالزمن إلى الوراء.

يجب عليّ الاعتراف أنني أحببت أن أرى مدى إعجاب فريق العمل بأختي والطريقة التي يحييها بها الممثلون الآخرون. إذ كانت ماي تبدو سعيدة ومبتسمة وهي تحيي الأصدقاء، وهذا يذكرني بالفتاة التي

اعتادت أن تكون عليها ولهن في شنغهاي. ومع ذلك، فعندما حلّ الليل رأيت المزيد والمزيد من الأشياء التي أزعجتني. نعم، كان هناك رجل يبيع الدجاج، وقد جلست خلفه مجموعة من الرجال القرفصاء وهم يقامرون. وفي جزء آخر من المشهد، تظاهر الرجال بأنهم يدخنون الأفيون في الشارع المزيف! وبدا شعر كل واحد من الرجال تقريباً مصففاً على هيئة ذيل الحيوان الزّي المقزز. ومع أن القصة لم تحدث بعد تشكيل الجمهورية ولكن مخرجيها تمثل غزو عصابات الأقزام لشنغهاي بعد خمسة وعشرين عاماً. أما النساء، فحدِّث ولا حرج.

فكرت في فيلم إبادة شنغهاي، الذي شاهدته وماي وسام وفيون في أوائل هذا العام. وكان المخرج جوزيف فون ستيرنبرغ، قد أمضى بعض الوقت في شنغهاي، ولهذا، فقد توقعنا أن نرى شيئاً يذكرنا بمدينتنا، ولكنها كانت مجرد قصة من تلك القصص التي تستدرج فيها سيدة صينية فتاة بيضاء للتورط في المقامرة والشراب وما شابه. فضحكنا عندما قرأنا إعلانات الفيلم التي كتب عليها: "إن الناس يعيشون في شنغهاي لعدة أسباب... معظمها سيئة". وربما كنت سأعتقد أن هذا الأمر صحيح وأنا أمضي آخر أيامي في شنغهاي، ولكن لا يزال يؤلمني أن أرى الضوء يسلط على مدينتي، وهي باريس آسيا، بهذه الصورة الشريرة. إذ إننا نرى هذا النوع من الأفكار يعرض في فيلم تلو آخر. وها نحن نشارك في أحد هذه الأفلام.

سألت ماي قائلة: "كيف يسعك أن تفعلي هذا، يا ماي؟ ألا تشعرين بالخجل؟".

فارتبكت وبدت مجروحة الشعور فعلاً وهي تقول: "بشأن ماذا؟".

أجابتها قائلة: "لقد تم تصوير كل صيني في هذا الفيلم على أنه متخلف. إنهم يجعلوننا نقهقه كالحمقى ونظهر أسناننا، ويجبروننا على الأداء الإيمائي لأنه من المفترض أن نكون أغبياء ويطلبون منا أن نتحدث بأسوأ اللكنات الإنكليزية...".

فنظرت إليّ بتفاؤل قائلة: "أعتقد ذلك، ولكن هل تعنين أن هذا لا يذكرك بشنغهاي؟".

"هذا ليس بيت القصيد! ألا تفخرين بشعبك الصيني؟".

أجابت قائلة بنبرة أمل واضحة: "لا أعرف لماذا يجب عليك أن تتذمري من كل شيء. لقد اصطحبتك إلى هنا كي تري ما أقوم به من عمل مع جوي. ألست فخورة بنا؟".

"ماي...".

فسألتني قائلة: "لماذا لا تستطيعين أن تمضي وقتاً ممتعاً؟ لماذا لا تستمتعين برؤيتي وجوي ونحن نكسب المال؟ أعترف أننا لا نكسب بقدر هؤلاء الرجال هناك". وأشارت إلى مجموعة من الصبية الذين يجرون العربات الريفية، ثم قالت: "فقد كنت لهم مبلغاً محترماً طالما أنهم يبقون رؤوسهم حليقة تماماً، ولكن هذا ليس سيئاً...".

"صبية يجرون العربات ومدمنو أفيون وبنات رخيصات. أهذا ما تريدين الناس أن يعتقدوا أننا عليه؟".

"إن كنت تقصدين الأميركيين بقولك، فلماذا يجب عليّ أن أهتم برأيهم؟".

"لأن هذه الأشياء مهينة".

"لمن؟ إنهم ليسوا متحيزين ضدنا أو ضدك أو ضدي. وبالإضافة إلى ذلك، فهذا جزء من عملية تساعدنا على التطور. إن بعض الناس..."، وهي ربما تعني بذلك، "يفضلون أن يبقوا عاطلين عن

العمل على أن يتولوا عملاً يعتقدون أنه أدنى منهم منزلة، ولكنّ عملاً كهذا يمنحنا انطلاقة في هذه المهنة. والأمر عائد إلينا إذ أردنا أن نبدأ رحلتنا من هنا أم لا".

فسألتها بنبرة خشنة: "إذاً، هؤلاء الناس سيجرون العربات اليوم، وغداً سيصبح الاستديو ملكاً لهم. أهذا ما تقولينه؟".

قالت بعد أن شعرت بالاستياء أخيراً: "بالطبع لا. فكل ما يريدونه هو الحصول على دور متكلم. إذ إن أمر ذلك مرتفع، يا بولي، أؤكد لك ذلك".

لقد كانت توم يغري ماي بالحصول على دور متكلم منذ عامين وحتى الآن لم يتحقق ذلك بعد بالرغم من أن جوي قد حصلت على بضعة أسطر في أفلام مختلفة. فأصبح الكيس الذي أحتفظ فيه بأجور جوي منتفخاً تماماً بالرغم من أنها فتاة صغيرة. وفي غضون ذلك، لا تزال خالتها ماي تتوق إلى الحصول على عشرين دولاراً للسطر الواحد، لم يكن ذلك السطر، ولكنها حتى تلك اللحظة كانت قانعة بقول عبارة بسيطة مثل: "نعم، يا سيدي".

قلت لها بشيء من الحدّة: "إن كان الجلوس في الأرجاء طوال الليل وأنت تتظاهرين أنك امرأة رخيصة يقدم لك فرصة كهذه، فلماذا لم تحصلي على دور متكلم بعد؟".

"إنك تعلمين السبب! فقد قلت لك هذا ألف مرة!" يقول توم إنني جميلة جداً. فكلما اختارني مخرج ماء استبعدتني النجمة الرئيسة لأنها لا تريد لوجهي أن ينافس وجهها لأنني سأفوز عليها. أعلم أن هذا يبدو خالياً من التواضع، ولكن هذا ما يقوله الجميع".

ألقى الفريق وضع الممثلين في مواقعهم وإضافة بضع قطع ديكور لتصوير الجزء التالي من المشهد. إن الفيلم الذي نعمل عليه هو عبارة

عن فيلم حركة وتشويق يدور حول التهديد الياباني. وإن كان اليابانيون يستطيعون أن يغزوا الصين ويهددوا المصالح الأجنبية، أيجب علينا ألاّ نقلق منهم؟ حتى الآن، من وجهة نظري، ليست هناك علاقة بين تصوير مشهد تلو آخر لبضع ساعات في الشارع نفسه وبين ما اختبرته وماي في طريقنا هرباً من الصين. وعندما وصف لنا المخرج المشهد التالي انقبض قلبي.

شرح المخرج من خلال مكبر الصوت قائلاً: "ستتساقط القنابل. إنها ليست حقيقية، ولكنها ستبدو كذلك. ثم سيهجم اليابانيون إلى السوق. وعندئذ، يجب عليكم أن تهربوا بذلك الاتجاه. وأنت هناك، يا من تجر العربة، أوقعها وأنت تهرب. وأريد من النساء أن يصرخن، اصرخن بصوت عالٍ جداً وكأنكن على وشك الموت".

وعندما بدأت الكاميرا بالتحرك، احتضنت جوي وأنا أصرخ ما اعتقدت أنها صرخة مزيفة جيدة وهربت. ثم كرّرت ذلك عدة مرات. وبالرغم من أنني كنت أعاني من خوف مؤقت من أن يعيد هذا ذكريات سيئة إلى مخيلتي، إلاّ أن ذلك لم يحدث. إذ لم تكن القنابل المزيفة تهز الأرض، ولم يصمّ صوت الارتطام أذنيّ، ولم تتناثر الأشلاء والدماء في أرجاء المكان. إنها مجرد لعبة ومزحة كما حدث قبل كل تلك السنوات عندما اعتقدت وماي أن نلعب ألعاباً مع والدينا. ولكنني اكتشفت أن ماي محقة بشأن جوي، إذ إنها تبرع في اتباع التعليمات والانتظار بين اللقطات ثم تبدأ بالصراخ عندما يبدأ التصوير.

عند الساعة الثانية، أرسلونا مجدداً إلى خيمة الزينة حيث لطّخوا وجوهنا وثيابنا بالدم الزيف. وعندما عدنا إلى الموقع، حدّدوا مواقع بعض الأشخاص على الأرض. فبدوا كالجثث بأرجلهم الملتوية وملابسهم الممزقة والمدماة وعيونهم المفتوحة، ثم اتخذ الأموات

والمحضرون حولنا. وعندما تقدّم الجنود اليابانيون، كان يفترض بالباقين منّا أن يركضوا ويصرخوا، ولم يكن هذا صعباً بالنسبة إليّ، إلا حين رأيت الملابس الملوّحة الصفراء وسمعت صوت ضرب الأحذية العسكرية، واصطدم بي أحد الممثلين، وهو فلاح مثلي صرخت، وعندما جرى الجنود المزيفون نحونا بحرابهم، حاولت أن أهرب، ولكني سقطت على الأرض. فيما قفزت جوي على قدميها واستمرّت في الركض وهي تحتز بالخشب وتبتعد عني وتتركني. وعندما حاولت أن أنهض، دفعني أحد الجنود إلى الأرض. فشعرت أنني مسمرة في مكاني من الخوف. وبالرغم من أن الرجال حولي كانوا ذوي ملامح صينية، وبالرغم من أنهم جيراننا، إلا أنني كنت أصرخ وأصرخ وأصرخ، إذ شعرت أنني غادرت موقع التصوير وعدت إلى ذلك الكوخ خارج شنغهاي. فصاح المخرج قائلاً: "أوقفوا التصوير".

جاءت ماي إليّ ووجهها مفعم بالقلق، فسألتني وهي تساعدني على النهوض: "هل أنت بخير؟".

شعرت بالرعب يتملكني ويعقد لساني، فأومأت برأسي، فيما رمقتني ماي بنظرة تساؤل. فلم أرغب في التحدّث عما أشعر به، إذ إنني لم أرد أن أتحدث عن ذلك في الصين أو عندما استيقظت في المستشفى، ولا أريد ذلك الآن. أخذت جوي من بين ذراعي ماي وضممت طفلتي إلى صدري. وعندما جاء المخرج ماشياً نحونا نحوي كنت أشعر أنني لا أزال أرتعش من فرط الانفعال.

فقال: "لقد كان ذلك مدهشاً. لقد استطعت أن أسمعك تصرخين من على بعد خمسين سكيناً. أتستطيعين أن تكرري ذلك مجدداً؟"، وتأملني بإعجاب وهو يقول: "أتستطيعين أن تفعلي ذلك عدة مرات؟". وعندما لم أجبه بسرعة قال: "هناك أجر إضافي من أجلك ومن أجل

الطفلة أيضاً. إن الصرخة العالية والقوية دور متكلم من وجهة نظري، وأستطيع دائماً أن أستفيد من وجه كوجهها".

فشدّت أصابع ماي على ذراعي.

سألني المخرج قائلاً: "إذاً، هل ستفعلين ذلك؟".

صرفت ذكرى الكوخ عن ذهني وفكرت في مستقبل ابني وأنا أعتقد أنني أستطيع أن أدخر المزيد من المال من أجلها خلال هذا الشهر.

فتمكنت من القول: "سأحاول".

غرزت ماي أصابعها في ذراعي، فيما انصرف المخرج ليجلس على كرسيه. ثم تنحّت بي ماي جانباً وهي تتوسل إليّ بصوت منخفض قائلة: "يجب أن تدعيني أقوم بهذا. من فضلك دعيني أقوم به".

قلت: "أنا من صرخت. كما أنني أريد أن أستفيد بشيء مهم من هذه الليلة".

"قد تكون هذه فرصتي الأخيرة".

"أنت في الثانية والعشرين من عمرك فقط...".

فتوسلت إليّ ماي قائلة: "لقد كنت فتاة جميلة في شنغهاي، ولكن هذه هوليوود. ولم يتبقّ لديّ الكثير من الوقت".

قلت لها: "إننا جميعاً نخشى التقدم في السن، ولكني أريد هذا أيضاً. هل نسيت أنني كنت فتاة جميلة أيضاً؟". ولكن عندما لم تجبني، استخدمت الحجة التي كنت على يقين من نجاحها. فقلت لها: "أنا من تذكرت ما حدث لي في الكوخ...".

"إنك دائماً تطرحين هذه الحجة لتفعلي ما تريدينه".

تراجعت خطوة إلى الوراء وأنا مصعوقة من كلماتها: "إنك لا تقصدين ما تقولينه".

قالت لي بكآبة: "إنك لا تريدين وحسب أن أحظى بأي شيء خاص بي".

كيف استطاعت أن تقول هذا في الوقت الذي ضحيت فيه بالكثير من أجلها؟ لقد نمت استيائي على مر السنوات، ولكنه لم يمنعني قط من منح ماي كل ما تريده.

تابعت ماي وصوتها يزداد قوة: "إنك دائماً تحظين بكل الفرص".

كنت أدرك ما كان يحدث. إذ إنها ستقاومني لتجعل كل الأمور تصب في مصلحتها، ولكني لن أستسلم بسهولة هذه المرة.

"أي فرص؟".

"لقد أرسلك والدي ووالدتي إلى الكلية...".

إن هذا الكلام قديم جداً، ولكني قلت لها: "إنك لم ترغبي في الذهاب إلى هناك".

"إن الجميع يحبونك أكثر مما يحبونني".

"هذا سخف...".

"حتى زوجي يفضلك عليّ. إنه دائماً لطيف معك".

ما الهدف من مناقشة ماي؟ لطالما كانت مناقشاتنا تدور حول الأمور نفسها: كمحبة والدينا لإحدانا أكثر من الأخرى، أو حصول إحدانا على شيء أفضل من الأخرى سواء أكان الأمر متعلقاً بنكهة مثلجات أو حذاء أجمل، أو زوج ألطف أو رغبة إحدانا في أن تفعل شيئاً على حساب الأخرى.

أصرّت ماي على موقفها قائلة: "أستطيع أن أصرخ جيداً بقدر ما تفعلين أنت. سأطلب هذا منك مجدداً. من فضلك دعيني أؤدي الدور".

فسألتها بلطف مهاجمة نقطة ضعف أختي: "ماذا عن جوي؟ تعلمين أني وسام ندخر من أجل دخولها الكلية يوماً ما".

"إن هذا سيحدث بعد خمسة عشر عاماً إن وافقت أي كلية أميركية على قبول جوي، وهي فتاة صينية". وفجأة بدأت عينا ماي اللتان كانتا في وقت سابق من الليلة تلمعان من السعادة والفخر ترمقانني بنظرة غضب. فتذكرت ذلك الوقت في مطبخنا في شنغهاي عندما أراد الطاهي أن يعلمنا كيف نعد الحلوى. لقد بدأ الأمر آنذاك كتسلية ثم انتهى بشجار عنيف. وبعد كل تلك السنوات، تحوّل ما يفترض أن يكون نزهة ممتعة إلى شجار قاسٍ. وعندما نظرت إلى ماي، لم أرَ الغيرة وحسب، وإنما الكراهية أيضاً. قالت مجدداً: "دعيني أحظى بهذا الدور. لقد اكتسبته بجهدي".

تذكرت كيف أنها تعمل لصالح توم، وكيف أنه لا يتوجب عليها أن تبقى محتجزة في أحد متاجر الوالد لوي طوال اليوم، وكيف أنها تذهب إلى مواقع كهذه مع ابني وينسى لها الخروج من الحي الصيني وتشاينا تاون لبعض الوقت.

"ماي...".

"إن كنت ستبدئين بسرد كل أخطائك عندي، فإني لا أريد سماعها. إنك ترفضين أن تدركي مدى حسن طالعك ولا تعرفين كم أشعر بالغيرة. ولكن ليس بيدي حيلة. فأنت تملكين كل شيء، ولديك زوج يحبك ويتحدث إليك ولديك ابنة".

ها نحن ذا! لقد قالتها. فانطلق الرد من فمي بسرعة بحيث لم تسنح لي الفرصة للتفكير فيه أو منع نفسي من التفوه به:

"ولهذا السبب تمضين معها وقتاً أكثر مما أفعل أنا؟". وحالما قلت تلك الكلمات، تذكرت مثلاً قديماً مفاده: إن الأمراض تدخل من خلال الفم والكوارث تخرج من الفم، وهذا يعني أن الكلمات القاسية قد تكون مدمرة كالقنابل.

فردّت عليّ ماي بسرعة: "إن جوي تفضل أن تكون معي لأنني أعانقها وأقبّلها وألمسك بيدها وأحملها في حضني".

"إن هذه ليست الطريقة الصينية الصحيحة لتربية الطفل. فالتمس هذه الطريقة...".

قالت ماي: "لم يكن هذا رأيك عندما كنا نعيش مع أمي وأبي".

"حقاً، ولكنني أصبحت أماً الآن، ولا أريد لجوي أن تكبر لتصبح كقطعة الخزف المليئة بالشقوق".

"إن احتضانك لها لن يحوّلها إلى امرأة متفلتة...".

"لا تملي عليّ الطريقة التي أربّي فيها ابنتي!". حينئذ، بدأ بعض الممثلين بالتحديق إلينا بفضول عندما سمعوا نبرة صوتي الحادة.

"إنك لا تريدين أن تسمحي لي بالحصول على أي شيء، ولكن والدي وعدني أننا إذا وافقنا على الزواج، فسأتمكن من الذهاب إلى هوليوود".

لا أتذكر الأمر هكذا، ولكن ماي غيّرت الموضوع وخلطت الأمور ببعضها.

قلت لها: "إنني أتحدث عن جوي وليس عن أحلامك التافهة".

"حقاً؟ قبل بضع دقائق كنت تتهمينني بإحراج الشعب الصيني وتقولين إن ذلك يسيء إليّ، ولكنك الآن تعتقدين أنه عمل لا بأس به إن قمت به أنت مع جوي".

إن هذه مشكلة بالنسبة إليّ ولا أعرف كيف أحلها في ذهني، ولكنني حينها لم أفكر في طريقة ملائمة ولا أظن أن أختي كانت تفكر بشكل ملائم أيضاً.

قالت ماي مجدداً وهي تجهش بالبكاء: "إنك تملكين كل شيء، وأنا لا أملك شيئاً. ألا تستطيعين أن تسمحي لي بالحصول على هذا الشيء فقط؟ أرجوك، أرجوك".

أغلقت فمي وتركت حرارة غضبي تحرق جلدي، وأنا أرفض أن أعترف بأي من أسبابها التي تعطيها حسب رأيها الحق بالحصول على الدور في هذا الفيلم وليس أنا، ولكنني فعلت عندئذ الشيء الذي لطالما فعلته. فمنحت الدور لأختي الصغرى لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للتنفيس عن غولها، ولدفن استيائي في مكانه الخفي بينما يتحين هذا وقتاً لأفكر في كيفية إخراج جوي من هذا العمل من دون أن أحتك مع أختي. إني وماي أختان، ولطالما تشاجرنا، ولكننا نتصالح أيضاً، فهذا ما تفعله الأخوات. سنتشاجر، وستنتقد إحدانا عيوب الأخرى وأخطاءها، وستحكم إحدانا على الأخرى، وسنتنفس من كل القلق الذي شعرنا به منذ الطفولة ثم نعود لنتصالح مجدداً إلى أن تحين المرة القادمة.

أخذت ماي ابني ومكاني في المشهد. فلم يلاحظ المخرج أن أختي ليست أنا لأنها بالنسبة إليه مجرد امرأة صينية تبدو ملطخة بالدماء والطين المزيفين وتحمل طفلة صغيرة ويمكن استبدالها بأي امرأة أخرى. وطوال الساعات القليلة التالية، أصغيت إلى أختي وهي تصرخ المرة تلو الأخرى. فلم يشعر المخرج بالرضا قط، ولكنه لم يستبدل ماي أيضاً.

لقطات

في السابع من شهر كانون الأول من عام 1941، وبعد مرور ثلاثة أشهر على تلك الليلة التي أمضيتها في موقع التصوير، قصف اليابانيون بيرل هاربور في أميركا، ودخلت الولايات المتحدة الحرب. وفي اليوم التالي، هاجم اليابانيون هونغ كونغ. وفي يوم الميلاد، انسحبت بريطانيا من الجزيرة. وفي الثامن من كانون الأول، وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً، استولت اليابان على المستوطنة الدولية في شنغهاي ورفعت علمها على مصرف هونغ كونغ وكذلك شنغهاي. وخلال السنوات الأربع التالية، تمّ احتجاز الأجانب الذين دفعتهم حماقتهم إلى البقاء في شنغهاي في مخيمات اعتقال، بينما تمّ تسليم مركز محجرة جزيرة آينجل إلى الجيش الأميركي لإيواء أسرى الحرب من اليابانيين والإيطاليين والألمان. أما هنا في الحي الصيني، فقد انضمّ العم إيدفرد، من دون أن يمنح أياً منا فرصة للتفكير في الأمر، إلى أول مجموعة شبان تلتحق بالجيش الأميركي.

سأل العم ويلبرت بلغة الحي يوب عندما أعلن ابنه الخبر قائلاً: "ماذا تقول؟ لماذا تريد أن تفعل هذا؟".

فأجاب العم إيدفرد بحماسة: "لأني أشعر بأني وطني. وأريد أن أقاتل! والسبب الأول هو أني أريد أن أساعد على هزيمة عدونا المشترك: اليابان. أما السبب الثاني فهو: إن التحقت بالجيش، استطعت أن أصبح مواطناً حقيقياً". ولكن، لم نستطع إلا أن نفكر في أن ذلك

سيجدت فقط إن بقيَ هو على قيد الحياة. فأضاف قائلاً عندما رأى قلة حماستنا: "وأخيراً، كل عمال الصبغة سيلتحقون بالجيش".

قال العم ويليرت وهو يتنهد قلقاً: "عمال الصبغة! هراءً إن بعض الناس مستعدون لفعل أي شيء لئلا يعملوا في الصبغة".

"ماذا فعلت عندما سألوا عن جنسيتك؟". جاء هذا السؤال من سام الذي لطالما راوده القلق من أن يُفتضح أمرنا، ويؤدي هذا إلى ترحيلنا إلى الصين. فقال: "أنت ابن وثيقة. فهل سيأتون إلينا عنّا؟".

فأجاب إيدغرد قائلاً: "لقد اعترفت بوضعي على الفور، وقلت لهم إني أتيت إلى هنا بناء على وثيقة ميلاد مزيفة، ولكنهم لم يهتموا كثيراً. وعندما سألوني عن أمور ظننت أنها ستعود بالسوء عليكم، قلت لهم: 'إني يتيم. والآن هل تريدونني أن أقاتل أم لا؟'".

سأل العم تشارلي قائلاً: "ولكن ألست كبيراً في السن على هذا؟".

"إن عمري الافتراضي على الورق هو ثلاثون عاماً. ولكني في حقيقة الأمر في الثالثة والعشرين من عمري، كما أني لائق بدنياً ومستعد للموت. فلم لا يأخذونني؟".

بعد بضعة أيام، دخل إيدغرد المقهى، وأعلن قائلاً: "لقد أمرني الجيش أن أشتري جواربي الخاصة. فأين أستطيع أن أفعل هذا؟". لقد عاش إيدغرد في لوس أنجلوس سبعة عشر عاماً، ولكنه حتى الساعة لم يكن يعرف كيف أو من أين يشتري أبسط ضروريات الحياة. فعرضت أن أصطحبه إلى شركة ماي، ولكنه قال: "يجب أن أذهب بنفسي وأتعلم أن أتصرف بمفردي". ثم غادر وعاد بعد بضع ساعات مخدوشاً وهناك ثقوب عند ركبتي سرواله الفضفاض. وقال: "لقد اشتريت الجوارب وكل شيء، ولكن عندما غادرت المتجر، دفعني بعض الرجال في الشارع. فقد ظنوا أني ياباني".

وبعد أن توجه إيدغرد إلى المعسكر التدريبي، تفقّدت مع الوالد لوي المتجر ليبحث عن أي ملصقات كتب عليها: صنع في اليابان لنستبدلها بأخرى كتب عليها: منتج صيني 100بالمئة. ثم بدأ عمي ببيع التحف المصنوعة في المكسيك، وهذا ما عرّضنا لمنافسة مباشرة مع التجار في شارع أولفيرا. ومما يدعو للاستغراب، أن زبائننا لم يبدُ عليهم أنهم يميزون بين البضائع المصنوعة في الصين أو اليابان أو المكسيك. إذ إنها بالنسبة إليهم مجرد بضائع أجنبية.

فنحن في نظرهم أجانب إلى الأبد، مما جعلنا موضع شك دائم. ودفع هذا الأمر الجمعيات الأسرية في الحي الصيني إلى طباعة لافتات كتب عليها: الصين حليفتكم، لنعلقها على واجهات متاجرنا وبيوتنا وسياراتنا معلنين بهذا أننا لسنا يابانيين. كما صنعت الجمعيات أيضاً عصابات للأيدي والجباه كنا نضعها دائماً لنحرص على ألا نتعرض للهجوم في الشارع أو كي لا يزجّ بنا في السجن أو نرسل إلى معسكرات الاعتقال. كما أصدرت الحكومة، وهي مدركة تماماً أن الغربيين يجدون كل الشرقيين متشابهين، شهادات تسجيل خاصة تؤكد أننا "أعضاء من العرق الصيني". ومع ذلك، لم يستطع أحدٌ منا أن يتخلى عن حذره.

عندما عاد إيدغرد إلى لوس أنجلوس للزيارة بعد تدريبه العسكري، حيّاه الناس في الشارع. فشرح قائلاً: "عندما أرتدي زياً عسكرياً، أعلم أن أحداً لن يلحق بي الأذى لأنه يؤكد للناس أنّ لي الحق بالتواجد هنا كأي شخص آخر. والآن أصبح لديّ سبب آخر للالتحاق بالجيش. إذ إني في الجيش أحظى بفرصة عادلة. إنها ليست فرصة مبنية على كوني صينياً وإنما على كوني رجلاً يرتدي زياً عسكرياً ويحارب دفاعاً عن الولايات المتحدة".

في ذلك اليوم، اشتريت كاميرا تصوير والتقطت صوري الأولى. وكنت لا أزال أحتفظ بصوري وصور لي وأمي مُخبّأة بعيداً عن عيون مفتشي الهجرة الذين كانوا يأتون للقيام بتفتيشهم الدوري، ولكن رؤية العم إيدفرد يستعد إلى الحرب أمر مختلف. فهو سيحارب دفاعاً عن أميركا وعن الصين. وفي اليوم التالي، جاء المفتشون، فأريتهم صورة العم إيدفرد بفخر وهو يبدو نحيلاً ككل الصينيين، ومرتدياً زيه العسكري، ومبتسماً بسعادة للكاميرا، وقبعته مائلة في هيئة مرحة بعد أن قال لنا: "منذ الآن فصاعداً ادعوني فرد وحسب. لا تناديني إيدفرد بعد الآن. مفهوم؟".

إن الشخص الذي لم يظهر في الصورة هو عمي لأنه كان واقفاً على بعد بضع أقدام وهو يبدو محطماً وعاجزاً. لقد تغيرت مشاعري تجاهه خلال السنوات القليلة الماضية. إذ إنه لا يملك أي شيء تقريباً هنا في لوس أنجلوس ولا يزال مواطناً من الدرجة الثالثة يواجه التمييز نفسه الذي نواجهه جميعاً ولن ينفصل أبداً عن الحي الصيني. وحينها، شنّ بلده الثاني أميركا حرباً ضد اليابان أيضاً. وبعد أن أغلقت قنوات الشحن التجاري، لم يعد يتلقى البضائع من مصانع الخزف في الصين أو يجني المال من إحضار شركاء الوثيقة، ولكنه ظلّ يرسل المساعدات المالية إلى أقاربه في قرية واه هونغ، ليس فقط لأن الدولار الأميركي يقطع شوطاً طويلاً في الصين، وإنما لأن حبه إلى وطنه الأصلي لم ينقص أبداً. أما أنا وبن بن وفيرن وسام وماي، فليس لدينا أحد لنرسل إليه المال، ولطالما اعتبرنا تحويلات النقود التي كان يرسلها الوالد لوي هدية قدّمناها إلى كل القرى والبيوت والعائلات التي فقدناها.

في أحد الأيام، قال لنا العم تشارلي: "إن أولئك الذين لا يستطيعون القتال يجب عليهم أن يتحولوا. أتعرفون أبناء عائلة لي؟ لقد

ذهبوا إلى لوكهيد ليساعدوا على صناعة الطائرات. يقولون إن هناك مكاناً لي وليست له علاقة بإعداد الأطباق الصينية. ويقولون إن كل ضربة أضربها في صناعة طائرة هي ضربة من أجل حرية أرض آبائنا وأرض وطننا الجديد".

"ولكن لغتك الإنكليزية...".

"لا أحد يأبه لإنكليزيتي طالما أنني أعمل بكل جهدي. أتعلمين يا بيرل؟ إنك تستطيعين الحصول على عمل هناك أيضاً. إذ إن أبناء عائلة لي يأخذون شقيقاتهم ليعملن معهم. والآن أصبحت إيستر ويولاندا تثبّتان المسامير في أبواب قاذفات القنابل. أتريدين أن تعرفي كم تجنيان من المال؟ إنهما تجنيان ستين سنتاً في الساعة خلال اليوم، وخمسة وستين سنتاً في المناوبة الليلية. أتريدين أن تعرفي كم سأجني أنا؟". فرك عينيه اللتين تبدوان متورمتين جداً بسبب الحماسة، ثم قال: "سأجني ثمانية وخمسين سنتاً في الساعة، وهذا يعني أربعة وثلاثين دولاراً في الأسبوع. إنني أؤكد لك، يا بيرل، أن هذه أجور جيدة".

أظهرت صورتي الجديدة العم تشارلي جالساً على المنضدة وكماه مرفوعان، وهناك فطيرة موضوعة أمامه، وقبعته الورقية ومئزره مرميان على كرسي شاغر.

وعندما تلقّى فيرن – الذي تخرج في حزيران الماضي من المدرسة الثانوية التي لم يكونوا يريدونه فيها أصلاً ولم يزعجوا أنفسهم بتعليمه – تبليغاً بإلحاقه بالجيش بعد سحب حصل بالقرعة، سأل عمي: "ما الذي يستطيع ولدي أن يفعله في الحرب؟ إنه أفضل حالاً في البيت. اذهب معه يا سام، واحرص على أن يتفهّموا وضعه".

قال سام: "سأحاول، ولكني سألتحق بالجيش. فأنا أيضاً أريد أن أصبح مواطناً حقيقياً".

لم يحاول الوالد لوي أن يغير رأي سام. إذ إن السعي وراء الجنسية أمر تترتب عليه مخاطر التحقيق الذي قد يؤثر في العديد من الناس، ولكننا نعلم جميعاً ما تعنيه الحرب. لذا، شعرت بالفخر الذي سماني قرار سام، ولكن، هذا لا يعني أني لم أكن قلقة عليه. وعندما عاد سام وفون إلى الشقة، أدركت أن الأمور لم تجرِ على ما يرام. إذ رفضوا فون لأسباب واضحة، وصنّفوا سام في الفئة 4 – أف.

وتذمّر سام عندما أصبحنا وحدنا في غرفتنا قائلاً: "يقولون إن قدميَّ مسطحتان مع أنني جربت العربات في شوارع شنغهاي وأرقّتها طوال حياتي". ومرة أخرى، تعرّض سام للتصغير من شأنه وتحقيره كرجل واستمر في تجرع المرارة والأسى.

وبعد بضعة أيام، أحضرت ماي الكاميرا والتقطت صورة. ويمكن للمرء أن يلاحظ من خلال الصورة كم تغيرت الشقة منذ وصولي وماي إليها. فهناك ستائر مصنوعة من الخيزران مرفوعة فوق النوافذ، ولكننا نستطيع أن ننزلها لإضفاء بعض الخصوصية. وعلى الجدار فوق الأريكة، علقنا أربعة تقاويم رسمت عليها صور الفصول الأربعة. وكان لوي العجوز يجلس على كرسي مستقيم الظهر وهو يبدو مهيباً ووقوراً، فيما يحدق سام من النافذة ووقفته مستقيمة بسبب مروحته الحديدية، ولكن وجهه كان يعبر عن شعوره بالضيق. أما فون الذي يعيش حياة آمنة ومحمية بين أفراد عائلته، فكان يستلقي على الأريكة حاملاً نموذج طائرة. بينما جلست أنا على الأرض وكتبت على بافطة معلقة عن بضائعنا المباعة في تشاينا تاون والحي الصيني الجديد. وحامت جوي في أنحاء الغرفة وهي تصنع كرة من الأشرطة المطاطية. أما بن بن، فكانت

تسحق الأشرطة المعدنية المستعملة في كرات مضغوطة. وفي وقت لاحق من اليوم، أخذنا هذه الأشياء إلى مدرسة بلمونت الثانوية وأودعناها في صناديق الخردة.

إن هذه الصورة تعبر لي عن مدى التضحيات التي قدمناها. فلقد أصبحنا أخيراً قادرين مادياً على شراء غسالة كهربائية، ولكننا لم نشترها بسبب ندرة وجود المعادن. وقاطعنا الجوارب اليابانية الحريرية وارتدينا الجوارب القطنية بدلاً منها رافعين شعار: "كن أنيقاً وارتدِ القطن". وسرعان ما انضمّت كل النساء في المدينة إلى حملة لا للحرير. وعانى الجميع نقصاً في القهوة ولحم البقر والسكر والدقيق والحليب، ولكننا في المقهى وللمطاعم الصينية في كل أنحاء المدينة، كنا نعاني أكثر لأن المكونات التي كنا نستخدمها كالأرز والزنجبيل والفطر وصلصة الصويا لم تعد تعبر المحيط الهادئ. فتعلّمنا أن نستبدل شرائح التفاح بالكستناء المائية ونشتري الأرز الذي يزرع في تكساس بدلاً من الأرز الصيني المعطر بالياسمين، ونستخدم أيضاً السمن الصناعي فنضع فيه ملوناً أصفر ونعجنه ونضغطه في قوالب على شكل لوح ليبدو كالزبدة عندما نقطعه إلى شرائح من أجل المقهى. وكان سام يشتري البيض من السوق السوداء فيدفع خمسة دولارات مقابل العلبة الواحدة. كما ادخرنا دهن الحيوان المقزز في علبة بن ووضعناها تحت المغسلة لنأخذها إلى المركز حيث قيل لنا إنه يستخدم في صناعة الأسلحة. ولم أعد أشعر بالاستياء لأنه توجب عليّ أن أمضي الكثير من الوقت وأنا أضع النزلاء في خيوط وأقشر الثوم في المطعم لأننا صرنا نخدم أبناءنا الذين يرتدون الزي العسكري، ويجب علينا بذل كل ما في وسعنا من أجلهم. وفي البيت، كنا نتناول الوجبات الأميركية، كلحم الحيوان المشوي المقزز والفول وشطائر اللحوم المعلبة مع الجبن وشرائح البصل ولحم العلوف، فهذا يوسع مكوناتنا أكثر.

لقطة: جمع التبرعات الحربية للعام الصيني الجديد. لقطة: جمع التبرعات الحربية ليوم العشرة المزدوجة. لقطة: الليلة الصينية مع نجومك السينمائيين المفضلين. لقطة: استعراض زنبقة الأرز حيث تحمل نساء الحي الصيني علماً صينياً ضخماً من أطرافه ويطلب من المتفرجين رمي العملة في داخله. لقطة: مهرجان القمر، حيث تقوم آنا ماي وونغ وكي لوك مقام سيد وسيدة في الاحتفال بينما يلوح كل من ديك باويل وباربرا ستانويك وجودي غارلاند وكاي كايسر ولوريل وهاردي للحشد. ويتجول ويليام هولدن وريمون ماسي في الأنحاء وهما مبتسمان ببهجة بينما تنطلق فتيات رابطة ماي واه درم في مسيرة على شكل حرف V من أجل تشكيل علامة النصر. وبالأموال التي يتم جمعها، كانت تُشترى المستلزمات الطبية والناموسيات وأقنعة الغاز والكثير من المستلزمات الأخرى للاجئين، بالإضافة إلى سيارات الإسعاف وطائرات الإسعاف التي تمّ إرسالها عبر المحيط الهادئ.

لقطة: مطعم الحي الصيني. تقف ماي مع الجنود والبحارة وجنود السلاح الجوي الذين يغادرون مركز الاتحاد خلال فترات التوقف ويحضرون آلاماتنا ويزورون المطعم. إن هؤلاء الشبان يأتون من أنحاء البلاد كافة، وإن الكثيرين منهم لم يروا صينياً من قبل. لقطة: أظهر فيها عاطفة بالطيارين الذين أرسلوا للتدريب في لوس أنجلوس. كان من الرائع أن أسمع أصواتهم، وأطلع على أخبار وطننا الأم، وأعلم منهم أن الصين لا تزال تحارب بكل قوتها. لقطة، لقطة، لقطة، لقطة: بوب هوب وفرانسيس لانغفورد وجيري كولونا يأتون إلى المطعم ليقيموا العروض. وتتطوع الفتيات بين السادسة عشرة والثامنة عشرة ليعملن مضيفات يضعن مآزر بيضاء ويرتدين كنزات وجوارب حمراء، ويراقصن الفتيان ويقدمن إليهم الشطائر ويصغين إليهم بكل تعاطف.

أما صورتي للقطة، فأظهرتني برفقة ماي ليلة السبت في المطعم قبل وقت الإقفال وشعرنا ينسدل في خصلات ناعمة حول أكتافنا وهو مزين بزهور الغاردينيا. وقد أظهرت ياقتا ثوبينا الكثير من البشرة الشاحبة، ولكنهما أظهرتانا بريئتين ومحتشمتين. وقد بدا ثوبانا قصيرين وساقانا طاهرة. وقد نكون امرأتين متزوجتين، ولكننا لا نزال نبدو جميلتين ومبهجتين. أدركتُ وماي تماماً ما يعنيه العيش في غمرة الحرب وأن العيش في لوس أنجلوس مختلف عن ذلك اختلاف الليل والنهار.

على مدى الأشهر الخمسة عشر التالية، مرّ في المدينة العديد من الناس: كالجنود القادمين من المسرح أو الذاهبين إليه، أو النساء والأطفال الذاهبين لرؤية الأزواج والآباء في المستشفيات العسكرية، والدبلوماسيين، والمغنين، والبائعين من كل الأنواع والمشتركين بجهود الحرب. فلم يثُر قلقي قط أنني سأرى شخصاً أعرفه. ولكن، في أحد الأيام حين كنت في المقهى سمعت صوت رجل يناديني باسمي:

"بيرل تشن؟ أهذه أنت؟".

حدقت إلى الرجل الجالس إلى جانب المنضدة وميّزته جيداً، ولكنّ عينيّ رفضتا أن تتعرفا إليه لأن الذل الذي كنت أشعر به فوري وعميق.

"ألست أنت بيرل تشن التي اعتادت أن تعيش في شنغهاي؟ لقد كنت تعرفين ابني يتسي".

وضعت الطبق من يدي وأشحت بوجهي ومسحت يدي. فإن كان ذلك الرجل والد يتسي حقاً، وهو كذلك، فهو الشخص الوحيد من الماضي الذي سيرى المدى الذي انحدر إليه مستواي. لقد كنت في ما مضى فتاة جميلة تزين صورها جدران بيوت شنغهاي، وكنت ذكية وأنيقة بما يكفي حتى يسمح لي بالتجول معه. وحولت ابنه من فتاة

تتقلص إلى الشوق إلى سيدة شبه أنيقة، والآن أصبحت أماً لفتاة في الخامسة من عمرها، وزوجة لرجل كان يعمل تجر العربات، ونادلة في مقهى في أحد أماكن جذب السياح. فرحت ابتسامة على وجهي والتفتُ لأنظر إليه.

"مستر هاويل، من الرائع أن أراك مجدداً".

ولكنه لم يبدُ مسروراً حقاً لرؤيتي بل بدا حزيناً ومسناً. وقد أكون في وضع مثير للحزن، ولكن حزنه بدا ناجماً عن سبب آخر.

مدّ يده عبر المنضدة وأمسك بذراعي وقال: "لقد أتينا بحثاً عنك، وظننا أنك مت خلال الفيضانات، ولكن ها أنت هنا".

"وماذا عن بيتسي؟".

"إنها في مخيم اعتقال ياباني قريب من معبد لونغوا".

مرّت بذهني ذكريات بعيدة عن تطيير الطائرات الورقية مع زي جي لي وماي، ولكني قلت: "لقد ظننت أن معظم الأمريكيين غادروا شنغهاي قبل...".

فقال مستر هاويل بحزن: "لقد تزوجت. أكنت تعلمين هذا؟ تزوجت رجلاً يعمل في شركة ستاندرد للنفط. فبقيا في شنغهاي بعد أن غادرتُ وزوجتي، ولا بد من أنك تدركين كيف هو العمل في شركات النفط".

درت حول المنضدة وجلست على الكرسي إلى جانب مستر هاويل وأنا مدركة أن النظرات الغريبة على وجه سام وويليوت وعمال المقهى الآخرين تتجه نحوي. فتمنيت لو أنهم يستطيعون أن يتوقفوا عن التحديق إليّ هكذا وأفواههم مفتوحة على وسعها وكأنهم متسولون في الشارع. ولكنّ والد بيتسي لم يلاحظ ذلك. أود أن أقول إن شعوري بالخزي ليس موجوداً، ولكني شعرتُ بالخجل لأنّ الشعور بالخزي ظلّ

عالقاً في مكان ما في أعماقي. لقد أمضيت نحو خمس سنوات في هذه البلاد وما زلت حتى الساعة لا أتقبل وضعي كلياً. وشعرتُ أن رؤية وجه من الماضي قد هبطت بكل شيء جميل في حياتي إلى الحضيض.

ربما كان والد بيتسي على الأرجح ما زال يعمل في وزارة الخارجية، لذا فهو ربما كان يدرك شعوري بعدم الراحة. وأخيراً قطع الصمت الذي ساد بيننا فقال: "سمعنا خبراً من بيتسي بعد أن تحولت شنغهاي إلى جزيرة موحشة. وظننا أنها بأمان لأنها في المقاطعة البريطانية. ولكن بعد الثامن من شهر كانون الأول لم يعد هناك ما يسعنا فعله لاستعادتها. فالقنوات الدبلوماسية لا تعمل جيداً". وحدّق إلى القهوة وهو يبتسم بحزن.

حاولت أن أرفع معنويات مستر هاويل، فقلت: "إنها قوية. فلطالما كانت بيتسي ذكية وشجاعة". ولكن هل هذا صحيح فعلاً؟ أتذكر أنها كانت عاطفية في ما يتعلق بالسياسة حتى عندما كنت أنا وماي لا نريد أكثر من احتساء كأس شراب آخر أو رقصة أخرى في ساحة الرقص.

"هذا ما أحاول وزوجتي أن نقنع به نفسينا".

"إن كل ما في وسعكما فعله هو أن تتمسكا بالأمل".

رمقني بنظرة ذكية، وقال: "إن هذا شديد الشبه بك، يا بيرل. فطالما كنت تنظرين إلى الجانب المشرق من الحياة، ولهذا السبب أبليت بلاءً حسناً جداً في شنغهاي، ولهذا السبب هربت قبل أن تسوء الأمور. فقد هرب كل الأذكياء في الوقت المناسب".

التزمت الصمت، فحدّق إليّ من دون أن يقول شيئاً، وبعد وقت طويل، قال: "لقد أتيت إلى هنا لأزور مدام شيانغ كاي شيك، فقد كنت أرافقها في جولتها الأمريكية. وخلال الأسبوع الماضي، ذهبنا إلى واشنطن، وهناك قدمت طلباً إلى الكونغرس من أجل الحصول على

إعانــة مالية لمساعدة الصين في حربها ضد عدونا المشترك، وذكرت أن الـصين والولايات المتحدة لا يمكن أن تكونا حليفتين حقيقيتين بوجود قـرار المنع الذي لا يزال مطبقاً حتى الآن. وستحدّث هذا الأسبوع في صالة هوليوود بول...".

"وستشارك في استعراض هنا في الحي الصيني".

"يبدو وكأنك تعرفين كل شيء عن الأمر".

فقلت له: "إنني ذاهبة إلى الصالة. سنذهب جميعاً. كما أننا نتطلع إلى استقبالها هنا".

بعـد أن سمعني أتحدث بصيغة الجمع للمرة الأولى، بدا عليه فجأة أنـه لاحـظ الخـيط الـذي يجلس فيه. فراقبت عينيه الحزينتين وهما تـستعرضان ذكرياته عن فتاة ربما لم تكن موجودة قط. وتأمّل الشحم على ملابسي، والتجاعيد الصغيرة حول عينيّ ويديّ المتشققتين. وازداد إدراكـه لوضعي شيئاً فشيئاً وهو يقيّم حجم المقهى الصغير والجدران المطلية باللون الأصفر الداكن والمروحة المغبّرة وهي تدور فوقنا والرجال الذين يضعون عصائب كتب عليها: لست يابانياً ويحدقون إليه بفضول وكأنه مخلوق غريب عن كوكب الأرض.

قـال بحذر: "إنني أعيش مع زوجتي في واشنطن الآن. وستغضب زوجتـي مـني إن لم أوجـه إليك دعوة للذهاب معي إلى البيت. إنني أسـتطيع أن أحصل لك على وظيفة، وستجيك مهاراتك اللغوية على فعل الكثير للمساعدة على تحمّل مجهود الحرب".

فأجبته من دون تفكير: "إن أختي هنا معي".

"أحضري ماي أيضاً. إذ لدينا متسع من المكان"، ثم دفع طبق المعكرونة بالخضار واللحم بعيداً، وقال: "لا يعجبني وضعكما هنا. إنك تبدين...".

من الغير للدهشة أنني في تلك اللحظة رأيت الأمور بوضوح. تُرى هـل هزمت؟ نعم. هل سمحت لنفسي أن أصبح ضحية؟ نوعاً ما. هل أنـا خائفة؟ دائماً. هل لا يزال جزء من أعماقي يتوق إلى الهرب بعيداً عن هذا المكان؟ بكل تأكيد. ولكنني لا أستطيع المغادرة. فقد أنشأتُ وسـام حياة من أجل جوي. قد لا تكون مثالية، ولكنها حياتنا. إن سعادة عائلتي تعني لي أكثر بكثير من فكرة البدء من جديد.

إن كنت أظهر في صورة المطعم مبتسمة، فالصورة التي التقطت في ذلك اليوم أظهرتني في أسوأ حالاتي. وظهر مستر هاويل مرتدياً معطفاً ومعتمـراً قبعة وأنا واقفة إلى جانب الصندوق الذي وضعت عليه لافتة كـتب عليها: أنني تشابه مع مظهر اليابانيين هو محض صدفة. لم يكن أحـدٌ مبتسماً في هذه الصورة. وبالرغم من أنها بالأبيض والأسود، إلاّ أنني كدت أرى حمرة الخجل تتوهج على خديّ.

وبعـد بـضعة أيام، استقلت العائلة بأكملها الحافلة وذهبت إلى صالة هوليوود بول. ونظراً إلى العمل الشاق الذي قمت به وبين بي في جمع التبرعات لصالح الجمعية الخيرية، فقد حظيت عائلتنا بمقاعد جيدة جداً خلف النافورة التي تفصل بين المسرح والجمهور. وعندما صعدت مدام شيانغ إلى المسرح مرتدية ثوباً صينياً مقصباً وهي تبدو متألقة جداً وجميلة صفّقنا لها بحرارة شديدة.

أعلنـت قائلـة: "إنني أناشد النساء هنا اليوم أن يثقفن أنفسهن ويهـتممن بالـسياسة هنا وفي الوطن. إنكن تستطعن أن تدرن عجلة التطور من دون أن تخاطرن بدوركن كزوجات وأمهات".

أصـغينا إليها بانتباه وهي تطلب منا ومن الأميركيين أن نساعد على جمع التبرعات وطلب الدعم لحركة الحياة الجديدة النسائية، ولكننا

طوال الوقت كما تتأمل مظهرها الجميل بإعجاب. فتغيّرت أفكاري حيال طراز ملابسي مرة أخرى. إذ عندما أمعنت النظر إلى الملابس التقليدية التي توجّب عليّ أن أرتديها لأرضي السياح في تشاينا تاون وأحقق متطلبات السيدة ستوكلينغ الخاصة بالإبحار، أدركت أن تلك الملابس قد تكون وطنية وعصرية ورمزية.

وعندما ذهبت وماي إلى البيت، أخرجنا أغلى ملابسنا التقليدية من الصناديق وارتديناها. إذ جعلنا إلحاح مدام شيانغ نرغب في أن نبدو عصريتين ومخلصتين للصين قدر المستطاع. وهكذا، عدنا فتاتين جميلتين كما كنا في الماضي، فالتقط لنا سام صورة. وللحظة، شعرت أن الزمن قد عاد بنا إلى استديو زي جي لي. ولكنني تساءلت لاحقاً لماذا لم نطلب من سام أن يلتقط صورة لي ولجوي عندما أتت دعوتنا لمصافحة مدام شيانغ كاي شيك؟

تقاعد توم غوبتس وباع الوالد لوي شركته، فأصبح اسمها شركة *ممثلي الكومبارس وتجهيزات الأفلام السينمائية الذهبية*. وسلّم الوالد لوي الإدارة إلى ماي بالرغم من أنها لا تعرف شيئاً عن إدارة المشروعات التجارية. فصارت تجني مئة وخمسين دولاراً تقريباً في الأسبوع بصفتها مديرة فنية تزوّد بالممثلين والأزياء والتجهيزات والترجمة والاستشارات. واستمرّت في العمل في عدد لا حصر له من الأفلام التي تمّ توزيعها في جميع أنحاء العالم ليشاهدها ملايين الناس ويروا مدى قسوة اليابانيين. إنّ أدوارها صغيرة، مثل دور عذراء صينية سيئة الحظ، أو خادمة لأحد القادة العسكريين، أو قروية يقتلها المشرّدون البيض. ولكنّ ماي معروفة أكثر بأدوار الصراخ. إذ إنها تلعب خلال اندلاع الحرب دور ضحية تلو الأخرى في أفلام مثل: خلف

الشمس المشرقة وقنابل على بورما والسيدة هوليداي المدهشة وفيه تحاول شركة أمريكية أن تهرّب أيتام الحرب الصينيين إلى الولايات المتحدة، وفيلم الصين الذي يحمل شعار: آلان لاد وعشرون فتاة محاصرون على يد اليابانيين المتوحشين. وقد بدا أن ماي كانت محبوبة جداً في عدة استديوهات، وخصوصاً في شركة أم دجي أم. وكانت تتباهى قائلة: "إنهم يدعونني العاوية الصينية". وتتباهى بأنها ذات مرة كسبت مئة دولار خلال يوم واحد بسبب مهارتها في الصراخ.

وذات يوم، تلقت ماي اتصالاً لتزويد شركة أم دجي أم بممثلي الكومبارس لتصوير فيلم بذرة التنين الذي سيتم عرضه خلال الصيف القادم عام 1944. فاتصلت بنادي السينما الصيني في شارع مين وآليدا حيث يتسكع بعض أفراد نقابة ممثلي الكومبارس الصينيين لتستأجر بعض الأشخاص. وحصلت على عمولة بنسبة عشر بالمئة وشاركت في التمثيل في الفيلم.

قالت ماي: "ليس من السهل أن تملأ كل الأدوار. فأنا بحاجة إلى مئات الناس لأدوار الفلاحين الصينيين. أما بالنسبة إلى الجنود اليابانيين، فقد طلب مني الاستديو أن أستأجر الكمبوديين والفيليبينيين والمكسيكيين".

منذ الليلة التي أمضيتها في موقع التصوير وأنا حائرة بين كرهي فاولاير ورغبتي في ادخار المزيد من المال من أجل صغيرتي. لقد عملت جوي بشكل ثابت منذ بداية الحرب، فحققت بداية جيدة في ادخار المبلغ الذي أتخيل أنها ستحتاج إليه من أجل التعلّم. والآن، سنحت لي الفرصة لانتشالها من هذا العالم. ففي إحدى الليالي التي عادت فيها مع ماي من الموقع، دخلت جوي باكية وتوجهت مباشرة إلى غرفتنا حيث وُضع لها سرير صغير في الزاوية. أما ماي فبدت خائفة جداً. وكنت

قد غضبت من جوي مراراً. فأي أم لا تغضب من أبنائها في بعض الأحيان؟ ولكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ماي غاضبة من جوي على الإطلاق.

قالت ماي باشمئزاز واضح: "لقد أعددت دوراً جيداً لجوي، وحرصت على أن أعطي ثياب جيدة وأن تبدو جميلة. ولكن قبل أن يناديها المخرج بقليل ذهبت إلى المرحاض، فضيعت الفرصة على نفسها وأحرجتني. كيف يمكنها أن تفعل هذا بي؟".

سألتها: "كيف؟ إنها في الخامسة من عمرها وتحتاج إلى استخدام المرحاض".

فقالت ماي وهي تهز رأسها: "إنني أدرك ما تقولينه، ولكنني أردت هذا الدور من أجلها فعلاً".

فانتهزت الفرصة قبل أن تفلت مني وقلت: "لنجعل جوي تعمل في أحد متاجر جدها لبعض الوقت. وعندئذ ستتعلم كيف تقدر كل شيء تفعلينه من أجلها". ولم أضف أنني لن أسمح لجوي بالعمل في السينما مجدداً وأنها ستلتحق في شهر أيلول بالمدرسة الأمريكية، أو أنني لا أعرف كيف سأدخر ما يكفي من المال لألحقها بالكلية، ولكن ماي كانت غاضبة جداً إلى درجة أنها وافقت على ما قلته.

شكّل فيلم ثمرة التنين علامة مميزة في مهنة ماي، وأصبحت صورتها مع الممثلة كاثرين هيبورن في موقع التصوير من أفضل مقتنياتنا الثمينة، حيث ظهرتا فيها مرتديتين ملابس فلاحتين صينيتين. وبدت عينا الآنسة هيبورن مشدودتين إلى الخلف ومرسومتين بكمية كبيرة من الكحل الأسود. ولم تبدُ هذه الممثلة الشهيرة شبيهة بالصينيين ولو قليلاً. ولكن غيرها من الممثلين الرئيسين في الفيلم لا يبدون صينيين أيضاً.

كنت أضع صورة تظهر فيها جوي واقفة في كشك لبيع عصير البرتقال الذي نصبناه من أجلها أمام مقهى التنين الذهبي على مرآة الزينة في غرفتي وكانت محاطة بالجنود الذين يتجمعون حولها ويبتسمون لها. إن هذه الصورة تعبر عن لحظة واحدة ولكنّ هذا الموقف كان يتكرر يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة. فالشبان ذوو الزي العسكري يحبون أن يروا صغيرتي مرتدية بيجامة حريرية ناعمة وشعرها مضفور وهي تعصر البرتقال، وأن يشربوا كل ما يرغبون فيه مقابل عشرة سنتات. إن بعض هؤلاء الفتيان مستعدون لشرب ثلاثة أو أربعة أكواب من العصير لمجرد رؤية جوي وهي تقف مزمومة الشفتين وتعصر البرتقال. أحياناً كنت أنظر إلى الصور وأتساءل إن كانت تدرك مدى المشقة التي تتكبدها في عملها، أو إن كانت تعتبر ذلك فرصة للهرب من العمل طوال الليل ومن متطلبات خالتها. وبالإضافة إلى هذا، هناك ميزة إضافية لعملها: فسوف يتوقف الرجال لينظروا إلى هذه الفتاة الصينية الصغيرة من باب الفضول وليشربوا عصيرها، ووجدوه غير مسموم، فقد يفكرون في الدخول لتناول وجبة.

في شهر أيلول، هيّأت جوي لدخول الحضانة. كانت تريد أن تذهب إلى مدرسة كاستيلار في الحي الصيني مع هيزل يو وغيرها من أولاد الجوار، ولكنني وسام أردنا أن تذهب إلى المدرسة التي تخرّج منها فيرن من مرحلة إلى أخرى مع أنه لا يجيد القراءة ولا الكتابة ولا الحساب. إذ إننا كنا نريدها أن تخطو خطوة إلى الأمام في العالم وأن تلتحق بمدرسة خارج الحي الصيني، مما يعني أنه سيتوجب على جوي أن تقول إننا نعيش في تلك المنطقة وأن تتعلم القصة الرسمية للعائلة. إذ إن أكاذيب الوالد لوي بشأن وضعه انتقلت من سام إلى الأعمام ثم إليّ،

وهنا هي تنتقل تلك الأكاذيب إلى جيل آخر. مما أوجب جوي أن تتوخى الحذر في ما بعد وخاصة عندما تقدم طلبات الالتحاق بالمدرسة أو العمل أو حتى شهادة زواجها. فبدأنا نعمل على تدريبها طوال أسابيع وكأننا في جزيرة أيتحل: أين تعيشين؟ ما هو شارع كروس؟ أين وُلد والدك؟ لماذا عاد إلى الصين وهو فتى صغير؟ ما هو عمل والدك؟ ولم نقل لها أبداً ما الصحيح وما الخطأ. فمن الأفضل لها أن تعرف الحقيقة الزيفة فقط.

شرحت لجوي عندما كنت أغطيها في سريرها في الليلة التي تسبق بداية المدرسة: "يجب على كل الفتيات الصغيرات أن يعرفن هذه الأمور عن آبائهن. فلا تخبري معلمتك أي شيء باستثناء ما علمناك إياه".

في اليوم التالي، ارتدت جوي فستاناً أصفر اللون وكنزة بيضاء وجوارب زهرية ضيقاً. فالتقط سام صورة لي ولجوي ونحن واقفتان على المدرج خارج المبنى. ثم حملت جوي صندوق غدائها الجديد الذي رسمت عليه صورة فتاة راعية أبقار تلوح بيديها وهي ممتطية صهوة حصانها. حدّقت إلى جوي بعين الأم الحانية، وشعرت بالفخر بها وبنا جميعاً لأننا وصلنا إلى هذا الحد.

اصطحبنا جوي بالسيارة إلى المدرسة الابتدائية. فملأنا الاستمارات، وكذبنا بشأن مكان سكننا، ثم أوصلنا جوي إلى صفها. فمد سام يد جوي إلى معلمتها، الآنسة هندرسون. فحدقت إليها وسألت قائلة: "لماذا لا تستطيعون، أيها الأجانب، أن تعودوا وحسب إلى بلادكم؟".

هكذا ببساطة! أيمكن لأحد أن يصدق هذا؟ شعرت أنه من واجبي أن أرد عليها قبل أن يستوعب سام ما تقوله. فقلت لها مقلدة

الأمهات البريطانيات اللواتي اعتدت أن أراهن يمشين مع أطفالهن: "لأن هذا هو بلدها الأصلي. فقد ولدت هنا".

تركنا ابنتنا مع تلك المرأة. ولم يتفوه سام بكلمة واحدة ونحن نستقل السيارة عائدين إلى تشاينا تاون. ولكن، عندما وصلنا إلى المقهى، جذبني إليه وقال لي بصوت مفعم بالعواطف: "إن حصل لها مكروه، فلن أسامحهم ولن أسامح نفسي".

بعد أسبوع، عندما ذهبت لأحضر جوي من المدرسة وجدتها جالسة على الإفريز وهي تبكي. وقالت والدمع ينساب على خديها: "لقد أرسلتني الآنسة هندرسون إلى مكتب نائب المدير بعد أن طرحت عليّ الكثير من الأسئلة. فأجبتها كما قلت لي، ولكنها قالت إنني كاذبة وإنني لا أستطيع العودة إلى هنا بعد الآن".

توجهت إلى مكتب نائب المدير، ولكن ما الذي يسعني أن أقوله لأغير رأيها؟

قالت المرأة المتلفة: "إننا نحرص على مراقبة هذه المخالفات، يا سيدة لوي. وبالإضافة إلى ذلك، فابنتك لا تنتمي إلى هذا المكان. ويستطيع الجميع أن يلاحظوا هذا. خذيها إلى مدرسة الحي الصيني، فهناك سيسعدها أكثر".

في اليوم التالي، تخطيت بضعة مجمعات سكنية وأنا في طريقي إلى مدرسة كاستيلر في قلب الحي الصيني. فرأيت أطفالاً من الصين والمكسيك وإيطاليا وبلدان أوروبية أخرى. وابتسمت معلمة جوي الآنسة غوردون وهي تأخذ يدها وتوصلها إلى صفها وتغلق الباب. وخلال الأسابيع والأشهر التالية، تعلمت جوي، التي تربت على الطاعة والامتناع عن القيام بأعمال هوجاء كركوب الدراجة، وبعد أن تعرضت للتوبيخ على يد جوانا لأنها تضحك كثيراً وبصوت عالٍ، أن

تلعب لعبة الحجلة ولعبة القفز. إنها سعيدة الآن لأنها في الصف نفسه مع صديقتيها المفضلة، وتبدو الآنسة غوروءون لطيفة كثيراً.

وفي البيت، كنا نبذل ما في وسعنا من أجل تعليم جوي، وهذا يعني بالنسبة إليّ أن أجعلها تتقن الإنكليزية قدر المستطاع لأنها أميركية ولأننا سنعيش في هذا البلد. فعندما كان يتحدث والدها أو جدها أو أعمامها لغة ألهي يوب تجيبهم هي باللغة الإنكليزية. وفي غضون ذلك، تحسّن فهم سام للغة الإنكليزية من دون أن يحسّن لفظه للكلمات. ومع ذلك، استمرّ أعمامها بإغاظتها حول الذهاب إلى المدرسة، فحذّرها العم ويلبرت قائلاً: "إن التعليم يسبب للفتاة المتاعب وحسب. ماذا تريدين أن تفعلي؟ أن تهربي منا؟"، فوجدتُ لنفسي حليفاً في جدها. قبل وقت ليس بطويل، هددني الوالد لوي وهدد ماي، وطلب منّا ألاّ نتحدث أي لغة أخرى غير ألهي يوب أمامه، ولكنه الآن يقول لجوي كلاماً آخر: "إن سمعتك تتحدثين بلغة غير الإنكليزية، فسأغضب منك كثيراً". ومع الوقت، أصبحت لغتها الإنكليزية جيدة كلغتي، ولكني لم أستطع أن أتخيل كيف ستستطيع أن تنطلق من الحي الصيني وتتحرر منه أخيراً.

في أواخر فصل الخريف، اجتمعنا حول المذياع لنسمع الرئيس روزفلت يطلب من الكونغرس أن يعمل على إبطال قانون منع دخول الصينيين، فقال: "إن الأمم كالأفراد ترتكب الأخطاء، ويجب علينا أن نتحلى بالحكمة الكافية لنعترف بأخطاء الماضي ونصححها". وبعد بضعة أسابيع، في السابع عشر من شهر كانون الأول عام 1943، تمّ إسقاط كل قوانين المنع، بالضبط كما لمّح والد يشي.

أصغينا إلى نشرة أخبار وولتر وينشيل. فأعلن المذيع قائلاً: "لقد فوّتت كيي لوك، ابن تشارلي تشان الأول، فرصته في أن يكون أول

مواطن صيني يصبح مواطناً أميركياً طبيعياً". وبما أن كيي لوك كان يمثل في أحد الأفلام في ذلك اليوم، فلقد انتهز طبيب صيني في نيويورك الفرصة ليصبح المواطن الأول. فخلّد سام ذكرى هذه اللحظة السعيدة والتقط صورة لابنته وهي واقفة ويدها على خصرها ويدها الأخرى على جهاز المذياع، ولم تكن حينها ترتدي الأزياء الصينية التقليدية. فمنذ أن بدأت جوي بالذهاب إلى المدرسة وأعطيتها صندوق الغداء ذاك، قررت أنها تحب الفتيات راعيات الأبقار وملابسهن. فاشترى لها جدها زوجاً من أحذية رعاة الأبقار من شارع أولفيرا. وحالما ارتدت طقمها، لم تعد تريد خلعه. فابتسمت في الصورة بسعادة خارقة. وبالرغم من أن أفراد العائلة لم يظهروا فيها، إلاّ أنني أتذكر دائماً أننا جميعاً ابتسمنا معها.

ومنذ ذلك اليوم كنت أتناقش مع سام حول مسألة تقدم الطلب من أجل تطبيع الجنسية، ولكن القلق كان يساورنا ككل أبناء الوثيقة وزوجاتهم اللواتي تسللن معهم. فكان سام يقول: "لقد حصلت على جنسيتي المزيفة من خلال الادعاء بأني ابن الوالد لوي الحقيقي، وحصلت أنت على وثيقة هويتك من خلال زواجك بي. لماذا ينبغي لنا أن نجازف بخسارة ما نملكه؟ كيف يسعنا أن نثق بالحكومة بعد أن رأينا جيراننا اليابانيين يتم إرسالهم إلى مخيمات الاعتقال؟ كيف يسعنا أن نثق بالحكومة بعد كل ما فعلته بنا؟ كيف يسعنا أن نثق بالحكومة في حين أن الأميركيين ينظرون إلينا باستغراب وكأننا من اليابان أيضاً؟".

إن وضع ماي يختلف عن وضعي ووضع سام. إذ إنها متزوجة من مواطن أميركي حقيقي وعاشت في البلاد خمسة أعوام. وهكذا، أصبحت المواطنة الأولى في عائلتنا من خلال عملية تطبيع الجنسية.

مضت شهور الحرب متثاقلة وبطيئة. فحاولنا أن نبقي الحياة طبيعية قدر المستطاع من أجل جوي ونجحنا في هذا فعلاً. فأبلت جوي بلاءً حسناً في المدرسة بحيث إن معلميها في الحضانة والصف الأول أوصوا بها لتخضع لبرنامج خاص في الصف الثاني. فعملت مع جوي طوال الصيف لأحضّرها للعام التالي. وكانت الآنسة غوردون التي تهتم اهتماماً تاماً بابنتنا تأتي إلى شقتنا مرة في الأسبوع لتساعد ابنتي على حلّ مسائل الحساب ومهارات القراءة والفهم.

ربما ضغطت على جوي بشدة إذ أصيبت بنزلة زكام صيفية شديدة. وبعد مرور يومين على سقوط القنبلة الذرية على هيروشيما ازداد زكامها سوءاً. فارتفعت درجة حرارتها وأصبح حلقها أحمر من الالتهاب، وكانت تسعل سعالاً شديداً وطويلاً إلى أن تتقيأ. فذهبت بن سن إلى طبيب الأعشاب وأحضرت معها بعض الشاي المر لتشربه جوي. وفي اليوم التالي، وبينما كنت في العمل، أخذت بن بن جوي إلى طبيب الأعشاب الذي نفخ بعض مسحوق الأعشاب في حنجرتها بطرف ريشة التخطيط.

وبعد بضعة أيام، أعلنت نشرة الأخبار عبر المذياع أن هناك قنبلة ذرية أخرى قد أسقطت على ناغازاكي. وقال المذيع إن الدمار شامل ورهيب، ولكن المسؤولين الحكوميين في واشنطن متفائلون بأن الحرب ستضع أوزارها في القريب العاجل.

أغلقتُ وسام المقهى وأسرعنا إلى الشقة لنقل الخبر إلى الآخرين. وعندما وصلنا إلى هناك رأينا أن عنق جوي قد تورّم بسبب حنجرتها التي تحولت إلى اللون الأزرق. وفي مكان آخر، كان الناس مبتهجين ويحتفلون لأن الأبناء والإخوة والأزواج سيعودون إلى البيت، ولكننا كنّا خائفين كثيراً على جوي بحيث إننا لم نستطع أن نفكر في شيء

آخر. أردنا أن نأخذها إلى طبيب غربي، ولكننا لم نكن نعرف أيّ أحد وليست لدينا سيارة. وبينما كنا نحاول العثور على سيارة أجرة، وصلت الآنسة غوردون. ففي غمرة صخب أخبار القنابل والقلق الذي شعرنا به حيال جوي، نسينا أمر الدروس الخصوصية. وحالما رأت الآنسة غوردون جوي، ساعدتني على لفها بملاءة وأوصلتنا إلى مستشفى جنرال الذي يُعالَج فيه أشخاص أمثالنا. وبعد بضع دقائق على وصولنا إلى المستشفى، أحدث الطبيب ثقباً في حنجرة ابنتي لتستطيع أن تتنفس.

بعد مرور أقل من أسبوع على مرض جوي الذي أوشك أن يودي بحياتها، انتهت الحرب. فأخذ سام، بعد أن هزه مرض جوي وخوفه من فقدانها، ثلاثمئة دولار من مدخراتنا واشترى سيارة من طراز كرايسلر قديمة، ولكنها سيارة على كل حال. وفي آخر صورة لنا من سنوات الحرب، ظهر سام جالساً على مقعد السائق في سيارة الكرايسلر، فيما استندت جوي إلى جانبها ووقفت أنا إلى جانب الباب الأمامي. وكنا على وشك أن نقوم بأول رحلة أسبوعية لنا في سيارتنا الخاصة.

عشرة آلاف سبب للشعور بالسعادة

تنادى صوت عذب قائلاً: "خمسة عشر سنتاً ثمن زهرة غاردينيا، وخمسة وعشرون سنتاً ثمن زهرتين". وبدت الفتاة الصغيرة الواقفة خلف الطاولة رائعة ومحبة، إذ لمع شعرها الأسود تحت الأضواء الملونة، وأشرقت ابتسامتها الآسرة بشذا الزهور، أما أصابعها فبدت كالفراشات لشدة رقتها. لقد أصبحت ابنتي جوي تحظى بمشروعها التجاري الخاص، كما تحب أن تدعوه، وتديره ببراعة بالنسبة إلى فتاة في العاشرة من عمرها. فخلال العطل الأسبوعية، كانت جوي تبيع زهور الغاردينيا من الساعة السادسة وحتى منتصف الليل خارج الملهى حيث أراقبها عن كثب، ولكنها لم تكن بحاجة إليّ أو إلى أي شخص آخر ليحميها. إذ إنها شجاعة كالنمر، ومثابرة مثلي بالإضافة إلى كونها جميلة كخالتها. كان لديّ عمر مثير، وكنت أريد أن أحظى بماي لأطلعها عليه، ولكن رؤيتنا جوي وهي تبيع الغاردينيا سحرتنا وفتنتنا.

قالت ماي بعذوبة شديدة: "انظري كم هي رائعة. إنها بارعة جداً في هذا العمل. يسرني أنها تحبه وأنها تجني بعض المال. إن هذا أمر جيد، أليس كذلك؟".

بدت ماي جميلة الليلة وكأنها زوجة مليونير بثوبها الحريري القرمزي. فطالما كانت تجيد التأنق هندامها لأنها لا تمانع بإنفاق المال الذي تجنيه بتبذير وإسراف. لقد بلغت لتوها التاسعة والعشرين من عمرها. ويا للدموع التي ذرفتها! وكأنها بلغت مئة وتسعة وعشرين

حامـــا! ولكنها في نظري لم تتغير مطلقاً منذ الأيام التي كنا فيها فتاتين جميلتين. ومـــع ذلـــك، فلا تزال تقلق من ازدياد وزنها ومن ظهور التجاعيد. فبدأت مؤخراً تحشو وسادتها بأوراق الأقحوان كي تبدو عيناها حين تستيقظ صافيتين ورطبتين.

اتفقـــت معهـــا قائلـــة: "إن تشاينا تاون مكان للسياح. فكيف تظنين أنه ينبغي أن يكون البائع؟ الأصغر سناً والأكثر ظرفاً. كما أن حـــوي فتاة ذكية، فهي تتوخى الحرص الشديد لئلا يسرق منها أحد شيئاً".

قالـــت حـــوي لزوجين توقفا أمام طاولتها: "مقابل قرش إضافي سأغني لكما أغنية: ليحفظ الله أميركا. ولم تنتظر منهما إجابة بل بدأت بالغنـــاء بصوت مرتفع وواضح. ففي المدرسة الأميركية، تعلمت إنشاد كل الأغاني الوطنية، مثل: بلادي هي بلادكم وأنت علم قديم وعظيم بالإضـــافة إلى أغنيات مثل: عزيزتي كليمنتاين وسآتي من وراء الجبل. وفي البعثة التبشيرية الصينية في شارع لوس أنجلوس، تعلمت أن تغني: الله يحـــب كـــل شيء لي والله يحب الجميع باللغة الكانتونية. إنها فتاة مشغولة بالعمل وبدوام المدرسة النظامي، وبالمدرسة الصينية التي تذهب إلى صفوفها منذ الاثنين وحتى الجمعة من الساعة الرابعة والنصف وحتى السابعة والنصف، ويوم السبت من الساعة التاسعة وحتى الثانية عشرة، ولكنها كانت في غاية السعادة.

نظرت حوي إليّ بشكل خاطف وهي تمد يدها إلى الزوجين. لقد تعلمت من جدتها هذه الخدعة، وهي أن تجعل الناس يدفعون ثمن أشياء ربمـــا لا يـــريدونها. وضع الزوج بعض الفكة في كف حوي، فقبضت يـــدها عليها بإحكام كالقرد ثم وضعتها في علبة وأعطت الزوجة زهرة غاردينيا. وحالما انتهت حوي من الزوجين صرفتهما. وقد تعلمت هذا

من جدتها أيضاً. كل ليلة، كانت حوي تعد المال ثم تعطي جدّتها إياه، ومـــن ثمّ كـــان يستبدل الفكة بالدولارات ويعطيني إياها لأدخرها من أجل تعليم حوي.

فقالـــت حوي وملامح وجهها حادة ولكنها مرتاحة: "خمسة عشر سنتاً ثمن زهرة غاردينيا وخمسة وعشرون سنتاً ثمن زهرتين".

تأبطت ذراع أختي وقلت: "تعالي معي. إننا نخرج. فتحتسي فنجاناً من الشاي".

"ولكـــن، ليس في المقهى، اتفقنا؟"، إذ إنها لا تحب أن يراها أحد في المقهى لأنه لم يعد لائقاً بما فيه الكفاية من أجلها، على الأقل خلال هذه الأيام.

فقلت لها: "هذا حسن". وأومأت إلى سام الذي كان يقف خلف المنضدة في المقهى وهو يقلي وجبة أحد الزبائن. لقد أصبح طاهياً ثانياً الآن، ولكنه يستطيع أن يبقي عينيه على ابنتنا بينما أتحدث إلى ماي.

تحـــركت ومـــاي عبر أزقة تشاينا تاون وباتجاه متجر التجهيزات الـــسينمائية الـــتي أصـــبحت تديره بعد توم غوبـــز. لقد مرت عشر ســـنوات منذ أتينا إلى لوس أنجلوس ودخلنا تشاينا تاون. عندما مررت للمـــرة الأولى إلى جانـــب الـــسور العظيم المصغر، لم أشعر بأي علاقة تربطني بهذا المكان. ولكن بعد ذلك، أصبحت أشعر أنه موطني وصرت أراه مألـــوفاً ومـــريحاً ومحبوباً كثيراً. إنّ الحي الصيني ليس الصين التي أتذكـــرها من الماضي بشوارعها المزدحمة في شنغهاي ومتسوليها والمرح والـــشراب والمـــال، ولكنني كنت أرى ما يذكرني ها هنا في أصوات الـــسياح الضاحكين، وملابس أصحاب المتاجر التقليدية، والروائح التي تفوح من المقاهي والمطاعم، والمرأة المتلهفة التي تمشي إلى جانبـــي والتي يـــصادف أنهـــا أختـــي. وبينما كنا نمشي تحت صورتنا في واجهات

المتاجر، وعادت بي الذاكرة إلى أيام صبانا. فتذكرت الطريقة التي كنا نرتدي بها ملابسنا في غرفتنا ونحدق إلى انعكاس صورتنا في المرآة وصورنا المعلقة على الجدران حولنا، ونزهاتنا معاً على طول شارع ناكينسع عندما كنا نبتسم لأنفسنا في واجهات المتاجر والطريقة التي كان زي حي لي يرسم بها جمالنا المثالي.

ومع ذلك، فقد تغير كل شيء فينا. إذ إنني صرت أرى نفسي امرأة في الثامنة والثلاثين من عمرها لم تعد أماً حديثة بعد الآن، بل أصبحت امرأة راضية عن نفسها. أما أختي فقد أصبحت وردة في كامل تفتحها، ولا تزال الرغبة في أن يراها الناس ويعجبوا بها تتوهج في أعماقها. وكلما عتقها توهجت أكثر من ذي قبل، ولكنها لم تستطع أن ترضيها أبداً. إن هذا المرض يسكن عظامها منذ الولادة ويحتل شخصيتها الجوهرية، شخصية الحروف الذي يريد أن يعتني الآخرون به ويدللوه ويعجبوا به. إنها ليست نداً لآنا ماي وونغ ولن تكون كذلك أبداً، ولكنها تحظى بأدوار سينمائية متنوعة، كنور عاملة صندوق غريبة الأطوار، أو خادمة ثرثارة عديمة الفائدة، أو زوجة رزينة لعامل مصبغة، أكثر من أي شخص آخر في الحي الصيني. إن هذا يجعلها نجمة في حينا ونجمة في نظري أنا.

فتحت ماي باب متجرها وأضاءت المكان، وها قد عدنا محاطين بالحرير والمطرزات والريش كما كنا في الماضي. فأعدّت الشاي وصبّته، ثم سألتني قائلة: "إذاً، ما الشيء الذي تلهفين لإخباري إياه؟".

قلت لها: "لديّ عشرة آلاف سبب للسعادة. فأنا حامل".

شبكت ماي يديها ببعضهما، وقالت: "حقاً؟ هل أنت واثقة؟".

فابتسمت وقلت: "لقد ذهبت إلى الطبيب وقال لي إنّ الأمر حقيقي".

فنهضت ماي وجاءت إليّ وعانقتني ثم ابتعدت عني قائلة: "ولكن كيف؟ فقد كنت أحسبك...".

"لقد توجب عليّ أن أحاول، أليس كذلك؟ لقد أعطاني طبيب الأعشاب منذ مدة فاكهة السنفورينة الغريبة وبطاطا اليام الصينية والسمسم الأسود لأضعه في حسائنا وأطباقنا الأخرى".

قالت ماي: "إن هذا أمر غريب".

"بل أكثر من غريب، إنه أقرب إلى المستحيل...".

"آه، يا بيرل، إنني مسرورة جداً. أخبريني كل شيء. كم مضى عليك من الوقت؟ متى سيولد الطفل؟".

"لقد مضى عليّ شهران تقريباً".

"هل أخبرت سام؟".

"إنك أختي، وقد أردت أن تكوني أول من يعرف".

قالت ماي وهي تبتسم: "إنه ابن. ستنجبين ابناً غالياً".

إن الجميع يرغبون في هذا وكنت أتوهج من فرط السعادة لمجرد سماع كلمة ابن.

ثم ظهرت مسحة من الكآبة على وجه ماي، وقالت: "أتستطيعين أن تفعلي هذا؟".

"قال الطبيب إنه ينبغي ألا أكون كبيرة السن هكذا، وإنني أعاني من بعض المشاكل".

قالت ماي: "إن نساء أكبر منك سناً ينجبن الأطفال". ولكن هذا لم يكن أفضل شيء قالته لأن مشاكل فيرن غالباً ما تُعزى إلى كبر سن فيرن. فأحجمت ماي من قسوة ملاحظتها ولم تسأل عن المشاكل لأننا لم نتحدث أبداً عن سبب حدوثها، ولهذا انتقلت إلى أسئلة تقليدية أكثر عن وضعي. فقالت: "هل تشعرين بالنعاس طوال الوقت؟ هل تشعرين

بالعشيات؟ إني أتذكر...". ثم هزّت رأسها وكأنها تريد تخليص نفسها من هذه الذكريات، وقالت: "يقال إن الحياة تمتد فقط بإنجاب الأطفال". ثم مدت يدها ولمست سوار الهيب في يدي، وقالت: "فكري كم كان والدنا ووالدتنا سيفرحان"، ثم ابتسمت ماي فجأة وقالت: "أتعلمين ما يعنيه هذا؟ يجب عليك أنت وسام أن تشتريا منزلاً".

"نشتري منزلاً؟".

"لقد كنتما تدخران طوال تلك السنوات".

"نعم، من أجل حوي، لتلتحق بالكلية".

حركت أختي يدها ثم قالت: "لديكما متسع من الوقت لتدخرا للكلية. وبالإضافة إلى ذلك، فالوالد لوي سيساعدكما على شراء المنزل".

"لا أرى سبباً يدفعه إلى هذا. فقد سبق وعقدنا اتفاقاً...".

"ولكن الوالد تغير. وهذا من أجل حفيده!".

"ربما، ولكن حتى لو قرر أن يساعدنا، فأنا لا أريد أن أفترق عنك لأنك أختي وصديقتي المقربة".

ابتسمت ماي لي ابتسامة مطمئنة، وقالت: "لن تخسريني لأنك لن تستطيعي أن تفعلي ذلك حتى لو حاولت. فأنا لديّ سيارتي الخاصة الآن، وهكذا فحيثما تذهبين سآتي وأزورك".

"ولكن الوضع لن يبقى على ما هو عليه".

"بالطبع سيبقى كذلك. وبالإضافة إلى ذلك، فأنت ستأتين إلى تشاينا تاون كل يوم لتعملي. وستود يو يو أن تعتني بحفيدها. وأريد أنا أيضاً أن أرى ابن أختي"، ثمّ أمسكت يدي وقالت: "إن شراء منزل هو أفضل شيء تفعلينه، يا بيرل. إنك وسام تستحقان ذلك".

كانت بهجة سام لدى سماعه الخبر تفوق الوصف. وربما يكون قد قال لي من قبل إنه لا يأبه إن أنجبت ابناً أم لا، ولكنه رجل على كل حال. بالرغم من كل ما قاله، فهو في أمسّ الحاجة إلى ابن. أمّا جوي فقد قفزت إلى الأعلى والأسفل من فرط الانفعال. وبكت يو يو من السعادة، ولكن عمري أقلقها. فيما تصرّف الوالد لوي كما ينبغي لكبير الأسرة أن يفعل، فحاول أن يكبح عواطفه ولكنه لم يستطع التوقف عن الابتسام، بينما وقف فيرن إلى جانبي كحارس صغير ولكنه لطيف. لا أعرف إن كانت وقفتي تجعلني أطول وأكثر استقامة لأنني سعيدة، أم إن فيرن كان يبدو نحيلاً وحسب وهو واقف إلى جانبي. فلقد بدا أقصر قامة مني وأعرض وكأن عموده الفقري قد تقلص وأصبح صدره أعرض. وقد كان ينبغي له أن يتخلص من ترهل سنوات المراهقة منذ وقت طويل، ولكنني كثيراً ما لاحظت أنه كان ينحني ويضع يديه على فخذيه وكأنه يعاني من الإرهاق أو الملل.

كان الأعمام يأتون إلى منزلنا أيام الأحد لتناول العشاء والاحتفال. إذ كانت عائلتنا تنمو ويزداد عدد أفرادها كالعديد من العائلات الأخرى في الحي الصيني. فقد تضاعف عدد السكان الصينيين في لوس أنجلوس منذ أن وصلنا إلى هنا. ولم يكن السبب في ذلك إلغاء قانون المنع. فقد ظننا أن القانون أمر رائع عندما صدر، ولكنه سمح بدخول مئة وخمسة صينيين إلى البلاد في السنة الواحدة. وكالمعتاد ما زال الناس يبتكرون طرائق للالتفاف حول القانون. فقد أحضر العم فرد زوجته حسب قانون زوجات الحرب. وكانت ماريكو فتاة جميلة وهادئة ويابانية، ولكننا لم نستحمل عليها. (فقد انتهت الحرب وأصبحت الفتاة جزءاً من عائلتنا، وماذا نستطيع أن نفعل غير ذلك؟) وأحضر رجال آخرون زوجاتهم بالاستناد إلى قوانين أخرى. وعندما

بمجتمع الأزواج والزوجات، فهم ينجبون أطفالاً. وسرعان ما أنجبت ماريكو طفلتين وسمّتهما إيفون وبيبي. ولقد أحببنا الفتاتين مع أننا لم نستطع أن نراهما كثيراً، إذ إن فرد وماريكو لم يعيشا في الحي الصيني فقد استغلا الفرصة واشتريا منزلاً في بحيرة سيلفر في مكان غير بعيد عن مركز المدينة.

كان الرجال يرتدون قمصاناً داخلية من دون أكمام، ويحتسون زجاجات الشراب، فيما تتدفق من بين نهديها على جوي وابنتي ماريكو وهي مرتدية سروالاً أسود فضفاضاً وسترة قطنية سوداء وتضع قلادة جميلة جداً مصنوعة من الخشب. وأمّا ماي في أنحاء الغرفة مرتدية فستاناً طويلاً من القطن المصقول أميركي الطراز وواضعة حزاماً على خصرها. طقطق الوالد لوي بأصابعه ليدعونا إلى المائدة لتناول الطعام. فاستخدم أفراد العائلة عيدانهم لالتقاط أفضل القطع ووضعها في وعائي. وقدّم إليّ الجميع النصائح من أجل طفلي الجديد. ومما أثار دهشتي، أنّ الجميع وافقوا على أنه ينبغي لنا البحث عن منزل لتربي فيه حفيد آل لوي. فكانت ماي محقة بذلك. إذ إن الوالد لم يتطوّع للمساعدة وحسب بل قال إنه سينفق دولاراً مقابل كل دولار ننفقه نحن.

وقال: "إن المتزوجين يعيشون الآن بعيداً عن أهل أزواجهم. وسيبدو الأمر غريباً إن لم تحظيا بمنزلكما الخاص". (لأنه بعد عشر سنوات لم يعد يخشى أن نهرب. فقد أصبحنا عائلته الحقيقية بالضبط كما أصبح هو وين بن عائلتنا).

وقالت يين يين: "إن هواء هذه الشقة فاسد جداً. وسيحتاج الصبي إلى مكان ليلعب فيه في الخارج وليس في الزقاق". (بالرغم من أنّ هذا الأمر كان جيداً جداً بالنسبة إلى جوي!).

قالت جوي: "آمل أن يكون هناك مكان للمهر". (ولكنها لن تحظى بأي مهر مهما أصرّت على أن تكون فتاة راعية أبقار!).

وقال العم ويلبرت يتفاءل للمرة الأولى: "لقد تغير كل شيء بعد انتهاء الحرب. إذ أصبح في وسعنا أن نذهب إلى بركة يمكن للسباحة وأن نجلس في أي مكان نريده في صالة السينما. وأصبح في وسع المرء أن يتزوج أميركية إن أراد ذلك".

أمّا العم تشارلي فقد سأل: "ولكن مَن يود أن يفعل ذلك؟". (لقد تغيرت القوانين كثيراً، ولكن هذا لا يعني أن موقف كل من الشرقيين والغربيين قد تغير معها).

مدّت جوي عوديها عبر الطاولة باحثة عن قطعة من اللحم، فصفعتها جدتها على يدها قائلة: "خذي فقط من الطعام الموجود أمامك مباشرة!"، فتراجعت يد جوي، ولكن سام غمس عوديه في طبق اللحم وملأ طبق ابنه. إنه رجل، وسرعان ما سيصبح والد حفيد غال، ولن تصحح بين بن تصرفاته، ولكن من المؤكد أنها ستتحدث إلى جوي لاحقاً لتنصحها بأن تتحلى بالعفة والرشاقة والأدب والتهذيب والطاعة، مما يعني أنه سيتوجب عليها أن تتعلم الخياطة والتطريز والعناية بالمنزل واستخدام عوديها بشكل ملائم من بين أشياء أخرى؛ وكل هذا من امرأة بالكاد تعرف هذه الأشياء.

قال العم فرد: "لقد تغيرت أمور جديدة". لقد عاد فرد من الحرب ومعه علبة مليئة بالميداليات. وتحسنت لغته الإنكليزية التي كانت في الأصل جيدة نوعاً ما في أثناء الخدمة، ولكنه ظلّ يتحدث لغة الجي يوب معنا. وقد ظننا أنه سيعود إلى نشاينا تاون ومقهى التين الذهبي للعمل، ولكنه لم يعد، فقال فرد: "انظروا إليّ. إن الحكومة تساعد على تعليمي وسكني. شكراً لك، يا حكومة العم سام، لمساعدتي على أن

أصبح طبيب أسنان. قرّرت المحكمة العليا أننا نستطيع أن نعيش حيثما نريد. فأين تريدون أن تعيشوا؟".

مرّر سام يده عبر شعره ثم حكَّ الجزء الخلفي من عنقه وقال: "حيث يتقبلون وجودنا. فأنا لا أريد أن أعيش في مكان لا يريدوننا فيه".

قال العم فرد: "لا تقلق بشأن هذا الأمر. إذ إن الأميركيين أصبحوا أكثر انفتاحاً الآن. وقد التحق الكثير من الشبان بالخدمة العسكرية. فالتقوا أناساً يشبهوننا وحاربوهم. ولا بد من أنكم ستكونون موضع ترحيب أينما ذهبتم".

في وقت متأخر من تلك الليلة، وبعد أن عاد الجميع إلى بيوتهم وخلدت جوي إلى النوم في مكان نومها الدائم على الأريكة في الغرفة الرئيسة، تحدّثت وسام عن الطفل القادم والانتقال المرتقب.

فقال سام بلغة الحي يوب: "عندما نصبح في منزلنا الخاص، نستطيع أن نفعل ما نريده". ثم أضاف باللغة الإنكليزية: "وبخصوصيّة تامة". إذ لا توجد كلمة واحدة باللغة الصينية توحي بمعنى الخصوصية، ولكننا نحب تلك الفكرة. ثم قال سام: "الزوجات جميعهن يحببن أن يعشن بعيداً عن حمواتهن".

لم أعارض مس الحياة تحت إمرة بن بن، ولكن فكرة الانتقال إلى خارج الحي الصيني ومنح جوي وطفلنا فرصاً جديدة بعثت الأمل في قلبي. ومع ذلك، فنحن لسنا مثل فرد، ولا نستطيع أن نعتمد على قانون منح الجنود الساعدات لنشتري منزلاً. ولن يمنح أيُّ مصرف أيَّ صيني القروض. ولا يسعنا أن نثق بالمصارف الأميركية لأننا لم نرد أن ندين بالمال للأميركيين. ولكني وسام ادخرنا مالنا منذ وقت طويل وأخفيناه في جوربه أو في بطانة قميصي التي أتيت بها من الصين. فإن استطعنا أن نقتصد في معيشتنا، فقد نتمكن من أن نشتري شيئاً.

ولكن الأمر لم يكن بالسهولة التي تحدث عنها العم فرد. إذ في أثناء بحثي في حي كرينشو، قيل لي إنني أستطيع فقط أن أشتري في جنوب جيفرسون. فبحثت في مدينة كوافيو، وهناك قال لي مقاول العقارات إنه لا يستطيع حتى أن يريني المنازل. فعثرت على منزل في حي ليكوود، ولكن الجيران كانوا قد وقعوا عريضة يقولون فيها إنهم لا يرغبون في وجود صينيين في حيهم. فذهبت إلى باسيفيك باليسيد، ولكن اتفاقيات الأراضي كانت لا تزال تمنع بيع أي شخص ذي أصل أثيوبي أو منغولي المنازل. وسمعت كلَّ الأعذار مثل: "إننا لا نؤجر الشرقيين منازل"، أو "لا نبيع الشرقيين"، أو "إنكم كشرقيين لن تحبوا هذا البيت". أو العبارة المكررة التي كنا نسمعها كثيراً، وهي: "لقد علمنا من خلال حديثنا عبر الهاتف أنكم إيطاليون".

شجعنا العم فرد، الذي أكسبه خوض الحرب شجاعة كبيرة، على عدم الاستسلام، ولكنني وسام لم نكن من النوع الذي يستسلم ويبكي، إذ سبق لنا أن تعرضنا للسرقة والضرب أو التمييز. إن الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن نأمل بشراء منزل خارج تشاينا تاون هي أن نعثر على بائع متلهف للبيع بحيث إنه لا يمانع الإساءة لجيرانه. ولكنني كنت متوترة بشأن الانتقال بشكل عام أو ربما لأنني أتوقع شعوري بالحنين إلى العائلة وإلى كل شيء، فبعد أن صرت شنغهاي، كيف أحتمل فقدان كل ما بنيناه في الحي الصيني؟

عملت جاهدة لأجعل طفلي ينمو بالطريقة الصينية الصحيحة. إذ كنت أعاني من مخاوف الأم الجديدة الاعتيادية كلّها، ولكني أدركت أيضاً أن بنية طفلي قد سبق وتعرضت للغزو وكادت تتعرض للدمار. فذهبت إلى طبيب الأعشاب الذي فحص لساني واستمع إلى ضربات

قلبي ووصف لي وصفة الجنين السليم، وأعطاني أيضاً حبوباً يفترض بها أن تطيل عمر الجنين. كما امتنعت عن مصافحة الغرباء لأني سمعت أمي تقول ذات مرة لإحدى الجارات إن هذا يؤدي إلى ولادة طفل ذي ست أصابع. وعندما اشترت لي ماي صندوقاً من خشب الكافور لأضع فيه الملابس التي أحيكها لطفلي الجديد، تذكرت معتقدات أمي ورفضت أن آخذه لأنه يشبه التابوت. كما بدأت أشكك في أحلامي بعد أن تذكرت ما قالته أمي عنها: إن حلم الشخص بالأحذية فسيلازمه سوء الحظ. وإن حلم أنه يفقد إحدى أسنانه فسيموت أحد أفراد العائلة. وإن حلم بشيء قذر فهناك مشكلة كبيرة على وشك أن تحدث. وكنت أستيقظ كل صباح وأنا سعيدة لأن أحلامي خالية من هذه العلامات المنذرة بالشؤم.

وخلال الاحتفالات بالسنة الجديدة، زرت عالم الفلك الذي قال لي إن ابني سيولد في عام الثور كوالده تماماً. ثم أضاف قائلاً: "سيتمتع ابنك بأطهر قلب على الإطلاق. وسيكون مفعماً بالولاء والإخلاص، وسيكون قوياً ولن يتذمر أو يشتكي أبداً". وكنت كل يوم عندما يغادر السياح تشايناتاون، أذهب إلى معبد كوان ين وأقدم القرابين لأضمن أن يولد ابني بأمان وصحة. عندما كنت فتاة جميلة في شنغهاي، اعتدت أن أتكبر على أولئك الأمهات اللواتي يذهبن إلى المعابد في تشايناتاون القديمة، ولكنني الآن كبرت وأصبحت أدرك أن صحة طفلي أكثر أهمية من أفكاري الطفولية السخيفة.

ومن ناحية أخرى، لم أكن غبية لأني على كل حال أم أمريكية، ولهذا كنت أذهب إلى طبيب أمريكي أيضاً. وبالرغم من كرهي ارتداء الأطباء الغربيين الثياب البيضاء وطلائهم عياداتهم باللون الأبيض؛ وهو لون الموت، إلا أنني كنت أتقبل هذه الأشياء لأني مستعدة للتضحية

بأي شيء في سبيل سلامة طفلي، وهذا يعني أن أسمح للطبيب بفحصي بالرغم من أن هذا لا يسرني. ولم يعجبني الطبيب عندما كان يقول: "ستكونين محظوظة إن حملت هذا الطفل إلى موعد الولادة، يا سيدة لوي".

تفهّم سام الأخطار المحتملة، لذا توجه بحذره إلى كل فرد من أفراد العائلة وحذرهم. وعلى الفور رفضت بن بن أن تدعني أطهي وأغسل الأطباق أو أكوي الملابس. وأمرني الوالد بالبقاء في الشقة لأرفع قدمي وأنام. وماذا عن أمي؟ تولّت ماي مسؤولية العناية بجوي. فكانت توصلها إلى المدرسة الأمريكية والمدرسة الصينية. ولا أعرف بالضبط كيف أفسر هذا. فقد تشاجرت وأختي بسبب جوي لسنوات عديدة، ولكن ماي كانت تمنح ابنة أختها ملابس جميلة تشتريها لها من المتاجر الكبرى، وهي عبارة عن فستان أزرق سماوي من القماش السويسري المنقط مناسب للحفلات، وفستان آخر ذي تطريز متقن وبلوزة ذات كشاكش، بينما كنت أخيط لها الملابس العملية، كالكنزات المصنوعة من طبقتين من الصوف والسترات الصينية المصنوعة من القطن الذي كنت أشتريه من صندوق للتنزيلات، والأثواب المصنوعة من القماش القطني المخطط (الذي نسميه أنا القماش الذي لا يتجعد أبداً). وبينما كانت ماي تشتري لجوي الأحذية الجلدية اللماعة كنت أصر على شراء الأحذية ذات السيقان العالية. وبينما كانت ماي تعاملها بمرح وبهجة، كنت أضع لها القواعد. إنني أفهم لماذا تريد ماي أن تكون الخالة المثالية، وكلتانا تدرك السبب، ولكن ذلك لم يعد يقلقني بعد الآن وتركت جوي تنحرف بعيداً عني إلى أحضان خالتها معتقدة أنه لن يتوجب عليّ أبداً أن أنافس ماي على حب ابني.

وعندما أدركت أمي أنها تسرق مني جوي، منحتني فورد بالمقابل، وقالت: "سيبقى معك طوال الوقت لأتأكد من عدم حدوث أي مكروه له. إذ إنه يستطيع أن يهتم بالأمور البسيطة مثل إحضار الشاي وغير ذلك. وإن وقعت أي حالة طارئة، وهذا مستبعد، فهو يستطيع أن يأتي ويستدعي أحدنا".

قد يظن المرء أن عرض ماي سيسر سام، ولكنه لم يستحسن الفكرة على الإطلاق. تُرى هل يشعر بالغيرة؟ كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ إن فورد رجل ناضج، ولكن، كان يبدو عليه أنه يتقلص بينما كان بطني يكبر. ومع ذلك، لم يوافق سام على السماح لفورد بالجلوس إلى جانبي خلال العشاء أو خلال أي وجبة أخرى. وتقبّل جميع أفراد العائلة هذا السلوك لأن سام سيصبح والداً.

أمضينا وقتاً طويلاً ونحن نناقش موضوع الأسماء، فالوضع الآن مختلف عن الوقت الذي اخترت فيه وماي اسماً لجوي. فسيقال الوالد لوي شرف تسمية حفيده، ولكن هذا لا يعني أن أحداً آخر ليس له رأي في الموضوع.

قالت أمي: "ينبغي لكما أن تسميا الطفل غاري على اسم الممثل غاري كوبر".

"أحب أن أسميه، فورتون".

فاجأنا وقلنا إنها فكرة لطيفة. ولكن، لا أحد يودّ أن يسمي طفلاً على اسم شخص معوّق، فلو وُلد في الصين كان أهله سيتركونه وحده ليموت.

"إنني أحب اسم كيت كاسم كيت كارسون أو آني كاسم آني أوكلي". وهذا الاقتراح بالطبع أتى من ابنتي التي تحب رحلات البقر.

قال سام: "دعونا نطلق عليه اسم إحدى السفن التي حملت الصينيين إلى كاليفورنيا، مثل روزفلت أو كوليدج أو لينكولن أو هوفر".

فضحكت جوي وقالت: "آه يا أبي، إنّ هذه أسماء رؤساء البلاد وليست أسماء سفن".

غالباً ما كانت جوي تسخر من والدها بسبب قلة فهمه للأساليب الإنكليزية والأميركية، وينبغي لها على الأقل أن تجرح شعوره أو أن ينتقصه إلى معاقبتها لأنها فتاة غير مهذبة. ولكنه كان سعيداً جداً لقرب ولادة ابنه بحيث إنه لم يهتم بقلّة تهذيب ابنته. فقلت لنفسي إنني يجب أن أمنع ابنتي من التصرف بهذه الطريقة وإلا فستنتهي بها المطاف مثل ماي التي كانت وقحة وعديمة التهذيب مع والدينا.

وقدّم بعض جيراننا أيضاً اقتراحاتهم. فقد سمّى أحدهم ابنه على اسم الطبيب الذي ولّد الطفل، بينما سمّى آخر ابنته على اسم ممرضة لطيفة جداً. وهكذا، انتشرت أسماء القابلات والقانونيات والمعلمات والمبشرين في أنحاء الحي الصيني كافة. فتذكّرت كيف أطلقت الآنسة غوردون حياة جوي، واقترحت عليهم هذا الاسم. وكان اسم غوردون لوي موحياً بشخص ذكي وناجح وغير صيني.

وعندما أصبحت في شهري الخامس، أعلن العم تشارلي أنه سيعود إلى قريته الأم بعد أن أصبح مواطناً أميركياً. وقال: "لقد انتهت الحرب وخرج اليابانيون من الصين. وقد ادخرت من المال ما يكفيني لعيش حياة رغيدة هناك". فأقمنا له وليمة وداع ثم صافحناه وأوصلناه إلى المرفأ. وكان يبدو لي أنه مقابل كل زوجة تصل إلى الحي الصيني هناك رجل يعود إلى الوطن، فبدأ الذين لطالما اعتبروا أنفسهم نزلاء مؤقتين بالعثور على نهاياتهم السعيدة. ولكن الوالد لوي، الذي لطالما راوده حلم العودة إلى قرية واه هونغ، لم يطرح مرة واحدة موضوع إغلاق مشروعات شركته والعودة إلى الصين. فلماذا سيتقاعد في القرية بعد أن صار بإمكانه أن يعطي حفيده الذي سيكون مواطناً أميركياً بالولادة،

وسيكرم جده، وسيتعلم لعب البيسبول والعزف على الكمان وسيصبح طبيباً؟

في مطلع شهري السادس، تلقيت رسالة عليها طابع بريدي من الصين. فتحت الغلاف بلهفة ووجدت أنها من يشي. لم أستطع أن أصدق أنها على قيد الحياة. إذ إنها نجت من سجنها في معسكر الاعتقال الياباني، ولكن زوجها لم ينجُ. كتبت إليّ شارحة: "إن والديّ يريدانني أن أنضم إليهما في واشنطن لأستعيد صحتي. ولكنني ولدت في شنغهاي. إنها موطني. فكيف أستطيع أن أتركها؟ أليست مدينة مسقط رأسي تبذل الجهود لإعادة إعمارها؟ لقد كنت أعمل مع الأيتام...".

ذكرتني رسالتها أن هناك شخصاً واحداً أود أن أسمع خبراً عنه. إذ بعد كل تلك السنوات لا تزال ذكرى زي جي لي تجول بخاطري. فتحسست بطني الذي كان يبدو بارزاً كالكعكة المنتفخة، وشعرت بالطفل يتحرك داخلي، وزرت فمي وشفتاي في مخيلتي. فلم أشعر أنني مغرمة أو تواقة إلى العودة إلى وطني لأنني مجرد امرأة حامل عاطفية، ولأن الماضي ذهب ولن يعود. إن وطني يكمن هنا مع هذه العائلة التي بنيتها من حطام المأساة. ملأت حقيبة المستشفى الخاصة بي ووضعتها إلى جانب باب غرفتنا، ووضعت فيها خمسين دولاراً في مغلف لأدفع أجرة الولادة. وحالما تتم ولادة الطفل، سأحضره إلى منزله الذي سيستقبله فيه الجميع بالحب والرعاية.

هواء هنا العالم

غالباً ما يقال لنا إن قصص النساء غير مهمة. فعلى كل حال، ما المهم في ما يحدث في الغرفة الرئيسية أو المطبخ أو غرفة النوم؟ من الذي يهتم بالعلاقات بين الأم والابنة والأخت؟ إن القصص حول مرض الأطفال، وأحزان الولادة وآلامها، ولمّ شمل العائلة خلال الحرب، والفقر، وحتى أفضل الأيام تعتبر قصصاً صغيرة وعديمة الأهمية مقارنة بقصص الرجال الذين يقاومون عوامل الطبيعة ليزرعوا المحاصيل، ويخوضون الحروب ليحموا أوطانهم، ويعملون جاهدين ليحققوا في داخلهم صفات الرجولة الحقة. لقد قيل لنا إن الرجال أقوياء وشجعان، ولكنني أعتقد أن النساء يعرفن كيف يصبرن ويتقبلن الهزيمة ويتحملن الألم الجسدي والنفسي أكثر من الرجال بكثير. لقد واجه الرجال في حياتي - كوالدي، وزي جي لي، وزوجي، وعمي، وشقيق زوجي، وابني لاحقاً - هذه المعارك الرجولية العظيمة وإن بتفاوت، ولكنّ قلوبهم الضعيفة الهشة كانت تلتوي وتتألم وتنهار وتتكسر وتتحطم عندما تواجه الخسارة التي تواجهها النساء كل يوم. إنهم كرجال يجب عليهم أن يتظاهروا بالشجاعة لدى تعرّضهم للمآسي والمصاعب، ولكن تعرضهم للأذى والقلق كأوراق الزهور الهشة كان سهلاً.

إن كنا قد سمعنا أن قصص النساء عديمة الأهمية، فقد كان يقال لنا أيضاً إن الأحداث الجيدة تأتي دائماً مزدوجة، وإن المصائب تأتي

دائماً ثلاثاً. فإن سقطت طائرتان انتظرنا سقوط الطائرة الثالثة من السماء. وإن مات نجم سينمائي علمنا أن اثنين آخرين سيموتان. وإن ضرب أحدهم إصبعه وأضاع مفاتيح سيارته أدركنا أن حدثاً سيئاً آخر لا بد من وقوعه لتكتمل الدائرة. ولكن كل ما نستطيع أن نأمله هو أن يكون الحدث الثالث مجرد حاجز مكسور أو مجرّد تسرب في السقف أو فقدان وظيفة بدلاً من أن يكون حالة وفاة أو طلاقاً أو حرباً جديدة.

حلّت المآسي على عائلة لوي في سلسلة طويلة ومدمرة كشلال، أو كانهيار سد أو كموجة تنكسر وتدمر ثم تسحب الأدلة معها لتلقيها في أعماق البحر. فحاول رجالنا أن يتحلوا بالقوة والعزيمة، ولكن، وجب علينا نحن النساء – أنا وماي وين بن – أن نبذل ما في وسعنا لنشفيهم ونساعدهم على تحمل آلامهم وعذابهم وحزنهم.

إنه مطلع صيف عام 1949، وقد بدا ظلام شهر حزيران أسوأ من المعتاد ولا سيما في الليل. إذ تسلل الضباب الرطب من المحيط وغطى المدينة كملاءة ثقيلة. وقال لي الطبيب إن آلام المخاض ستبدأ في أي يوم اعتباراً من ذلك اليوم، ولكن هذا الطقس ربما سيوهن طفلي ويُفتر حسه، أو ربما سيرفض أن يخرج إلى العالم في هذه الأيام الكئيبة الباردة ويتخلى عن الدفء الذي يحظى به حيث هو. فلم أشعر بالقلق، بل مكثت في البيت منتظرة.

في تلك الليلة، رافقني كل من فون وجوي. إذ إنّ فون لم يكن يشعر أنه على ما يرام مؤخراً، ولهذا كان نائماً في غرفته. ولا يزال أمام جوي أسبوع واحد فقط في الصف الخامس. ومن مكان جلوسي عند طاولة الطعام، استطعت أن أراها منطوية على نفسها على الأريكة ومقطبة الحاجبين. إذ إنها لم تحبّ أن تتدرب على جدول الضرب أو أن

تقيس سرعتها في إكمال صفحات القصة الطويلة التي أعطتها إياها المعلمة لتحسن أداءها ودقتها.

كنت أعاود النظر إلى الصحيفة مراراً وأنا أحاول أن أصدق ما أراه بعينيّ ولكن من دون أن أستطيع ذلك. إذ إن الحرب الأهلية تمزق بلادي الأصلية. فجيش ماو تسي تونغ الأحمر يتوغل في الصين بسرعة وثبات وإصرار كما فعل جيش اليابان من قبل. وفي شهر نيسان، استولت قواته على نانكينغ. وفي شهر أيار، استولى على شنغهاي. فتذكرت الثوريين اللذين اعتدت أن أراهم في المقاهي عندما كنت أذهب إليها مع زي هي لي وبيتسي. وتذكرت كيف كانت بيتسي تغضب وتتحمس أكثر منهم ولكن من أجل ماذا؟ كي يستولوا على حكم البلاد؟ لقد تحدثت إلى سام في هذا الشأن كثيراً. فقد كانت عائلته من الفلاحين، ولم يكونوا يملكون شيئاً. فإن كانوا الآن على قيد الحياة، فيكسبون الكثير من وجود نظام شيوعي. أمّا أنا، فكنت أنحدر من عائلة من الطبقة البورجوازية. ولو كان والداي لا يزالان على قيد الحياة فسيعانيان الكثير. لا أحد في لوس أنجلوس كان يعرف ما سيجري، ولكننا خبّأنا مخاوفنا خلف وجوه مبتسمة وكلمات لا معنى لها ووجوه مزيفة نقدمها إلى الغربيين الذين يخشون الشيوعيين أكثر مما نخشاهم نحن بكثير.

ذهبت إلى المطبخ لأعد الشاي. وبينما كنت واقفة أمام المغسلة لأملأ الإبريق، شعرت بشيء رطب يبلل ساقيّ. هذا هو! لقد سال ماء الولادة أخيراً. ابتسمت ابتسامة عريضة ونظرت إلى الأسفل، ولكنّ ما رأيته لم يكن ماءً بل دماً. فشعرت بالخوف يهز كياني إلى أن بدأ قلبي ينبض بعنف داخل صدري، ولكن هذه ليست إلا مجرد هزة خفيفة مقارنة بما حدث تالياً. إذ شعرت بانقباض شديد في ظهري امتدّ

حتى بطني ودفع إلى الأسفل بضراوة بحيث إنني ظننت أن الطفل سيخرج. ولكن، لم يحدث هذا، ولم أكن أعرف إن كان من الممكن لذلك أن يحدث. فخرجت من المطبخ وناديت ابنتي.

"حسوي! اذهبي واستدعي خالتك". كنت آمل أن تكون ماي في مكتبها وليست مع أولئك الأشخاص الذين تستقبلهم لتعزز علاقات عملها فقلت: "إن لم تجديها في مكتبها، فاذهبي إلى مطعم تشاينز جنك. فهي تحب أن تقابل الناس هناك لتناول العشاء".

"آه يا أمي...".

"الآن. اذهبي الآن!".

نظرت حسوي إليّ، ولكنها لم تستطع إلاّ أن ترى رأسي من خلال باب المطبخ فشعرت بالامتنان لهذا. ومع ذلك، فلا بد من أن وجهي دلّ على معاناتي لأنها لم تحاول أن تقاومني كعادتها. وحالما غادرت الشقة، أمسكت بعض المناشف وضغطت بها لأمنع النزيف، ثم جلست على الكرسي وقبضت على مسنديه لأمنع نفسي من الصراخ كلما حدث الانقباض. ولاحظت أن الانقباضات تحدث بسرعة كبيرة، فأدركت أن هناك خطأً كبيراً بلا شك.

عندما عادت حسوي مع ماي ألقت أختي نظرة واحدة، ثم أمسكت ابنتي قبل أن ترى شيئاً وأبعدتها عني.

وقالت: "اذهبي إلى المقهى، واعثري على أبيك، واطلبي منه أن يقابلنا في المستشفى".

وحين غادرت حسوي وقفت أختي إلى جانبي. فرأيت أن أحمر الشفاه ذا اللون الكرزي الأحمر الذي كانت تضعه قد حول شفتيها إلى زهرة بحرية متموجة. فيما جعل الكحل الأسود عينيها تبدوان أكبر حجماً. كانت ترتدي فستاناً من الساتان يظهر كتفيها ويحتضن

جسدها كما يفعل الثوب الضيق. نظرت ماي إلى وجهي للحظة ثم رفعت تنورتي، وحاولت ألا تظهر شيئاً غير مريح، ولكنني أعرفها حق المعرفة. فأمالت رأسها إلى الجانب وهي تزيل المناشف الملطخة بالدم وتمصمص على شفتيها، ثم ملّست تنورتي بحرص على ركبتيّ وسألتني بصوت ناعم وكأنها تسألني إن كنت أفضل قمصانها الزهرية أم الزرقاء: "أتستطيعين أن تمشي إلى السيارة أم تريدينني أن أستدعي سيارة إسعاف؟".

لم أكن أريد أن أسبب المتاعب أو أبدو ثقال، فقلت: "لنذهب بسيارتك طالما أنك لا تمانعين حدوث الفوضى".

نادت ماي: "فون، تعال. فأنا بحاجة إليك". ولكنه لم يجبها فذهبت إلى غرفته لتناديه، وعادا بعد دقيقة أو نحو ذلك. وبدا شعر الزوج الفني مبعثراً وثيابه مجعدة من النوم. وعندما رآني بدأ بالنحيب.

فقالت له ماي: "أمسكها من أحد جانبيها وأنا سأمسكها من الجانب الآخر".

وساعداني معاً على النهوض، ثم نزلنا الدرج. شعرت بقبضة يد أختي قوية، ولكن بدا أن فون سينهار تحت ثقلي. كان هناك مهرجان ما يقام في الساحة الليلة، فأشاح الناس بوجوههم عندما رأوني ورأوا أختي وفون يمسكان بي. فلا أحد يريد أن يرى امرأة حاملاً ولا أن يشهد حدوث أمر شخصي كهذا. وضعني فون وماي على المقعد الخلفي للسيارة. فأوصلتني ماي بالسيارة إلى المستشفى الفرنسي الذي يقع على بعد بضعة مجمعات سكنية، ثم ركنت السيارة واندفعت إلى الداخل لتطلب المساعدة. حدقت من النافذة إلى الأضواء التي أنارت موقف السيارات وأنا أتنفس ببطء وانتظام. وشعرت ببطني مستقراً تحت يدي، وأحسست به ثقيلاً وهادئاً. وذكّرت نفسي أن طفلي من

مواليد عام الثور كوالده تماماً، وأن الثور يتمتع بإرادة قوية وقدرة كامنة داخله. أقنعت نفسي أن ابني سيتحلى بصفاته الطبيعية، ولكني كنت خائفة جداً.

شعرت بانقباض آخر، وكان أسوأ من الانقباضات السابقة.

وعادت ماي إلى السيارة ومعها ممرضة ورجل، وكلاهما يرتديان اللون الأبيض. كانا يصيحان بأوامرهما وهما يضعانني على كرسي متحرك ويدفعانني داخل المستشفى بأقصى سرعة ممكنة، فيما بقيت ماي إلى جانبي وهي تتحدث إليّ قائلة: "لا تقلقي. كل شيء سيكون على ما يرام. إن ولادة الطفل مؤلمة لتدركي قيمة الحياة".

قبضت يداي على مسندي الكرسي بقوة وأنا أصرّ بأسناني، فيما بلل العرق جبهتي وظهري وصدري، وارتجفت من البرد.

وكان آخر ما قالته لي أختي عندما أدخلوني غرفة الولادة هو: "قاومي من أجلي، يا بول. تشبثي بالحياة كما فعلت دائماً".

ولد طفلي، ولكنه لم يتنفس أبداً أنفاس الحياة. غلّفته الممرضة بعناية وأحضرته إليّ. رأيت رموشه الطويلة وأنفه المرتفع وفمه الصغير. وبينما كنت أمسك ابني وأتأمل وجهه الصغير، قام الطبيب بمعالجتي، وأخيراً نهض وقال: "يجب أن نجري لك عملية جراحية، يا سيدة لوي، سنخدّرك". وعندما أخذت الممرضة الطفل، أدركت أني لن أراه أبداً. فسالت الدموع من عينيّ عندما وضعوا كمامة على أنفي وفمي، وشعرت بالامتنان لأن الظلام خيم عليّ وبدأت أفقد وعيي.

وحين فتحت عينيّ رأيت أختي جالسة على سريري، وبقايا أحمر شفتيها تبدو مجرد مسحة خفيفة، فيما لطخ الكحل عينيها ووجهها، وبدا لونها الأبيض باهتاً، ولكنها كانت لا تزال تبدو جميلة. والتقت

بناظري إلى وقت آخر كانت فيه أختي معي في غرفة المستشفى، فتنهدت، وأمسكت ماي بيدي.

سألتها: "أين سام؟".

"إنه مع العائلة في غرفة الانتظار. سأستدعيهم إن شئت".

كنت أريد من كل قلبي أن يكون زوجي إلى جانبي، ولكن كيف يمكن أن أواجهه؟ إن أسوأ إهانة يستطيع المرء أن يوجهها إلى أحد هي أن يتمنى له الموت من دون ابن يخلفه بعد مماته.

جاء الطبيب ليفحصني وقال: "لا أعرف كيف حدث هذا الطفل كل هذه المدة. لقد كدنا نفقدك".

فقالت ماي: "إن أختي قوية جداً. فقد عانت ظروفاً أسوأ من هذه. وستنجب طفلاً آخر".

هزّ الطبيب رأسه وهو يقول: "يؤسفني القول إنها لن تتمكن من إنجاب طفل آخر". ثم التفت إليّ وقال: "إنك محظوظة بوجود ابنتك".

ضغطت ماي على يدي لتطمئنني وقالت: "لقد قال لك الأطباء هذا من قبل وانظري ما الذي حدث. تستطيعين أنت وسام أن تحاولا مجدداً".

أعتقد أن هذه أسوأ كلمات سمعتها في حياتي، وكنت أريد أن أصرخ قائلة: لقد فقدت طفلي! فكيف يمكن لأختي ألا تشعر بما أشعر به؟ كيف يمكنها ألا تدرك ما يعنيه أن أفقد الطفل الذي حملته داخلي تسعة أشهر وأحببته من أعماق قلبي وبنيت عليه الكثير من الآمال؟ ولكنّ كلمات ماي لم تكن أسوأ كلمات أسمعها.

إذ قال الطبيب مغطياً رعب كلماته بابتسامته الأميركية العريضة المشجعة: "يؤسفني القول إن هذا ليس ممكناً. فقد استأصلنا كل شيء".

لم أتحمل أن أبكي أمام هذا الرجل، فركّزت عينيّ على سوار الذهب في يدي، طوال السنوات التي مضت، ولسنوات عديدة سيبقى هذا السوار في يدي قاسياً وبارداً كالحجر. ومع ذلك فهو بالنسبة إليّ شيء يربطني بالماضي وبأناس وأماكن اختفت إلى الأبد. إن شكله المثالي يذكرني بأنه يجب عليّ أن أستمر في العيش وأتطلع إلى المستقبل وأعتز بما أملكه وأبقى صامدة. سأعيش صباحاً تلو الآخر، وسأخطو خطوة تلو الأخرى لأن إرادتي ورغبتي في الاستمرار ستبقيان قويتين وصلبتين كالذهب. قلت هذه الأشياء لنفسي وأحطت قلبي بغلاف من الفولاذ لأخفي حزني، ولكن هذا لم يساعدني عندما دخل أفراد العائلة الغرفة.

بدا وجهه بن بن رخواً ومتهدلاً. أما عينا الوالد فبدتا معتمتين وكامدتين كقطعتين من الفحم، وتحمل فون الخوَر جسدياً، فتلوى جسده أمامنا كنبتة ملفوف ذابلة بعد عاصفة رهيبة. ولكن سام... آه يا سام! في تلك الليلة التي اعترف لي فيها بحقيقته قبل عشر سنوات، قال لي إنه لا يريد ابناً، ولكنني لاحظت في الأشهر القليلة الماضية كم كان يريد ابناً ويحتاج إليه. إنه يريد ابناً يحمل اسمه ويكرمه عندما ينضم إلى الأسلاف وليعيش الأحلام التي لم يستطع سام قط أن يحققها. لقد منحت زوجي الأمل، ولكنني الآن حطمته بيدي.

دفعت ماي الآخرين خارج الغرفة كي أبقى وسام وحدنا. ولكن زوجي، هذا الرجل الذي كان يبدو قوياً جداً بمروحته الحديدية، والذي يستطيع أن يرفع أي شيء ويحمله، والذي يتحمل إهانة تلو الأخرى، وقف عاجزاً عن استيعاب ألمي.

قال سام: "بينما كنا ننتظر..."، ولكنه أمسك عن الكلام وضمّ يديه خلفه ومشى ذهاباً وإياباً وهو يكابد ليحافظ على رباطة جأشه.

وأخيراً حاول مجدداً، فقال: "بينما كنا ننتظر، طلبت من أحد الأطباء أن يفحص فون. وقلت للطبيب إن أخي يعاني من مشكلة في التنفس وسيلان في الدم". شرح لي سام ذلك وكأن أفكارنا الصينية تعني شيئاً للطب.

أردت أن أدفن وجهي في صدره الدافئ للعطر، وأمتص القوة من مروحته الحديدية، وأسمع إيقاع ضربات قلبه، ولكنه رفض أن ينظر إليّ. وقف عند طرف السرير وحدق إلى بقعة فوق رأسي تماماً. وقال: "ينبغي لي أن أعود وأطلب من الأطباء أن يستكملوا فحوصاتهم لفون. فربما كان هناك ما يستطيعون فعله".

أترى هل سينجحون في ذلك مع أنهم عجزوا عن إنقاذ ابننا؟ غادر سام الغرفة فدفنت وجهي بين يدي. فقد خذلته بأسوأ طريقة تستطيع امرأة أن تفعلها بينما حوّل زوجي اهتمامه إلى أضعف فرد من أفراد العائلة ليخفي حزنه في أعماقه. لم يعد أهل زوجي إلى غرفتي وحتى فون بقي بعيداً. إن هذا أسلوب شائع يتبعه أهل الزوج عندما تفقد امرأة ابناً غالياً، ولكنه آذاني وجرحني في الصميم.

وقامت ماي بكل شيء من أجلي. فكانت تواسيني عندما أبكي، وتساعدني على دخول الحمام. وكنت أفتقد زوجي وأحتاج إليه. ولكن، إن تخلى عني سام وأنا بحاجة إليه أكثر من أي وقت آخر، فقد أخفت ماي عن فون. وفي يومي الخامس في المستشفى، أخبرتني ماي أخيراً بما يجري.

فقالت: "إن فون يعاني من مرض تخلخل العظام. إنهم هنا يسمونه سل العظام. ولهذا السبب كان حجمه يتقلص". لطالما كانت سخية بدموعها، ولكن ليس هذه المرة. وأوحت إليّ الطريقة التي تكابد فيها لتخفي دموعها بمدى حبها للزوج الفتي.

"ماذا يعني هذا؟".

"إنه يعني أننا قذرون كالحيوانات".

بـدا وقـع صوت أختي قاسياً كما لطالما سمعته من قبل. فقد نشأنا ولمن ندرك تماماً أن مرض تخلخل العظام وشبيهه مرض ذات الرئة دليلان على الفقر والقذارة. ويعتبر هذان المرضان من أكثر الأمراض التي تبعث على الخزي والعار. إنه حتى أسوأ من فقدان ابن لأنه يقدم إلى جيراننا وحتى إلى الأميركيين رسالة بأننا فقراء وملوثون وقذرون.

تابعت مـاي قائلة: "إنه عادة يصيب الأطفال. فيموتون عندما يصاب عمودهم الفقري بمرض يقضي عليه. ولكن فون ليس طفلاً، ولهـذا لا يستطيع الأطباء أن يقولوا كم سيعيش. إنهم يعرفون فقط أن ألمـه سـيتحول إلى خدر وضعف وأخيراً إلى شلل، وأنه سيبقى طريح الفراش بقية حياته".

"وماذا عن بن بن والوالد؟".

هـزّت مـاي رأسـها ثم سالت دموعها وهي تقول: "إنه ابنهم الصغير".

"وماذا عن جوي؟".

فقالت والحزن يملأ صوتها: "إنني أختي لها". ففهمت بوضوح تام ما يعنيه لها فقدان طفلي. إذ إنني سأعود لأتولى مسؤولية رعاية جوي وحـدي. وربما ينبغي لي أن أشعر بالسعادة لهذا، ولكنني لم أشعر بها. وبدلاً من ذلك، غصت في أعماق حزننا المشترك.

في وقـت لاحق من تلك الليلة، جاء سام للتحدث معي. فوقف عـند طـرف الـسرير وهو يبدو مرتبكاً، ووجنتاه شاحبتان، وكتفاه منحنيتان من حمل عبء مأساتين.

"لطالمـا ظننت أن الصبـي مريض. فقد ميزت بعض الأعراض لدى والدي. لقد وُلد أخي سيئ الطالع، ولكنه لم يؤذِ أحداً قط ولطالما كان لطيفاً معنا. ومع ذلك، فليست هناك أي طريقة لتغيير مصيره".

إنـه يقول هذه الكلمات عن فون، ولكن من الممكن أن يكون حديثه عن أي واحد منا.

لمّـت الثلاثـتان شملنـا كعائلة بطرائق لم يتخيلها أحد منا قط. فعادت ماي وسام والوالد للعمل، والحزن واليأس معلقان حول رقابهم كحبلين ثقيلين. فيما بقيت بن بن في الشقة لتعتني بـسي ويغيون. (ولكن الطبيـب عـارض هـذا كلياً. إذ قال: "سيكون فون أفضل حالاً إن أدخلتموه مـصحاً أو أي مؤسـسة أخرى". ولكن إن كان الصينيون يلقـون معاملـة سيئة في الشارع حيث يستطيع الجميع أن يرى ذلك، فكيـف يـسعنا أن نتركه في مكان مخفي خلف الأبواب المغلقة؟) حلّ شركاء الوثيقة هذا في تشاينا تاون. ولكن مأساتنا لم تنته بعد.

فـفي شهر آب، اندلع حريق ثانٍ ودمّر كل تشاينا تاون تقريباً. فـنجت منـه بضعة مبانٍ فقط، ولكن كل المشروعات الخاصة بالوالد لـوكت إلى أنقاض محترقة باستثناء ثلاث عربات وشركة ماي. وحتى الآن، لا تزال تشاينا تاون غير مؤمّن عليها. وبعد وقوع الصين في براثن الحرب الأهلية، أصبح الوالد لوي عاجزاً عن الذهاب إلى الوطن ليزود متاجـره بالتحف الأثرية. وقد حاول أن يشتريها من هنا، ولكن كل شيء أصبح باهظ الثمن بعد اندلاع الحرب العالمية. كما أن الكثير من مدخراته التي يخفيها في تشاينا تاون تحولت إلى رماد أيضاً.

ولكن حتى لو توفرت لديه المصادر ليعيد تزويد متاجره بالبضائع، فلـم تعد لدى كريستين ستوليبغ أي رغبة في إعادة بناء تشاينا تاون.

فقد اتخذت قرارها، بعد أن اقتنعت أن الحريق قد وقع بفعل فاعل، رفضت أن أمد أفكارها الخاصة بالرومانسية الشرقية في لوس أنجلوس. وفي الواقع، لم تعد تريد أن تربطها أي علاقة بالصينيين ولم تعد تريدهم أن يدنسوا سوقها المكسيكية في شارع أولفيرا. فقضت المدينة بمصادرة الحي الصيني بين شارعي لوس أنجلوس وآليدا لإفساح المجال لشق طريق جديد. فكل ما تبقّى من الحي الصيني الأصلي هو صف الأبنية الذي تقطعه بين شارع لوس أنجلوس وزقاق سانشيز. قاوم الناس الخطة الإجمالية، ولكنهم لم يأملوا بتحقيق الكثير. إذ كنا جميعاً نعرف المقولة المشهورة جداً في أميركا: إننا لا نتحمل فكرة منح الرجل الصينيّ فرصةً.

أصبح منزلنا معرضاً للخطر، ولكننا لم نستطع أن نقلق بشأن هذا لأنه يجب علينا أن نعمل يداً بيد لإعادة افتتاح مشروعات العائلة. وبينما قرر بعضهم أن يواصلوا الكفاح ويبقوا في ما تبقى من تشاينا سيتي، افتتح الوالد لوي متجر قنديل ذهبي جديد في الحي الصيني الجديد وزوده بأرخص البضائع من بائعي الجملة اليابانيين الذين يستوردون بضائعهم من هونغ كونغ وتايوان. فتوجّب على جوي أن تمضي المزيد من الوقت هناك، وأن تبيع البضائع للسياح الذين لا يعرفون بضائع أفضل منها، وأن تمنح جدها فرصة ليأخذ قيلولة. لم تسر أمور المتجر الجديد على ما يرام، ولكن بالرغم من ذلك كانت جوي تسهر فيه وقتاً طويلاً، وعندما لا يكون هناك زبائن في المتجر، وهذا ما يحدث في معظم الوقت، كانت تقرأ في كتبها.

فقررت وسام أن نفتتح مشروعنا الخاص باستخدام بعض مدخراتنا. فعثر سام على موقع جديد للمقهى في شارع أورد على بعد نصف مجمع سكني غرب الحي الصيني الجديد، ولكن العم ويشرن رفض أن يأتي معنا وقرر أن يستغل اهتمام الأميركيين المتزايد بالطعام

الصيني منذ انتهاء الحرب بأن يفتتح مطعماً خاصاً في ليكوود. فجعلنا رؤية آخر عم من الأعمام يرحل نفرح كثيراً، مما يعني أن سام سيصبح الطاهي الرئيس أخيراً.

بدأنا نحضّر لافتتاحنا الكبير. فقمنا بتجديد الأثاث وإعداد لوائح الطعام وأخذ نفكر في إعلان الترويج لأنفسنا. كان يوجد في مقهانا مكتب صغير خلف الزجاج في جزئه الخلفي. وهناك، كانت ماي تقوم بعملها، ولكنها كانت تخزّن الأزياء وتجهيزات مواقع التصوير في مستودع صغير في شارع برنارد. وكانت تقول إنها ليست بحاجة إلى الجلوس هناك بين تلك الأشياء كل يوم، وإن الحصول على أدوار تمثيلية لها ولباقي الممثلين يدرّ ربحاً أكثر من عمل التأجير. وشجعت ماي سام على طباعة تقويم للمقهى ثم طلبت من مصور محلي أن يأتي ويلتقط صورة. وبالرغم من إطلاقهم اسمي على المقهى، إلاّ أن الملصق أظهر صورة ماي وجوي وهما واقفتان عند النافذة وتحت صورتهما عبارة: "تفضلوا بزيارة مقهى بيرل وتناولوا أشهى الأطباق الصينية والأميركية".

في مطلع شهر تشرين الأول من عام 1949، تم افتتاح مقهى بيرل، وأعلن ماو تسي تونغ إقامة جمهورية الصين الشعبية. وحظي مقهانا بافتتاح ناجح وأصبح التقويم شائعاً وكذلك لائحة طعامنا التي تجمع بين الأطباق الخاصة الأميركية والأميركية الصينية، مثل: لحم البقر المشوي، وفطيرة التفاح مع المثلجات بالفانيليا، والقهوة، ولحم الحيوان المشوي الحلو والمالح، وبسكويت اللوز والشاي. وأصبح من المعروف عن مقهى بيرل أنه نظيف، وأن طعامه طازج ومكوناته شهية. وهكذا، كان صف من الزبائن ينتظر أمام الباب ليلاً ونهاراً.

وواصل الوالد لوي إرسال النقود إلى قريته الأم من خلال إرسال ودائع مصرفية إلى هونغ كونغ، ثم تكليف أحدهم بإيصال المال إلى جمهورية الصين الشعبية وإلى قرية واه هونغ. فحذّر سام أباه من هذا العمل قائلاً: "قد يعمل الشيوعيون على مصادرة المال. وربما تعاني العائلة في القرية من جراء هذا".

ولكنّ مخاوف أخرى كانت تتملكني. فقلت له: "قد تتهمنا الحكومة الأميركية بالتعاطف مع الشيوعيين. ولهذا السبب، لم تعد معظم العائلات تحوّل الأموال إلى الصين".

إن هذا صحيح بالفعل. إذ إن العديد من الناس في الأحياء الصينية عبر البلاد قد توقفوا عن إرسال المال إلى الديار لأنهم جميعاً يخشون عواقب قيامهم بذلك. وبالإضافة إلى ذلك، زادت الرسائل التي تلقيناها من الصين إرباكاً.

إذ كتب أحد أبناء عم الوالد لوي قائلاً: "إننا سعداء بالنظام الجديد. فقد أصبح الجميع متساوين الآن بعد أن أجبرت الحكومة الملاّك على توزيع ثرواتهم على الشعب".

ولكن السؤال الذي طرح نفسه هو: إن كانوا سعداء فلماذا يحاول الكثيرون منهم الفرب؟ هناك رجال، مثل العم تشارلي، عادوا إلى الصين ومعهم مدخراتهم. إذ إنهم تعرضوا هنا في أميركا للمعاناة والإذلال واعتبروا وضيعين وغير جديرين بالجنسية، ولكنهم أملوا ذلك معتقدين أن السعادة والرخاء والاحترام بانتظارهم في مسقط رأسهم. فاكتشفوا أن مصيراً مراً ينتظرهم لدى عودتهم إلى الصين التي يعاملهم فيها النظام الجديد على أنهم إقطاعيون مكروهون ورأسماليون وعملاء للإمبريالية. فالذين لم يحالفهم الحظ ماتوا في الحقول أو ساحات القرى. أما المحظوظون فهربوا إلى هونغ كونغ حيث كانوا

يموتون هناك مهزومين ومفلسين. ولكنّ بعض المحظوظين جداً عادوا إلى أميركا، والعم تشارلي واحد منهم.

سأل فيرن وهو ممدد في فراشه: "هل استولى الشيوعيون على كل أموالك؟".

فأجاب تشارلي وهو يفرك عينه المتورمتين، ويحك جلده المصاب بالإكزيما: "لم تسنح لهم الفرصة للقيام بذلك. إذ عندما وصلت إلى هنالك، كان شيانغ كاتشيك والقوميون لا يزالون في موقع السلطة. فطلبوا من الجميع أن يستبدلوا ذهبهم وعملاتهم الأجنبية بشهادات حكومية. فطبعوا مليارات من عملة يوان الصينية، ولكنها لم تكن تساوي شيئاً. فأصبح كيس الأرز، الذي كان في السابق يساوي اثني عشر يواناً، يساوي ثلاثة وستين مليون يوان. وصار الناس ينقلون أموالهم في عربات تجر باليد حين يذهبون للتسوق. فإن أراد المرء أن يشتري طابعاً بريدياً كان يكلفه ما يعادل ستة آلاف دولار أميركي".

سأل فيرن بعصبية قائلاً: "هل تفوه بأمور مسيئة للقائد العام؟ من الأفضل لك ألا تفعل ذلك".

"إن كل ما أقوله هو أنه بحلول الوقت الذي وصل فيه الجنود الشيوعيون، لم يعد لديّ شيء ليستولوا عليه".

بعد كل تلك السنوات من العمل على أمل العودة إلى الصين رجلاً من رجال الجبل الذهبي، عاد تشارلي الآن إلى نقطة الصفر وعمل كماسح زجاج لدى عائلة لوي.

وحين استعدت قوتي عدت إلى العمل مع سام. فوجدت العمل رائعاً من نواحٍ عدة. إذ إنني حظيت بفرصة رؤية زوجي كل يوم، وبفرصة التواجد مع ماي حتى الساعة الخامسة. وبعد العمل، كنت أذهب إلى البيت لأعد العشاء بينما تذهب هي إلى متجري جنرال في

وسولنشاو اللذين انتقلا إلى الحي الصيني الجديد لتلقي عرض الأفلام وما شابه. وفي بعض الأحيان، كنت أجد أنه من الصعب أن يصدق المرء أننا تحدثنا على الإطلاق. إذ كنت منشغلة بذكرياتي عن بيتنا في شنغهاي بينما تتشبث ماي بذكرياتها عن حياتها كفتاة جميلة. وبينما كنت أرتدي مئزري الملوث بالشحم وأعتمر قبعتي الورقية الصغيرة، كانت ماي ترتدي الأثواب الجميلة المصنوعة من أقمشة ذات ألوان جذابة كالبني والأرجواني والأخضر والأزرق الجليدي.

ظل مظهري غير المهندم يزعجني إلى أن رأيت صديقتي القديمة بيتسي، التي انتقلت للعيش مع والديها بسبب سوء الأوضاع في الصين، تدخل المقهى. وكانت تبدو أكبر بعشرين عاماً بالرغم من أننا في العمر نفسه أي في الثالثة والثلاثين. إذ بدت نحيلة كالهيكل العظمي وشعرها رمادي، ولا أعرف إن كان هذا ناجماً عن الوقت الذي أمضته في المعسكر الياباني أم بسبب صعوبة الأشهر القليلة الماضية.

قالت لي عندما اصطحبتها إلى مكتب ماي في الجزء الخلفي من مقهى يول لنحتسي نحن الثلاث الشاي معاً: "لقد اختفت شنغهاي التي نعرفها ولن تعود إلى سابق عهدها أبداً. كانت شنغهاي وطني، ولكنني لن أراها مجدداً، ولن يراها أحد منا بعد الآن".

فتبادلت وأختي نظرات الشك والخوف، إذ كنا قد مررنا بلحظات مظلمة ظننا فيها أننا لن نتمكن أبداً من العودة إلى الوطن بسبب غزو اليابانيين له. وبعد أن انتهت الحرب، أحيا ذلك الأمل في نفوسنا في أننا يوماً ما قد نعود لزيارتها، ولكن كلام بيتسي جعلنا نشعر بشعور مختلف لأنه أوحى إلينا بتغيير دائم ومستمر.

الخوف

حان وقت الظهر تقريباً في ثاني أيام السبت من شهر تشرين الثاني من عام 1950، ولم يكن أمامي متسع من الوقت لأنه توجّب عليّ أن أحضر جوي وصديقتها هيزل يو من دار العبادة المثودية الصينية حيث تحضران دروساً لتعلم اللغة الصينية. فاندفعت إلى الطابق السفلي وأحضرت البريد ثم أسرعت عائدة إلى الشقة. فقمت بفرز الفواتير وأخرجت رسالتين، إحداهما عليها ختم بريدي من واشنطن العاصمة. وميّزت خط بيتسي على الغلاف الذي دسسته في جيبي. أما الرسالة الأخرى، فكانت قادمة من الصين وموجهة إلى الوالد لوي. فتركتها والفواتير على الطاولة في الغرفة الرئيسة ليراها عندما يعود إلى البيت. ثم أخذت حقيبة التسوق وكنزة لأرتديها ونزلت إلى الطابق السفلي ومشيت إلى دار العبادة حيث وقفت في الخارج بانتظار جوي وهيزل.

عندما كانت جوي صغيرة، أردنا أن تبرع في اللغة الصينية لفظاً وكتابة، فوجدت أن المكان الأفضل لفعل ذلك – ويجب أن أعترف أن المبشرين أذكياء بهذا الخصوص – هو في إحدى البعثات التبشيرية في الحي الصيني. حيث لم يتوجب علينا فقط أن ندفع دولاراً في الشهر من أجل دروس جوي لمدة خمسة أيام ونصف اليوم في الأسبوع وأن نرسلها إلى مدرسة الأحد بل كان يفترض بأحد والديها أن يحضر احتفال يوم الأحد الديني أيضاً، وهذا ما فعلته بشكل منتظم طوال السنوات السبع الماضية. وبالرغم من أن بعض الآباء كانوا يتذمرون من

اضطرارهم إلى تنفيذ هذه القاعدة، إلاّ أنها كانت تبدو بالنسبة إليّ صفقة عادلة. إذ إنني أحب أن أسمع المواعظ التي تذكرني بتلك التي سمعتها وأنا فتاة في شنغهاي.

فتحت رسالة بيتسي التي وصلت بعد ثلاثة عشر شهراً على تولي ماو تسي تونغ السُّلطة في الصين، وبعد أربعة أشهر ونصف على غزو كوريا الشمالية، بمساعدة جيش تحرير الصين الشعبية، لكوريا الجنوبية. قبل خمس سنوات فقط، كانت الصين حليفة الولايات المتحدة، ولكن الصين الشيوعية أصبحت الآن بين ليلة وضحاها، ثاني أكبر عدو للولايات المتحدة بعد روسيا. وطوال الشهرين الماضيين، كتبت إليّ بيتسي عدة مرات لتخبرني أنها تعرضت للتشكيك في ولائها لأنها بقيت في الصين مدة طويلة، وأن عدة أشخاص في وزارة الخارجية، ومن بينهم والدها، اتهموا بأنهم موالون للشيوعيين وأنهم ضيّعوا الصين القديمة. وقد كانت تسمية شخص ما بضائع الصين القديمة تعتبر في شنغهاي مجاملة. أما الآن في واشنطن، فهي أشبه بتسمية أحدهم قاتل أطفال. ولقد كتبت بيتسي في رسالتها قائلة:

> **إن والدي يعاني من وقت عصيب جداً. كيف يسعهم أن يتهموه بأشياء كتبها قبل عشرين عاماً منتقداً فيها شيانغ كاي شيك وما كان يفعله للصين؟ إنهم يتهمون والدي بأنه من المتعاطفين مع الشيوعية ويوبخونه لمساهمته في خسارة الصين. إنني وأمي نأمل أن يتمكن من البقاء في وظيفته. وإن وصل بهم الأمر إلى طرده، فإنني آمل أن يمنحوه راتباً تقاعدياً. ولحسن الحظ لا يزال لديه أصدقاء في وزارة الخارجية يعرفون حقيقته.**

وبينما كنت أطوي الرسالة وأعيدها إلى المغلف، تساءلت حول ما ينبغي لي أن أكتبه رداً على رسالتها. فلا أظن أنني سأساعد بيتسي بقولي لها إننا جميعاً خائفون.

خرجت جوي وصديقتها إلى الشارع. إنهما في الثانية عشرة من عمرهما وملتحقتان بالصف السادس منذ سبعة أسابيع، وتعتقدان أنهما أصبحتا كبيرتين، ولكنهما فتاتان صبيتان ولا تزالان غير مكتملتي النمو. فتبعتهما وهما تمشيان بخفة على طول الشارع وكل منهما ممسكة بيد الأخرى، وهما تتهامسان بخبث ولهو في طريقنا إلى مقهى تيرل. ثم توقفنا قليلاً عند محل الجزار في شارع برودواي لنشتري رطلين من اللحم المشوي المعطر، وهو المكوّن السري في طبق سام الجديد. بدا المحل مزدحماً في ذلك اليوم، والخوف يملأ نفوس الناس منذ بداية هذه الحرب الجديدة. فلجأ بعضهم إلى الصمت، فيما بدا بعضهم الآخر مضطرباً، واستولى غضب عارم على الباقين؛ ومن بينهم الجزار.

فسأل بلغة الجي يوب من دون أن يوجه كلامه إلى شخص معين: "لماذا لا يتركوننا وشأننا وحسب؟ هل الذنب ذنبي إن أراد ماو أن ينشر الشيوعية؟ ليست لنا أي علاقة بها!".

لم يجادله أحد. فنحن جميعاً نشاطره الشعور نفسه.

وصاح وهو يقطع اللحم بالساطور: "سبع سنوات! لقد مرت سبع سنوات فقط منذ ألغي قانون المنع. والآن، أصدرت حكومة أميركا قانوناً جديداً لتمنع الشيوعيين من الدخول إن كانت هنالك حالة قومية طارئة. وأصبح كل من قال كلمة واحدة ضد شيانغ كاي شيك يشتبه في أنه شيوعي". ولوّح بالساطور نحونا وهو يقول: "يجب على المرء ألاّ يتفوه بأي شيء سيئ، وكل ما عليه فعله هو أن يكون صينياً يعيش في هذه البلاد! لا بد من أنكم تدركون ما أعنيه. إن كل واحد منا مشتبه فيه!".

توقفت جوي وهيزل عن الثرثرة وحدقتا إلى الجزار بأعين مفتوحة على وسعها. إن كل ما تريد أمي أن تفعله هو أن تحمي

أطفالهـــا، ولكنني لم أستطع أن أحجب جوي عن كل ما يجري حولها. فعندما كنــا نمشي معاً، كنت أستطيع دائماً أن أصرف انتباهها عن عناوين الصحف التي تكتب مهاجمة إيانا باللغة الإنكليزية والصينية. واستطعت أن أطلب من الأعمام ألا يتحدثوا عن الحرب عندما يأتون لتناول عشاء يوم الأحد، ولكن الأخبار ملأت الأماكن كلّها، وكذلك الترثرة."

كانت جوي لا تزال صغيرة جداً حيث إنها لم تكن تفهم أن أي شخص - بمن في ذلك أبوها وأمها - معرض للاحتجاز والاعتقال. لم نعرف ما الذي سيؤدي إلى حالة طارئة قومية، ولكن اعتقال اليابانيين كان ماثلاً أمام أعيننا. وعندما طلبت الحكومة الأميركية من منظماتنا المحلية، كالجمعية الخيرية الصينية للوحدة ونادي الصين للشباب، أن تسلم جداول عضويتها في غضون أربع وعشرين ساعة، أصاب الذعر الكثير من جيراننا لعلمهم أن أسماءهم ستظهر على اللائحة في واحدة على الأقل من الجماعات الأربعين المستهدفة. وعندما قرأنا في الصحيفة الصينية أن مكتب التحقيقات الفدرالي قد راقب مقر اتحاد الغسل السينوي الصيني وقرر أن يحقق مع كل المشتركين في صحيفة تشاينا دايلي نيوز، شعرت بالامتنان لأن الوالد لوي كان يشترك بصحيفة غورها موالية الحرب كاومينتانغ المعادي للشيوعية، وموالية المسيحية. وكان يشتري فقط بين الحين والآخر نسخة من صحيفة تشاينا دايلي نيوز.

لم أعرف إلى أين أراد الجزار أن يصل في توبيخه، ولكنني لم أرد للفتاتين أن تسمعاه. وبينما كنت على وشك أن أخرجهما من هناك، هدأ الجزار ومنحني وقتاً كافياً لأهيئ طلبي. وبينما كان يقوم بلف اللحم بالورق الزهري، أفضى إليّ بنبرة أكثر اعتدالاً: "ليس الوضع

صعباً إلى هذا الحد هنا في لوس أنجلوس، يا سيدة لوي. ولكن، لديّ ابن عم في سان فرانسيسكو فضل أن ينتحر على أن يواجه الاعتقال بالرغم من أنه لم يرتكب أي خطأ. وسمعت عن آخرين زجّ بهم في السجن وهم ينتظرون الآن قرار ترحيلهم".

فقلت له: "لقد سمعنا جميعاً قصصاً مماثلة. ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟".

سلمني رزمة اللحم وهو يقول: "إنني خائف منذ وقت طويل، وقد سئمت من هذا الوضع وتعبت. إن الإحباط الذي أشعر به...".

وحين بدأ صوته يزداد حدة مجدداً، أخرجت الفتاتين من المحل. فبقيتا صامتتين طوال الوقت وهن متجهات إلى مقهى بول. وحالما دخلنا، توجهنا نحن الثلاث إلى المطبخ، فابتسمت ماي من مكتبها وهي تتحدث عبر الهاتف ولوحت لنا. وعمل سام على خلط المكونات من أجل طبق اللحم الحلو والحامض الذي أصبح شائعاً بين زبائننا. ولم يسعني إلا أن ألاحظ أنه يستخدم وعاء أصغر من الذي كان يستعمله قبل عام عندما افتتحنا المقهى. فقد تسببت هذه الحرب الجديدة بإبعاد الكثير من زبائننا، وأغلقت الكثير من المشروعات التجارية في الحي الصيني أبوابها. وفي الوقت نفسه، ساد الخوف من الصينيين خارج الحي الصيني بحيث إن الكثيرين من الأميركيين من ذوي الأصل الصيني فقدوا وظائفهم أو لم يُقبلوا في أي وظائف جديدة.

ربما يكون عدد زبائننا قد قل عن السابق، ولكن وضعنا لم يكن سيئاً كثيراً. فبدأنا بتطبيق سياسة التقشف في البيت، وجعلنا وجباتنا أقل كلفة وذلك بأن نأكل المزيد من الأرز والقليل من اللحم. وكانت ماي لا تزال تدير عملها كوكيلة أعمال وتظهر في بعض الأفلام والبرامج التلفزيونية. وفي أي وقت كانت الاستديوهات ستبدأ بإنتاج

أفلام عن خطر الشيوعية. وحالما يحدث ذلك، ستصبح ماي مشغولة جداً، وستوضع الأموال التي ستجنيها في صندوق العائلة لننفقه جميعاً.

أعطيت سام اللحم، ثم أعطيت الفتاتين صينية طعام تحوي وجبة خفيفة تجمع بين الذوق الصيني والغربي، وتتألف من بعض الفول السوداني والبرتقال وأربع قطع من بسكويت اللوز وكوبين من الحليب كامل الدسم. فوضعت الفتاتان كتبهما على طاولة العمل، وجلست هيزيل وقد شبكت يديها على حضنها منتظرة بينما ذهبت جوي إلى المذياع الذي كنا نضعه في المطبخ من أجل تسلية الطاقم وشغّلته.

فلوّحت بيدي إليها قائلة: "لا مذياع عصر هذا اليوم".

"ولكن، أمي...".

"لا أريد نقاشاً. يجب أن تبدأي وهيزيل بكتابة فروضكما المنزلية".

"ولكن، لماذا؟".

فكرت في نفسي ولكن من دون أن أتفوه بالكلمات: *لأنني لا أريد أن أسمع المزيد من الأخبار السيئة*. إنني أكره أن أكذب على ابنتي، ولكنني خلال الأشهر القليلة الماضية أصبحت آتي بعذر تلو الآخر بسبب عدم رغبتي في استماعها إلى المذياع، مثل: "إنني أعاني من الصداع أو إن والدك يعاني من مزاج سيئ". وقد جربت حتى أن أقول لها: "هكذا من دون سبب". ويبدو أن هذه الطريقة تجدي نفعاً، ولكنني لم أستطع أن أستخدمها كل يوم. وبما أن هيزيل هنا، جرّبت شيئاً جديداً.

فقلت: "ماذا ستقول والدة هيزيل إذا سمحت لكما بالاستماع إلى المذياع؟ إننا نريد منكما أيتها الفتاتان أن تنالا درجات ممتازة. ولا أريد أن أقول للسيدة يي إنني سأخذلها".

"ولكنك لطالما سمحت لنا بالاستماع إلى المذياع من قبل".

وعندما هززت رأسي التفتت إلى أبيها قائلة: "أبي؟".

فلم يزعج سام نفسه برفع رأسه بل قال: "افعلي وحسب ما تقوله أمك".

أوقفت جوي المذياع عن العمل وذهبت إلى الطاولة وجلست بغضب إلى جانب هيزيل. إن جوي فتاة مطيعة وكنتُ ممتنة لذلك لأن الأشهر القليلة الماضية كانت صعبة علينا. وقد اعتبرت نفسي أكثر عصرية من أغلب الأمهات في الحي الصيني، ولكنني لست كذلك بالقدر الذي تتمناه جوي. وبالرغم من أنني قد فاتحتها قبل مدة قصيرة بموضوع بلوغها سن النضج وما ينطوي عليه من تغييرات جسدية، إلاّ أنني أجد نفسي الآن عاجزة عن إيجاد طريقة أتحدث بها إليها عن هذه الحرب الجديدة.

جاءت ماي مسرعة إلى المطبخ، فقبّلت جوي وربّتت على كتف هيزيل ثم جلست قبالتهما. وقالت: "كيف حال فتاتيَّ المفضلتين؟".

فأجابت جوي بكآبة: "إننا بخير، يا خالة ماي".

"إن هذا لا يبدو كلاماً حماسياً جداً. ابتهجا. فاليوم هو السبت، وقد انتهيتما من المدرسة الصينية ولديكما وقت فراغ ما تبقى من العطلة الأسبوعية. ماذا تودان أن تفعلا؟ هل تريدان أن آخذكما لحضور أحد الأفلام؟".

فسألتني جوي بلهفة: "هل تسمحين لنا بالذهاب، يا أمي؟".

قالت هيزيل التي يمكن للجميع أن يلاحظوا أنها تود تمضية يومها في السينما: "لا أستطيع الذهاب. إذ لديّ فروض منزلية للمدرسة العادية".

فأضفت قائلة: "وكذلك جوي".

فانصاعت ماي لرغبتي من دون تردد قائلة: "إذاً من الأفضل للفتاتين أن تعملا على إنجازها".

منذ أن مات طفلي، أصبحت علاقتي بأمي قويّة جداً. لقد كانت لي تقول إننا كالكروم الطويلة ذات الجذور المتشابكة. فعندما أنخفض أنا ترتفع ماي، وعندما أرتفع أنا تنخفض هي. وعندما أكتسب أنا وزناً تفقد هي وزناً، أما عندما أفقد أنا وزناً تبقى هي مثالية. إننا لا نتشارك بالضرورة المشاعر نفسها أو وجهات النظر حيال العالم، ولكنني أحبها بالضبط كما هي. ولم أعد مستاءة منها على الأقل إلى أن يحين الوقت الذي تجرح فيه مشاعري أو تفعل فيه شيئاً يزعجها أو يحبطها بحيث إنها تبتعد عني.

قالت ماي للفتاتين: "أستطيع أن أساعدكما إن أردتما ذلك. فإن أنجزنا الفروض بسرعة نستطيع عندئذ أن نخرج لتناول بعض المثلجات".

فنظرت جوي إليّ وعيناها تلمعان من البهجة والتساؤل.

"تستطيعان الخروج إن أنهيتما فروضكما".

وضعت ماي مرفقيها على الطاولة وقالت: "ماذا لديكما؟ الرياضيات؟ إنني بارعة جداً فيها".

فأجابت جوي: "يجب علينا أن نكتب مقالة حول حدث من الأحداث الأخيرة في الصف...".

أكملت هيزل جملتها قائلة: "عن الغرب".

حينها، شعرتُ فعلاً أن الصداع يباغتني. لماذا لا تستطيع معظمة الفتاتين أن تتسم بالمزيد من الحساسية حيال هذا الموضوع؟

فتحت جوي حقيبتها وأخرجت نسخة مطوية من صحيفة لوس أنجلوس تايمز وفتحتها على الطاولة. وأشارت إلى إحدى القصص، ثمّ قالت: "لقد كنا نفكر في كتابة هذا الموضوع".

نظرت ماي إلى القصة وبدأت بالقراءة بصوت مرتفع: "أصدرت حكومة الولايات المتحدة اليوم أوامر بتقييد حركة الطلاب الصينيين الذين يدرسون في الولايات المتحدة، ومنعهم من العودة إلى بلادهم خوفاً من أن ينقلوا أسراراً علمية وتكنولوجية". وتوقفت ماي عن القراءة ونظرت نظرة خاطفة نحوي ثم تابعت قائلة: "وقد منعت الحكومة أيضاً التحويل النقدي إلى الصين، وكذلك إلى المستعمرة البريطانية هونغ كونغ كي لا يتم تهريب الأموال عبر الحدود. وأولئك الذين يتم القبض عليهم بتهمة إرسال أموال إلى أقاربهم في الصين سيغرّمون بمبالغ تصل إلى 10000 دولار أميركي ويسجنون لمدة تصل إلى عشر سنوات".

مددت يدي إلى جيبي وتحسّست رسالة يشي. فإن كانت الأوضاع خطرة بالنسبة إلى شخص مثل السيد هاويل، فهي إذاً أسوأ بكثير بالنسبة إلى أشخاص مثل الوالد لوي الذي كان يرسل المال إلى عائلته وقريته في الصين منذ سنوات.

تابعت ماي القراءة: "وجواباً على هذا، أقامت منظمة الشركات الست، وهي أقوى منظمة أميركية صينية، حملة كراهية مضادة للشيوعية على أمل منع الهجمات في الأحياء الصينية في أنحاء البلاد".

رفعت ماي نظرها عن الصحيفة وسألت: "هل أنتما خائفتان أيتها الفتاتان؟"، فأومأتا برأسيهما. فقالت ماي: "لا تقلقا، فقد ولدتما في أميركا، وأنتما مواطنتان أميركيتان، ولديكما كل الحق بالتواجد هنا، ويجب عليكما ألاّ تخافا أبداً".

اتفقت معها أنه يحقّ لهما التواجد هنا، ولكن ينبغي لهما أن تخافا. وحاولت أن أقلد النبرة الثابتة الحادة التي استعملتها عندما بدأت أحذر جوي من الفتيان.

"يجب عليكما أن تتوخيا الحذر الكافي، فبعض الناس سينظرون إليكما ويرون فتاتين تنتميان إلى العرق الأصفر والإيديولوجية الحمراء". ثم عبست وقلت: "هل تدركان ما أعنيه؟".

فأجابت جوي: "نعم، لقد كنا نتحدث عن هذا الموضوع في الصف مع معلمتنا. فهي تقول إن مظهرنا قد يجعل الناس يعتبروننا من الأعداء مع أننا مواطنتان".

عندما سمعت كلماتها، أدركت أنه يجب عليّ أن أبذل جهداً لأحمي ابنتيّ أكثر. ولكن كيف؟ إذ إننا لم نتعلم قط كيف نقاوم التحديقات الشريرة إلينا أو العصابات".

فقلت لها: "اذهبا إلى المدرسة معاً، كما قلت لكما. واستمرا في أداء فروضكما المدرسية و...".

قالت ماي: "إن هذا الكلام شديد الشبه بكلام أمنا. ما كل هذا القلق؟ لقد كانت أمنا هكذا أيضاً. ولكن انظرا إلينا الآن!"، مدّت يدها عبر الطاولة وأمسكت يد كل من الفتاتين، ثم قالت: "سيكون كل شيء على ما يرام. لا تشعرا أبداً بأنه يجب عليكما أن تخفيا حقيقتكما. فلا خير يأتي من إخفاء الأسرار هكذا. والآن، أنهيا فروضكما كي تتمكنا من الخروج ومن تناول بعض اللفحات".

فابتسمت الفتاتان. وبينما كانتا تعملان على إنجاز الشروع، استمرّت ماي في التحدث إليهما ودفعهما إلى أعماق القضية المطروحة في المقالة. ربما كانت تتخذ المسار الصحيح معهما، إذ ربما لا تزال الفتاتان صغيرتين جداً ويجب ألاّ تعانيا من الخوف. وربما إن أبعدنا تفريراً عن القضايا الراهنة فلن تظلا جاهلتين حيال ما يجري حولهما كما كنت أنا وماي في الماضي في شبابنا. ولكن هل أعجبني هذا؟ لا، على الإطلاق.

في تلك الليلة بعد العشاء، فتح الوالد لوي الرسالة التي وصلت من قرية واه هونغ وقرأ فيها: "ليست لدينا أي احتياجات. ولسنا بحاجة إلى مالكم".

سأل سام قائلاً: "هل تعتقد أنها حقيقية؟".

أعطى الوالد لوي سام الرسالة فتفحّصها قبل أن يعطيني إياها. وكانت الكتابة عليها تبدو بسيطة وواضحة، كما بدت الورقة مهترئة ومجعدة ككل الرسائل التي تلقيناها في الماضي.

فقلت بعد أن سلّمت بن بن الرسالة: "يبدو التوقيع مطابقاً".

قالت بين بن: "لا بد من أنها حقيقية. فقد قطعت رحلة صعبة لتصل إلى هنا".

بعد أسبوع، سمعنا أن ابن عم الوالد حاول الهرب فألقي القبض عليه ثم قتل.

حاولت أن أقنع نفسي أن التين يجب ألا يخاف، ولكني كنت خائفة. وبدأ عقلي يموج بالاحتمالات. فإن حدث أي مكروه هناء فإني لا أعرف ما الذي سأفعله. إن أميركا هي وطننا، ولكني أخشى كل يوم أن تجد الحكومة طريقة لطردنا خارج البلاد.

قبل الميلاد بوقت قصير، وصلنا إشعار بإخلاء المنزل. فأصبحنا بحاجة ماسة إلى منزل آخر بأوينا. وقد كنت وسام سنتمكن من الاستمرار في ادخار المال من أجل جوي واستئجار منزل لأنفسنا، ولكن الشيء الوحيد الذي كنا نملكه، وهو فوكناء يتبع من العائلة. إنها عائلة صينية تقليدية، ولكن بن بن والوالد وفرود وسام هم الأشخاص الوحيدون الذين حظيتُ وماي بهم في العالم. وهكذا، تم تكليفي بمهمة العثور على منزل جديد لنا جميعاً.

قبل وقت ليس بطويل، ذهبت للبحث عن منزل لسام ولي لنشتريه قبل ولادة ابني. وكنت في تلك الأثناء مفعمة بالتفاؤل. فتوبلت حينها بالطرد من قبل الوكلاء العقاريين الذين رفضوا أن يروني المنازل بالرغم من التغيير الذي طرأ على القانون. وتحدثت إلى أناس اشتروا بيوتاً ثم انتقلوا إليها ليلاً فوجدوا القمامة مُلقاة في باحات بيوتهم في اليوم التالي. وفي ذلك الوقت، قال سام إنه يريد الانتقال إلى أي مكان يقبلوننا فيه. إننا صينيون وجزء من عائلة من ثلاثة أجيال تؤثر العيش معاً. وأدركتُ حينها أن هناك مكاناً وحيداً سيتقبلنا: إنه الحي الصيني.

عثرت على كوخ صغير بعيد عن شارع أليابي. وقيل لي إنه يحوي ثلاث غرف نوم صغيرة وشرفة محاطة بحاجز يمكن استخدامها للنوم وحمامين. ويحيط بالملكية سياج منخفض مغطى بالنباتات المزهرة. وهناك شجرة فلفل ضخمة تتمايل بلطف في الباحة. أما البهو فهو مستطيل الشكل، وهناك بقايا من أشجار القطيفة الحافة والذابلة، وبعض أزهار الأقحوان التي يبدو عليها أنها لم تشذب قط. وفي الأعلى، كانت السماء الزرقاء لامحدودة وتعد بفصل شتاء مشمس آخر. ولم يكن يتوجّب عليّ أن أدخل البيت لأعرف أني عثرت على بيتنا.

بحلول هذا الوقت أدركت أنه مقابل كل شيء جيد يحدث هناك شيء سيئ سيحدث أيضاً. إذ عندما كنا نحزم أمتعتنا قالت بن بن إنها متعبة؛ ثم جلست على الأريكة في الغرفة الرئيسة، وما لبثت أن فارقت الحياة. وقال طبيبها إنها أصيبت بنوبة قلبية لأنها أجهدت نفسها في العناية بفون. ولكننا كنا نعرف الحقيقة أكثر منهم، وندرك أنها ماتت لأنّ فؤادها مكسور بسبب رؤيتها ابنها يلوي أمام عينيها، وحفيدها يسولد ميتاً، ومعظم ثروة العائلة التي بنياها على مدى السنوات تتحول

إلى رماد، والآن هذا الانتقال. أقمنا لها جنازة صغيرة لأنها على كل حال ليست شخصية هامة وليست أكثر من زوجة وأم. فالتفى المعزون أمام تابوتها ثلاث مرات. ثم أقمنا مأدبة جنازة في مطعم شونشاو.

كان موتها صدمة رهيبة لنا جميعاً. فلم أستطع التوقف عن البكاء بينما لجأ الوالد لوي إلى صمت مثير للشفقة. ولكن، لم يكن لدينا شيء من الوقت لتمضية فترة الحداد في عزلة وهدوء ونحن نلعب الدومينو كما كان يفعل الجميع في الحي الصيني لأننا في الأسبوع التالي سننتقل إلى بيتنا الجديد. أعلنت ماي أنها لا تستطيع أن تنام في الغرفة نفسها مع فون وتفهم الجميع هذا. فلا أحد يريد، مهما كان محباً وعطوفاً، أن ينام إلى جانب شخص موبوء بالتعرق الليلي وبخراجات متقيحة في عموده الفقري كريهة الرائحة ذكرتني برائحة قدمي أمي المربوطتين. فوضعت سريرين متقابلين على الشرفة المسيجة، أحدهما لأجلي والآخر لابني. فلم أعتبر هذا الوضع نهائياً لأنه كان يقلقني، ولكن ليس باليد حيلة. واحتفظت ماي بملابسها في خزانة فون حيث وضعت تشكيلة فساتينها المصنوعة من الحرير والساتان، كما وضعت حقائبها على رفٍّ عالٍ، بينما وضعت أحذيتها الملونة على الأرض. أما سوي فحصلت على درجين سفليين في خزانة الباضات الموجودة في الممر إلى جانب الحمام والتي تحوي أغراضاً للوالد لوي وماي وأغراضاً خاصة للعناية بفون أيضاً.

والآن، وجب على كل واحد منا أن يجد طريقة يساعد بها العائلة. فتذكرت أحد أقوال ماو تسي تونغ التي تعرض للسخرية في الصحافة الأميركية، وهو: "من لا يعمل لا يأكل". وهكذا، كلّف كل شخص بيننا بمهمة. فاستمرّت ماي في عملها، وكانت تستأجر الممثلين لأفلامها وبرامجها التلفزيونية، فيما أدار سام مقهى بول، وأدار الوالد

سوي منحسر الشعر، ودرست جوي باجتهاد في مدرستها وكانت تساعدنا عندما يتسنى لها وقت فراغ. أما بن بن، فقد كان يفترض بها أن تعتني بابنها المريض، ولكن تلك المهمة أصبحت ملقاة على عاتقي أنا. إنني أحب فون كثيراً، ولكنني لم أرد أن أصبح ممرضة. وعندما كنت أدخل غرفته، كانت رائحة لحمه النتعفن تصدمني، وعندما يجلس، كان عموده الفقري ينحني فيبدو صغيراً كالطفل، فيما يبدو لحمه طرياً وثقيلاً كالقشدين المحترين. قلمت بهذه المهمة يوماً واحداً، ثم توجهت إلى عمي لأطالبه بإعادة النظر في هذا القرار.

فقال لي: "عندما لا تريدين أن تساعدي العائلة تبدين كشخص يعيش في أميركا".

فأجبته قائلة: "إنني أعيش في أميركا فعلاً. وأقدم كل العناية اللازمة إلى منقي وأنت تعلم ذلك، ولكنه ليس زوجي بل زوج ماي".

فقال لي بصوت يتهدج من فرط العواطف: "ولكنك صاحبة قلب عطوف، يا يول. وأنت الوحيدة التي أستطيع أن أثق بها لتعتني بابني".

فقلت لنفسي إن القصير لا مفر منه، وإن القصير الوحيد الذي يمكن إثباته هو الموت، ولكنني تساءلت لماذا يجب على القصير أن يكون مأساوياً هكذا. إننا نحن الصينيين نعتقد أن هناك طرائق عديدة نستطيع من خلالها أن نغير مصيرنا، كخياطة التميمات على ملابس أطفالنا، وطلب المساعدة من أساتذة علم طاقة الفينغ شوي لتحديد التواريخ الملائمة، والاعتماد على علم الفلك ليخبرنا إن كان ينبغي لنا أن نتزوج شخصاً من برج الجرذ أم الديك أم الحصان. ولكن أين حظي أنا؟ أين الحظ الجيد الذي يفترض به أن يجلب لي السعادة؟ إنني أعيش في بيت جديد، ولكن بدلاً من حصولي على ابن لأربيه بكل شغف، تورّط

عليّ أن أعتني بفون. إنني سئمة ومنهكة وعاطفة طوال الوقت وبحاجة إلى المساعدة وإلى أذن صاغية أبثها حزني.

في يوم الأحد التالي، ذهبت إلى دار العبادة مع جوي كما أفعل عادة. وبينما كنت أصغي إلى رجل الدين الموقر، تذكرت الخطوات الأولى التي قادتني كي أصبح مسيحية. فقد كنت حينئذ فتاة صغيرة، فاقترب مني رجل أميركي يرتدي اللون الأسود في الشارع خارج بيتنا في شنغهاي، وأراد أن يبيعني نسخة من الكتاب المقدس. فذهبت إلى البيت وطلبت المال من أمي. فوبختني قائلة: "قولي لذلك الرجل الذي يدعو إلى التوحيد أن يحل أسلافه بدلاً من ذلك. وعندئذ، سيكون مصيره أفضل في العالم الآخر".

فخرجت إلى الشارع واعتذرت من المبشر لأنني ألفيته منتظراً ونقلت إليه ما قالته أمي. وعندئذ، أعطاني الكتاب المقدس مجاناً، وكان كتابي الأول. فشعرت ببهجة شديدة للحصول عليه، ولكن أمي تخلصت منه في تلك الليلة بعد أن خلدت إلى النوم. وبالرغم من ذلك، لم يستسلم المبشر، فدعاني إلى الحلقة التبشيرية، وقال: "تعالي والعبي وحسب". ثم طلب مني بعد ذلك أن ألتحق بالمدرسة التبشيرية مجاناً أيضاً. فلم يستطع أبي وأمي أن يرفضا صفقة مغرية كهذه. وعندما كبرت ماي، بدأت تذهب معي أيضاً، ولكن تلك الأفكار التي تدور حول الدين لم تغرس في نفسي ونفسها حقاً. فقد كنا مسيحيتين مزيفتين نستغل طعام الأجانب ودروسهم ونتجاهل كلماتهم ومعتقداتهم. وعندما أصبحنا فتاتي عرض جميلتين، انتقدت كل المعتقدات المسيحية التي اكتسبتها. وبعد كل ما حدث في الصين وفي شنغهاي خلال الحرب وبعد ما عانيته وأمي في الكوخ، تخليت كلياً عن اعتقادي بالمسيحية.

وآنـــذاك، عانينـــا جميعاً الخسارة والمحن بعد كل ما حدث لنا، وأسوأها موت ابني. لم تستطع كل الأعشاب العجيبة التي أحضرتها وكل القرابين التي قدمتها وكل التساؤلات عن معنى أحلامي أن تساعدني وتنقذه لأنني كنت أبحث عن المساعدة في الاتجاه الخطأ. وبينما كنت جالســة على المقعد القاسي في دار العبادة، ابتسمت لنفسي وتذكرت المبشر الـــذي التقيته في الشارع طوال تلك السنوات. لقد قال لي إن النهاية الحقيقية أمر مقدر. والآن، يحدث ذلك لي أخيراً. فأبدأ بالدعاء، لـــيس من أجل الوالد لوي الذي تكاد أيام كفاحه أن تصل إلى نهايتها، ولا مـــن أجـــل زوجـــي الذي يحمل عبء العائلة كلها على مروحته الخشبية، ولا من أجل طفلي الراحل، ولا من أجل فيرن الذي تنهار عظامـــه أمـــام عينيّ؛ ولكن لأعثر على راحة البال وأجد تفسيراً لكل المـــصائب والمحن التي مرت في حياتي ولأثق أن كل هذه العائلة ستنال جزاءها العادل في دار البقاء.

جميلة إلى الأبد

ســـقيت الباذنجان والطماطم ثم وجّهت الخرطوم نحو شتلة الخيار، وعـــندما أنهيـــت عملي، أغلقت الخرطوم ومررت من أمام حبل الغسيل وتـــوجهت عائدة نحو الشرفة. كان الوقت لا يزال مبكراً في صباح يوم الأحـــد من صيف عام 1952، وسيكون الطقس محرقاً. إنني أحب هذه الكلمة لأنها تعبر تعبيراً صادقاً عن طقس هذه المدينة الصحراوي، ولطالما شعرنا وأمي في شنغهاي أننا سنـــسلق حتى الموت من شدة الرطوبة.

عـــندما انتقلنا أول الأمر إلى هذا المنـــزل، قلت لسام: "أريد أن أحظـــى بطعام لنأكله، وأريد أيضاً أن أضفي جواً صينياً على الحديقة". وهـــكذا قام سام واثنان من الأعمام بحراثة المرج، فزرعت فيه الخضار، وأعـــدت الحياة إلى زهور الأقحوان فتفتحت بشكل جميل في الخريف الماضـــي. واعتنيت ببعض نباتات إبرة الراعي، فنبتت وازدهرت مقابل الشرفة المسيجة. وخلال العامين الماضيين، أضفت بعض أصص الزهور وشـــجرة بـــرتقال. وحاولت أن أزرع أزهار الفاوانيا، وهي من أكثر الأزهـــار المحبوبة في الصين، ولكنها لم تحظَ بدرجة حرارة منخفضة بما يكفـــي لتـــنمو بشكل ملائم. كما أنني فشلت أيضاً في زراعة أنواع أخـــرى مـــن الزهور. وطلب مني سام أن أزرع رقعة بنبات الخيزران. فأصبحنا الآن نقطعه عندما نراه ينبت في أماكن لا نريده أن ينبت فيها.

صعدت الدرج ودخلت الشرفة المسيجة حيث ألقيت مئزري على الغســـالة ورأيت سريريّ ماي وجوي ثم ذهبت إلى المطبخ. إني وسام

مالكان شريكان لهذا العقار مع بقية العائلة، ولكنني المرأة الأكبر سناً في العائلة، والمطبخ هو منطقة نفوذي، وهذه الغرفة تحوي كل ثروتي. إذ توجد أسفل المغسلة علبتا بن، إحداهما أضع فيها دهن الحيوان المقزز والأخرى أحفظ فيها مدخراتي التي أجمعها وسام من أجل إلحاق جوي بالكلية. وهناك طاولة عليها غطاء مشمع وإبريق ماء مليء بالماء الساخن وجاهز لإعداد الشاي. وهناك مقلاة كبيرة موضوعة بشكل دائم على الموقد، ووعاء على أحد المواقد الخلفية لغلي الأعشاب من أجل إعداد شراب مقوٍّ لفون. أعددت صينية الفطور وأخذتها إلى غرفة المعيشة ثم إلى غرفة فون.

أوحى مظهر غرفة فون أنها غرفة رجل سيبقى طفلاً صغيراً إلى الأبد. فخلافاً للخزانة التي تحوي ملابس ماي، وهي الدليل الوحيد على أن فون رجل متزوج، بدت الغرفة مليئة بالنماذج التي عمل فون على إلصاقها وتلوينها بنفسه. فهناك طائرات مقاتلة معلقة على حبل خيطي تتدلى من السقف، وسفن وغواصات وسيارات سباق تملأ رفوفاً من الأرض إلى السقف.

وجدت فون مستيقظاً وجالساً في سريره وهو يصغي إلى تعليق عبر المذياع عن الحرب في كوريا الشمالية وتهديد الشيوعية، ويعمل على تلميع أحد النماذج. فوضعت صينية الطعام، وأرخيت الستارة، وفتحت النافذة لئلا تؤذيه رائحة الصمغ.

"أيمكنني أن أحضر لك أي شيء آخر؟".

فابتسم لي بعذوبة. إذ بعد ثلاث سنوات أمضاها وهو يعاني من مرض تخلخل العظام، يبدو لي أشبه بطفل صغير متغيب عن المدرسة ليوم واحد بسبب المرض. قال لي فون: "أريد بعض الطلاء والغراء؟".

فوضعتها على مقربة منه، ثم قلت له: "سيمكث والدك معك اليوم. فإن احتجت إلى أي شيء فناده وسيأتي إليك".

رفضت أن أشعر بالقلق من حدوث أي مكروه إذ بقي هذان الاثنان في البيت وحدهما لأنني أعرف بالضبط ما سيكون عليه يومهما. إذ سيعمل فون على نموذجه ويتناول غداء بسيطاً، وسيلوّث ملابسه بينما يؤدي الوالد لوي بعض الأعمال البسيطة في أنحاء البيت، ويعدّ غداء فون، ويتهرب من تغيير ملابس ابنه المتسخة بأن يمشي إلى ناصية الشارع ليشتري صحيفته ثم يأخذ قيلولة إلى أن تعود إلى البيت.

لوّحت لفون مودعة ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة. وهناك وجدت سام يهتم بتنظيم طاولة مقتنيات الأسلاف، وينحني أمام صورة بن بن. وبما أننا لا نملك صورة لكل شخص فقدناه، وضع سام أحد كتيّبي أمي الصغيرين على الطاولة، وعربة مصغرة لتمثل أبي. وفي صندوق صغير، وضع خصلة من شعر ابني. وأكرم سام العائلة بأكملها بفاكهة من الخزف مصنوعة على الطراز الريفي.

لقد بدأت أحب هذه الغرفة. فعلقت فيها صوراً لأفراد العائلة على الجدار فوق الأريكة. وأصبحنا في كل شتاء منذ سكنّا هنا ننصب في الزاوية شجرة مزينة بكرات حمراء ونحيط النوافذ الأمامية بالأضواء كي تضيء هذه الغرفة بنور البهجة والسعادة. وفي الليالي الباردة، كنت أتبادل وماي وجوي الأدوار للوقوف أمام الموقد إلى أن تنتفخ قمصان نومنا وكأننا مخلوقات ثخينة.

نظرت إلى جوي وهي تساعد جدها على الجلوس على كرسيه وتقدم إليه الشاي. فشعرت بالفخر لأن جوي فتاة صينية لائقة تحترم جدها أكثر من أي شخص آخر بمن فيهم أنا، ووالدها لأنه أكبر فرد من أفراد العائلة. إذ كانت تدرك أن كل شيء تفعله ليس من شأن

حسدها أن يعرفه وحسب ولكن من حقه أيضاً أن يقدره. كان يريدها أن تتعلم التطريز والخياطة والتنظيف والطهي. فأصبحت تذهب بعد المدرسة إلى متجر التحف وتؤدي العديد من الأعمال التي كانت في السابق مهمتي أنا، مثل التلميع والكنس ونفض الغبار. قال الوالد لوي: "إن تدريبها لتصبح زوجة في المستقبل ووالدة أحفاد ابني مهم جداً". فحاولنا جميعاً أن نقدر هذا. وبالرغم من أن كل أمل لنا بالعودة إلى الصين قد تلاشى، إلا أن الوالد كان دائماً يقول: "لا نريد لبان دي أن تصبح أمركية كثيراً. إذ إننا سنعود جميعاً إلى الصين يوماً ما". إن تعبيره عن هذا النوع من العواطف أوحى إلينا بأن صحته تتدهور. فأصبح من الصعب علينا أن نصدق أنه لطالما حكمنا بيد من حديد وأننا كنا جميعاً نخشاه. لقد اعتدنا أن ندعوه لوي العجوز، ولكنه أصبح عجوزاً جداً وبدأ يلوي بطء، ويبتعد عنا شيئاً فشيئاً، وبدأ يفقد ذاكرته وقوته وما يربطه بالأشياء التي لطالما شكلت دافعاً في حياته: كالمال والعمل والعائلة.

أمسكت جوي نصف الخاتمة بيدها ثم خرجنا معاً إلى دار العبادة الميثودية من أجل حضور احتفال يوم الأحد الديني. وحالما أقيناه ذهبت مع جوي إلى الساحة المركزية في الحي الصيني الجديد لنلتقي سام وماي والعم فرد ومارنكو وابنتيهما في إحدى قاعات التجمع. لقد انضممنا إلى اتحاد مؤلف من أعضاء من دار العبادة الميثودية وغيرها. وأصبحنا نلتقي هناك مرة في الشهر. فنقف منتصبي القامات، ونضع أيدينا على قلوبنا ونردد شعار الولاء. ثم خرجت كل العائلات إلى الشارع وركب أفرادها سياراتهم للتوجه إلى شاطئ سانتا مونيكا. فجلست وسام وماي على المقعد الأمامي في سيارتنا الكرايسلر بينما جلست جوي وفتاتا عائلة ين، هيزيل وأختها الصغرى روز، محشورات معاً

على المقعد الخلفي، ثم توجهنا إلى الغرب في قافلة على طول جادة صانسيت. وانطلقت سيارات قوية مسرعة لتسبقنا وزجاجها يلمع تحت أشعة الشمس. مررنا بمحاذاة بيوت خشبية قديمة الطراز في منتزه إيكو، وقرب قصور حصية زهرية اللون وأشجار نخيل في حي بفرلي هيلز، ثم وصلنا إلى جادة ويلشور، فواصلنا طريقنا إلى الغرب مروراً بسوبر ماركت ضخمة ومواقف سيارات وباحات كبيرة كملاعب كرة القدم وأشجار ضخمة.

كان صوت جوي يعلو وهي تؤكد على فكرة تلوقا لهيزل وروز. فابتسمت لنفسي، إذ إن الجميع يقولون إن ابنتي تملك موهبتي اللغوية، فهي تتقن لغة الحي دوب ولكنة الووا بشكل مثالي كإتقانها اللغة الإنكليزية. كما أن مهارتها في الكتابة باللغة الصينية ممتازة أيضاً بالرغم من أنها في الرابعة عشرة من عمرها. وعندما تحين ذكرى السنة الصينية الجديدة كل عام أو إن كان أحدهم يحتفل بمناسبة معينة، يطلب منها الناس أن تكتب لهم أبيات شعر ملائمة بخطها الجميل المتقن. ولكن هذا الثناء ليس كافياً بالنسبة إليّ. إذ إنني أعلم أن جوي تستطيع أن تكتسب المزيد من النمو الروحي، وتتعلم أكثر عن الفوفاريين من خلال ارتياد دار العبادة خارج الحي الصيني، وهذا ما كنا نفعله مرة في الشهر.

غالباً ما أذكر ابنتي قائلة: "إن الله يحب الجميع ويريدك أن تعطي حياة جيدة وسعيدة، وهذا ينطبق على أمركا أيضاً. إذ إنك تستطيعين أن تفعلي أي شيء في الولايات المتحدة، ولكن لا يمكننا قول الشيء نفسه عن الصين".

كنت عادة أقول أشياء كهذه لسام أيضاً لأن الكلمات والمعتقدات المسيحية تجذرت في أعماقي، كما أصبح إيماني بالله جزءاً لا يتجزأ من الوطنية والولاء اللذين أشعر بهما حيال وطن ابنتي أمركا.

وبالطبع، فإن انتماء المرء إلى المسيحية في هذه الأيام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعاطفة المعادية للشيوعية. إذ لا يريد أحد أن يتهم بأنه شيوعي ملحد. وعندما كان يسألنا أحد عن الحرب في كوريا، فكنا نقول إننا ضد تدخل الصين الشيوعية في الحرب. وعندما كان يسألنا أحد عن تايوان، فكنا نقول إننا ندعم القائد العام ومدام شيانغ كاي شيك ونؤيد إعادة التسلح المعنوي والإيمان بالله والحرية. إن الذهاب إلى دار العبادة الغربية تصرّف عملي بالضبط كما كان ذهابي إلى البعثة التبشيرية في شنغهاي. لذا كنت أقول لسام: "يجب عليك أن تبدي اهتماماً أكثر بهذه الأمور". ولكنني في أعماقي أصبحت مؤمنة وسام يعلم ذلك.

قد لا يروق ذلك لسام، ولكنه كان يأتي إلى اجتماعاتنا في دار العبادة لأنه يحبني ويحب عائلتنا والعم فرد وابنتيه وهذه النزهات التي نقوم بها. إن خروجنا معاً جعله يشعر أنه أميركي. ففي أيام كذلك اليوم مثلاً، تجاهل سام القيم الدينية والتشاغل بأمور كتحضير الطعام، وتناول شرائح من البطيخ الذي لا يتوجب علينا أن نقلق من أن يكون محقوناً بمياه الأنهار الملوثة، والاحتفال بالقيم العائلية. لقد اعتبر هذه المغامرات مناسبات اجتماعية صرفة تقام من أجل الأطفال فقط.

دخل سام إلى منطقة مخصّصة لركن السيارات إلى جانب رصيف سانتا مونيكا. فترجلنا من السيارة، ونحن نشعر بأرجلنا تحترق. ثم عبرنا الشاطئ الرملي، ومددنا ملاءاتنا عليه ونصبنا المظلات. وساعد سام وفرد الرجال الآخرين على إحداث حفرة من أجل الشواء، بينما ساعدت أنا وماي الزوجات والأمهات الأخريات على وضع أطباق السلطات والفول وسلطة الفاكهة وقوالب الهلام مع حلوى الخطمي والجوز والجزر المبشور وأطباق من قطع اللحم البارد فوق الملاءات. وحالما اشتعلت النار، أعطينا الرجال صواني مليئة بجوانح الدجاج

المغمورة بصلصة الصويا والعسل وبذور السمسم وأضلاع الخنزير المشوي المنقوعة بالصلصة الحلوة الحامضة والتوابل. كان هواء المحيط يمتزج مع رائحة اللحم المشوي. وكان الأطفال يلعبون على الشاطئ، فيما أحنى الرجال رؤوسهم على اللحم المشوي وجلست النساء على ملاءة وهن يثرثرن. أما ماريكو فقد وقفت بعيداً عنا حاملة طفلتها ماي بين ذراعيها وهي تراقب عن كثب ابنيها التوأم إيفور وبيس وهما يبنيان قصراً من الرمال.

اشتهرت أختي ماي، التي ليس لديها أطفال بين الجميع باسم الخالة ماي. إنها مثل سام غير مؤمنة، فهي بعيدة كل البعد عن ذلك، ولكنها كانت تعمل بجد وتسهر حتى وقت متأخر من الليل لتدبر ممثلي الكومبارس من أجل التصوير، أو تقضي لياليها في موقع التصوير. وهذا هو على الأقل ما كانت تقوله لي، ولكنني بصراحة لم أكن أعرف إلى أين تذهب، ولم أسألها عن ذلك. وعندما تكون نائمة في البيت، قد يرن هاتفها عند الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً فتتلقى مكالمة من شخص خسر لتوه كل ماله في المقامرة ويحتاج إلى عمل. إن هذه التصرفات لا تتفق مع معتقداتي الدينية، ولهذا السبب كنت أحب أن أصطحبها في هذه الجولات على شاطئ البحر.

قالت ماي وهي تعدل وضع نظارتها الشمسية وقبعتها الكبيرة: "انظري إلى هؤلاء القادمين الجدد". وأمالت رأسها بلطف نحو فايوليت لي التي كانت تحجب عينيها بأصابعها الطويلة النحيلة وتحدق إلى المحيط إلى حيث تمسك جوي بيدي صديقتيها وهن يقفزن فوق الأمواج. إن الكثير من النساء هنا، ومن بينهن فايوليت، وصلن حديثاً إلى البلاد. لقد أصبحت نسبة أربعين بالمئة من السكان الصينيين في لوس أنجلوس مكونة من النساء، ولكن فايوليت ليست عروس حرب ولا خطيبة، بل

أنت هي وزوجها إلى الجامعة ليدرسا: هي الهندسة الحيوية وهو هندسة الطيران. وعندما أصبحت الصين مغلقة، ظلا عالقين هنا مع ابنهما الصغير. إنهما ليسا ابني وثيقة ولا شريكي وثيقة أو حتى عاملي وثيقة، ولكنهما من عبيد الأرض الضائعة.

كنت أتفق مع فايوليت جيداً. إذ إنها ذات وركين ضيقين، مما يدل على موهبة في إقناع الآخرين كما كانت أمي تقول. هل نحن صديقتان مقربتان؟ وألقيت نظرة خاطفة على ماي وقلت لنفسي: لا، أبداً. بل نحن مجرد صديقتين كما كنت وبيتسي في الماضي، ولكن ماي ستظل أختي وسلفتي وأيضاً صديقتي المفضلة إلى الأبد. إن كلام ماي يوحي بأنها لا تعرف عمّا تتحدث. إذ بينما تبدو العديد من النساء قد وصلن حديثاً كما كنا نحن في الماضي، إلا أن معظمهن بالضبط مثل فايوليت: أي نساء مثقفات يأتين إلى هذه البلاد ومعهنّ مالهن الخاص ولا يتوجب عليهن أن يمضين ليلة واحدة في الحي الصيني بل يشترين أكواخاً وبيوتاً في سيلفر ليك أو متنزه إيكو اللذين يرحبان بالصينيين. إن هؤلاء الناس لا يعيشون في الحي الصيني ولا يعملون فيه أيضاً، فهم ليسوا عمال مصبغة ولا عمال مطاعم ولا موظفي متاجر تحف، وإنما هم صفوة الشعب الصيني الذين يستطيعون أن يغادروا متى يحلو لهم. لقد وصلت فايوليت وزوجها إلى أكثر مما وصلنا إليه على الإطلاق. إذ إنها تدرس الآن في الجامعة بينما يعمل رولاند في صناعة الطائرات. وكانا يأتيان إلى الحي الصيني فقط كي يذهبا إلى دار العبادة أو يشتريا البقالة. ولقد انضمّا إلى مجموعتنا فقط كي يتسنى لابنهما أن يقابل أطفالاً صينيين آخرين.

تأمّلت ماي شاباً وسألت بريبة: "هل تعتقدين أن هذا القادم الجديد يريد ابنتنا الصينية المولودة في أمريكا؟". كانت تتحدث عن ابن فايوليت وعن ابنتي الصينية المولودة في أمريكا.

فقلت لها بينما كان الفتى يغوص بعومة داخل الأمواج: "إن ليون فتى لطيف وتلميذ ناجح، وهو الأول على صفه في المدرسة كابنتي جوي تماماً".

فمازحتني ماي قائلة: "إنك تبدين مثل أمي عندما كانت تتحدث عني وعن تومي".

فأجبتها بثبات من دون أن أشعر بأي إهانة لأنها تقارنني بأمي: "ليس أمراً سيئاً إن تعرفت جوي وليون إلى بعضهما". وعلى كل حال، فالهدف من هذا الاتحاد يرمي إلى تعرّف الفتيان والفتيات على بعضهم على أمل أن يتزوجوا يوماً ما، والأمل الضمني في هذا هو أن يتزوجوا من صينيين.

قالت ماي: "من حسن حظها أنها لن تقع في فخ الزواج المدبر".

عندما يفقد المرء وطنه الأم، فما الذي يحافظ عليه وما الذي يتخلى عنه؟ لقد أنقذنا فقط تلك الأشياء التي يمكننا إنقاذها: كالطعام الصيني، واللغة الصينية، وتهريب أي أموال نستطيع تهريبها إلى أقارب عائلة لوي في القرية الأصلية. ولكن ماذا عن زواج مدبر من أجل ابنتي؟ إن سام ليس مثل زي جي لي، ولكنه رجل طيب ومحترم. كما أن فيرن، بالرغم من أنه مريض دائماً، إلا أنه لم يضرب ماي مرة واحدة أو يخسر أمواله في المقامرة.

تابعت ماي كلامها قائلة: "لا تتسرعوا في تزويجها. لندعها تكمل تعليمها". (وهذا شيء كنت أعمل من أجله تقريباً منذ اللحظة التي ولدت فيها جوي). ثم تذمّرت ماي قائلة: "لم أحظَ بما حظيت به أنت في شبابي، ولكن ينبغي لجوي أن تلتحق بالكلية كما فعلت أنت". وأمسكت عن الكلام لتدعني أستوعب ذلك وكأنني لم أسمعه من قبل، ثم أضافت وهي ترى الفتيات يتشبثن ببعضهن عندما تقترب منهن

مسوحة: "ولكن، من اللطيف أن تكون لديها صديقات حميمات. أتذكرين كيف اعتدنا أن نضحك مثلهن؟ لقد كنا نظن أنه لن يصيبنا مكروه أبداً".

فقلت لها بقناعة تامة: "لا علاقة لجوهر السعادة بالمال". لكن، عندما عضت ماي على شفتها أدركت أن ما قلته خطأ، فقلت: "لقد كنا نظن أن العالم انتهى عندما خسر والدي كل شيء...".

فقالت ماي: "لقد انتهى فعلاً. فإن حياتنا كانت ستبدو مختلفة جداً لو أنه حافظ على أموالنا بدلاً من أن يخسرها، ولهذا السبب أعمل جاهدة لأستعيدها".

كنت أفكر أنها تريد أن تستعيدها لتنفقها على الملابس والمجوهرات، ولكنني لم أقل شيئاً. إذ إن مواقفنا المختلفة حيال المال هي من بين الأشياء العديدة التي تثير غضب أمي.

حاولت مجدداً على أمل ألا أزيد من كآبة ماي: "إن ما أعنيه هو أن جوي محظوظة لأنها تحظى بالأصدقاء تماماً كما أنا محظوظة بوجودك إلى جانبي. لقد تزوجت أمي ولم تر أموالها مجدداً أبداً، ولكنني وإياك سنحظى إحدانا بالأخرى إلى الأبد". وضعت ذراعي حول كتفيها وهززتها برفق، ثم قلت: "إنني أفكر في بعض الأحيان أننا يوماً ما سينتهي بنا المطاف ونحن نتشارك غرفة واحدة كما كنا نفعل ونحن فتاتان، وأننا سنتناول وجباتنا معاً وسنبيع أوراق اليانصيب معاً...".

فأضافت ماي مبتسمة: "وسنذهب إلى الحفلات النهارية معاً".

"وسنشدُّ الأغاني الشعائريّة معاً".

فعبست ماي لأنني ارتكبت خطأ مجدداً. فأسرعت قائلة:

"وسنلعب لعبة الله جونغ معاً. وستكون سيدتين متقاعدتين بدينتين وسنتدبر لين للعبان معاً وتتذمران من هذا وذاك".

أومأت ماي إليّ وهي تحدق بحزن إلى الأفق البعيد.

عندما وصلنا إلى البيت وجدنا الوالد لوي نائماً على كرسيه. فأرسلت جوي وهيزل وروز إلى الباحة ليلعبن. وسمعتهن وهن يضحكن ويصرخن ويركضن عبر الباحة وبين النباتات. ثم ذهبت مع سام إلى غرفة فيرن لنغير ملابسه. ولم تكن النافذة الصغيرة تخفّف رائحة المرض والأقذار التي تعبق في الغرفة. ثم أحضرت ماي الشاي، فجلسنا معاً لبضع دقائق لنحرر فيرن من يومنا. ثم عدت إلى المطبخ لأرتب الأغراض التي اشتريناها وأعد العشاء. فغسلت الأرز وفرمت الثوم والزنجبيل وقطّعت اللحم.

وقبل أن أبدأ بالطهي أرسلت فتاتي حاملة بي إلى بيتهما. وبينما كنت أعد طبق اللحم بالطماطم والكاري، قامت جوي بإعداد المائدة، وهي مهمة كانت دائماً من نصيب عندما في شنغهاي تحت إشراف أمي الصارم. فصفّت العيدان بشكل مستقيم وحرصت على ألا تضع أي زوج من العيدان بشكل غير متوازٍ لأن ذلك يعني أن الشخص الذي سيستخدمها سيفوت قارباً أو طائرة أو قطاراً. (وهذا لا يعني أن أحداً منا سيذهب إلى أي مكان). وبينما كنت أضع الطعام على المائدة، استدعت جوي خالتها ووالدها وجدها. حاولتُ أن أعلم ابنتي الأمور التي حاولت أمي أن تعلمني إياها، ولكن الفرق الكبير بيننا هو أن ابنتي تهتمّ بدروسي وتتعلمها. فهي لا تتحدث أبداً في أثناء تناول العشاء، وهذا شيء لطالما أخفقت فيه أنا وماي بشكل مريع، ولا تسقط عوديها أبداً خوفاً من سوء الحظ، ولا تتركهما منتصبين في وعاء الأرز لأن هذا ما يفعله الناس في الجنائز فقط، وهو تصرف غير مهذب في حق جدها الذي بدأ يفكر في دنو أجله.

عندما أنهينا تناول العشاء، ساعد سام والده على العودة إلى كرسيه. وانطلقت أنا للمطبخ بينما أخذت ماي طبق طعام إلى فونغ. فتوقفت واضعة يدي في الماء والصابون وأنا أحدق إلى الحديقة وهي تتوهج بآخر أضواء الأمسية الصيفية، ثم سمعت أمي تعود إلى غرفة المعيشة، وأصغيت إلى صوت وقع خطواتها المألوف والمريح، ثم سمعتها تشهق وتأخذ نفساً عميقاً جداً وحاداً بحيث إن الخوف تملكني فجأة. تُرى أهو فونغ؟ أم الوالد؟ أم سام؟ أم جوي؟

أسرعت إلى باب المطبخ واسترقت النظر من خلفه. فرأيت ماي واقفة وسط الغرفة، وطبق فونغ الفارغ في يدها، وعلى وجهها تعبير لم أستطع تفسيره، وكانت تحدق إلى كرسي الوالد. فظننت أن الرجل العجوز قد مات. ولكن، إن وافته المنية اليوم، فهذا ليس سيئاً جداً لأنه تجاوز الثمانين من عمره، وأمضى يوماً هادئاً مع ابنه، وتناول العشاء مع عائلته، ولا يمكن لأي واحد منا أن يشعر بالسوء حيال العلاقات التي تربطنا به.

خطوت إلى الغرفة لأواجه هذا الحزن ثم تسمّرت في مكاني وأنا أشعر بصدمة منعتني من الحركة. فالرجل العجوز لا يزال حياً وعلى ما يرام. إذ رأيته جالساً هناك، وقدماه مرفوعتان على كرسيه، وغليونه الطويل في فمه، ونسخة من مجلة تشاينا ريكونستركتس بين يديه بحيث إننا نستطيع رؤيتها بوضوح. إن مجرد رؤيته وهو يمسك تلك المجلة تسبب الصدمة لأنها تصدر عن الصين الشيوعية وتشكل جزءاً من الدعاية الشيوعية. فقد انتشرت شائعات بين الناس بأن الحكومة قد زرعت جواسيس في الحي الصيني ليتحققوا من كل من يشتري أشياء من هذا النوع. فحذرنا الوالد لوي الذي لا يمكن لأحد أن يدعوه موالياً للشيوعية بأي حال من الأحوال، وطلب منّا أن نتجنب كشك السجائر والصحف الذي تباع فيه تلك المجلة سراً.

ولكن، لم تكن المجلة هي الصدمة الحقيقية، بل الغلاف الأمامي الذي عرضه لنا عمي بكل فخر. إذ إن الصورة تبدو مألوفة جداً لنا، فهي تعبر عن انتصار الصين الجديدة تجسده امرأتان شابتان ترتديان ملابس ريفية، وخدودهما نابضة بالحياة، وأيديهما محملة بالفواكه والخضار، وهما تحتفلان بأمجاد النظام الجديد، وكلها مكتوبة بأحرف كبيرة ومتوهجة. وعلى الفور ميّزنا هاتين الفتاتين الجميلتين لأنهما أنا وماي، وبدا أسلوب الفنان الواضح الحماسي الذي يفضله الشيوعيون مميزاً بشكل جلي من خلال دقة رسومات فرشاته ورقّتها. إن زي حي لي لا يزال على قيد الحياة، ولم ينسَ أمري أو أمر أختي.

قال الوالد لوي بفخر عارم وهو ينظر إلى الغلاف: "لقد ذهبت إلى كشك بيع السجائر بينما كان فونغ نائماً. انظر". فبدا الأمر واضحاً لي من دون أدنى شك أن من ظهرتا في الصورة هما نحن الاثنتان. ولكننا لا نروج للصابون أو لمسحوق التجميل أو حليب الأطفال وإنما لحصاد وفير في منطقة لونغوا باغودا حيث ذهبت مرة مع زي حي لي وماي لنطيّر الطائرة الورقية. قال الوالد لوي بصوت مفعم بالفخر: "لا تزالان فتاتين جميلتين". لقد عمل الوالد طوال حياته، ولكن من أجل ماذا؟ إنه لم يعد قط إلى الصين، وماتت زوجته، ومرض ابنه، ولم يعطَ الحفيد، وتدهورت تجارته لتقتصر على متجر يبيع تحف متوسط الحال، ولكنه حقق شيئاً واحداً في حياته. لقد زوج ابنيه سام وفونغ من فتاتين جميلتين.

تقدّمت وماي بضع خطوات حذرة نحوه، وجدت نفسي عاجزة عن فهم طبيعة شعوري. فأنا متفاجئة ومندهشة لأنني رأيت صورتي أنا وماي ونحن نبدو كما كنا تماماً قبل خمسة عشر عاماً بخدودنا الوردية وعيوننا السعيدة وابتساماتنا الرقيقتين، ولكنني شعرت ببعض الخوف

لأن هــذه العائلة موجودة في البيت وشعرت أيضاً بالسعادة الغامرة لأن زي جي لي لا يزال على قيد الحياة.

وبعــد برهة، أدركت أن سام وقف إلى جانبــي عندما صاح وأشار بيديه بانفعال قائلاً: "هذه أنتما أنت وماي!".

تــوهّجت وجنتاي خجلاً وكأني ضُبطت وأنا أرتكب خطأ ما، فنظرتُ إلى ماي بحثاً عن المساعدة. إذ لطالما كنا كأختين قادرتين على قول الكثير لبعضنا من نظرة واحدة.

قالــت ماي بنبرة رتيبة: "لا بد من أن زي جي لي هو من رسم هذه الصورة. من اللطيف أن يتذكرنا بهذه اللوحة. لقد جعل بيرل تبدو جميلة جداً، ألا تظنون ذلك؟".

فقــال سام الذي لطالما كان زوجاً طيباً وصهراً محترماً: "لقد رسم كلاً منكما تماماً كما أراكما. إنكما جميلتان دائماً وأبداً".

فاتفقــت معه ماي قائلة: "إننا جميلتان إلى حدٍّ ما بالرغم من أن مظهرنا لا يبدو لائقاً حقاً بهذه الملابس الريفية".

في وقــت متأخر من تلك الليلة، وبعد أن خلد الجميع إلى النوم، وقفــت مع أختي على الشرفة المسيجة. فجلسنا على سريرها وأمسكنا بأيدي بعضنا ونحن نحدق إلى الحديقة. وبالرغم من حبــي الشديد لسام، فهــناك ما جعل قلبــي يطير فرحاً لدى معرفتي أن الرجل الذي أحببته هناك في شنغهاي قبل سنوات عديدة لا يزال يحبني.

وبعــد مرور أسبوع واحد فقط، أدركنا أن ضعف الوالد ووهنه ليــسا مجرد تدهور صحي ناجم عن التقدم في الســن فقط، فهو مريض فعــلاً. وقــال لنا الطبيب إنه مصاب بسرطان الرئة وليس بإمكاننا أن نفعــل شيئاً من أجله. لقد أتى موت بن بن مفاجئاً بحيث لم تسنح لنا الفرصــة لترتيب جنازتها أو الحداد عليها بطريقة ملائمة عندما فارقت

الحيــاة. خلال هذا الوقت، فكّر كل واحد منا في أخطائه الماضية التي ارتكبها على مدى السنوات، وحاول أن يعوض عنها في الوقت المتبقي. وخــلال الأشهر التالية، زارنا العديد من الناس. وكانت أحمهم يثنون علــى عمي ويشيرون إليه على أنه رجل جيل ذهبــي ناجح. ولكن، عندما نظرت إليه في الأيام القليلة الأخيرة رأيته مجرد رجل مهزوم. فقد عمــل جاهــداً طــوال حياته ولكنه خسر تجارته وأملاكه في الصين، وتقــريباً كل شيء بناه لنفسه هنا. والآن، هو في آخر أيامه، وعليه أن يعــتمد علــى ابنــه بالوثيقة ليقدم إليه مأواه وطعامه وغليونه المسائي ونسخاً من المجلة يشتريها له خفية من الكشك الذي في ناصية الشارع.

وكان عزاء الوالد الوحيد خلال الأشهر القليلة الأخيرة من حياته بينما كان السرطان ينهش رئتيه هو الصور التي قصصتُها من المجلة وألصقتها علــى الجدار إلى جانب كرسيه. فرأيته عدة مرات والدموع تسيل من عينيــه علــى خديــه النحيلين وهو يتأمل البلاد التي تركها في شبابه، والجبــال الشاهقة، والسور العظيم، والمدينة المحرمة. كان يقول إنه يكره الــشيوعيين لأن هذا هو ما يجب على الجميع أن يقولوه، ولكنه كان يكنُّ حباً كبيراً للأرض والفن والثقافة والشعب الصيني الذي ليــست له علاقة بماو تسي تونغ وسنارة الكومنتانغ والخطر الأحمر. إنه ليس وحيداً في حبه هذا ورغبته في رؤية وطنه. فالعديد من الناس، ومن بينهم العم ويلوت والعم تشارلي، يأتون إلى البيت أيضاً ويتأملون هذه الصور التي تعبــر عــن وطنهم الضائع. فقد كانوا يحبّون الصين كثيراً مهما كان الوضــع الذي آلت إليه. وسرعان ما توالت الأحداث بسرعة كبيرة، فتوفي الوالد.

إن الجنــازة أهم حدث في حياة الإنسان، حتى إنها أكثر أهمية من الــولادة أو الــميلاد أو الزفاف. لقد عاش الوالد حياته حتى بلغ العقد

الثامن من عمره. فأقمنا له جنازة أكبر بكثير من جنازة بن بن. واستأجرنا سيارة كاديلاك ذات غطاء قابل للطي لنسير بها عبر الحي الصيني، وقد وضعنا على الكرسي الخلفي صورة له محاطة بأكاليل الزهور. وألقى سائق عربة الموتى المال من النافذة ليبعد الشر الذي قد يعيق الطريق. وسارت فرقة آلات نفخ نحاسية خلف عربة الموتى وهي تعزف ألحاناً صينية تراثية وموسيقى عسكرية. وفي القاعة المخصصة للمراسم، انحنى ثلاثمئة شخص ثلاث مرات أمام النعش، ثم ثلاث مرات أخرى أمامنا نحن أفراد العائلة المفجوعة. فمنحنا المعزّين النقود المعدنية لطرد الهواء الفاسد، والحلوى لتبعد طعم الموت المر. وارتدى الجميع اللون الأبيض، لون الحداد والموت. وبعد ذلك، ذهبنا إلى مطعم جونغشاو لتقديم مأدبة الأطباق السبعة التقليدية المكونة من الدجاج المشوي وثمار البحر والخضار لإبعاد الحزن، وتمني الرحمة للراحل العزيز في العالم الآخر، وبدء رحلة الشفاء لنا، ولتشجيعنا على ترك أشباح الموت خلفنا قبل أن نعود إلى البيت.

على مدى الأشهر القليلة التالية، جاءت النساء إلى بيتنا للعب الدومينو معي ومع ماي كي نبدّد فترة الحداد الرهيبة. فوجدت نفسي أتأمل الصور التي علقتها على الجدار فوق كرسي الوالد، ولكنني بقيت عاجزة عن إزالتها.

بوصة من الذهب

سألت جوي بصوت عالٍ: "لماذا لا أستطيع أن أذهب؟ ستسمح الخالة فايوليت والعم رولاند لليون بالذهاب".

قلت لها: "إنه ليون صيني".

"إنها تكلف خمسة وعشرين سنتاً فقط. أرجوك، يا أمي".

"إنني ووالدك لا نعتقد أنه من الصواب بالنسبة إلى فتاة في مثل سنك أن تتجول في أنحاء البلدة بمفردها...".

"لن أكون بمفردي. فكل مَن في مثل سني ذاهبون".

قلت لها: "أنتم جميعاً في السنّ نفسها. هل تريدين أن ينظر إليك الناس ويروا قطعة حرفية مليئة بالشقوق؟ يجب عليك أن تحرسي جسمك وكأنه جوهرة نفيسة".

"إن كل ما أريده يا أمي هو أن أذهب إلى الحفل الراقص في القاعة الدولية".

لقد كانت بن بن تقول أحياناً إن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، ولكنني أدركت مؤخراً قيمة الوقت وسرعة مضيه. إننا في صيف العام 1956 بعد تخرج جوي من المدرسة الثانوية. وفي خريف هذا العام، كانت ستلتحق جوي بجامعة شيكاغو إذ إنها تنوي أن تدرس التاريخ. إن شيكاغو بعيدة جداً، ولكننا قررنا أن نسمح لها بالذهاب. لقد كلفنا تعليم جوي أكثر مما كنا نتوقع، ولكنها تلقت منحة جزئية وساعدت ماي أيضاً في تعليمها. كانت جوي تطلب الإذن كل يوم

للذهاب إلى هذا المكان أو ذاك. فإن وافقت على هذا الحفل الراقص، أياً كان، إذاً، فسيتوجب عليّ أن أوافق على أي شيء آخر، كالحفل الراقص في الأوركسترا، وحفل الميلاد في منتزه مكارثر، والحفل الآخر الذي سيتطلب ركوب الحافلة ذهاباً وإياباً.

لم تستجبْ جوي عن الأمل، فسألتني قائلة: "ماذا تظنين أنه سيحدث؟ سنشغّل بعض الأسطوانات الموسيقية ونرقص قليلاً".

لقد تذرعت وماي بأعذار كهذه أيضاً عندما كنا فتاتين في شنغهاي. فلم تكن عاقبة الأمور حسنة بالنسبة إلى أي منا.

قلت لها: "لا تزالين صغيرة على مقابلة الشبان".

"صغيرة؟ إنني في الثامنة عشرة! لقد تزوجت خالتي ماي عمي فرن عندما كانت في مثل سني...".

لقد حاول سام أن يهدئني بأن أقسو بشدة الصرامة معها. فقال لي: "ما كل هذا القلق؟ إنها لا تزال غير مدركة لاهتمامات الشبان والفتيات".

ولكن هل هناك فتاة في الثامنة عشرة غير مدركة لذلك؟ لقد أدركتها أنا، وكذلك ماي، وعندما كانت جوي تجيبني بقلة تهذيب، أو تتجاهل ما كنت أقوله، أو تخرج من الغرفة عندما أطلب منها أن تبقى تستضحك أختي من انزعاجي، وتقول: "لقد كنا نفعل تلك الأمور نفسها وأنت في مثل سنها".

فأود أن أصرخ في وجهها قائلة: *وانظري إلى أين وصلنا.*

استأنفت جوي تذمرها قائلة: "إنني لم أذهب قط إلى مباراة كرة قدم أو حفل رقص، ولكن الفتيات الأخريات يذهبن إلى أي مكان يحلو لهن. وأنا لا أستطيع أبداً أن أفعل أي شيء".

"إننا بحاجة إلى مساعدتك في مقهى بيرل، وخالتك بحاجة إلى مساعدتك أيضاً".

"لماذا ينبغي لي أن أساعدكم؟ فأنا لا أتلقى أي أجر".

"كل المال...".

"يذهب إلى صندوق العائلة. إننا ندخر من أجل التحاقك بالكلية. أعلم ذلك. ولكن لم يتبقَ لي إلا شهران قبل أن أذهب إلى شيكاغو. ألا تريدينني أن أستمتع بوقتي؟ إن هذه آخر فرصة أستطيع فيها أن أرى أصدقائي". شبكت جوي يديها على صدرها وتنهّدت وكأنها تحمل أكبر عبء في العالم.

"تستطيعين الحصول على كل ما تريدينه. ولكن، يجب عليك أن تبلي بلاءً حسناً في المدرسة. وإن لم ترغبي في الذهاب إلى المدرسة...".

فأكملت الجملة قائلة: "إذاً، فأنا حرة".

إنني أم جوي وأنظر إليها بعين الأم. فأرى شعرها الأسود الطويل الذي يعكس لون الجبال البعيدة، وعينيها السوداوين كلون البحيرة في الخريف. لم تحظَ جوي بغذاء كافٍ عندما كانت في رحم أمها، ولهذا بدت أصغر مني ومن ماي. وقد أُضفى عليها هذا الأمر مظهر عذراء قادمة من العصور الغابرة لأنها نحيلة كأغصان الصفصاف التي يؤرجحها النسيم، ورقيقة كطير السنونو، ولكنها في أعماقها شرسة كالنمر. وقد أستطيع أن أروضها، ولكن ابنتي لا تستطيع أن تتخلى عن طبيعتها الجوهرية تماماً كما أعجز أنا عن التخلص من طبيعتي. فمنذ أن أدركت جوي، بدأت تتذمر من الثياب التي أخيطها لها فتقول: "إنها تسبب لي الإحراج". ولكنني كنت أصنعها بيديّ بكل حبّ إذ لا يوجد مكان في لوس أنجلوس مثل متجر مدام غارنييه في شنغهاي لأحملها إليه وأخيط لها أثواباً مفصّلة على مقاسها وشكل جسمها تماماً. إن ما كان يزعج جوي أكثر من أي شيء آخر هو افتقارها إلى الحرية من وجهة نظرها،

ولكني أعرف نوعية الأشياء التي كنت وماي، وخاصة ماي وربما هي وحدها، نفعلها ونحن شابتان.

لم يكن الكثير من هذه الأمور ليحدث لو أن الوالد لوي لا يزال علـى قيد الحياة. لقد مضت أربع سنوات على وفاته الآن. فأصبح في وسـعي وسام وجوي أن نستغل موت الوالد كفرصة لنا للانتقال من المنـزل، ولكننا لم نفعل ذلك. فقد قطع سام وعداً للوالد عندما بدأ يعتبره أكثر من مجرد ابن وثيقة. وربما لم أعد أعتقد بالأسلاف، ولكن سـام كـان يشعل البخور من أجل الوالد ويقدم إليه قرابين الطعام والثياب الورقية في ذكرى السنة الجديدة والاحتفالات الأخرى. ولكن إلى جانب ذلك، كيف يسعنا أن نترك فيرن التي عاشت أطول مما توقع الجميع وحـدها؟ من سيشرح له أن والديه قد رحلا، وهو مَن يسأل عنـهما كـل يوم؟ كيف يسعنا أن نترك ماي لتعتني بزوجها وحدها وتدير عملها السينمائي ومتجر التحف وتدير شؤون البيت؟ فهذا كله تجاوز حدود الولاء للعائلة والوعود التي قطعناها. فنحن ما زلنا عالقين جداً.

كل يوم كانت أخبار الحكومة تزداد سوءاً. إذ إن قنصل الولايات المتحدة في هونغ كونغ اتهم المجتمع الصيني بالميل إلى الخداع والحنث باليمين لأنـنا نفتقر إلى مرادف للمفهوم الأميركي للقسـم ويقول إن جميع الذين يأتون عبر مكتبه طلباً لدخول الولايات المتحدة يستخدمون أوراقاً مزورة. لقد أغلقت جزيرة آينجل منذ وقت طويل، ولكنه ابتكر إجـراءات جديـدة تتطلب الإجابة عن مئات الأسئلة، وملء عشرات الاستمارات، والحصول على إفادات خطية بنتائج فحوصات الدم وصور أشعة إكس، وبصمات الأصابع. إن كل هذه الجهود تبذل لمنع الصينيين من دخول أميركا. وقال القنصل أيضاً إن كل صيني تقريباً

موجـود مسبقاً في أميركا، بمن فيهم أولئك الذين عملوا في التنقيب عن الذهب قبل مئة سنة، وساعدوا على بناء السكك الحديدية عابـرة القـارات قبل ثمانين عاماً تقريباً، قد دخلوا البلاد بصورة غير شـرعية ولا يمكن الوثوق بهم. وبالإضافة إلى ذلك، قال إننا مسؤولون عن الترويج للمخدرات واستخدام حوالات السفر المزورة وغيرها من الأوراق المـزوّرة، وتزويـر الدولار الأميركي وجمع إعانات مالية غير قانونية للأمن القومي والمحاربين القدماء. والأسوأ من كل شيء ادعاؤه أن الـشيوعيين قـد أرسلوا قبل عشرات السنين أبناء وثيقة، مثل سام وويلـبرت وفـرد وغيرهم، إلى أميركا ليعملوا كجواسيس لصالحهم. وهكـذا، فهـو أصـر على أنه يجب التحقيق مع كل صيني يعيش في أميركا.

لسنوات عديدة كانت جوي تأتي إلى البيت من المدرسة وتروي قصصاً عن دروسها وصفها. ولكن حينها، أصبح الأمر وكأننا نريد أن نعـيش كل يوم بيومه نظراً إلى وضعنا. إذ كنا محبين في منازلنا ومع عائلاتنا على أمل أن النوافذ والجدران والأبواب لن تتحطم وتتحول إلى رماد. ومن أجل هذه الأسباب، وهي حبنا لبعضنا وخوفنا على بعضنا، بقيـنا معاً وما زلنا نحاول جاهدين أن نحقق التوازن والنظام في حياتنا، ولكن وفاة الوالد لوي جعلتنا نبتعد قليلاً ولا سيما ابنتي.

قلت لها: "يتوجب عليك ألاّ تغسلي ثياب الأميركيين، أو تطبخي وجباتهم، أو تنظفي منازلهم، أو تفتحي أبواب منازلهم. ويتوجب عليك أيضاً ألاّ تعملي ساعية في مكتب أو موظفة في فرن أيضاً. فعندما أتيت ووالدك إلى هنا في البداية كان كلّ ما نأمل الحصول عليه هو أن نفتتح للمهى الخاص بنا، وأننا ربما يوماً ما سنحظى بمنـزلنا المستقل".

"لقد حصلت أنت وأبـي على هذا...".

"نعم. ولكن، يمكنك أن تحصلي عليه أيضاً وأن تحققي المزيد. عندما أتيت وخالتك في الماضي إلى أميركا، كان عدد قليل فقط من الناس يستطيعون العمل في مهنة. وأستطيع عدهم على أصابع يدي، إقسم واي سي هونغ؛ أول محام أميركي صيني في كاليفورنيا، ويوجين تشوي؛ أول مهندس معماري أميركي صيني في لوس أنجلوس. وهناك مارغريت تشونغ؛ أول طبيبة أميركية صينية في البلاد...".

"لقد قلت لي هذا ملايين المرات...".

"إن كل ما أقوله هو أنك تستطيعين أن تصبحي طبيبة أو محامية أو عالمة أو محاسبة. تستطيعين أن تفعلي أي شيء".

فسألتني بسخرية: "أأستطيع حتى أن أتسلق عمود العلم؟".

فأجبتها بهدوء قائلة: "إننا نريدك أن تصلي إلى القمة".

"لهذا السبب سألتحق بالكلية، فأنا لا أريد أبداً أن أعمل في المقهى أو المتجر".

لم أرد لها أن تعمل هناك أيضاً، وهذا هو تماماً ما حاولت قوله لها. ومع ذلك، فلا أزال أكره شعور جوي بالإحراج حيال عمل عائلتنا الذي أطعمها وكساها طوال حياتها. لذا حاولت، وليس للمرة الأولى، أن أجعلها تدرك قصدي.

فشرحت لها قائلة: "لقد أصبح أبناء عائلة فونغ أطباء ومحامين، ولكنهم لا يزالون يساعدون عائلتهم في المقصف الذي تديره. إن ذلك الصبي يذهب إلى المحكمة خلال اليوم، وعندما يذهب القضاة إلى المطعم ليلاً ليتناولوا طعامهم، يقولون له: *ألم نرك من قبل؟* وماذا عن ابن عائلة وونغ؟ لقد التحق بكلية كاليفورنيا، ولكنه ليس متكبراً بحيث يمنعه ذلك من مساعدة والده في محطة الوقود خلال العطل الأسبوعية".

"لا أصدق أنك تحدثيني عن هنري فونغ. إذ إنك عادة تتذمرين لأنه *أوروبي الطباع* كثيراً ولأنه تزوج تلك الفتاة التي تنحدر عائلتها من اسكتلندا، كما أن غاري وونغ يحاول فقط أن يعوض عن تسببه بفطر قلب عائلته عندما تزوج تلك الأميركية وانتقل إلى لونغ بيتش ليعيش حياة أوروبية. يسرني أنك أصبحت منفتحة هكذا".

هكذا أمضت جوي صيفها الماضي في البيت وهي تخوض جدالاً سخيفاً تلو الآخر. وفي أحد لقاءاتنا في دار العبادة، ذكرت لي فايوليت أنها تعاني من المشاكل نفسها مع ابنها ليود الذي سيلتحق بكلية بيل في الخريف. فقالت: "إنه يصبح أحياناً بغيضاً جداً. وإن تحدث بعضهم عن طيران العصفور من العش، أقول لا بأس إن كان يريد أن يطير، إنه ابني وجزء مني، ولكنه لا يدرك أنني أريده أن يغادر أيضاً، وأن أقول له: *هيا ارحل ودعنا لمشاكلنا معك!*".

في إحدى الليالي، اتصلت بي فايوليت وبدأت تبكي لأن ابنها يتذمر من لكنتها الأجنبية ويقول لها إنه إن سألها أحد من أين هي فعليها أن تجيب إنها من تايوان وليست من جمهورية الصين الشعبية وإلا فسيتهمها إدغار هوفر وعملاء المباحث الفيدرالية بأنها عميلة متخفية في مهمة استخباراتية. فقلت لها: "إنها غلطتنا نحن. فقد ربينا أبناءنا ليصبحوا أميركيين، ولكن ما أردناه لهم فعلاً هو أن يكونوا بنات صينيات لائقات وأبناء صينيين لائقين".

أدركت مدى الخلاف السائد في البيت. فعرضت على جوي العمل كممثلة كومبارس. فطارت جوي من الفرح، وقالت لي: "من فضلك، يا أمي. تقول خالتي ماي إنني إن ذهبت معها فسأحظى بمالي الخاص لأشتري الكتب والطعام والملابس الداخلية".

قلت لها: "لقد سبق وادخرنا مالاً كافياً لها". ولكن، هذا ليس صحيحاً تماماً. فكنت أرحب بأي نقود إضافية. ولكن ذهاب جوي مع ماي هو آخر ما أردتُ حدوثه.

تذمّرت ابنتي قائلة: "إنك لا تسمحين لي بالحصول على أي متعة".

وكنت ألاحظ أن ماي لا تتفوه بكلمة واحدة، بل تقوم بمجرد مراقبتنا وهي مدركة أن ابنتي الثمرة الذهبية ستنتصر في النهاية. وهكذا، ذهبت ابنتي مع ماي عدة أسابيع. فكانت تأتي كل ليلة إلى البيت لتسلي والدها وعمها بقصص عن مغامراتها في موقع التصوير، ولكنها كانت لا تزال تجد طرائق لتنتقدني. فقالت لي ماي إنه ينبغي لي أن أتجاهل تمرد جوي لأن ذلك جزء من ثقافة هذه الأيام وإنها تحاول فقط أن تتأقلم مع الأمريكيين في مثل سنها. ولم تدرك ماي مدى الارتباك الذي كنت أشعر به. فكنت أعاني كل يوم من معركة داخلية لأنني أردت لابنتي أن تكون وطنية وتحظى بكل الفرص التي ستمنحها إياها جنسيتها الأمريكية. وفي الوقت نفسه، ساورني قلق بسبب فشلي في تعليم جوي كيف تصبح مطيعة ومؤدبة وصينية.

قبل أسبوعين على مغادرة جوي إلى جامعة شيكاغو، توجهت إلى الشرفة المسيجة لأتمنى لها ليلة سعيدة. فرأيت ماي جالسة على سريرها وهي تتصفح مجلة، فيما جلست جوي على أغطية سريرها وهي تسرح شعرها وتصغي إلى أسطوانة موسيقية للملك المغني الريفي إلفيس بريسلي. أما الجدار فوق سريرها فكان يبدو مليئاً بصور لإلفيس اقتطعتها من المجلات، وللممثل جيمس دين الذي توفي قبل عام.

قالت جوي بعد أن قبلتها: "لقد كنت أفكر في أمر ما يا أمي".

فتوترت على الفور للمقدمة التي تستخدمها دائماً.

"لطالما قلت لي إن خالتي ماي كانت أجمل فتاة من بين الفتيات الجميلات في شنغهاي".

قلت لها وأنا ألقي نظرة خاطفة على أختي التي نظرت إليّ بدورها: "نعم، هذا صحيح، وكان جميع الفنانين يحبونها".

"حسناً، إن كان ذلك صحيحاً، فلماذا يبدو وجهك دائماً موضع التركيز في تلك المجلات التي تأتي من الصين؟".

قلت لها: "لا، هذا ليس صحيحاً". ولكنني كنت أدرك أنه صحيح. فخلال السنوات الأربع الماضية، ومنذ أحضر الوالد لوي ذلك العدد من المجلة، صمم زي جي لي ستة أغلفة يبدو فيها وجهانا واضحين جداً. في تلك الأيام الخوالي، كان الفنانون مثل زي جي لي يستخدمون فتيات جميلات ليروجوا للحياة الرغيدة. والآن أصبح الفنانون يستخدمون ملصقات وتقاويم وإعلانات لنقل وجهة نظر الحزب الشيوعي إلى الجماهير الأمية والعالم الخارجي. فاستبدلوا المشاهد من الصالونات وحجرات النساء بمشاهد وطنية، كمشهد لي وماي وأذرعنا ممدودة وكأننا نمد أيدينا إلى المستقبل المشرق، وصورة لنا ونحن نطبع مناديل على رأسينا ونجر العربات لنملأها بالحجارة لنساعد على بناء أحد السدود أو واقفتين في حقل أرز ضخم أو نحتمّ بنباتات الأرز. وعلى كل غلاف من الأغلفة، بدا وجهي ذو الخدين المتوردين وجسدي بخطوطه الطويلة محتلاً مركز الصورة، بينما احتلت أختي موقعاً ثانوياً خلفي وهي تحمل لي سلة لأضع فيها الخضار، أو تثبت تراجعي، أو تحني رأسها من الأعباء التي تحملها بينما أحدق أنا إلى الأفق. هناك دائماً مسحة توحي بشنغهاي في اللوحة، كتدفق نهر وانغبو خلف إحدى نوافذ المصانع، وحديقة يو يوان في تشاينا تاون القديمة. ويعمل الفنانون الذين يرسمون هذه اللوحات على استبدال الألوان

الرقيقة والوضعيات الرومانسية والخوالف الناعمة التي اعتاد زي حي لي أن يرسمها بالأشكال المحددة باللون الأسود والمملئة بألوان معينة، وخاصة اللون الأحمر.

فسرت جوي ومشت إلى الطرف المقابل من الشرفة. وتفحصت أغلفة المجلات التي علقتها ماي على الجدار إلى جانبها.

وقالت ابنتي: "لا بد من أنه كان يحبك فعلاً".

فقالت ماي محاولة أن تغطي عليّ: "آه، إنني بالكاد أظن ذلك ممكناً".

فقالت جوي: "ينبغي لك أن تنظري عن كثب أكثر. ألا تلاحظين ما فعله الفنان هنا؟ لقد استبدل الفتاة النحيلة الشاحبة العصرية التي لا بد من أنك كنت عليها يا خالة ماي بامرأة عاملة قوية وسليمة الجسم مثل أمي. ألم تقولي دائماً إن والدك كان دائماً يتذمر من أن وجه أمي أحمر ومتورد كالفلاحة؟ إن وجهها مثالي بالنسبة إلى الشيوعيين".

إن البنات قاسيات جداً في بعض الأحيان، وقد يقلن أشياء لا يقصدنها، ولكن هذا لا يعني أن كلماتهن ليست جارحة. فأشحت بوجهي وحدقت إلى الرقعة المزروعة بالخضار على أمل أن أخفي مشاعري.

"ولهذا السبب أعتقد أنه يحبك، يا خالة ماي، إنك بالتأكيد تلاحظين هذا".

أخذت نفساً عميقاً بينما أصغيت إلى كلام ابنتي، وحاولت أن أفسر في الوقت نفسه ما قالته قبل قليل، فعندما قالت: "لا بد من أنه يحبك"، لم تكن تقصدني أنا بكلامها بل ماي.

قالت ابنتي: "انظري، ها هي أمي تبدو فلاحة مثالية للبلاد، ولكن انظري كيف رسم وجهك، يا خالة ماي. إنه جميل وكأنك حورية".

فلم تقل ماي شيئاً، ولكنني شعرت أنها تتفحص الصور.

فتابعت ابنتي قائلة: "أتعلمين أنه إن رآك الآن فهو على الأرجح لن يميزك".

هكذا، عملت ابنتي على جرح شعور كل من أمها وخالتها وفتح أكثر جراحنا ألماً وحساسية. فضغطت بأظفاري على راحتي يديّ لأتحكم بزمام مشاعري. ثم رفعت زاويتي فمي كاشفة عن أسناني، والتفت لأضع يديّ على كتفي ابنتي.

"لقد أتيت لأتمنى لكما ليلة سعيدة. ينبغي لك أن تخلدي إلى النوم، يا جوي". ثم قلت بخفة: "ماي، أيمكنك أن تساعديني بدفاتر حساب المقهى؟ أعتقد أنني لا أعرف كيف أرتب هذه الأرقام".

لقد عشت وأختي معاً حياة مليئة بالابتسامات المزيفة والهروب من الأمور التي لا نحبها. فغادرنا الشرفة متظاهرتين أن جوي لم تؤذنا، ولكن حالما وصلنا إلى المطبخ عانقنا بعضنا طلباً للقوة والراحة. كيف يمكن لكلمات جوي أن تؤلمنا بعد كل تلك السنوات؟ لأننا في أعماقنا كنا لا نزال نحتفظ بأحلامنا حول ما كان يجب أن يكون، أو ما ينبغي أن يكون، أو ما نتمنى لو أننا لا نزال عليه، ولكن هذا لا يعني أننا لسنا راضيتين. إننا راضيتان، ولكن التوق الرومانسي من فترة شبابنا لم يضمحلّ عنا قط. فهو أشبه بقول بن بن طوال كل تلك السنوات: "إنني أنظر إلى المرآة وأندهش مما أراه". أما أنا فأنظر إلى المرآة وأنا لا أزال أتوقع أن أرى تلك الفتاة من شبابي وليس الزوجة والأم التي أصبحت عليها. وماذا عن ماي؟ إنها في نظري لم تتغير قط. إذ إنها لا تزال جميلة وصغيرة في السن.

قلت لأختي: "إن جوي فتاة صغيرة. ولقد كنا نتصرف تصرفات غبية عندما كنا في مثل سنها أيضاً".

أجابـت ماي قائلة: "إن كل الأمور تعود إلى بدايتها". فتساءلت إن كانت تفكر في المعنى الأصلي لهذا القول المأثور: أي مهما فعلنا في الحياة فسنعود دائماً إلى البداية، وأننا سنصبح أطفالاً بعصورنا ويؤذوننا ويخيبون آمالنا كما فعلنا نحن تماماً مع والدينا، ثم إنها تفكر في شتفهاي وكيف خلفنا في أيامنا الأخيرة هناك منذ مغادرتنا وأصبح من المقدر لنا دائمـاً أن نتعايش مع خسارة والدينا وحسرتنا وزي حي لي وتتحمل نتيجة الأذى الذي أصابنا وعواقب حمل ماي؟

كرّرت لها شيئاً قالته فايوليت لي في أحد الأيام: "إن جوي تقول هـذه الأشياء فقط كي تبقي وإياك معاً، إذ إنها تدرك كم ستشعر بالوحدة في غيابها".

فأشاحت ماي بنظرها وعيناها تلمعان.

في صباح اليوم التالي، وعندما ذهبتُ إلى دار العبادة، رأيت ألفتة الغلالات وقد نـزعت وأزيلت عن الجدار.

وقفـنا على رصيف المحطة المتحدة لنودع جوي. فارتديت وماي تنورتين طويلتين ووضعنا حزامين جلديين صغيرين. ففي الأسبوع الفائـت، صبغنا كعاب أحذيتنا لتناسب أثوابنا وقفازاتنا وحقائبنا، وذهبنا إلى صالون الحلاقة لنجعد شعرنا الذي نحميه الآن من خلال وضـع أغطية على رؤوسنا ملونة بألوان زاهية. وارتدى سام أفضل بذلاته بينما اكتسب وجهه تعبيراً رزيناً ووقوراً، أما جوي فبدت مرحة جداً.

مدّت مـاي يدها إلى حقيبتها، وسحبت الكيس الصغير الذي يحتوي ثـلاث قطـع نقدية وثلاث حبات حمّص وثلاث حبات فول والـذي كانـت أمي قد أعطتها إياه. ثم سألتني إن كان في وسعها أن

تعطـي جوي إياه. فلم أعارض ذلك، ولكنني تمنّيت لو أنني فكرت في ذلـك أولاً. فوضـعت ماي الكيس كقلادة حول عنق جوي وقالت: "لقـد منحـتك هذا في اليوم الذي ولدت فيه لأحميك. والآن آمل أن تضعيه وأنت بعيدة عنا".

فقالـت ابنتي وهي تضم الكيس بيديها: "شكراً لك، يا خالتي"، وتحهّـدت لأبـيها وهي تعانقه قائلة: "لن أحضر برقالة أخرى أو أبيع زهرة غاردينيا أخرى طالما أنا حية". ثم وعدتني وهي تقبلني قائلة: "لن أرتدي ذلك النوع من القماش أو أياً من كنـزاتك الصوفية بعد الآن. ولن أرى أي حكاكة ظهر أو أي بضاعة من منتجات "كاتون"".

أصـغينا إلى مـزاحها الـمرح وقدّمنا إليها أفضل نصائحنا وآخر أفكارنـا. فقلـنا لها إننا نحبها، وإنه ينبغي لها أن تراسلنا كل يوم، وإنه يمكنها أن تتصل بنا إذا حدث أي طارئ، وإنه ينبغي لها أن تأكل أولاً الـزلابيات الـتي أعددنا لها والدتها ثم تنتقل إلى زبدة الفول السوداني والبسـكويت الناعم الذي وضعته في سلة طعامها. وعندما صعدت إلى القطـار وحـال زجاج النافذة بيننا وبينها، لوّحت وتكلمت من دون صـوت قائلة: "أحبكما سأفتقدكما"، فمشينا على طول الرصيف إلى جانـب القطار وهو يغادر المحطة ونحن نلوح ونبكي إلى أن توارت عن نظرنا.

عـندما عدنا إلى المنـزل شعرنا وكأن الظلام قد ساد فيه. إذ لم يبقَ سوانا في المنـزل الآن. فخيم الهدوء على المكان ولا سيما خلال الـشهر الأول وأصبح غير محتمل بحيث إن ماي اشترت لنفسها سيارة جديدة من طراز فورد والشريت وسام لنفسـنا جهاز تلفزيون. وعندما كانـت ماي تعود إلى المنـزل من العمل، كانت تتناول عشاء سريعاً، ثم تـتمنى لـيلة سعيدة للورد، وتخرج مجدداً. فكنا نتذكر حب جوي

لراهبات الأطفال عندما كانت صغيرة، ونجلس في الغرفة الرئيسة لنتفرج على بعض أفلام الغرب الأميركي.

قرأت رسالة جوي الأولى بصوت عال، ونحن جميعاً جالسون على كراسينا حول سرير فورد قائلة: "أمي العزيزة، أبي العزيز، خالتي ماي العزيزة، عمي فورد العزيز. لقد كتبتم إليّ وسألتموني إن كنت أشعر بالحنين إلى الوطن. فكيف أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال من دون أن أشعركم بالسوء؟ فإن قلت إنني أستمتع بوقتي فسأجرح شعوركم. وإن قلت إنني وحيدة فستقلقون بشأني".

نظرتُ إلى الآخرين، فأومأ سام وماي برأسيهما موافقين، وفتل فورد ملاءة سريره بين أصابعه. لم يدرك أن جوي قد رحلت تماماً كما لم يدرك بعد أن والديه قد ماتا.

تابعت القراءة: "ولكنني أظن أن والدي يريدني أن أقول الحقيقة. لذا سأقول إنني سعيدة جداً، وأحظى بالكثير من المرح، ودروسي ممتعة. إنني أكتب الآن بحثاً عن كاتب صيني يدعى لو هشون. لا بد من أنكم على الأرجح لم تسمعوا به...".

فقالت أختي: "حقاً! تستطيع أن تروي لنا قصصاً عنه. أتتذكرين ما كتبه عن الفتيات الجميلات؟".

فيما قال سام: "واصلي القراءة".

لم تعد جوي إلى البيت لحضور الاحتفال بالميلاد. لذا، لم نزعج أنفسنا بوضع شجرة كبيرة. وبدلاً من ذلك، اشترى سام شجرة صغيرة الحجم ووضعناها على الطاولة إلى جانب سرير فورد.

بحلول أواخر شهر كانون الثاني، تحولت حماسة جوي الأولى إلى حنين:

لماذا يود أي شخص أن يعيش في شيكاغو؟ إن الطقس فيها شديد البرودة، والشمس لا تشرق أبداً، والرياح تهب دائماً. شكراً لكم على الملابس الداخلية الطويلة التي أعطيتموني إياها، ولكن حتى هذه الملابس لا تشعرني بالدفء. إن كل شيء هنا أبيض اللون كالسماء والثلج ووجوه الناس، والأيام قصيرة جداً. لا أعرف ما الذي أفتقد إليه أكثر. أهو الذهاب إلى الشاطئ، أم التسكع مع خالتي ماي في مواقع التصوير، أم اللحم الحلو والحامض الذي يعده والدي في المقهى.

إن الملاحظة الأخيرة سيئة جداً. فاللحم الذي يعده أسوأ طبق أميركي على الإطلاق. فهو شديد الحلاوة وكثير الخل.

وكتبت مرة أخرى في شباط:

لقد كنت آمل الحصول على عمل مع أحد أساتذتي خلال عطلة الربيع. كيف يمكن ألا يتوفر لدى أي واحد منهم عمل لي؟ إنني أجلس في الصف الأول في حصة التاريخ، ولكن الأستاذ يوزع الأوراق على الآخرين جميعاً قبلي. وإن لفت منه، فهذا سيئ جداً بالنسبة إليّ.

فأكتب مجيبة على رسالتها:

سيقول الناس لك دائماً إنك لا تستطيعين القيام بالأشياء، ولكن لا تنسي أنك تستطيعين القيام بكل ما تريدينه. احرصي على الذهاب إلى دار العبادة، فهناك سيلقاك الجميع، وستستطيعين أن تتحدثي عن تاريخ الكتاب المقدس. ومن الجيد أن يعرف الناس أنك مسيحية.

فأتى جوابها كالتالي:

إن الناس يسألونني دائماً لماذا لا أعود إلى الصين. فأقول لهم إنني لا أستطيع أن أعود إلى مكان لم أكن فيه قط.

في شــهر آذار تغيَّر مزاج جوي فجأة نحو الأفضل. فاقترح سام قائلاً: "ربما لأن الشتاء قد انتهى". ولكنه لم يكن الســبب، لأنها لا تزال تتذمر من الشتاء الذي لا ينتهي. وبدلاً من ذلك، فهناك فتى...

لقـد طلب مني صديقي جو أن أنضم إلى جمعية الطلاب الصينيين الديمقراطية المسيحية. فانضممت إليها وأحببت أعضاءها الآخرين. إننا نـتناقش قـضايا الـدمج العنصري، والزواج بين الأعراق، والعلاقات الأسرية. إنني أتعلم الكثير وأجد أنه من اللطيف أن أقابل وجوهاً ودودة نلتقي معاً ونأكل معاً.

وعلاوةً لعلاقتها هذا الصديق للشعر جوي، كنت أشعر بالـسعادة لأنها انـضمت إلى مجموعة مسيحية لأنني أدركت حينها أنها ستعثر على الرفقة هناك. وبعد أن قرأت الرسالة على مسمع الجميع رددت عليها قائلة:

إن والـدك يريد أن يعرف عن دروسك في هذا الفصل. هل تتابعين دراستك؟ وتريد ماي أن تعرف ماذا ترتدي الفتيات في شيكاغو، وإن كـان فـي وسعها أن ترسل إليك أي شيء. ليس لديّ الكثير لأضيفه. فالأمور على حالها بالنسبة إلى الجميع. لقد أغلقنا متجر الـتحف، فليس هناك دخل كاف لتوظيف أحد لبيع تلك الخردة، كما كـنت تسميها. إن العمل في مقهى نيرل جيد ووالدك مشغول جداً. أما عمك فيرن، فيريد أن يعرف المزيد عن صديقك جو.

إنـــه في الواقع لم يقل أي شيء عن جو، ولكنّ الفضول كاد أن يقتلنا.

إنـك تعـرفين خالتك فهي دائماً تعمل. وماذا هناك أيضاً؟ آه، إنك تعرفين كل الأمور التي تجري هنا. فالجميع خائفون من أن يتهمهم أحـد بالـشيوعية. إن المـشاكل التي تشوب العلاقات التجارية أو العاطفية تفسح المجال لأحدهم أن يتهم الآخر بأنه شيوعي. ولا بد مـن أنك تعرفين كيف يبدأ الناس بالثرثرة. فإن باع أحدهم بضاعة أكثر اتهمـه الناس بأنه شيوعي. وإن حطمت امرأة قلب أحدهم اتُّهمـت بأنهـا شيوعية. ولحسن الحظ، فوالدك ليس لديه أعداء، وخالتك لا يتودد أحد إليها.

هذه هي طريقتي غير المباشرة في حثّ جوي على الكتابة عن هذا الدعـــو جــو. وإن كـــنت أم جوي فهي بالتأكيد ابنتي وتستطيع أن تـــكتشف مقـــصدي من كل كلمة أقولها. وكالمعتاد، انتظرت بفارغ الـــصبر أن أقـــرأ الرسالة على مسمع الجميع حين يعود سام وماي إلى المنـــزل ونتجمّع حول سرير فيرل.

كتبت جوي: ستحبون جو.

إنه يدرس في الصف التحضيري لكلية الطب، ويرتاد دار العبادة أيام الأحد. إنكم تريدونني أن أكثر أدعيتي، ولكننا لا نفعل ذلك في الجمعـية. وقد تظنون أن كل ما نتحدث عنه هو الدين، ولكننا لا نتحدث عنه، بل نتحدث عن المظالم التي تعرض لها أناس مثلكم ومثل جدي وجدتي. ونناقش ما عاناه الصينيون في الماضي وما يعانيه السود الآن. في الأسبوع الماضي، نظمنا احتجاجاً بسبب منع توظيف السود. إذ يقول جو إنه يجب على الأقليات أن تتحد معـاً. فذهبت مع جو لنطلب من الناس أن يوقعوا على العريضة. مـن اللطـيف أن يفكـر المرء في مشاكل الآخرين طلباً لبعض التغيير.

عـــندما وصلت إلى نهاية الرسالة، سأل سام: "هل تظنين أن جو هـــذا يتحدث لغة الهي بوب؟ إنني لا أريد لها أن تتزوج شخصاً لا يتحدث لغتنا".

فسألت ماي قائلة: "ومن قال إنه صيني؟".

فجعلنا هذا السؤال نبدأ بالثرثرة كالعصافير.

فقال سام: "إنها منظمة صينية. فلا بد من أنه صيني".

وأضفت أنا قائلة: "إنهم يذهبون إلى دار العبادة معاً".

فقالـــت ماي: "وماذا في ذلك؟ لطالما كنت تشجعين جوي على ارتياد دار عبادة خارج الحي الصيني كي تقابل أنواعاً مختلفة من الناس".

فتوجهت عيون العائلة نحوي بنظرات غاضبة.

قلت: "إن اسمه جو، وهذا اسم جيد ويبدو صينياً".

تأملت الاسم المكتوب بخط يد جوي المرتب، وحاولت أن أقرر بالضبط ما قد يكون عليه هذا المدعو جو. فبدأت أختي التي لطالما كانت أختاً صغيرة شريرة بتذكر أشخاص آخرين يحملون اسم جو: "جو ديماجيو، وجوزيف ستالين، وجوزيف ماكارثي،...".

فقاطعها فورن قائلاً: "اذكري لها أن الشيوعيين ليسوا أصدقاء جيدين، وأنها ستتعرّض للمتاعب إن صادقتهم".

ولكنني لم أكتب ذلك، بل كتبت لها كلاماً لا يدل على الذكاء على الإطلاق: *ما اسم عائلة جو؟*

وفي منتصف شهر أيار، وصلني جواب جوي.

آه، يا أمي، إنك طريفة جداً. لا أستطيع أن أتخيلك وأبي وخالتي ماي وعمي فورن جالسين في المنزل وقلقين من هذا. إن عائلة جو هسي كوانغ، حسناً؟ إننا أحياناً نتحدث عن الذهاب إلى الصين لمساعدة البلاد. ويقول جو إننا نحن الصينيين لدينا قول مأثور: *لف ستة آلاف سنة من أجل الصين*. إن كون المرء صينياً وحمله لهذا العبء على كتفيه وفي قلبه قد يكون أمراً شاقاً، ولكنه أيضاً مصدر فخر وفرح. يقول جو: *ألا ينبغي لنا أن نكون جزءاً مما يحدث في بلادنا الأم؟* وقد أقنعني للحصول على جواز سفر.

لقد قلقت على جوي عندما تركتنا، وقلقت عليها عندما بدأت تحنّ إلى الوطن، وقلقت عليها عندما بدأت تخرج مع فتى ليست لدينا أي فكرة عن هويته، ولكن هذا أمر مختلف تماماً. إنه مرعب جداً.

تذمر سام قائلاً: "إن الصين ليست وطنها".

فقال فورن: "إنه شيوعي". ولكنه يظن الجميع شيوعيين.

فقالت ماي بخفة، ولكنني شعرت بالقلق في صوتها: "إنها مجرد حالة حب. إذ إن الفتيات يفكرن بأمور غبية، ويفعلن أموراً أغبى عندما يصبحن عاشقات".

طويت الرسالة ووضعتها في المغلف، فليس هناك ما يمكنني أن أفعله حيال أي من هذا وأنا بعيدة عنها، ولكنني بدأت بالدعاء في أعماقي، إنه أكثر من دعاء، بل هو أشبه بمناشدة يائسة: *أعدها إلى المنزل، أعدها إلى المنزل، أعدها إلى المنزل.*

حجارة الدومينو

حــل فــصل الصيف، وعادت جوي إلى لوس ألموس، فشعرنا بالفرح لدى سماعنا صوتها الناعم يتردد في أرجاء المـنزل. وحاولنا أن نمنع أنفسنا من لمسها، ولكننا كنا نربت على يديها ونملس شعرها ونعـدل ياقتها. وأعطتها خالتها مجلات سينما موقعة، وأساور ملونة، وحقاً أرجوانياً. فيما أعددت لها طعامها المفضل المطهي منـزلياً، وهو اللحـم المدخن مع بيض البط المملح، ولحم البقر المطهي مع الطماطم والكاري، وأجنحة الـدجاج مع الفول، وحبة اللوز مع كوكتيل الفواكه المخفوطة كتحلية. وفي كل يوم، كان سام يحضر لها وجبة شـهية، كبطة مشوية من متجر سام بينغ وكعكة الكريما المحفوفة مع ثمار الفراولة الطازجة.

ولكـن، كم تغيرت جوي خلال الأشهر التسعة الماضية! إذ إنها كانت ترتدي الآن سروالاً قصيراً وكنـزة قطنية من دون كمين ضيقة عند خصرها النحيل. كما أنها قصت شعرها وصففته في تسريحة خفيفة الظل، ولكنها تغيرت من الداخل أيضاً. ولا أعني أنها تتحدانا أو تهيننا كمـا كانـت تفعل خلال الأشهر الأخيرة قبل مغادرتها إلى شيكاغو. وبـدلاً مـن ذلك، فقد عادت وهي تعتقد أنها أكثر معرفة منا بأمور الـسفر (فقد سافرت إلى شيكاغو وعادت بالقطار، فيما لم يستقل أحدنا قطاراً منذ سنوات)، وبالنسبة إلى الأمور المالية (فهي الآن تحظى بمبلغها المصرفي الخاص، وبدفتر شيكات بينما لا أزال وسام نخبئ مالنا

في السيت حيث لا تستطيع الحكومة أو أياً كان العثور عليه). ولكن، أكثر من كل شيء، كانت تظن أنها أكثر معرفة منا بأمور الصين. ويا للمحاضرات التي تلقيها على مسامعنا!

وكانت تحاول التأثير في أكثرنا ضعفاً ولطفاً، وهو عمها فيرن. وإن كان الحيوان القزز البري بطبيعته الوديعة يعاني من عيب واحد فهو أنه يثق بالجميع وعلى استعداد لأن يصدق تقريباً كل شيء يقال له حتى من قبل الغرباء أو المحتالين، وحتى لو كان صوتاً عبر الإذاعة. فلقد أثرت سنوات من الإصغاء إلى النشرات الإخبارية المعادية للشيوعيين في آراء فيرن حيال جمهورية الصين الشعبية إلى الأبد. ولكن أي هدف هو؟ إنه ليس هدفاً جيداً. فعندما نصبح جوي قائلة: "إن ماو تسي تونغ يساعد شعب الصين". كل ما يستطيع عمها أن يقوله هو: "لا توجد حرية هناك".

فتصر جوي بعناد قائلة: "يريد ماو أن يحظى الفلاحون والعمال بكل الفرص التي يريد أبـي وأمي أن أحظى بها. وللمرة الأولى، أصبح يُسمح للريفيين بدخول الكليات والجامعات، وليس الفتيان فقط. ويقول إنه ينبغي للنساء أن يحصلن على أتعاب مساوية للرجال في كل عمل".

قال فيرن: "إنك لم تذهبـي إلى هناك قط. ولا تعرفين شيئاً...".

"إنـي أعـرف الكثير عـن الصين. فقد حضرت كل الأفلام السينمائية التي تدور حول الصين عندما كنت فتاة صغيرة".

فـال والدها الذي كان يحاول عادة أن ينأى بنفسه عن خلافات كهذه: "إن الصين مختلفة عما ترينه في الأفلام". فلم تحاول جوي أن تجادله. وليس السبب في هذا هو أنه يحاول أن يسيطر عليها كما ينبغي لأي والـد صيني محترم أن يفعل، بل لأنها ابنة صينية مطيعة. وبدلاً من ذلـك، فهـي كاللؤلؤة في يده، وستبقى غالية على قلبه إلى الأبد. أما

بالنسـبة إلى جوي، فهو الأرض الصلبة التي تمشي عليها والتي تبقى إلى الأبد راسخة وثابتة.

وعندما شعرت ماي بهدوء موقت، حاولت أن تقطع سلسلة أفكار جـوي قائلـة: "إن الصين مختلفة عن استديوهات السينما. إذ إنك لا تستطيعين أن تغادريها عندما تتوقف الكاميرات عن التصوير".

هذا هو أقسى كلام سمعتُ أختي تقوله يوماً لجوي، ولكن وقع هذا التوبيخ اللطيف كان يبدو أشبه بتأثير نبات لاسع في قلب جوي. فحوّلت انتباهها فجأة إليّ وإلى ماي، إلى أختين لم تفترقا قط، وهما أقرب صديقتين، والرّابط بينهما أعمق مما تستطيع جوي أن تتخيل على الإطلاق.

بعـد يـومين، قالت لي جوي صباحاً وأنا أكوي القمصان على الـشرفة المسيجة: "إن الفتيات في الصين لا يرتدين أثواباً كما تفعلين أنـت وخـالتي ماي. إذ لا تستطيع الفتاة أن ترتدي فستاناً وهي تقوم حـراراً. ويجـب على الفتيات هناك ألاّ يتعلمن التطريز أيضاً، ويجب علـيهن ألاّ يذهبن إلى دار العبادة أو إلى المدرسة الصينية. وليس هناك كل ذلك الكلام عن الطاعة الذي لطالما أزعجتموني بشأنه".

قلت لها: "قد يكون هذا صحيحاً، ولكن يجب عليهن أن يطعن ماو. ما الفرق بين إطاعة الإمبراطور وإطاعة والديك؟".

"في الصين ليس هناك محتاجون. فالجميع يحظون بطعام يأكلونه". ولكن ردها هذا لم يكن جواباً عن السؤال بل مجرد شعار آخر سمعته في دروسها أو من ذلك الفتى المدعو جو.

"إنهم ربما يحظون بطعام يأكلونه، ولكن ماذا عن الحرية؟".

"إن ماو يعتقد بالحرية. ألم تسمعوا عن حملته الجديدة؟ لقد قال: *لتتفتح ألف زهرة* ... هل تعلمون ما يعنيه هذا؟"، ولم تنتظر الإجابة بل تابعت قائلة: "إنه يدعو الناس إلى انتقاد المجتمع الجديد".

"ولن ينتهي هذا على خير".

"آه يـا أمـي، إنك..."، وحدّقت إليّ مفكرة، ثم قالت: "إنك دائماً تصدقين ما يقوله الآخرون، وتتبعين شائع كاي شيك لأن سكان الحي الصيني يتبعونه ويظنون أنه يجب عليهم هذا. إن الجميع يعلمون أنه ليس أكثر من مجرد لص. فقد سرق المال والأعمال الفنية عندما هرب مـن الـصين. انظري إلى الطريقة التي يعيش بها مع زوجته الآن! لماذا تـدعم أميركـا حزب كومينتانغ وتايوان؟ أليس من الأفضل أن ننشئ علاقات وطيدة مع الصين؟ فالصين بلد أكبر بكثير وفيه اكتظاظ سكانيّ ووفرة في الموارد. يقول جو إنه من الأفضل التحدث مع الناس بدلاً من تجاهلهم".

فـتنهدت بسأم قائلة: "يا لجو هذا! إننا حتى لا نعرف من يكون جو، وأنت تصغين إلى آرائه حول الصين؟ هل ذهب إلى هناك؟".

فاعترفت جوي بتذمر قائلة: "لا، ولكنه يود أن يفعل ذلك. وأنا أيضاً أود أن أذهب إلى هناك يوماً ما لأرى المكان الذي عشت فيه مع خالتي وأزور قريتنا الأصلية".

"أتـريدين الـذهاب إلى الصين؟ دعيني أقول لك شيئاً. ليس من السهل بالنسبة إلى الأخرى أن تعود إلى الصين بعد أن ذاقت طعم العيش في أميركـا. وأنـت لـسـت أفعـى بل مجرد فتاة لا تعرف شيئاً عن الموضوع".

"لقد كنت أدرس...".

"انـسـي أمر دروس الجامعة وما قاله لك ذلك الصبـي. اخرجي مـن المنـزل وانظـري حولك. ألم تلاحظي الغرباء الجدد في الحي الصيني؟".

فقالت بنبرة لامبالية: "هناك دائماً أميركيون جدد".

"إنهـم ليـسوا السياح الأميركيين العاديين، بل عملاء من المباحث الفيدرالـية". وأخـبرتها عن عميل أصبح يتجول مؤخراً في أنحاء الحي الصيني كل يوم ويطرح الأسئلة. كان يقوم بجولة تبدأ من متجر البقالة في شـارع سـتريتخ، ثم يمر بمقهى بول في أورد، ويعبر بروودواي إلى الساحة المركزية في الحي الصيني الجديد حيث يزور مطعم الخزال لي، ومـن هناك يواصل طريقه إلى متجر بقالة حاك لي في شارع هيل، ثم يتوجه إلى الحي الصيني الجديد عبر الشارع ليزور مشروعات عائلة فونغ ويعود أخيراً إلى مركز المدينة.

"ما الذي يبحثون عنه؟ لقد انتهت الحرب الكورية...".

"ولكـنّ خوف الحكومة من الصين الشيوعية لم يخف بعد، بل أصـبح أسـوأ من أي وقت مضى. ألم يعلموك في المدرسة عن نظرية الدومينو؟ إن دولة واحدة تسقط في يد الشيوعيين، فتتبعها دولة أخرى ثم أخـرى. إن الأميركـيين خائفون جداً، وعندما يصبحون خائفين، يقومون بأشياء سيئة مع الناس أمثالنا، ولهذا السبب يجب علينا أن ندعم القائد العام".

"إنكم تقلقون كثيراً".

"لقـد قلـت الشيء نفسه لأمي، ولكنها كانت محقة وكنت أنا مخطـئة. لقـد سبق وبدأت الأمور السيئة تحدث، ولكنك وحسب لا تدرين بها لأنك كنت غائبة". وتنهّدت بعمق. فكيف يسعني أن أجعلها تفهمـني؟ فقلت لها: "بينما كنت غائبة، أصدرت الحكومة شيئاً يدعى برنامج الاعتراف. فأصبح منتشراً في أنحاء البلاد كافة وربما في شيكاغو أيضاً. إنهم يسألوننا بل يحاولون إجبارنا لنعترف بأسماء الأشخاص الذين أتـوا إلى هنا كأبناء وثيقة ويعطون الناس جنسية أميركية إن بلغوا عن أصـدقائهم أو جيرانهم أو زملائهم بالعمل أو حتى أفراد عائلاتهم الذين

الصين أم في الولايات المتحدة؟"، أمسكت عن الكلام قليلاً لأرى إن كانت لا تزال تتابع كلامي، ثم قلت: "إن طريقة التفكير الصينية لا تنطبق دائماً هنا على السياسة الأميركية. إذ إننا نعتقد أن العيش المتواضع والحذر والصادق سيمنحنا فهماً أفضل لكل المواقف، وسيمنع الآخرين من التعرض للأذى، وسيؤدي إلى نهاية طيبة. ولكن، من الممكن لطريقة التفكير تلك أن تلحق الأذى بنا وبالآخرين".

أخذت نفساً عميقاً وأخبرتها شيئاً كنت أخشى أن أطلعها عليه في الرسائل: "أتذكرين عائلة يي؟"، إنها بالطبع تذكرها. فقد كانت صديقة حميمة للبنت الكبرى، هيزل، وأمضت معظم وقتها مع أبنائهم الآخرين في أثناء اجتماعاتنا معاً. فتابعت قائلة: "إن السيد يي ابن وثيقة، وقد أحضر السيدة يي مع وينغيغ".

سألت جوي بدهشة وربما بتأثر قائلة: "أهو ابن وثيقة حقاً، يا أمي؟".

"لقد قرر أن يعترف كي يتسنى له البقاء هنا مع عائلته لأن أبناءه الأربعة مواطنون أميركيون. فأخبر مكتب الهجرة أنه أحضر زوجته مستخدماً إقامته المزيفة. والآن أصبح مواطناً أميركياً، ولكن مكتب الهجرة بدأ بإجراءات الترحيل ضد السيدة يي لأنها زوجة وثيقة. لا يزال لديهما ابنان في البيت لم يبلغا العاشرة بعد. فكيف سيعيشان من دون أمهما؟ إن مكتب الهجرة يريد أن يرحلها إلى كندا، وهكذا على الأقل لن تذهب إلى الصين".

"ربما ستكون أفضل حالاً في الصين".

عندما سمعت هذا الكلام لم أعرف مصدره. أهو ذلك البغاء السخيف الذي يجب عليه أن يردد كل ما قاله جو، أم إنه صادر من مكان ما في أعماقها يفخر فيه خبازها الطفولي المتعمد.

أتوا كأبناء وثيقة. ويريدون أن يعرفوا من كسب مالاً لقاء إحضار أبناء وثيقة. إن الحكومة تُعلن عن تأثير الدومينو. حسناً، إن أعطى المرء هنا في الحي الصيني اسماً، فهذا سيحدث تأثيراً كحجارة الدومينو التي لا تؤثر فقط في أحد أفراد العائلة، بل في كل شركاء الوثيقة وأبناء الوثيقة والأقارب والجيران الذين يعرفهم المرء. ولكنّ ما يريدونه أكثر من كل شيء هو "الشيوعيون". فإن بلّغ المرء عن شخص أنه شيوعي، حصل على جنسية بشكل مؤكد".

"إننا مواطنون أميركيون. ولسنا مذنبين بارتكاب أي مخالفة".

لقد عشت وسام سنوات ونحن حائران بين رغبتنا الأميركية في البوح بأسرارنا والتحدث بصراحة وإخبار جوي الحقيقة، واعتقادنا الصيني الراسخ بأنه يجب على المرء ألا يفصح عن أسراره. فتغلب اعتقادنا الصيني وأبقينا حقيقة وضعي ووضع سام والأعمام والجد سراً عن ابنتنا لسببين بسيطين جداً: لم نكن نريدها أن تقلق، ولم نكن نريدها أن تتفوه بمعلومات خطأ إلى الأشخاص الخطأ. لقد أصبحت أكبر بكثير مما كانت عليه في الحضانة، ولكننا تعلمنا أن أصغر الأخطاء قد يؤدي إلى عاقبة خطيرة جداً.

علّقت قميص سام المكوي على علاقة الملابس ثم جلست إلى جانب ابنتي وقلت لها: "إنني أريد أن أعرفك كيف يحققون مع الناس لتعرفي ما يجب عليك قوله في حال سألك أحدهم. إنهم يحققون عن أشخاص كانوا يرسلون المال إلى الصين...".

"لقد كان جدي لوي يفعل هذا".

"تماماً. وبالإضافة إلى ذلك، فهم يحققون عن الناس الذين حاولوا بشكل غير قانوني أن يخرجوا عائلاتهم من الصين عندما عمت فيها الفوضى. إنهم يريدون أن يعرفوا لمن يكمن ولاء هؤلاء الأشخاص؛ في

"إنك تتحدثين عن أم هيويل! أهكذا ستشعرين إن تم ترحيلي إلى الصين؟"، وانتظرت منها جواباً. وعندما لم تجب نهضت وطويت لوح الكي ثم ذهبت لتفقد فون.

في تلك الليلة، حمل سام فون إلى الأريكة كي تتناول العشاء معاً وتشاهد مسلسلاً تلفزيونياً. كان الطقس حاراً في تلك الأمسية، ولهذا تناولنا عشاء بارداً وبسيطاً مكوناً من شرائح الطبيخ المبردة في الثلاجة. وبينما كنا نحاول أن نتابع ما تقوله الآنسة كيتي للممثل مات ديلون، بدأت جوي مجدداً محاضراتها حول جمهورية الصين الشعبية من البداية. طوال تسعة أشهر، شعرنا بغيابها وكأنه يحدث فراغاً في عائلتنا. فافتقدنا صوتها ووجهها الجميل، ولكننا حاولنا خلال ذلك الوقت أن نملأ الفراغ من خلال مشاهدة التلفزيون، والمحادثات الهادئة بيننا نحن الأربعة، والمشروعات الصغيرة التي أقوم بها مع ماي. وبعد مضي أسبوعين على وجودها في البيت، شعرنا أنها تحتل مساحة كبيرة من خلال آرائها، ورغبتها في لفت الانتباه والإثبات لنا كم نحن مخطئون ومتخلفون، وطريقتها العملية في التفريق بيني وبين أختي. وفي خضم ذلك كله، لم نكن نريد سوى أن نعرف ما ستنتهي عليه الأحداث بين المارشال والآنسة كيتي في المسلسل.

أخيراً، أصبح سام الذي كان عادة يتقبل كل ما يصدر من فم ابنته، عاجزاً عن تحمل المزيد، فسأل ابنته بلغة الحي بوب بالطف وأهدأ نبرة ممكنة: "هل أنت خجلة من كونك صينية؟ لأن أي ابنة صينية ملائمة أخرى ستلتزم الهدوء وتدع والديها وخالتها وعمها يتابعون برنامجهم".

ولكنه بالتأكيد كان سؤالاً غير مناسب على الإطلاق لأن سيلاً سريعاً بدأ بالتدفق من فم جوي. فسخرت من اقتصادنا قائلة: "خجلة

من كوني صينية؟ إنني لا أدرك وحسب لماذا يعني كون المرء صينياً أن يدخر غالونات من صلصة الصويا لرميها في القمامة". ثم سخرت مني قائلة: "إن الصينيين الذين يعتقدون بالخرافات فقط هم من يصدقون الأبراج. آه، برج النمر يقول كذا ولا يقول كذا". ثم جرحت عمها وخالتها بقولها: "وماذا عن الزواج المدبر؟ انظروا إلى خالتي ماي التي تزوجت إلى الأبد من رجل لا..."، ثم ترددت كما نفعل جميعاً من وقت إلى آخر إلى أن قررت القول: "لا يبدي تجاهها أي محبة أو عاطفة"، واكتست ملامح وجهها تعبيراً يدل على النفور، وأضافت قائلة: "وانظروا كيف تعيشون جميعاً معاً".

عندما أصغيت إليها تذكرت ما كنت أقوله وماي قبل عشرين عاماً. وشعرت بالأسف للطريقة التي عاملنا بها والدينا. وبعد ذلك، بدأت جوي بجرح شعور والدها...

"وإن كان المرء صينياً يعني أن أكون مثلك... فالطعام الذي تطهيه في المقهى يعلق بالأسنان، والزبائن يهينونك، والأطباق التي تعدها مدهنة جداً ومالحة جداً وتحوي الكثير من غلوتامات أحادية الصوديوم".

أدت تلك الكلمات سام في أعماقه. وعلى عكسي وعكس ماي، لقد أحب سام جوي من دون ندم ولا شروط، ومن دون أن يضمر لها أي ضغينة.

فقال لها بهدوء: "انظري إلى نفسك في المرآة. ما الذي تظنين أنك سترينه؟ ما الذي تظنين أن الأميركيين يرونه عندما ينظرون إليك؟ إنك لست إلا عوداً من الخيزران الأجوف".

"يجب أن تتحدث إليّ بالإنكليزية، يا أبي. لقد عشت هنا عشرين عاماً تقريباً. ألا تجيد التحدث بها بعد؟"، ورمشت بعينيها عدة مرات ثم قالت: "إنك تبدو كواحد من أولئك القادمين الجدد".

ساد في الغرفة صمت قاتل وعميق. وعندما أدركت جوي ما فعلته، أمالت رأسها، وداعبت خصلات شعرها، ثم ابتسمت بطريقة مرّت فيها على الفور ابتسامة ماي من الماضي ولسان حالها يقول: *أنا شقية وأنا عنيدة، ولكنكم لا تستطيعون أن تمنعوا أنفسكم من حبي.* فتمكّنت من ملاحظة - حتى لو لم يستطع سام ذلك - أن كل هذا ليست له علاقة بماو، ولا شيانغ كاي شيك، ولا كوريا، ولا المباحث الفيدرالية أو الكيفية التي آثرنا أن نعيش بها حياتنا خلال السنوات العشرين الماضية بقدر ما له علاقة بابنتنا وشعورها حيال عائلتها. لقد كنت وماي في الماضي نعتقد أن عائلتنا قديمة الطراز، ولكن جوي تشعر بالإحراج والخزي منا.

غالباً ما كانت أمي تقول: "إنك أحياناً تظنين أنك تملكين المستقبل كله أمامك. ولكن عندما تشرق الشمس، فكري في الوقت الذي تحتجب فيه وراء الغيوم لأن الحظ السيئ قد يحل بك حتى وأنت جالسة في بيتك وراء الأبواب المغلقة". لطالما تجاهلتها وهي على قيد الحياة، ولم أهتم بكلامها وأنا أكبر. ولكن، بعد كل تلك السنوات أصبح من الضروري أن أتقبل أن بُعد نظر أمي هو ما أنقذنا من عثار. إذ لولا مدخراتها الخفية لنا هناك في شنغهاي. لقد حفّزتها فطرتها السليمة وحثتها على الاستمرار عندما كنت وماي شبه متسمرتين في مكاننا من الخوف. وبدت أشبه بالغزالة التي تحاول بالرغم من الظروف اليائسة إنقاذ طفلها من الأسود. إني أدرك الآن أنه يجب عليّ أن أحمي ابنتي من نفسها، ومن ذلك المدعو جو، ومن أفكاره الرومانسية حول الصين الشيوعية، ومن ارتكاب الأخطاء نفسها التي حرمتني وأختي الكثير من الفرص في حياتنا، ولكنني لم أكن أدري كيف أفعل ذلك.

عندما ذهبت إلى مقهى بول لأحضر وجبة الغداء، رأيت عميل المباحث الفيدرالية يوقف العم تشارلي على الرصيف. فتجاوزت الرجلين بينما تجاهلني العم تشارلي وكأنه لا يعرفني. ثم دخلت المقهى تاركة الباب مفتوحاً على مصراعيه. وفي الداخل، رأيت سام والعمال الآخرين يواصلون عملهم وهم يرهفون السمع قدر المستطاع لما يجري خارج الباب. وخرجت ماي من مكتبها. فتلكأنا قليلاً إلى جانب النافذة متظاهرين بأننا نتحدث، ولكننا في الواقع كنا نصغي إلى ما يجري ونراقب كل شيء.

قال العميل فجأة بلغة الجي يوب بصوت مرتفع جداً إلى درجة أنني نظرت إلى أختي بدهشة: "إذاً، يا تشارلي، لقد عدت إلى الصين، أليس كذلك؟". ولا بد من أنه فعل ذلك ليجعلنا نسمع ما يقوله، وليعلمنا في الوقت ذاته أنه ضليع بلغة مقاطعتنا المحلية.

فاعترف العم تشارلي قائلاً: "لقد ذهبت إلى الصين". ولكننا بالكاد كنا نسمعه لأن صوته كان يرتعش من الخوف. ثم قال: "لقد خسرت مدخراتي. فعدت إلى هنا".

"لقد سمعنا أنك قلت أموراً سيئة عن شيانغ كاي شيك".

"لم أفعل ذلك".

"يقول الناس إنك فعلت".

"من هم؟".

فلم يجب العميل عن هذا السؤال بل طرح سؤالاً آخر قائلاً: "أليس صحيحاً أنك تلوم شيانغ كاي شيك على خسارتك مالك؟".

حك تشارلي عنقه المليء بالطفح وعض على شفته.

فانتظر العميل قليلاً ثم سأل قائلاً: "أين هي أوراقك؟".

نظـر العـم تشارلي من خلال واجهة المتجر طلباً للمساعدة أو التشجيع أو ربما بحثاً عن مهرب.

فابتسم العميل، وهو أميركي ذو شعر أشقر ووجه مليء بالنمش علـى أنفـه ووجنتيه، ثم قال: "نعم، دعنا ندخل. فأنا أود أن أقابل عائلتك".

دخـل العميل المقهى، وتبعه العم تشارلي ورأسه منكّس. فتوجّه الأميركـي نحـو سام وأبرز شارته ثم قال بلغة الجي يوب: "أنا العميل الخاص جاك ساندرز. أنت سام لوي، أليس هذا صحيحاً؟". فأومأ سام برأسـه، ثمّ تابع العميل حديثه قائلاً: "إنني أقول دائماً إنه لا طائل من تضييع الوقت على هذه الشكليات. لقد قال لي أحدهم إنك اعتدت أن تشتري صحيفة تشاينا ديلي نيوز".

فوقـف سام ساكتاً تماماً وهو ينظر إلى الغريب ويفكر في جواب مناسب، وبدا وجهه خالياً من التعبير. ولم يبدُ أنّ الزبائن القلائل كانوا يفهمـون ما يجري، ولكنهم بالتأكيد أدركوا أن إبراز الشارة لا يبشر بالخير. فحبسـوا أنفاسهم ليروا ما سيفعله سام.

فقـال سـام بلغة الجي يوب: "لقد اشتريت الصحيفة من أجل والدي". وعندئذ رأيت خيبة الأمل واضحة على وجوه الزبائن لأنهم لن يتمكـنوا من متابعة ما يجري كما يودون أن يفعلوا. ثم قال سام: "لقد مات قبل خمس سنوات".

"إن تلك الصحيفة متعاطفة مع الشيوعيين".

"لقـد كـان والدي يقرأها أحياناً، ولكنه اشترك بصحيفة تشنغ ساي يات بو".

"يبدو لي أن والدك كان متعاطفاً مع ماو".

"كلا، على الإطلاق. فلماذا سيود أن يتعاطف معه؟".

"إذاً، لماذا كان يشتري مجلة تشاينا ريكونستركتس؟ ولماذا واصلت أنت شراءها بعد أن توفي؟".

لم يسـتطع سـام إطلاعه على الحقيقة، وهي أن وجهي زوجته وأختها يظهران على أغلفة تلك المجلة. أم إن عميل المباحث كان يعلم أصـلاً أنهما صورتا؟ أم إنه ينظر إلى الفتيات الجميلات ذوات الملابس الخضـراء الموحدة والنجوم الحمراء على قبعاتهن ويعتقد أن الصينيات يبدون جميعاً متشابهات؟

"لقد قيل لي إنك تعلق صفحات من المجلة في غرفة معيشتك فوق الأريكة، وهي عبارة عن صور للسور العظيم والقصر الصيفي".

إن هـذا يعني أن شخصاً ما، قد يكون ضيفاً أو جاراً أو صديقاً دخـل بيتنا، هو من بلغ عن هذا. لماذا لم تنـزع تلك الصور بعد أن توفي عمي؟

"لقـد أحب والدي خلال أيامه الأخيرة أن ينظر إلى هذه المناظر الجميلة".

"وربمـا كان متعاطفاً كثيراً مع الصين الشيوعية بحيث إنه أراد أن يعود إلى الوطن".

"لقد كان والدي مواطناً أميركياً. فقد ولد هنا".

"إذاً، أرني وثائقه...".

فكرّر سام كلامه قائلاً: "إنه ميت. وأوراقه ليست معي هنا".

"إذاً، ربما ينبغي لي أن أزوركم في بيتكم، أم إنك تفضل أن تأتي إلى مكتبنا؟ وبهذه الطريقة تستطيع أن تحضر الوثائق أيضاً. إنني أريد أن أصدقك، ولكن يجب عليك أن تثبت براءتك".

"أتريد أن أثبت براءتي أم أن أثبت أنني مواطن أميركي؟".

"الأمر سيان، يا سيد لوي".

عندما عدت إلى البيت واحوزتي غداء فون، لم أقل له شيئاً أو لجوي فأنا لا أريدهما أن يقلقا. وعندما سألتني جوي إن كانت تستطيع أن تخرج في تلك الليلة، قلت لها بلامبالاة قدر المستطاع: "حسناً، ولكن حاولي أن تعودي قبل منتصف الليل". فظنّت أنها انتصرت أخيراً على أمها، ولكنني كنت أريدها أن تخرج من البيت.

وحالما جاء سام وماي إلى البيت قمنا بنزع الصور التي تحدث عنها العميل عن الجدران. فعبّأ سام كل نسخة من صحيفة أشاينا ديلي نيوز حفظها والده بسبب إحدى المقالات في حقائب، بينما طلبت من ماي أن تحضر أغلفة المجلات التي رسم فيها زي جي لي صورنا من الدرج.

فقالت ماي: "لا أظن أن هذا ضروري".

رددت عليها بحدة قائلة: "من فضلك لمرة واحدة لا تجادليني". وعندما وقفت ماي بلا حراك، تنهّدت بنفاد صبر، وقلت لها: "إنها مجرد صور على أغلفة المجلات. إن لم تحضريها الآن، سأحضرها أنا".

فزمّت ماي شفتيها، واستدارت ذاهبة إلى الشرفة المسيجة. وحالما غادرت، بحثت عن الصور التي اعتبرت أنها قد تكون مُورِّطة، وهذه كلمة لم أظن أنني سأستعملها قط.

وبينما قام سام بجولة أخرى في أنحاء البيت، أخذت وماي كل ما جمعناه لنحرقه في الموقد. فأضرمت النار في كومة الصور، وانتظرت ماي لتلقي أغلفة المجلات التي تحضنها قرب صدرها. وعندما لم تحرك ساكناً، انتزعتها من بين يديها وألقيتها في النار. وبينما كنت أراقب وجهي، الذي رسمه زي جي لي بشكل جميل جداً ومثالي يتجعد بين ألسنة اللهب، تساءلت لماذا سمحنا لأي من هذه الأشياء أن تتسلل إلى بيتنا، ولكنني كنت أعرف الجواب. فأنا وسام وماي لسنا أفضل من

الوالد لوي. فقد أصبحنا مواطنين أميركيين بملابسنا وطعامنا ولغتنا ورغبتنا في تعليم جوي وتأمين مستقبلها، ولكننا لم نتخلَّ ولو مرة واحدة طوال كل تلك السنوات عن حنيننا إلى وطننا الأم.

قلت بلطف وعيناي مثبتتان على ألسنة اللهب: "إنهم لا يريدوننا هنا، ولم يريدونا قط. سيخدعوننا، ولكن يجب علينا أن نخدعهم نحن أيضاً".

اقترحت ماي قائلة: "ربما يجب على سام أن يعترف بكل شيء وينهي الأمر. وبهذه الطريقة، سيحصل على جنسيته الأميركية ولن يتوجب علينا أن نقلق بشأن أي من هذا".

"تعلمين أن الاعتراف بوضعه ليس كافياً. إذ سيتوجب عليه أن يبلغ عن الآخرين، مثل العم ويلبرت والعم تشارلي وأنا...".

"إذاً، ينبغي لكم أن تعترفوا جميعاً معاً. وعندئذ ستتمكنون من الحصول على جنسيتكم القانونية. ألا تريدونها؟".

"بالطبع نريدها. ولكن ماذا إن كانت الحكومة تكذب علينا؟".

"لماذا قد تكذب الحكومة؟".

"متى لم تكذب؟ ماذا إن قرروا ترحيلنا؟ إن أثبتوا أن سام موجود هنا بشكل غير قانوني، عندئذ سأصبح معرضة للترحيل أيضاً".

فكرت أختي في ما قلته، ثم قالت: "لا أريد أن أصرك. فقد وعدت الوالد لوي أنني لن أدعهم يطردونك. لذا، يجب على سام أن يعترف من أجل جوي ومن أجلك ومن أجلنا جميعاً. إن هذه فرصة تساعدكم للحصول على العفو العام لتبقوا أفراد العائلة معاً ولتتخلص من كل أسرارنا".

لم أدرك السبب الذي يجعل أختي عاجزة عن إدراك المشكلات المحدقة بنا، ولكنها تزوجت من مواطن حقيقي وأتت إلى هنا على أنها زوجته الشرعية ولا تواجه التهديد نفسه الذي يواجهني أنا وسام.

وضعت أمي ذراعها حولي وقرّبتني منها، ثم طمأنتني وكأنها أمي الكبرى وأنا الأخت الصغرى: "لا تقلقي، يا بول. فسوكّل محامياً ليهتم بكل الأمور...".

"لا، لقد مررنا بالتجربة نفسها من قبل في جزيرة أينجل. ولن ندعهم يفعلون شيئاً لي أو لسام أو لأي منا. وسنتعاون معاً لنحمل القامالقتم تنعكس عليهم كما فعلنا في جزيرة أينجل. يجب علينا أن نربكهم. والأهم من كل شيء، هو أن نحافظ على قصتنا مترابطة وصحيحة".

دخل سام الغرفة وألقى كومة أخرى من الصحف وما تحمله معها من ذكريات في الموقد: "نعم، هذا صحيح. ولكن يجب علينا أن نثبت أننا أكثر المواطنين الأمريكيين ولاء على الإطلاق".

لم ترق الفكرة لماي، ولكنها أمي الصغرى وسلفتي ويجب عليها أن تطيعني.

لم نطلع جوي إلا على القليل مما يجري لاعتقادنا أن بقاءها جاهلة يساعدنا أكثر على الحفاظ على صحة القصة. فلم يتم استدعاؤها أو استدعاء ماي للتحقيق. ولم يأتِ أحد إلى البيت ليجري مقابلة مع فيرن. ولكن، على مدى الأسابيع القليلة التالية، تم استدعائي وسام لعدة جلسات استجواب معاً وذلك كي أتمكن من الترجمة لزوجي، إذ تم تحويلنا من العميل الخاص سانديرز إلى العميل مايك بيلينغز الذي لا يتحدث كلمة واحدة من اللغة الصينية ويبدو ودوداً بالضبط كما كان رئيس المجلس يلم في جزيرة أينجل قبل كل تلك السنوات. قام التحقيق معي بشأن قريتي الأصلية التي لم أزرها من قبل. أما سام فتم التحقيق معه بشأن والديه المزعومين وسبب تركهما له في الصين عندما كان في

السابعة من عمره. وتم التحقيق معنا بشأن مكان ولادة الوالد لوي. وسألونا بكل تعاطف إن كنا نعرف أي شخص يكسب المال من بيع أوراق الإقامة المزيفة.

فقال بيلينغز بلهجة ماكرة: "إن بعض الناس يكسبون المال لدى بيعهم الوثائق المزيفة. أخبرانا وحسب من هم".

ولم نساعد أحوبتنا التحقيق. فأخبرناهم أننا كنا نجمع الورق المعدني خلال الحرب ونبيع سندات الحرب وأنني صافحت مدام شيانغ كاي شيك.

فسأل بيلينغز: "هل لديك صورة تثبت هذا؟". ولكن من بين كل الصور التي التقطناها في ذلك اليوم، كانت تلك هي الصورة الوحيدة التي لم يتسنَّ لنا أن نلتقطها.

في مطلع شهر آب، غيّر بيلينغز اتجاه التحقيق، فقال: "إن كان والدك المزعوم قد ولد هنا فعلاً، فلماذا استمر في إرسال المال إلى الصين حتى بعد أن توجّب عليه أن يتوقف؟".

لم أنتظر إجابة سام، بل أجبت قائلة: "لقد كان ذلك المال يذهب إلى قرية أسلافه. إذ إن عائلته هناك تعود إلى خمسة عشر جيلاً".

"لهذا السبب استمرّ زوجك في إرسال المال إلى خارج البلاد؟".

ترجمت لسام فقال: "إننا نبذل ما في وسعنا لمساعدة أقاربنا الذين يعانون من أوضاع سيئة في ذلك المكان".

عندئذ التف بيلينغز حول الطاولة، وجرّ سام من ثيابه، وصاح في وجهه قائلاً: "اعترف بهذا. إنك ترسل إليهم المال لأنك شيوعي".

لم يكن يستوجب عليّ أن أترجم الجملة لسام ليفهم ما يقوله الرجل، ولكني فعلت ذلك بالصوت الهادئ نفسه الذي لطالما تحدثت به لأظهر أن شيئاً مما يقوله بيلينغز لن يبعدنا عن قصتنا وعن كلمتنا

بأنفسنا وحقيقتنا. ولكن سام، الذي لم يكن على طبعه منذ سخرت منه جوي، ولم يحظ بيوم كافٍ منذ دخل العميل ساندرز إلى المقهى، هبّ واقفاً ووجّه إصبعه نحو بيلينغز ودعاه هو بالشيوعي. ثم تبادلا الصراخ على بعضهما، وكلٌ واحد منهما يتهم الآخر بأنه شيوعي وأنا حالسة هناك أكرر الاتهامات بكلتا اللغتين. فاستشاط بيلينغز غضباً، ولكن سام حافظ على ثباته وصموده. وأخيراً، أطبق بيلينغز فمه وانهار على كرسيه ونظر إلينا شزراً. إذ إنه لا يزال عاجزاً عن إيجاد دليل ضد سام تماماً كما أن سام ليس لديه دليل ضد موظف الهجرة.

قال بيلينغز: "إذا لم تكن تريد أن تعترف وتقول لنا من كان يبيع أوراق الإقامة المزيفة في الحي الصيني، إذاً، فربما يمكنك أن تخبرنا القليل عن جوانك".

فردد سام قولاً مأثوراً ترجمته قائلة: "من تدخل في ما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه".

بدا أننا سنفوز، ولكننا لا نقوى على هزيمة الحكومة الأميركية. استجوبت المباحث الفيدرالية ومكتب الهجرة العم ويلبرت والعم تشارلي، فرفضا أن يحرفا أو يقولا أي شيء عنا أو أن يشيا بالوالد لوي الذي باعهما أوراق إقامة مزيفة.

وعندما أحضر العم فرد عائلته إلى البيت من أجل تناول عشاء الأحد، طلبنا من جوي أن تأخذ البنات الصغيرات إلى الخارج ليلعبن، وكي يتمكن فرد من إخبارنا عن زيارة العميل بيلينغز إلى بيته في سان فرانسيسكو. كان يبدو أن خدمة فرد في الجيش، وسنواته الجامعية، وتدريبه كطبيب أسنان قد محت لكنته الصينية. فها هو الآن يعيش حياة طيبة مع زوجته ماريكو وابنيه التوأم وصغيرته مامي، ويبدو وجهه ممتلئاً وبطنه كبيراً بعض الشيء.

روى فرد قائلاً: "لقد قلت له إنني كنت مجنداً في الجيش وحاربت دفاعاً عن الولايات المتحدة. فنظر إليّ وقال: وحصلت على جنسيتك. حسناً، بالطبع حصلت على جنسيتي! هذا ما وعدتنا به الحكومة، ولكنه أخرج ملفاً وطلب مني أن أنظر إليه. إنه ملف الهجرة من جزيرة أينجل. أتتذكرون كل تلك المعلومات الموجودة في الأوراق التعليمية؟ حسناً، إنها كلها موجودة في الملف، فهو يحوي معلومات عن الرجل العجوز وعن بن بن ويذكر تاريخي ميلادهم، ويروي قصتنا كلها لأننا مرتبطون ببعضنا. فسألني العميل عن سبب إخفائي حقيقة أشقائي المزعومين عندما تطوعت في الجيش، فلم أخبره شيئاً".

أمسك فرد بيد ماريكو التي بدت شاحبة من الرعب الذي تملّكنا جميعاً، وتابع قائلاً: "لا أمانع أن يزعجونا نحن، ولكن أن يسعوا وراء أبنائنا المولودين هنا..."، وهز رأسه باشمئزاز قائلاً: "في الأسبوع الماضي، أتت بيس إلى البيت باكية. فقد عرضت معلمتها في الصف الخامس فيلماً يدور حول الخطر الشيوعي ويظهر روساً يعتمرون قبعات من الفراء، وصينيين يبدون مثلنا. وفي نهاية الفيلم، طلب الراوي من الطلاب أن يتصلوا بالمباحث الفيدرالية أو وكالة الاستخبارات المركزية إن رأوا أي شخص مثير للريبة. ومن كان يبدو مثيراً للريبة في الصف؟ إنها بيس. والآن لا تلعب صديقاتها معها. يجب عليّ أن أقلق مما سيحدث لإليتور ومامي الصغيرة أيضاً، ولكنني أذكر بناتي أن يحفظن أسماء زوجات رؤساء الجمهورية ويجب عليهن ألاّ يخشين شيئاً".

ولكن بالطبع يجب عليهن أن يخشين كل شيء، فنحن جميعاً كنا نخشى ما سيحدث لنا.

عندما يغوص المرء تحت الماء، فهو لا يفكر إلا في الهواء. أتذكر كيف كنت أشعر حيال شفتيّ في الأيام التي تعرت فيها حياتنا،

وكيف أن الشوارع التي كانت تبدو في السابق مثيرة أصبحت تتنة، وكيف أن النساء الجميلات أصبحن فجأة أسوأ من النساء الرخيصات، وكيف أن المال والثروة قد تحوّلا فجأة إلى شيء مهجور ومتروك وعقيم. ولكن، لا يمكن للطريقة التي نظرت من خلالها إلى لسوس أنجلوس والحي الصيني خلال هذه الأيام العصيبة والمخيفة أن تكون أكثر اختلافاً. إذ بدت أشجار النخيل والفاكهة والخضار في حديقتي وأحواض الزهور أمام المتاجر وعلى الشرفات كلها نابضة بالحياة حتى في فصل الصيف. ونظرت إلى الشوارع، فرأيت الأمل يملأها. وبدلاً من الفساد والقبح والضباب، رأيت الروعة والحرية والانفتاح. لم أستطع أن أتقبل توجيه الحكومة هذه الاتهامات إلينا، والتي أعترف أنها صحيحة، ولكنني لم أستطع أن أتقبل أيضاً فكرة فقداني وعائلتي هذا المكان. نعم إنه الحي الصيني، ولكنه أصبح موطناً لي ولنا جميعاً.

في تلك اللحظات، شعرت بالندم على سنوات أضعتها بالحنين إلى شنغهاي وإلى ذكرياتي الملونة عن الناس والأماكن والأطعمة التي لم تعد موجودة ولن تعود إلى حيز الوجود أبداً. ووبّخت نفسي قائلة: "*كيف يمكن لي ألا أرى كل ما جرى أمام عينيّ طوال تلك السنوات؟ كيف لم أستمتع بالحلاوة التي أعطيت لها في حياتي بدلاً من البحث عن ذكريات ليست إلا رماداً وحطاماً؟*"

دفعتني حالة اليأس التي أمر بها إلى الاتصال بينسي في واشنطن لأرى إن كان والدها يستطيع أن يقدم إلينا أي مساعدة. وبالرغم من أنه كان يعاني من مشاكله الخاصة بسبب الاتهامات الموجهة ضده، فقد وعدتنا بينسي أن ينظر في قضية سام.

قال سام بلغته الإنكليزية الركيكة: "لقد ولد والدي في سان فرانسيسكو".

بعد مضي أربعة أيام على العشاء الذي تناولناه مع فرد، جاء ساندرز وبيلينغر من دون دعوة إلى بيتنا. فجلس سام على كرسي والده، بينما جلس الرجال الآخرون على الأريكة، وجلست أنا على كرسي مستقيم الظهر وأنا آمل أن يسمح لي سام بالتحدث نيابة عنه. وانتابني الشعور نفسه الذي شعرت به عندما راح رجل عصابة غرين يهددني وماي في صالة بيتنا قبل كل تلك السنوات.

طالب العميل بيلينغر سام بأن يثبت أن والده أميركي قائلاً: "إذاً، أثبت ذلك. أرني شهادة ميلاده".

فأصر سام على أقواله، وقال بحزم: "لقد ولد والدي في سان فرانسيسكو".

فكرّر العميل بيلينغر بنبرة ساخرة قائلاً: "في سان فرانسيسكو. بالطبع ستقول إنه مولود في سان فرانسيسكو بسبب الزلزال والحرائق التي وقعت فيها. نحن لسنا أغبياء يا سيد لوي. لقد ذُكر في الوثائق أنه ليكون هناك كل هذا العدد من الصينيين المولودين في الولايات المتحدة قبل عام 1906 فلا بد من أن كل امرأة صينية كانت هنا في ذلك الوقت قد أنجبت خمسة آلاف ابن. وحتى لو حدثت معجزة كهذه، فكيف صادف أنهم جميعاً ذكور وليسوا إناثاً؟ هل فلتموهن؟".

فأجاب سام بلغة الحي يوب قائلاً: "لم أكن قد ولدت بعد، ولم أكن أعيش هنا...".

"لدينا ملفك منذ جزيرة آينجل. وأريدك أن تنظر إلى بعض الصور". ثم وضع بيلينغر صورتين على طاولة القهوة. الأولى تظهر صبياً صغيراً وهي الصورة التي حاول رئيس القلس أن يخدعني بها قبل كل

لتلك السنوات، بينما تظهر الثانية سام لدى وصوله إلى جزيرة آنجل عام 1937. وعندما وُضعت الصورتان معاً جنباً إلى جنب، كان من الواضح أنهما لا يمكن أن تكونا للشخص نفسه. فقال بلينغر: "اعترف، ثم أخبرنا عن أشقائك المزيفين، ولا تدع زوجتك وابنتك تتحملان تبعة ولائك لرجال لن يتقدموا ليمدوا لك يد المساعدة".

تفحّص سام الصورتين ثم استند إلى ظهر كرسيه وقال بصوت متهدج: "إنني ابن والدي الحقيقي. وسيقول لكم شقيقي فون هذا".

كدت أشعر بروحه الجديدة تنهار أمام عيني، ولكنني لم أعرف السبب. فنهضت ووقفت وراء كرسيه، ووضعت يدي على السند كي يعلم أنني هناك وأنني أتفهم موقفه. فيما وقفت جوي عند مدخل المطبخ مقابل سام تماماً. فأدركت أنه خائف عليها ومحرج من نفسه.

صرخت جوي وهرعت إلى الغرفة قائلة: "افعل ما يطلبونه منك يا أبي. أخبرهم الحقيقة. ليس لديك ما تخفيه". إن ابنتنا لا تعرف شيئاً عما تعنيه هذه الحقيقة فعلاً، ولكنها بريئة جداً وغبية كخالتها، وها أنا أعترف بذلك، حيث إنها تقول: "إن قول الحقيقة يحمي قائلها من المصاعب. أليس هذا هو ما علمتني إياه؟".

فحثّه بلينغر قائلاً: "انظر... حتى ابنتك تريدك أن تقول الحقيقة".

ولكن سام لم يتخلَّ عن قصته أبداً، بل كرر قائلاً: "لقد ولد والدي في سان فرانسيسكو".

واصلت جوي البكاء والتوسل، وانسحب فون في الغرفة الأخرى، فيما وقفت هناك عاجزة عن فعل أي شيء. أما أختي فهي خارج المنزل تعمل على أحد الأفلام، أو تتسوق فستاناً جديداً، أو تقوم بأمور أخرى لا أعرف عنها شيئاً.

فتح بلينغر حقيبته، وأخرج منها ورقة وسلمها إلى سام الذي لا يجيد قراءة الكلمات الإنكليزية، وقال: "إن وقعت هذه الورقة واعترفت فيها أنك أتيت إلى هنا بشكل غير قانوني، فسنسحب جنسيتك، وهي غير حقيقية أصلاً. ولكن، حالما توقع هذه الورقة، وتعترف بالحقيقة سنمنحك الحصانة وجنسية جديدة حقيقية شرط أن تبلغ عن كل صديق وقريب وجار تعرف أنهم أتوا إلى هنا بشكل غير قانوني. إننا مهتمون بشكل خاص بأبناء الوثيقة الذين جلبهم والدك المزعوم إلى هنا".

"لقد توفي. فما الذي يهمكم الآن؟".

"ولكن لدينا ملفه. كيف يمكن أن يكون لديه الكثير من الأبناء؟ كيف يمكن أن يكون لديه الكثير من الشركاء؟ أين هم الآن؟ لا ترهق نفسك بإخبارنا عن فرد لوي. فنحن نعرف كل شيء عنه. وقد حصل على جنسيته بشكل عادل ومنصف. أخبرنا فقط عن الآخرين ودلنا على مكانهم".

"ماذا ستفعلون بهم؟".

"لا تقلق بشأن هذا. بل اقلق بشأن نفسك فقط".

"وهل ستمنحوني الأوراق؟".

قال بلينغر: "ستحصل على جنسية حقيقية، كما قلت لك. ولكن إن لم تعترف، فسيتوجب علينا عندئذ أن نرحلك إلى الصين. ألا تريد أنت وزوجتك أن تبقيا مع ابنتكما كي تبعداها عن المشاكل؟".

فرفعت جوي حاجبيها وهي مندهشة مما تسمعه.

تابع بلينغر قائلاً: "قد تكون طالبة متفوقة، ولكنها تذهب إلى جامعة شيكاغو. إن الجميع يعلمون أنها وكر للشيوعية. ألا تعرفون أي نوع من الناس تقابل؟ ألا تعرفون ماذا تفعل؟ إنها عضوة في الجمعية المسيحية الديمقراطية الصينية".

فقلت له: "إنها جمعية مسيحية". ولكن، عندما ألقيت نظرة عاطفة على ابنتي، رأيت ملامحها تنقبض.

"إنهم يدّعون أنهم مسيحيون، يا سيدة لوي، ولكنها جبهة شيوعية. إن علاقة ابنتك بتلك المجموعة هي السبب الرئيس الذي دفعنا للنظر في قضية زوجك في المقام الأول. لقد كانت تشارك في اعتصامات، وتطلب من الناس أن يوقعوا عرائض. وإن ساعدتنا الآن، فسنتغاضى عن هذه المخالفات لأنها مولودة هنا وهي مجرد فتاة صغيرة".

ثم نظر إلى جوي التي تسللت إلى وسط غرفة المعيشة، وقال: "إنها على الأرجح لم تكن تعرف ماذا تفعل. ولكن، إن تم إرسالكما إلى الصين، فكيف ستساعدانها؟ هل تريدان أن تدمرا حياتها أيضاً؟".

ثم أومأ بلينغر إلى ساندرز ووقف وهو يقول: "سنتركك الآن يا سيدة لوي. ولكننا لا نستطيع أن ندع هذه النقاشات تستمر أكثر من ذلك. فإما أن تخبرونا بما نريد أن نعرفه أو سنلقي على ابنتك نظرة عن كثب أكثر. أتفهم ما أقوله؟".

وبعد أن غادرا، هرعت جوي إلى كرسي والدها، وجلست إلى جانبه منهارة وهي تنتحب قائلة: "لماذا يفعلون هذا بنا؟ لماذا؟ لماذا؟".

فركعت إلى جانب ابنتي، ووضعت ذراعي حولها، وتأملت وجه سام بحثاً عن الأمل والقوة اللذين لطالما رأيتهما فلائه.

قال سام بصوت منخفض بدا وكأنه صادر من بعيد، وعيناه تحدقان في ظلام اليأس: "لقد غادرت الوطن لأكسب لقمة عيشي، وأتيت إلى أميركا لأحظى بفرصة في الحياة، وبذلت ما في وسعي...".

"بالطبع فعلت ذلك".

فنظر إليّ بإذعان وقال بضجر: "لا أريد أن يرحلوني إلى الصين".

وضعت يدي على ذراعه وقلت: "لن يتوجب عليك أن تذهب، ولكن، إن وصلت الأمور إلى هذا الحد فأنا ذاهبة معك".

فنظر إليّ سام قائلاً: "أنت امرأة صالحة، ولكن ماذا عن جوي؟".

"سأذهب معكما أيضاً، يا أبي. فأنا أعرف كل شيء عن الصين ولست خائفة".

وبينما كنا نحضن بعضنا عاودتني ذكرى شيء قاله زي جي لي قبل سنوات بعيدة. إذ تذكّرت أنه تحدث عن حب المرء لوطنه، والمشاعر التي يكنها للشخص الذي يعشقه. لقد قاوم سام مصيره وغادر الصين. وبعد كل ما حدث له، لم يتوقف عن الوثوق بأميركا، ولكنّ حبه لجوي ولي فوق كل شيء آخر.

قال سام بالإنكليزية وهو يربت على رأس جوي: "أنا بخير". ثم عاد إلى لغته الأم قائلاً: "اذهبا وتفقدا العم فرن. أتسمعانه هناك؟ إنه بحاجة إلى المساعدة. إنه خائف".

فنهضت وجوي عن الأرض، وكفكفت دموعها. وبينما توجّهت جوي إلى غرفة فرن، أمسك سام بيدي، ووضع إحدى أصابعه على سوار اليشب الذي أخبعه، وثبّتني في مكاني وهو ينظر إليّ بكل حب. وقال: "لا تقلقي، يا عزيزتي". وبعد أن تركني، تأمل يده للحظة ثم مسح دموع ابنته بأصابعه.

بدا فرن منزعجاً جداً عندما دخلت غرفته. فتمتم بكلام غير مترابط عن شعارات ماو، وعن رئيس المجلس الذي حكم بالإعدام على كل شخص شجعه على انتقاد الحكومة. وبدا فرن مرتبكاً جداً بحيث إنه لم يميز هذا الكلام عما سمعه في الغرفة الأخرى. وبينما كان يتحدث بكلام غير مفهوم ويضرب السرير بقبضتي يديه، تمنيت لو أن أختي هنا. وتمنيت للمرة الألف لو أنها تعتني بزوجها. استغرقت وجوي وقتاً طويلاً

لتهدئ من روع فون وتنظف ملابسه. ثم غادرنا الغرفة، فوجدنا أن سام قد رحل.

قلت لجوي: "يجب علينا أن نتحدث عن الجماعة التي تنتسب إليها، ولكن دعينا ننتظر إلى أن يعود والدك".

فلم توافقني على ما أقوله أو تعتذر مني، بل قالت بثقة يشعر بها كل شاب نشأ في أمريكا: "إننا مواطنون جميعاً، وهذا بلد حر، ولا يستطيعون أن يفعلوا لنا أي شيء".

فتنهّدت وقلت: "لاحقاً. سنناقش هذا مع والدك لاحقاً".

ثم توجّهت إلى حمام غرفتي لأغسل يدي. فغسلتهما في الحوض، ثم رفعت رأسي فرأيت انعكاساً في المرآة فوق كتفي داخل الخزانة.

صحت قائلة: "سام!".

وركضت إلى الخزانة التي رأيت سام معلقاً فيها من عنقه. فوضعت ذراعي حول ساقيه المتأرجحتين، ورفعتهما لأخفف الوزن عن عنقه. وخيم السواد على كل شيء أمام عينيّ، وشعرت بقلبي يتحطم كذرات الغبار الناعم وأذنيّ تمتلئان بصوت صرخاتي المرعوبة.

المحيط البشري اللامحدود

بقيت متشبثة بسام إلى أن أحضرت جوي كرسياً وسكيناً وقطعت الحبل لتنزله إلى الأرض. ولم أفارقه عندما جاء الناس ليأخذوه إلى قاعة الجنازة. ومنحت جثمانه أقصى عناية، ولمسته بكل الحب والرقة اللذين لم أستطع أن أظهرهما له وهو على قيد الحياة. وجاءت ماي إلى قاعة الجنازة لتصطحبني إلى البيت. وقالت لي في السيارة: "لقد كنت وسام كعصفورين يطيران في السماء. ولطالما كنتما في غاية الانسجام". فشكرتها على توجيه ألفاظ التعازي التقليدية إليّ، ولكنها لم تساعد على التخفيف من حزني.

جافاني النوم طوال الليل. فسمعت فون يتقلب في الغرفة المجاورة، وماي تهدئ ابني بلطف في الشرفة المسيجة. ولكن في نهاية المطاف، ساد الهدوء في أرجاء البيت. فشعرت أن قلبي مليء بالقلق والشكوك التي تقض مضجعي وتحرمني من النوم، ولكن أي نوم ذلك الذي ستطاردني فيه أسوأ كوابيسي؟ وقفت أمام النافذة، فهبّ نسيم لطيف وداعب رداء نومي، وشعرت بضوء القمر يشع عليّ وحدي. يقال إن الزواج قدر، وإن المصير الذي يجمع بين شخصين أبعد ما يكونان عن بعضهما محددٌ قبل الولادة، وإنه مهما افترق الزوجان في حياتهما ومهما تغيرت حظوظهما خيراً أو شراً، فكل ما يمكنهما فعله هو تحقيق إرادة القدر. وفي النهاية، هذا هو مصدر سعادتنا وسبب تحطيم قلوبنا.

تسلل الشعور بالندم إلى قلبي وأشعرني بالأرق. إذ إنني لم أكن زوجة حقيقية لسام، ولطالما نظرت إليه على أنه مجرد رجل يجر العربات. وتركت حبي إلى الماضي يشعره بأنه أدنى مني، وبأن حياتنا معاً في لوس ألطوس ليست كافية لإرضائي. والأسوأ من ذلك هو أنني لم أمده بما فيه الكفاية في أيامه الأخيرة. فقد كان ينبغي لي أن أكافح ضد المباحث الفيدرالية ومكتب الهجرة وكل الفوضى المتعلقة بهما. لماذا لم ألاحظ أنه لم يعد يقوى على حمل أعبائنا كلها على كتفيه؟

في الصباح الباكر، ذهبت إلى الباب الأمامي متجنبة الشرفة المسيجة وتوجهت إلى الجزء الخلفي للمنزل. إنني أدرك أن الكثير من حالات الانتحار تعاقب سكان الحي، ولكنني شعرت أن موت سام قد أضاف حسة ملح إضافية إلى الخيط البشري اللامحدود من البؤس والشقاء. فتمتمت حوائي خلف سياجي المزروع بالزهور غارقين في الأحزان والأسى. وفي تلك اللحظة الهادئة الحزينة، أدركت ما يجب عليّ أن أفعله.

صعدت إلى غرفتي وعثرت على صورة لسام، فأمسكتها ووضعتها على الطاولة في غرفة المعيشة إلى جانب صورة بن بن والوالد. ونظرت إلى الأشياء الأخرى التي وضعها سام على الطاولة لتذكرنا بالأشخاص الآخرين الذين فقدناهم كوالدي ووالديه وأشقائه وشقيقاته وابننا. فتمنيت أن يكون سام الآن بصحبتهم جميعاً يراقبني ويراني ويرى جوي وماي وفيرن، ثم أشعلت البخور وانحنيت ثلاث مرات. فمهما كانت اعتقاداتي الدينية راسخة، فلقد عاهدت سام أنني سأفعل هذا كل يوم إلى أن أفارق الحياة.

إنني مؤمنة، ولكنني صينية أيضاً. ولهذا طبقت طقوس كل من الديانتين في جنازة سام. ومن أهم الطقوس المتبعة في الجنازة الصينية:

تقديم الاحترام إلى الشخص الراحل، وتكريمه، والتحدث مع الصغار في السن عن منجزات سلفهم الأحدث. وكنت أرغب في فعل كل هذا لسام. فاخترت البذلة التي سيلبسها ليستقر في نعشه، ووضعت صوراً لي ولجوي في جيوبه كي تبقى معه دائماً. وحرصت على أن ترتدي جميعاً اللون الأسود وليس لون الحداد الصيني الأبيض. فشكرنا الله على وجود سام بيننا، ودعونا له بالرحمة والمغفرة ولنا جميعاً. ولم تعزف فرقة الآلات النحاسية للموسيقى، بل قمنا بتشغيل بعض الموسيقى الجنائزية. وبعد ذلك، أقمنا مأدبة جنازة صغيرة متواضعة مؤلفة من خمس طاولات حضر إليها خمسون ضيفاً. فبدت متواضعة مقارنة بجنازة الوالد لوي، حتى إنها كانت أصغر من جنازة بن بن، وكل هذا نتيجة خوف جيراننا وأصدقائنا وزبائننا.

جلست إلى الطاولة الرئيسة بين ابنتي وماي. ففعلتا وقالتا كل الأشياء الصحيحة، ولكنهما بدتا مثقلتين بالشعور بالذنب. إذ شعرت ماي بتأنيب الضمير لأنها لم تكن موجودة عندما حدث ما حدث، فيما شعرت جوي بالذنب لظنها أنها تسببت بانتحار أبيها. فأدركت أنه يجب عليّ أن أقول لهما إنه ينبغي لهما ألاّ تشعرا بالذنب، إذ لم يكن أحد ليتوقع أن يرتكب سام هذه الفعلة الخيرية، ولكنه بعمله هذا حررني وحرر جوي والأعمام من المزيد من التحقيقات. فعندما أتى العميل بلينغر إلى المنزل بعد وفاة سام، قال لي: "بعد وفاة زوجك وعمك، لم نعد نستطيع أن نثبت أي شيء ضدكم. ولقد اتضح أيضاً أننا مخطئون بشأن تلك الجماعة التي تنتسب إليها ابنتك. ولا بد من أن هذا خبر جيد بالنسبة إليك، ولكن لديّ نصيحة صغيرة: عندما تعود ابنتك إلى الكلية في شهر أيلول، اطلبي منها أن تبتعد عن كل المنظمات الصينية لتبقى

بأمان". فنظرت إليه وقلت: "لقد ولد عمي في سان فرانسيسكو، ولطالما كان زوجي مواطناً".

كيف استطعت أن أعبر عن نفسي بهذا الوضوح مع موظف مكتب الهجرة، وأعجز في الوقت نفسه عن التحدث إلى أختي لو للتخفيف عن ابنتي؟ أعلم أنهما متألمتان، ولكنني لم أستطع أن أساعدهما لأنني أنا بحاجة إلى مساعدتهما. وعندما كانتا تحضران لي أكواب الشاي وتجلسان إلى جانب سريري عندما أبكي، كانت عيونهما تبدو حمراء ومتورمة وكنت أشعر بحزن عميق وغضب عارم. لماذا انضمت ابنتي إلى تلك الجماعة؟ ولماذا لم تظهر الاحترام المناسب لأبيها في أسابيعه الأخيرة؟ ولماذا شجعت أختي ابنتي على تنمية جانبها الأميركي في اللباس وتسريحات الشعر والآراء؟ لماذا لم تقدم أختي إليّ وإلى سام مساعدة أكبر خلال تلك الصعوبات. لماذا لم تعتنِ بزوجها طوال تلك السنوات، وخاصة في يوم وفاة سام؟ لو أنها اعتنت به كما يفترض بأي زوجة صالحة أن تفعل، لتمكنت من منع سام من تنفيذ فعلته. إنني أدرك أن حزني هو ما دفعني إلى هذا التفكير. إذ إنه من السّهل بالنسبة إليّ أن أنفس عن غضبي عليهما بدلاً من أن أغرق بالحزن على سام.

حزمت فايوليت وزوجها بقايا الطعام لآخذها معي إلى البيت، وودّعني العم ويلبرت والعم فرد وماريكو وابنتاها ليذهبوا إلى منازلهم. أما العم تشارلي فبقي لبعض الوقت، ولكن ماذا يسعه أن يقول لي؟ ماذا يسع أي واحد منهم أن يقول؟ فأومأت برأسي وصافحتهم بالطريقة الأميركية وشكرتهم على قدومهم، وبذلت ما في وسعي لأتصرف كأرملة لائقة. لقد أصبحت أرملة!

خلال فترة الحداد، يفترض بالناس أن يزورونا، ويحضروا معهم الطعام، ويلعبوا الدومينو. ولكنّ معظم أصدقائنا وجيراننا ابتعدوا عنا كما فعلوا في الجنازة. وبدأت الثرثرة تنتشر بينهم، ولكنهم لم يدركوا أن مأساتي قد تكون مأساتهم أيضاً. فلم تجرأ إلا فايوليت على زيارتي. وللمرة الأولى في حياتي، شعرت بالامتنان لوجود شخص آخر غير ماي إلى جانبي ليواسيني.

اعتُبِرت فايوليت من عدة نواحٍ أكثر منا عرضة للشبهة بسبب عملها ومنزلها في سيلفر ليك، ولكنها كانت تجازف بالمجيء إلى هنا لأنها وزوجها رولاند لديهما ما يخشيانه أكثر مني ومن سام. إذ إن عائلة فايوليت ظلت عالقة هنا عندما سادت الفوضى في الصين. والآن، أصبحت وظيفة فايوليت ورولاند، التي كانت في السابق تبدو جديرة للإعجاب، تجعلهما مستهدفين. إذ ربما يكونان جاسوسين أتيا إلى هنا لجمع معلومات عن تكنولوجيا الولايات المتحدة وعلومها. ولكن، بالرغم من ذلك، كانت فايوليت تتغلب على خوفها لتأتي وتخفف عني.

قالت فايوليت: "لقد كان سام رجلاً طيباً من مواليد عام الثور. ولطالما اتسم بالبراعة، وتحمل أعباءه بكل جلد وقوة. لقد اتبع قواعد الطبيعة وتحلى بالصبر والقناعة. ولم يكن يخشى مصيره. وأدرك تماماً ما يجب عليه أن يفعله لينقذك وينقذ جوي. لطالما كان الثور يفعل كل ما يجب عليه فعله ليحمي رخاء عائلته...".

فقاطعتها ماي قائلة: "إن أختي لا تعتقد بالأبراج الصينية".

لم أعرف لمَ قالت أختي هذا الكلام. لقد كانت هناك أوقات لم أعتقد فيها هذه الأشياء، ولكن هذا حدث قبل وقت طويل. إذ إنني أدركت في ما بعد في أعماقي أن أختي ستكون دائماً من برج الخروف، وأنا من برج التنين، وجوي من برج النمر، وزوجي من

برج الثور الهادئ الصبور. فجعلني هذا التعليق كالكثير مما يخرج من فم ماي، أدرك مدى قلة معرفة أختي بـي. كيف لم ألاحظ هذا من قبل؟

لم تُبدِ فايوليت أي ردّ فعل لما تقوله ماي. وبدلاً من ذلك، ربّتت على ركبتي، وردّدت مقولة قديمة قائلة: "كل الأشياء النقية والطاهرة تطفو حتى تصعد إلى السماء".

لم أمضِ في حسباني وقتاً خالياً من المصاعب والعقبات. ولطالما تحلّيت بالشجاعة في الماضي، ولكني حينها أصبحت مدمرة تماماً. إن حزني أشبه بالغيوم الكثيفة التي لا يمكن لشيء أن يبددها. وشعرت أنني عاجزة عن التفكير في ما يتعدى سواد ثيابي وقلبي.

في وقت متأخر من تلك الأمسية، وبعد أن أطعمت فورد وأطفأت ضوء غرفته، وبعد أن خرجت جوي مع فتيات عائلة بي ليتمشين ويشربن الشاي، قرعت ماي باب غرفتي. فنهضت وفتحت الباب وأنا مرتدية قميص نومي وشعري مبعثر ووجهي محمرّ بسبب البكاء. فرأيت أختي مرتدية فستاناً ضيقاً من الساتان زمردي اللون، وشعرها مسرح على شكل تسريحة منتفخة، وهناك قرطان من اليشب والألماس متدليان من أذنيها. إنها ذاهبة إلى مكان ما، ولكنني لم أزعج نفسي بسؤالها عن المكان.

قالت لي: "لا يزال الطاهي الثاني متغيباً عن المقهى. ماذا تريدينني أن أفعل حيال هذا؟".

"لا آبه لذلك. أياً يكن ما تقررينه، فأنا أوافقك عليه".

"أعلم أنك تمرين بوقت عصيب. وأنا آسفة حداً، ولكنني بحاجة إليك. فلا فكرة لديك عن الضغط الذي أعاني منه بسبب المقهى وفورد ومسؤولية المنزل وتجارتي. إنني منشغلة كثيراً في الوقت الحالي".

أصغيت إليها وهي تتساءل بصوت مرتفع كم يجب عليها أن تطلب أتعاباً من شركة الإنتاج مقابل ممثلي الكومبارس، والمناظر، والتجهيزات: كعربات الركاب وعربات الطعام وما إلى ذلك.

تابعت ماي قائلة: "لطالما حسبت أتعابي على أساس نسبة عشر بالمئة من..."، فأدركت أنها تحاول وحسب أن تدفعني إلى الخروج من غرفتي والتواصل مع الحياة ومساعدتها كما لطالما كنت أفعل. ولكنني في الواقع لم أكن أعرف شيئاً واحداً عن عملها مع الممثلين ولم آبه لذلك حقاً. فقالت ماي: "إنهم يريدونني أن أؤجر بعض القطع لبضعة أشهر وربما لسنة. إذاً، برأيك ما الأجرة التي ينبغي لي أن أطلبها؟ إن كلاً منها تكلف مئتين وخمسين دولاراً، لذا، يجب عليّ أن أطلب خمسة وعشرين دولاراً في الشهر. ولكنني أفكر في أن أطلب المزيد".

"كل ما تقررين فعله، أنا موافقة عليه".

وحينما بدأت بإغلاق الباب، أمسكت به لتمنعني وقالت: "لماذا لا تريدين أن تدعيني أدخل؟ يجب أن تأملي جمالاً. دعيني أسرح شعرك. ربما يجب عليك أن ترتدي فستاناً وتخرجي معي للتنزه في نزهة...".

فقلت لها: "لا أريد أن أفسد مخططك". ولكنني فكرت في نفسي قائلة: *كم مرة تركتني وحدي في المنزل مع والدينا في شنغهاي، وفي الشقة مع بن بن، والآن مع فورد كي تخرج لتفعل أياً يكن ما تفعله خارجاً؟*

"يجب عليك أن تعيدي تواصلك مع الحياة...".

"لقد مر أسبوعان فقط...".

حدّقت ماي إليّ بغضب وقالت: "يجب عليك أن تخرجي وتتواجدي مع عائلتك. ستعود جوي إلى شيكاغو قريباً. إنها بحاجة إليك لتتحدثي معها...".

"لا تلقي عليّ كيف أربي ابني...".

فوضعت ماي يدها حول معصمي، ولفّتها حول سوار أمي وقالت بعد أن هزّت يدي قليلاً: "أعلم أن هذه مصيبة رهيبة، يا بول، ولكنك لا تزالين شابة وجميلة. لديك ابنتك، ولديك أنا، ولديك كل شيء. انظري كم تحبك جوي وكم كان سام يحبك".

"نعم، ولكنه مات".

فقالت لي بتعاطف: "أعلم ذلك، وكنت أحاول المساعدة فقط، ولكني لم أدرك أنه سيحاول قتل نفسه".

ظلّت كلماتها عالقة في ذهني كأحرف التخطيط الأنيقة، وازداد الصمت عمقاً، وأعدت ما قالته في ذهني مراراً وتكراراً إلى أن سألتها أخيراً: "ماذا تعنين؟".

"لا شيء. لم أكن أعني شيئاً".

ولكن أمي لم تكن قط كاذبة بارعة.

"ماي!".

"حسناً، حسناً!"، تركت معصمي، ورفعت كلتا يديها، وهزّتهما بإحباط ثم وقفت على أحد كعبي حذائها المرتفعين ومشت متأرجحة نحو غرفة المعيشة ثم توقفت واستدارت وتفوّهت بالكلمات بسرعة قائلة: "لقد أبلغت العميل ساندرز عن سام".

"ماذا فعلت؟"، ورفضت أذناي أن تسمعا عمق خيانتها.

"لقد أبلغت المباحث الفيدرالية عن سام لأنني ظننت أن ذلك سيساعده".

فسألتها وأنا رافضة أن أصدق ما تقوله: "لماذا فعلت ذلك؟".

"لقد فعلت ذلك إكراماً لوالد لوي. إذ إنه قد طلب مني قبل أن يموت أن أعده بأن أفعل كل ما هو ضروري من أجل الحفاظ على

أمنك وأمن سام. ولا بد من أنه توقع ما سيحدث. ولم يكن يريد للعائلة أن تفترق...".

فقلت لها: "لم يكن يريد أن يبقى جوي وحده معك". ولكن هذا يبعدنا عن صلب الموضوع. إذ لا يمكن لما تقوله عن سام أن يكون صحيحاً. وتمنيت من أعماق قلبي ألا يكون كذلك.

قالت ماي: "إنني آسفة، يا بول". ثم تفوّهت ببقية اعترافها دفعة واحدة قائلة: "لقد اعتاد العميل ساندرز أن يتمشى معي أحياناً وأنا عائدة إلى المنزل بعد العمل. فسألني عن جوي وأراد أن يعرف معلومات عنك وعن سام. وقال إن هذه فرصة تساعدكما على نيل العفو. ووعدني أننا نستطيع العمل معاً للحصول على جنسية سام وجنسيتك إن أطلعته على الحقيقة. فظننت أنني إن برهنت للعميل ساندرز على أنني مواطنة صالحة، فسيدرك أنكما مواطنان أميركيان صالحان أيضاً. ألا تدركين هذا؟ لقد توجب عليّ أن أحمي جوي، ولكني كنت خائفة أيضاً من أن أخسرك أنت. إنك أختي الوحيدة التي أحبتني على حقيقتي، ووقفت إلى جانبي، واعتنت بي. ولو أنك فعلت بالضبط ما قلته لك ووكلت محامياً واعترفت بالحقيقة، لأصبحتما مواطنين، ولما توجب عليكما أن تخافا أو تقلقا من أن يتم التفريق بينكما. ومع ذلك، فقد آثرتما أن تواصلا الكذب حتى النهاية، ولكن فكرة شنق سام لنفسه لم تمر بخلدي قط".

لقد أحببت أختي منذ اللحظة التي ولدت فيها، ولكنني لطالما تصرفت وكأنني القمر الذي يدور حولها. والآن بدأ غضب حياتي بكاملها ينفجر في داخلي وينصب عليها؛ على أختي الغبية.

"اخرجي".

حدّقت إليّ بعينيها الوديعتين، وهي تقول: "إني أعيش هنا، يا بول. أين تريدينني أن أذهب؟".

فصرخت في وجهها قائلة: "اخرجي!".

"لا". وهذه مرةٌ وحيدة من بين مرات قليلة عصت فيها أمي أوامري بشكل مباشر. ثم كرّرت بصوت أخش قائلة: "لا، ستصغين إليّ لمرة واحدة. لقد كان حصولك على العفو أمراً منطقياً، وكان ذلك أكثر الحلول أماناً".

فهززت رأسي رافضة أن أصغي إليها، وقلت: "لقد دمرت حياتي".

"لا، لقد دمر سام حياته بنفسه".

"هذا من شيمك، يا ماي. فلطالما وجهت إصبع اللوم إلى الجميع باستثناء نفسك".

"لم أكن لأتحدث إلى ساندرز قط لو أنني اعتقدت أن هناك خطراً عليك أو على سام. لا أصدق أن هذا هو رأيك بي". وبدا عليها أنها تستجمع قوتها وهي واقفة هناك مرتدية ثوبها الزمردي. ثم قالت: "لقد منحك العميل ساندرز والآخرون كل فرصة متاحة...".

"إن كنت تسمين التخويف فرصة".

تابعت ماي قائلة: "لقد كان سام ابن وثيقة، وأتى إلى هنا بصورة غير شرعية. سألوم نفسي لبقية حياتي على قتل سام نفسه، ولكن هذا لا يغير حقيقة أن ما فعلته كان صواباً بالنسبة إليك وإليه وإلى عائلتنا. فكل ما كان عليكما فعله هو أن تبوحا بالحقيقة...".

"ألم تفكري في ما ستكون عليه عواقب ذلك؟".

"بالطبع فكرت فيها! سأقولها لك ثانية: لقد قال العميل ساندرز إنكما ستنالان العفو إن اعترفتما بالحقيقة. العفو، يا بول! وعندئذ

ستصبح وثائقكما قانونية، وستصبحان مواطنين شرعيين، ولكنك وسام ظللتما عنيدين ومتمسكين بتقاليدكما الصينية الجاهلة".

"هل تلومينني الآن على كل ما حدث؟".

"لا أريد أن أقول ذلك، يا بول".

ولكنها قالت ذلك فعلاً! فشعرت أنني أغلي من شدة الغضب إلى درجة جعلتني عاجزة عن التفكير السليم. فقلت بانفعال: "أريدك أن تخرجي من منزلي، ولا أريد أن أرى وجهك ثانية أبداً".

فقالت لي بصوت هادئ جداً: "لطالما لمتني على كل شيء".

"لأن كل شيء سيئ حدث في حياتي حدث بسببك أنت".

حدّقت إليّ أختي بانتظار سماع ما سأقوله وكأنها كانت تنتظر سماعه منذ وقت طويل، وإن كان ذلك ما تريده، حسناً...

قلت لها: "لقد كان والدي يحبك أكثر مني. ولطالما أحب أن تجلسي إلى جانبه ليبقى قربك. وكانت أمي تحبك كثيراً بحيث كانت تجلس مقابلك دائماً كي تتمكن من تأمل ابنتها الجميلة وليس ابنتها الأخرى القبيحة ذات الوجه الأحمر البشع".

فقالت أختي بسخرية وكأن المسألة عديمة الأهمية: "لطالما كنت تغارين مني وتحسدينني، ولكنك كنت أنت العزيزة على قلب أمي وأبي. فقد كان والدي يحب أن ينظر إليك. وكانت أمي تحب أن تجلس إلى جانبك. واعتدتم أنتم الثلاثة أن تتحدثوا لغة الجي يوب، فاتخذتموها لغة سرية خاصة تستخدمونها لتبقوني بعيدة عن أحاديثكم".

جمّدني كلامها هذا في مكاني. إذا لطالما اعتقدت أنهم يتحدثون إليّ بلغة الجي يوب لتحمي ماي من هذا أو ذاك، ولكن أمن المعقول أنهما كانا يفعلان ذلك تحبباً لي وليعبرا لي عن مكانتي المميزة في قلبيهما؟

فقلت وكأنني أتحدث إلى نفسي: "لا! لم تكن الأمور هكذا!".

"لقد كان والدي مهتماً بك حيث إنه كان ينتقد دائماً أخطائك. وكانت أمي مهتمة بك لدرجة أنها اعتادت أن تشتري لك مستحضر الغسيل مكسوّاً من اللآلئ المطحونة. إنها لم تعطني قط شيئاً ثميناً، لا مستحضر تجميل ولا سوارها الغالي بالياشب. لقد أرسلاك إلى الكلية، ولكنّ أحداً لم يسألني قط إن كنت أريد الالتحاق بها! ومع أنك التحقت بالكلية، فهل فعلت شيئاً للاستفادة من هذا؟ انظري إلى صديقتك فايوليت. لقد حققت شيئاً مهماً في حياتها. وماذا عنك؟ لا. إن الجميع يريدون أن يأتوا إلى أمريكا من أجل الحصول على الفرص. فقدت الفرصة بابك أكثر من مرة، ولكنك لم تستغليها بل فضلت أن تلعبي دور الضحية. ولكن هل يهم من كان والدي ووالدي يحبان أكثر، أو إن كنت أحظى بالفرص نفسها التي تحظين بها؟ إنهما ميتان الآن. وقد حدث هذا كله قبل وقت طويل جداً".

ولكن هذا ليس صحيحاً بالنسبة إليّ، ولا بد من أنه ليس كذلك بالنسبة إلى ساي أيضاً. فقد تكررت مناقشتنا على عاطفة والدينا في معركتنا على حوي. والآن، بعد أن أمضينا حياتنا بأكملها معاً، ها نحن نبدأ بالإفصاح عن مشاعرنا الحقيقية. فارتفعت نبرة صوتنا بلهجة الوو، ثم انخفضت بنبرة الهامية والتقادية ونحن نفرغ كل الشر الذي أضمرناه في صدورنا على رؤوس بعضنا ونلوم بعضنا على كل كلمة قيلت وعلى كلّ سوء حظ حل بنا. إنني لم أنس أمر موت سام وأعلم أنها لم تنسه أيضاً، ولكن ليس بيدنا حيلة. إذ ربما من الأسهل أن نتشاجر حول الإجحاف الذي شعرنا به طوال تلك السنوات على أن نواجه خيانة ماي وانتحار سام.

سألتها بشك أخفيته في نفسي لسنوات قائلة: "هل كانت أمي تعلم أنك حامل؟ لطالما أحبتك، ولهذا طلبت مني أن أعدها أن أعتني

بك. فعلت ذلك وأتيت بك إلى جزيرة آنجل حيث تعرضت لأصناف الذل والهوان. ومنذ ذلك الحين وأنا عالقة هنا في الحي الصيني لأعتني بجوي، وأعمل هنا في المنزل بينما تذهبين أنت إلى هاوليوو لتحضرين الحفلات وتستمعين بوقتك". ثم دفعني غضبي وشعوري بالأذى إلى التفوّه بأمر أعلم أنني سأندم عليه إلى الأبد ولكنه حقيقي جداً لدرجة أنه خرج من فمي قبل أن أتمكن من منع نفسي: "لقد توجب عليّ أن أعتني بابنتك حتى عندما مات طفلي".

"لطالما قسوت عليّ لأنك اضطررت إلى العناية بجوي، ولكنك حاولت جاهدة أن تبقيني بعيدة عنها. واعتدت أن تتركيها وهي طفلة في الشقة مع سام عندما كنت آخذك لنتنزّه معاً...".

"ليس هذا هو السبب". (أم إنه كذلك؟).

"وبعد ذلك، لدى ولدت الجميع لأنه توجب عليك البقاء في البيت معها. ولكن، إن عرض عليك أحد منا أن يعتني بجوي لبعض الوقت كنت ترفضين ذلك".

"هذا ليس صحيحاً. فقد جئت لك بأخذها إلى مواقع التصوير...".

قالت بحزن: "ولكنك لم تعودي تسمحين لي أن أتمتع بتلك السعادة. إنني أحبها، ولكنك لطالما اعتبرتها عبئاً عليك. لديك ابنة، يا بيرل. أما أنا فليس لديّ شيء. لقد خسرت كل شيء، خسرت أمي وأبي وابني...".

"وتعرضت أنا لكل ما تعرضت له من أذى في الكوخ لأحميك!".

أومأت أختي برأسها وكأنها توقعت أن أقول هذا، ثم أخذت نفساً وقالت: "والآن، يجب عليّ أن أسمع عن تلك التضحية مجدداً؟".

ولاحظت أنها تحاول أن تهدّئ من روعها. ثم قالت: "إنك مستاءة، وأنا

أتفهم موقفك، ولكن ليست هناك علاقة بين أيّ من هذا الكلام وما حدث لسام".

"ولكن، بالطبع هناك علاقة! فكل ما حدث بيننا له علاقة بابنتك غير الشرعية أو بما فعله شعب القردة لي".

تشنّجت عضلات عنق ماي، وبدأ غضبها يزداد مجدداً إلى أن أصبح مماثلاً لغضبي: "إن كنت تريدين التحدث عن تلك الليلة، فلا بأس بذلك لأنني أنتظر هذا منذ سنوات عديدة. لم يطلب أحد منك أن تخرجي من الغرفة في تلك الليلة. فقد طلبت منك أمي بكل وضوح أن تبقي معي لأنها أرادت أن تبقيك أنت بأمان. لقد تحدثت إليك بلغة الخي يسوب وهمست لك معبرة عن حبها، كما لطالما فعلت، كي لا أفهم أنا شيئاً، ولكنني أدركت عندئذ أنها تحبك كثيراً بحيث تفوّهت بكلمات المحبة تلك لك وليس لي".

"إنك تعرفين الحقيقة كما لطالما فعلت، ولكن هذا لن ينجح. فقد أحبتك أمي كثيراً إلى درجة أنها واجهت أولئك الرجال وحدها، ولكنني لم أستطع أن أسمح لها بالتضحية بنفسها بل توجب عليّ أن أساعدها وأن أنقذك". وبينما كنت أتكلم كنت أستعيد ذكريات تلك الليلة وأرى الصورة واضحة أمام عينيّ. ولا بد من أن أمي حيث هي، مدركة للتضحيات التي قدمتها لأختي. تُرى هل أحبتني أمي؟ أم أنها في لحظاتها الأخيرة شعرت بخيبة الأمل مني للمرة الأخيرة؟ ولكن ليس لديّ وقت لهذه الأسئلة بينما وقفت أختي أمامي ويداها على خصرها وملامح وجهها الجميل منقبضة من شدة السخط.

"لقد كانت تلك ليلة واحدة من حياتك كلها! كم من الوقت عمدت إلى استغلالها يا بيرل؟ كم من الوقت استغللتها لتحافظي على مسافة بينك وبين سام، وبينك وبين جوي؟ عندما كنت تستعيدين وعيك

في المستشفى، قلت لي أموراً من الواضح أنك لا تتذكرينها. لقد قلت لي إن أمك أتت عندما رأتك تدخلين إلى تلك الغرفة. وقلت إنها ماتت بسببك لأنك تخليت عن حمايتي، ولكني أعتقد أنك مخطئة. فلا بد من أن قتلها الخطر لأنك لم تحمي نفسك. إنك أمّ وتدركين أن ما أقوله صحيح".

شعرت بوقع كلماتها كالصفعة على وجهي. إنها محقة. فلو واجهت أنا وجوي الموقف نفسه...

واصلت ماي كلامها قائلة: "إنك تظنين أنك تحليت بالشجاعة وتنازلت عن الكثير". ولم أسمع في صوتها أي إدانة أو توبيخ بل مجرد ألم عميق وكأنها هي من تعرضت للمعاناة. "ولكن الحقيقة هي أنك كنت جبانة وخائفة وضعيفة وقلقة طوال كل تلك السنوات. فلم تسألي نفسك ولو مرة واحدة عما حدث في الكوخ في تلك الليلة. ولم تفكري ولو مرة واحدة أن تسألي كيف احتضنت أمي بين ذراعي وهي تلفظ آخر أنفاسها. هل سألت نفسك مرة واحدة كيف دفنتها، وأين، أو إن كانت قد دفنت على الإطلاق؟ من تظنين أنه اعتنى بها؟ من تظنين أنه أخرجنا من الكوخ في الوقت الذي يبدو فيه التصرف المنطقي الوحيد هو أن ألحقك ورائي لتموتي؟".

لم ترُق لي أسئلتها، ولكن الأجوبة التي دارت في ذهني لم ترُق لي أيضاً.

واصلت ماي كلامها قائلة: "لقد كنت في الثالثة عشرة من عمري فقط. وكنت حاملاً ومرعوبة، ولكنني دفعتك في العربة وأوصلتك إلى المستشفى. لقد أنقذت حياتك، يا بيرل. ولكنك أضمرت لي الحقد والخوف واللوم طوال تلك السنوات. قد تظنين أنك ضحيت بالكثير لتعتني بي، ولكن تضحياتك لم تكن إلا أعذاراً. والحقيقة هي أنني أنا من ضحيت واعتنيت بك".

"هذه كذبة".

"حقاً؟"، وأمسكت عن الكلام قليلاً ثم قالت: "هل خطر ببالك ولو مرّة واحدة ما نوع الحياة التي أعيشها هنا؟ هل تتخيلين ما يعنيه أن أرى ابنتي كل يوم ومع ذلك أبقى بعيدة عنها؟ أو ما يعنيه أن أكون زوجة فيرن؟ فكري في هذا، يا بيرل. إنه لا يستطيع أن يكون زوجاً حقيقياً أبداً".

"ما الذي تقولينه؟".

"لم يكن لينتهي بنا المطاف هنا في هذا المكان الذي يبدو عليه أنه يسبب لنا الكثير من البؤس لولاك". غاصت كلماتها في أعماقي وبعثت القلق داخلي. فتابعت قائلة: "لقد تركت ليلة واحدة مريعة ومأساوية تجعلك تهربين وتهربين. فتبعتك لأنني أختك الصغرى، ولأنني أحبك وأعلم أنك تعرضت لضرر أبدي ولن تتمكني أبداً من رؤية الجمال والحظ اللذين يملآن حياتك".

أغمضت عيني محاولة أن أتحلى بالثبات والقوة. لم أرد أن أسمع صوتها ثانية ولم أرد أن أراها طوال حياتي. فتوسلت إليها قائلة: "ألا تستطيعين وحسب أن تغادري من فضلك؟".

ولكنها عادت إليّ ثانية وقالت: "أجيبيني وحسب بصراحة. هل كنا سنأتي إلى أميركا لولاك؟".

اخترق سؤالها صدري كالسكين لأن الكثير مما تقوله صحيح، ولكنني كنتُ غاضبة ومجروحة لأنها وشت بسام. فوجّهت إليها أكثر كلام حاقد على الإطلاق قائلة: "بالطبع لا. إذ لم نكن لنأتي إلى هنا لو أنك لم تقيمي علاقة مع شاب غير معروف! ولو أنك لم تحملي أحد طفلك...".

قالت ماي بصوت ناعم كالغيوم: "إنه ليس غير معروف. إنه زي جي لي".

لقد ظننت أنني تعرضت لأكبر أذى أستطيع تحمله، ولكنني كنت مخطئة.

"كيف استطعت أن تفعلي هذا؟ كيف استطعت أن تجرحيني هكذا؟ ألم تعلمي أنني أحب زي جي لي".

اعترفت قائلة: "نعم، أعلم ذلك. ولكنّ زي جي لي كان يعتقد أنّ ذلك ممتع، أي الطريقة التي اعتدت بها أن تنظري إليه في أثناء جلساتنا، والطريقة التي ذهبت بها للتوسل إليه، ولكن شعوراً مريعاً انتابني حيال هذا الوضع".

تراجعت إلى الوراء مصعوقة. أليس هناك حد لهذه الخيانات؟

"هذه مجرد كذبة أخرى".

"حقاً؟ لقد لاحظت صوري هنا. من التي رسم وجهها كوجه فلاحة أحمر على أغلفة المجلة؟ ومن التي رسم وجهها بكل حب؟".

وبينما كانت ماي تتحدث تسارعت صور من الماضي في ذهني: "صورة ماي وهي تضع رأسها على صدر زي جي لي وهما يرقصان، وصورة زي جي لي وهو يرسم آخر خصلات شعرها، وصورته وهو يزين جسمها بزهور الفاوانيا".

قالت لي: "إنني آسفة. فأنا أعرف أن هذا قاسٍ لأنني أدرك أنك كنت تكنين له المشاعر طوال تلك السنوات. ولكنّ ذلك كان مجرد إعجاب طفولي منذ وقت طويل. ألا تدركين هذا؟ لقد حظيت بحياة كاملة مع سام. أما أنا وزي جي لي فلم نبق معاً إلا بضعة أسابيع".

"لماذا لم تخبريني بذلك؟".

"كنت أعلم أنك تكنين له المشاعر، ولهذا السبب لم أقل لك شيئاً. إذ لم أرد أن أجرح شعورك".

والآن، فهمت أخيراً ما كان ماثلاً أمام عيني طوال السنوات العشرين الماضية. فقلت: "إذاً، زي جي لي هو والد جوي".

"من هو زي جي لي؟".

إنه الصوت الذي لم أرد أنا أو أختي أن نسمعه. فالتفت إلى الوراء ورأيت جوي واقفة عند مدخل المطبخ، وعيناها تحدقان إلينا بنظرة باردة خالية من التعبير وعديمة التسامح توحي بأنها كانت تصغي إلينا منذ وقت طويل جداً. لقد شعرت أن موت سام ورواية أختي لما حدث في حياتنا قد هدما كياني، ولكنني شعرت في تلك اللحظة برعب حقيقي لأن ابنتي سمعت هذا. فتقدّمت خطوتين نحو جوي، ولكنها ابتعدت عني.

وسألت مجدداً: "من هو زي جي لي؟".

فأجابتها ماي بصوت ناعم مليء بالحب: "إنه والدك. وأنا والدتك الحقيقية".

ووقفنا نحن الثلاث في غرفة المعيشة كالتماثيل. فنظرت إلى نفسي وإلى ماي من خلال عيني جوي. فرأيت أماً حاولت أن تعلم ابنتها أن تكون مطيعة حسب التقاليد الصينية، وبرعت بالطرائق الأميركية، وارتدت قميص نوم قديماً، وذات وجه محمر من الدموع والحزن والغضب، وأماً أخرى دللت ابنتها بالهدايا، وأدخلتها إلى عالم هاولايو المتألق والبراق، وقد بدت عيناها جميلة وأنيقة. وبعد أن تحررت ماي من عقدين من الأسرار، غمر الهدوء ملامحها بالرغم من كل ما حدث تلك الليلة. لقد تشاجرت وأختي على الأحلية، وتنافسنا لنعرف من تحظى بحياة أفضل، ومن تبدو أجمل وأذكى. ولكنني في تلك المرة لم أحظ بأي فرصة، وأدركت تماماً من هي الفائزة. لطالما تساءلت عن مصيري، ولكن خسارة طفلي وزوجي لم تكونا نهاية خسارتي في الحياة. وها قد بدأت دموع أعظم خسارة في حياتي تنهمر على خدي.

إلى أن يشيب شعرنا

١

تمددت على سريري وهناك فجوة كبيرة تسكن صدري مكان قلبي، وشعرت بأنني مدمرة إلى الأبد. فأصغيت إلى ماي وجوي تتهامسان. وفي وقت متأخر من الليل، سمعت أصواتاً عالية، وصوت خبط أبواب، ولكنني لم أعد إلى هناك لأقاوم من أجل ابنتي. فلم تعد في داخلي أي طاقة لأقاوم أي شيء، ولكنني ربما لم أتمتع بتلك الطاقة قط. وربما كانت ماي محقة بشأني. فأنا ضعيفة ومتخاذلة. وربما كانت محقة في أنني لطالما لعبت دور الضحية. لقد نشأت أنا وماي في المنزل نفسه ومع الوالدين نفسيهما، ولكن لطالما استطاعت أختي أن تحمي بنفسها. فاقتنصت جميع الفرص: كرلقيق بأمها جوي، وعرض توم غوينتر للعمل، ورغبتها الدائمة في الخروج والاستمتاع بالحياة. بينما اعتبرت أنا كلّ شيء سيئ في حياتي بحرة نتيجة لمصيري التعس.

في وقت متأخر بعد ذلك، سمعت صوت جريان المياه في الحمام، وصوت جوي وهي تفتح الأدراج في خزانتها. وعندما ساد الهدوء في أنحاء البيت أخيراً، هام عقلي في أمكنة أكثر عمقاً وظلاماً. لقد جعلتني أختي أنظر إلى الأمور من منظار جديد كلياً. ولكنّ كل هذا لا يغير ما حدث لسام. إنني لن أسامحها على ما فعلته أبداً، بالرغم من أنها كانت محقة بالسعي وراء العفو. فربما كان امتناعنا عن الاعتراف بشكل طوعي خطأ فادحاً من جانبي وجانب سام أدى إلى تلك المأساة الرهيبة. ولكن، لماذا لم تخبرنا ماي أنها ستبلغ عنا من أجل مصالحنا؟ إنني

أعــرف الإجابة جيداً جداً. فلطالما كنت وسام خائفين من كل ما هو جديد، وخشينا أن نترك العائلة وننتقل للعيش بمفردنا، وأن نغادر الحي الصيني، وأن ندع ابنتنا تصبح ما كنا نريد أن تصبحه: أي أميركية. فلو حاولت ماي أن تخبرنا بما اعتزمت فعله، لما فتحنا قلبينا لكلماتها.

أدركــت أنني أتسم بأسوأ صفات التنين. فأنا عنيدة وفخورة بنفسي. وإن أغضب أحد تنيناً أنثى، يمكن وقع ذلك كانهيار السماء علــى الأرض. وفي تلك الليلة، انهارت السماء بالفعل. ولكن يجب عليّ أن أخبر جوي أنها لطالما كانت وستكون ابنتي. ومهما شعرت تجاهــي أو تجاه سام أو خالتها، فسأحبها إلى الأبد وسأجعلها تدرك كــم منحــتها من حــبي وحمايتي، وكم أنا فخورة بها وهي تشق طريقها في الحياة. وكان لديّ عشرة آلاف أمل بأنها ستسامحني. أما بالنســبة إلى ماي، فلست أدري إن كنت سأعثر على عذر يجعلني أغفر لها أو حتى إن كنت أريد ذلك. ولا أعرف إن كنت أريد أن أسمعي أي علاقة بها، ولكنني راغبة في منحها فرصة لتشرح موقفها لي مرة أخرى.

ينبغي لي أن أذهب إلى الشرفة المسيجة وأوقظهما وأفعل كل هذا. ولكــنّ الوقت متأخر، والهدوء يسود البيت بعد الأحداث الكثيرة التي وقعت في هذه الليلة الرهيبة.

"استيقظي! استيقظي! لقد رحلت جوي!".

فــتحت عينيّ، ورأيت أختي تحني ومـلامح الرّعب واضحة على وجهها. فجلســت وأنا أشعر بالخوف يسري في أعماقي.

"ماذا؟".

"لقد رحلت جوي".

نهــضت من سريري، وهرعت إلى الشرفة المسيجة. وبدا لي من كــلا الســريرين أن هناك من نام فيهما. فأخذت نفساً وحاولت أن أسترخي.

"ربما ذهبت لتتمشى أو ذهبت إلى المقهى".

فهــزّت ماي رأسها، ثم نظرت إلى قصاصة ورق مجعدة تمسكها بيدها، وقالت: "لقد وجدت هذه على سريرها عندما استيقظت".

مدّت ماي قصاصة الورق وأعطتني إياها. فبدأت بقراءتها:

أمي،

لم أعد أعرف من أنا بعد الآن. ولم أعد أفهم هذه البلاد. إنني أكره قسوتها لأبــي. أدرك أنك ستعتبرينني مرتبكة وحمقاء. وربما أكون كذلك، ولكن يجب عليّ أن أعثر على الأجوبة. وربما تكون الصين هي موطني الحقيقي على كل حال. وبعد كل شيء قالته لي خالتي مــاي، أعتقد أنــه ينبغــي لي أن أقابل والدي الحقيقي. لا تقلقي بشأني، يــا أمي. لديّ ثقة كبيرة بالصين وبما يفعله الرئيس ماو للبلاد.

جوي

أخــذت نفساً عميقاً، وبدأت دقات قلــبي تتباطأ وتهدأ. إذ إنني علــى يقــين مــن أن جوي لا يمكن أن تعني ما كتبته. إنها تتمرد، ومن طبيعــتها أن تتمــرد، وهذا هو بالضبط ما فعلته في رسالتها. ولكن، ليــست هناك طريقة تمكنها من تنفيذ ما كتبته هنا. ومع ذلك، بدا أن ماي صدقت ذلك.

فــسألت ماي عندما أنهيت قراءة الرسالة: "هل هربت فعلاً؟".

"إنــني لســت قلقة ولا ينبغي لك أن تقلقي أيضاً". شعرت أنني مستاءة من ماي لأنها بدأت يومها بحدث مثير عاطفياً، في الوقت الذي كــنت آمل فيه أن نناقش الأمور بهدوء، ولكنني وضعت يدي بمواساة

علــى ذراعيهــا محاولة أن أحافظ على بعض الهدوء بيننا. فقلت: "لقد كانـــت جوي مستاءة ليلة البارحة، وكذلك كنا جميعاً. فلا بد من أنها ذهـــبت إلى منـــزل عائلة بي لتتحدث إلى جيريل. أراهنك على أنها ستعود إلى البيت لتناول الفطور".

فابتلعت أمي ريقها ثم شهقت قبل أن تقول: "لقد سألتني جوي في الليلة الماضية عن زي جي لي. فقلت لها إنني أعتقد أنه لا يزال يعيش في شـــنغهاي لأن أغلفـــة المجلات التي يرسمها تظهر دائماً أحد معالم المدينة، ولهذا، فأنا واثقة نوعاً ما من أنها ذاهبة إلى هناك".

فاستبعدت تلك الفكرة قائلة: "إنها لن تذهب إلى الصين لتبحث عـــن زي جـــي لي، فهـــي لا تستطيع أن تستقل الطائرة وتذهب إلى شـــنغهاي". وعـــدّدت الأسباب على أصابعي على أمل أن يخفف هذا التحليل المنطقي من مخاوف ماي. فقلت: "لقد استولى ماو على البلاد قبل ثماني سنوات، وأصبحت الصين مغلقة أمام الأجانب. وليـــست هناك علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة و...".

فقاطعتني ماي قائلة: "إنها تستطيع أن تذهب إلى هونغ كونغ، فهي مستعمرة بـــريطانية. ومن هناك، تستطيع أن تذهب مشياً إلى الصين بالـــضبط كمـــا فعل الناس الذين كان الوالد لوي يستأجرهم ليوصلوا المال إلى عائلته في قرية واه هونغ".

"إيـــاك أن تفكري في ذلك. إن جوي ليست شيوعية. وكل هذا الكلام هو مجرد كلام فارغ".

أشـــارت مـــاي إلى الرسالة وقالت: "إنها تريد أن تقابل والدها الحقيقي".

ولكنني رفضت ما حاولت أمي أن تقنعني به. فقلت: "إن جوي لا تملك جواز سفر".

"بـــل لديها واحد. ألا تتذكرين؟ لقد ساعدها ذلك الفتى الذي تدعو جو على الحصول عليه".

عـــندئذ، شعرت بركبتيّ تنهاران تحت جسمي. فأمسكت بـــي مـــاي، وساعدتني على الوصول إلى السرير. وعندما جلسنا، أجهشت بالبكاء قائلة: "لا أريد لهذا أن يحدث ولا سيما بعد موت سام".

فحاولـــت ماي أن تواسيني. ولكن، لا عزاء لي. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الشعور بالذنب يهيمن عليّ.

فخـــرجت الكلمات من فمي وكأنها ممزقة ومكـــسورة وأنا أقول: "لم تـــذهب للبحث عن أبيها وحسب. لقد أثار خالتها كله، وكل ما كانـــت تظن أنه صحيح العلم أنه خطأ. إنها تهرب مناه حتى ومن أمها الحقيقية".

"لا تقولي هذا. أنت أمها الحقيقية. انظري إلى الرسالة ثانية. لقد دعتني خالتها ودعتك أنت أمها. إنها ابنتك أنت ولـــست ابنتي".

شـــعرت بقلبـــي يكـــاد يـــتحطم من صدري من شدة الحزن والخوف، ولكنني تشبّثت بكلمة واحدة: أمي.

مـــسحت ماي دموعي، وكرّرت قائلة: "إنها ابنتك أنت. توقفي عن البكاء الآن. يجب علينا أن نفكر جيداً".

إن مـــاي علـــى حـــق. إذ يجب عليّ أن أستعيد سيطرتي على مـــشاعري. ويجب علينا أن نفكر ونجد طريقة لنمنع ابنتي من ارتكاب هذا الخطأ الرهيب.

قلت لها مفكرة بصوت عالٍ: "ستحتاج جوي إلى الكثير من المال إن أرادت أن تذهب إلى الصين".

ويـــبدو أن ماي فهمت ما قلته. ففي الوقت الذي اتجهت هي فيه الطـــرائق العصرية لوقت طويل وأودعت أموالها في المصرف، اثرتُ أنا

وسام اتباع عادة الوالد لوي في الاحتفاظ بمدخراتنا في مكان قريب، فأسرعنا إلى المطبخ وبحثنا تحت المغسلة عن علبة البن التي اعتدت أن أحتفظ فيها بمعظم مدخراتي، فوجدناها فارغة. لقد أخذت جوي المال، ولكنني لم أفقد الأمل.

سألتها: "متى تظنين أنها غادرت؟ لقد سهرنا نتحدث...".

"لماذا لم أسمعها حين غادرت؟ لماذا لم أسمعها حين حزمت أمتعتها؟".

كنت ألوم نفسي أيضاً. وكنت خائفة ومنفعلة من كل شيء سمعته في الليلة الماضية، ولكنني قلت: "يجب علينا ألا نقلق من أمور كهذه الآن. بل يجب علينا أن نركز على جوي. لا يمكن أن تكون قد ابتعدت كثيراً. ولا نزال نستطيع أن نجدها".

"نعم، بالطبع. لنرتدِ ملابسنا. سنستقلّ سيارتين...".

"وماذا عن فونغ؟"، وحتى في لحظة الرعب والحرمان تلك، لم أستطع أن أنسى مسؤولياتي.

"ستتوجهين أنت إلى محطة الاتحاد وتبحثين عنها هناك. وسآتي أنا احتياجات فونغ ثم أقود سيارتي إلى محطة الحافلة".

ولكنّ جوي لم تكن في محطة القطار، ولا في محطة الحافلات أيضاً. فالتقيت ماي في المنزل مجدداً. كنا لا نعرف بشكل مؤكد إلى أين ذهبت جوي. وصعب علينا أن نصدق أنها ستحاول فعلاً أن تذهب إلى الصين. ولكن، وجب علينا أن نتصرف وكأن ذلك هو ما ستفعله إن أردنا أي فرصة في منعها من السفر. وهكذا، وضعنا خطة جديدة. فقدت أنا السيارة إلى المطار بينما بقيت ماي في البيت لتجري بعض الاتصالات الهاتفية. فاتصلت أولاً بعائلة بي لتعرف إن كانت جوي قد قالت شيئاً للفتيات، ثم اتصلت بالأعمام لتعرف إن كانت قد

طلبت نصيحتهم حول الطريقة المناسبة للوصول إلى الصين، وبعد ذلك اتصلت بيتسي ووالدها في واشنطن لتستفسر عن وجود أي طريقة رسمية تساعدنا على الإمساك بجوي قبل أن تغادر البلاد. لم أعثر على جوي في المطار، ولكنّ ماي تلقّت معلومتين مثيرتين للقلق. أولاهما أن هيزيل بي قالت إن جوي اتصلت بها في وقت مبكر صباحاً من المطار وهي تبكي، وإنها قالت لها إنها ستغادر البلاد. فلم تصدق هيزيل جوي ولم تسألها إلى أين هي ذاهبة. أما المعلومة الثانية، فهي أن ماي علمت من والد بيتسي أنه من الممكن لجوي أن تتقدم بطلب للحصول على تأشيرة إلى هونغ كونغ وتتلقاها فور هبوط الطائرة.

فتحت ماي علبتين من حساء الدجاج وسخّنتهما على الموقد، بينما جلست أنا إلى جانب الطاولة وأنا أراقب أختي وأشعر بالقلق خوفاً على سلامة ابنتي. إن ابنتي الجميلة المتمردة جوي متوجهة إلى المكان الوحيد الذي لا ينبغي لها الذهاب إليه: إلى جمهورية الصين الشعبية. ولكنّ جوي بالرغم من كل ما تعتقد أنها تعلمته عن الصين من الأفلام، ومن ذلك الفتى جو، ومن الجماعة الغبية التي انتسبت إليها، ومن المعلومات التي أعطاها إياها مدرسوها في شيكاغو، فهي لم تكن لتعرف ما الذي تفعله. لقد اتبعت طبيعتها المتمردة، وتصرّفت تصرفاً نابعاً من الغضب والارتباك والحماسة التي في غير محلها. لقد تصرّفت بناء على عواطف الليلة الماضية وبسبب ارتباكها. ولكنني اعتقدت أن هروب جوي إلى الصين هو مجرد هروب منا، نحن المرأتين اللتين تنافستا عليها منذ الولادة. فهربت منّا لتبحث عن أبيها الحقيقي. وبالرغم من ذلك، لم تدرك جوي كم قد يكون البحث عن زي جي لي مؤذياً، ناهيك عن الخطورة الكامنة ورائه.

ولكن، إن كانت جوي لا تستطيع أن تتخلى عن طبيعتها الأساسية، فأنا أيضاً لا أستطيع أن أتخلى عن طبيعتي. إن دافع الأمومة

في داخلي قوي. فكّرت في أمي وفي كل ما فعلته لتنقذني وتنقذ ماي من عصابة الخضر وحمتنا من اليابانيين. وربما تكون أمي قد تألمت بسبب القرار الذي اتخذته حين تركت والدي، ولكنها فعلت ما يمليه عليها ضميرها. ومن المؤكد أن الرعب قد ملأ قلبها لدى خروجها إلى تلك الغرفة حيث الجنود، ولكنها لم تتردد حينئذ أيضاً. إن ابنتي بحاجة إليّ. ومهما كانت الرحلة خطرة، ومهما انطوت عليها من مجازفات، يجب عليّ أن أعثر عليها. ويجب أن تعرف أنني سأقف إلى جانبها بلا قيد أو شرط.

ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيّ وأنا أدرك أن افتقاري إلى الجنسية الأميركية سيساعدني على إتمام مهمتي. فأنا لا أملك جواز سفر أميركياً بل مجرد وثيقة هوية، وهذا ما سيسمح لي بأن أغادر البلاد التي لم تكن تريدني على أراضيها قط. لديّ بعض المال في بطانة قبعتي، ولكنه ليس كافياً لوصولي إلى الصين. وسيستغرق بيع المقهى وقتاً طويلاً. لذا، في إمكاني أن أذهب إلى المباحث الفيدرالية وأعترف بكل شيء، أو أن أقول إنني شيوعية من أشد الشيوعيين تطرفاً على أمل أن يتم ترحيلي...

صبّت ماي الحساء في ثلاثة أوعية، ثم ذهبنا معاً إلى غرفة فيرن فوجدناه شاحباً ومنفعلاً. فتجاهل الحساء، وفتل ملاءة سريره بعصبية.

"أين سام؟ أين جوي؟".

فقالت له ماي ربما للمرة العشرين: "إنني آسفة، يا فيرن، فقد توفي سام وهربت جوي. هل تفهم هذا، يا فيرن؟ إنها ليست هنا. فقد ذهبت إلى الصين".

"إن الصين مكان سيئ".

فقالت له: "أعلم هذا".

"أريد سام. أريد جوي".

فقالت ماي: "حاول أن تأكل حساءك".

فأعلنت قائلة: "يجب عليّ أن أتبع جوي. إذ ربما أستطيع أن أعثر عليها في هونغ كونغ، ولكنني سأدخل الصين إن توجب عليّ ذلك".

فكرّر فيرن قائلاً: "إن الصين مكان سيئ، وستموتين هناك".

وضعت وعاءي على الأرض، وقلت: "أتستطيعين أن تقرضيني المال، يا ماي؟".

فقالت بلا تردد: "بالطبع، ولكن لا أعرف إن كنت أملك ما يكفي".

كيف يمكنها ذلك وهي تنفق مالها على الملابس والمجوهرات والتسلية وسيارتها الفخمة؟ حاولت أن أصرف تلك المشاعر جانباً ولأذكر نفسي أنها قد ساعدتني أيضاً على دفع ثمن هذا المنزل وعلى سداد أجور تعليم جوي...

فقال فيرن: "أنا أملك مالاً. أحضرا لي بعض القوارب، الكثير من القوارب".

نظرت وماي إلى بعضنا ولم نفهم شيئاً.

"أحضرا لي القوارب!".

سلّمته أقرب قارب طالته ورماه على الأرض، فتحطّم النموذج وظهرت من بين الحطام لفافة من الأوراق النقدية محاطة بمطاط.

قال فيرن: "إنه مالي من صندوق العائلة. أعطياني المزيد من القوارب! أعطياني المزيد!".

وسرعان ما بدأنا نحن الثلاثة بتحطيم مجموعة فيرن من السفن والطائرات وسيارات السباق على الأرض. لقد كان الرجل العجوز شحيحاً وبخيلاً، ولكنه لطالما تعامل بإنصاف مع كل أفراد العائلة.

فأعطـــى فـــورد حصته من صندوق العائلة حتى بعد أن أصبح معوّقاً. ولكن فورد على عكسنا جميعاً لم يكن ينفق ماله. واستطعت حينها أن أتذكـــر المرة الوحيدة التي رأيته فيها يصرف المال، وهي تلك المرة التي اصطحبنا فيها إلى الشاطئ في أول ميلاد أمضيناه في لوس أنجلوس.

جمعت وماي المال النقدي وعددناه على سرير فورد. فوجدت أن هناك ما يكفي لشراء تذكرة طائرة وحتى لندفع بعض الرشى إذ اقتضت الحاجة إليها.

قالت ماي: "سآتي معك. إذ لطالما أبلينا حسناً ونحن معاً".

"يجـــب أن تبقـــي هـــناك لتعتني بفـــورن والمقهـــى والمنـــزل والأسلاف...".

فـــسألت ماي قائلة: "ماذا إن عثرت على جوي ولم تسمح لك السلطات بالمغادرة؟".

إنهـــا قلقة بشأن هذا، وفورن قلق أيضاً. أما أنا فمرعوبة، ولكننا سنكون أغبياء إن لم نخف. فسمحت لنفسي بابتسامة واهنة.

"إنك ذكية جداً، لنا ستبدأين بالعمل من هنا".

وبينما كانت أختي تحاول أن تستوعب هذا، استطعت أن ألاحظ أنها تعد لائحة في ذهنها.

فقالـــت: "سأتصل بيتسي وأبيها للمرة الثانية. وسأكتب لنائب الرئيس نيكسون. فقد ساعد العديد من الناس على الخروج من الصين عندما كان عضواً في مجلس الشيوخ. وسأطلب منه أن يساعدنا".

فكـــرت في نفـــسي: لن يكون هذا سهلاً، إذ إنني لـــست مواطنة أميركـــية وليس لديّ جواز سفر. وبالإضافة إلى هذا، فنحن نتعامل مع الصين الشيوعية. ولكن وجب عليّ أن أصدق أن ماي ستعمل جاهدة لتخرجني وأخرج جوي من الصين لأنها أخرجتنا من هناك من قبل.

قلت لها بصوت ثابت العزيمة: "لقد أمضيت إحدى وعشرين سنة من عمري في الصين، وعشرين سنة أخرى في لوس أنجلوس، ولكنني لا أشعر أنني ذاهبة إلى الوطن بل أشعر أنني أفقد وطني. إنني أعتمد عليك، وأرجـــو أن تحرصـــي على أن يكون لديّ ولدى جوي شيء نعود من أجله".

في الـــيوم التالي، أخذت وثيقة الهوية التي أعطوني إياها في جزيرة آينجل، والملابس الريفية التي أحضرتها لي ماي لأرتديها وأنا خارجة من الـــصين، وصـــور سام لشنجي الشجاعة، وصور جوي لأريها للناس الذين أقابلهم. وبعد ذلك، وقفت أمام الطاولة التي وضعت عليها صور أفـــراد العائلـــة وودّعت سام والآخرين. وتذكّرت شيئاً قالته ماي قبل بـــضع ســـنوات: "كـــل شيء يعود دائماً إلى بدايته". وفهمت أخيراً ما تقـــصده بكلامها. وها أنا الآن على وشك بدء رحلتي الجديدة. سنظل نرتكب الأخطاء، ولكننا سنمنح الفرصة لإصلاحها. قبل عشرين عاماً، فقـــدت أمي ونحن نهرب من الصين. والآن، سأعود إلى الصين وأنا لم أصـــحح الكـــثير من الأمور. فتحت الصندوق الذي وضع فيه سام الكـــيس الصغير الذي أعطتني إياه أمي، ووضعته كقلادة حول عنقي، فقـــد حمـــاني في سفري من قبل. وآمل أن الكيس الذي أعطت ماي جوي إياه عندما ذهبت إلى الكلية يحميها الآن.

ودّعت الروح القنّ وشكرته. ثم أوصلتني ماي إلى المطار. وبينما كنت أمر بأشجار النخيل وأتأملها من النافذة، راجعت الخطة في ذهني: ســـأذهب إلى هونـــغ كونغ وأرتدي ملابـــسي الريفية وأعبر الحدود إلى الـــصين. وبعد ذلك، سأتوجه إلى قرية عائلة لوي وعائلة تشين - فلقد سمعت جوي عن كلتا القريتين - لأحرص على أنها ليـــست هناك، ولكن قلـــب الأم كـــان يقول لي إنها ليست هناك. فلا بد من أنها ذهبت إلى

شقيقتي لتعثر على والدها الحقيقي وتكتشف حقيقة أمها وخالتها، ولكني سأكون خلفها تماماً. كنت أخشى القتل بالطبع، ولكنني كنت خائفة أكثر على كل الأشياء التي لا يزال من الممكن أن نخسرها.

ألقيت نظرة خاطفة على أختي التي جلست خلف مقود السيارة بسرعة وإصرار. فتذكرت تلك النظرة على وجهها وهي طفلة حديثة المشي. وتذكّرتها عندما خبأت مالنا ومجوهرات أمي في قارب الصياد. لا يزال علينا أن نقول الكثير لتصحيح الأمور بيننا. ولكن، ستبقى هنالك أشياء لن أستطيع أبداً أن أسامحها عليها، وأمور يجب عليّ أن أعتذر منها لأجلها. إنني أعلم يقيناً أنها محطمة حيال كيفية شعوري لتواجدي هنا في أميركا. إذ ربما لا تكون وثائق إقامتي قانونية، ولكنني مواطنة أميركية بعد السنوات كلها التي عشتها هنا. ولست مضطرة إلى التخلي عن هذا الحق بالرغم من كل شيء عانيته. لقد حصلت على جنسيتي بالكفاح والجهد وحصلت عليها من أجل حريتي.

عندما وصلنا إلى المطار، أوصلتني ماي إلى البوابة، ثم قالت: "إنني عاجزة عن الاعتذار بما فيه الكفاية من أجل ما حدث لسام. ولكن، من فضلك اعلمي أنني كنت أحاول أن أساعدكما". عانقنا بعضنا، ولكننا لم نذرف أي دموع. فبعد كل شيء مريع فقدناه وفعلناه، لا تزال ماي أختي. وبعد أن يموت الآباء والأمهات ولكبر البنات ويتزوجن، تبقى الشقيقات معاً مدى الحياة. إنها الشخص الوحيد الذي بقي لي في هذا العالم ليشاركني الذكريات حول طفولتنا ووالدينا وشنغهاي ومصاعبنا وأحزاننا ولحظات سعادتنا وانتصاراتنا. وستظل وحدها من تعرفني حق المعرفة كما أعرفها. قالت لي ماي في آخر لحظات لنا معاً: "ستظل تحظى بحبنا الأخوي حتى بعد أن يشيب شعرنا".

وبينما كنت أصعد إلى متن الطائرة، تساءلت إن كان هناك أي شيء أستطيع أن أغيره. وتمنيت لو أنني فعلت كل شيء بشكل مختلف بالرغم من أنني واثقة من أن كل شيء سينتهي كما انتهى عليه، فهذا هو معنى القدر. ولكن، إن كان للقدر لبعض الأشياء أن تحدث، ولبعض الأشخاص أن يكونوا أسعد حظاً من غيرهم، إذاً، يجب عليّ أن أصدق أنني لم أعثر على مصيري بعد. لأنني نوعاً ما وبطريقة ما سأعثر على جوي وسأعيدها إلى وطنها بين أحضاني وأحضان أمي.